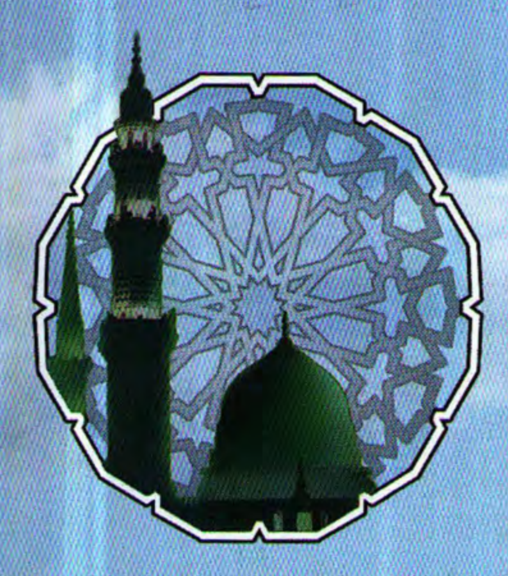
الإعجاز العلمي في السنة النبوية

أ.د. زغلول النجار

دار نهضة مصر للنشر

الإعجاز العلمي في السنة النبوية



أ. د. زغلول راغب محمد النجار
أستاذ علوم الأرض وزميل الأكاديمية الإسلامية للعلوم
رئيس لجنة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم
بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية
جمهورية مصر العربية



العنـــوان:

الإعجـاز العلمـي فـي السنـة النبويـة

المؤلــف:

أ. د. زغلول راغب محمد النجار

إشراف عام:

داليا محمد إبراهيم

الترقيم الدولي: 977-14-3822-0
رقم الإيـداع: 2006/22865
الطبعة الخامسة: إبريـل 2012



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

تليفـون: 33466434 - 33472864 02
فاكـس: 33462576 02
خدمة العملاء: 16766
Website: www.nahdetmisr.com
E-mail: publishing@nahdetmisr.com

21 شارع أحمد عرابي - المهندسين - الجيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونثني عليه الخير كله، ونصلي ونسلم على أنبياء الله ورسله أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونخص منهم بأفضل الصلاة وأزكى التسليم: خاتمهم أجمعين: سيدنا محمدًا النبي الأمين الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الناس كافة، وجاهد في سبيل الله حتى أتاه اليقين، فنسأل الله - تعالى - أن يجزيه خير ما جازى به نبيًا عن أمته، ورسولاً على حسن أداء رسالته، وأن يؤتيه الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة من الجنة، وأن يبعثه المقام المحمود الذي وعده، إن ربي لا يخلف الميعاد.. آمين.

وبعد

فمن أسس الإسلام العظيم: **العقيدة الصحيحة، والعبادة السليمة، وحسن الخلق، وحسن المعاملة**. والعقيدة الصحيحة قوامها: الإيمان بالله، وبملائكته، وكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره. والعبادة السليمة لابد أن تكون بيانًا ربانيًا خالصًا لا يداخله أدنى قدر من التصورات البشرية. والأخلاق والمعاملات هي ضوابط للسلوك. والتاريخ يؤكد عجز الإنسان عن وضع ضوابط لسلوكه، ومن هنا كانت ضرورة الوحي بالدين؛ لأن هذه القضايا تقع إما في إطار الغيب المطلق الذي يحتاج الإنسان فيه إلى بيان من الله - تعالى - كمجال العقيدة، أو تقع في مجال الأوامر الربانية الخالصة كقضية العبادة، أو تقع في مجال ضوابط السلوك من مثل دساتير الأخلاق، وفقه المعاملات، وكلها من ركائز الدين.

والإيمان بالله - تعالى - يقتضي التسليم له وحده بالألوهية، والربوبية، والوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه - بغير شريك، ولاشبيه، ولامنازع، ولاصاحبة، ولاولد - وهو التوحيد الخالص، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18].

والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي التسليم بوحدة الدين، فكما أن إلهنا واحد فلابد أن تكون هدايته للبشرية واحدة، وهي حقيقة يقررها ربنا - تبارك وتعالى - بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران: 19].

وقوله (عز من قائل): ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: 85].

والإسلام العظيم علمه ربنا - سبحانه وتعالى - لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وعلم آدم بنيه، وكلما عاش الإنسان بهذا الهدى الرباني عاش سعيدًا، محققًا رسالته في هذه الحياة الدنيا عبدًا لله (الواحد الأحد)، يعبد ربه - تعالى - بما أمر، ويجتهد في حسن القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض، وذلك بعمارتها وإقامة شرع الله فيها، حتى يلقى الله - تعالى - وهو راضٍ عنه.

ولكن الإنسان فيه ميل للنسيان، وفي داخل نفسه صراع بين الحق والباطل، وهو معرض لوساوس الشيطان، وللإغواء المستمر بالخروج على منهج الله. ومع النسيان، والصراع، والإغواء تفقد المجتمعات الإنسانية نور الهداية الربانية ممثلة في الدين الذي شرعه الله - تعالى - لعباده، وهو الإسلام العظيم. وذلك بانحراف البشرية عنه، مع بقاء أصوله، أو بضياع الأصول بالكامل أو بالانصراف عنه. وبفقدان الدين، أو بتحريفه وتبديله تفقد تلك المجتمعات الإنسانية سعادتها، وتهبط في دياجير من الظلم والظلام الذي يشقيها ويتعسها، ويشقى جميع من على سطح الأرض من حولها!

ويبقى الحال كذلك حتى يَمُنَّ الله – تعالى – على البشرية بنبي جديد يردها إلى دين الله إذا كانت أصوله لا تزال محفوظة بأيديهم أو برسول جديد يأتيهم بنفس الرسالة، ومن نفس المصدر، يَدْعوهم إلى الإسلام من جديد فيقبله من يقبله، ويرفضه من يرفضه، وما أكثر الرافضين للحق في كل زمان ومكان!!

وظل الحال كذلك؛ والإنسانية تتردد بين استقامة على منهج الله وانحراف عنه، في مد وجزر، حتى مَنَّ الله – تعالى – عليها بالنبي الخاتم والرسول الخاتم، ومعه الرسالة الخاتمة «الإسلام في كماله وتمامه»، وهي الرسالة التي تعهد الله – تبارك اسمه – بحفظها حفظًا مطلقًا، فحفظت بنفس اللغة التي أوحيت بها «اللغة العربية»، وحفظت بتفاصيلها الدقيقة كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى أربعة عشر قرنًا أو يزيد، وسوف تظل محفوظة بحفظ الله إلى ما شاء الله؛ وذلك تحقيقًا للوعد الإلهي الذي قطعه ربنا – سبحانه – على ذاته العلية، ولم يقطعه لرسالة سابقة أبدًا، فقال، – عز من قائل –: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: 9].

هذا في الوقت الذي تعرضت فيه كافة صور الوحي السابقة للضياع التام، وتعرض ما بقي عن بعضها من ذكريات لقدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها...!

ويخبرنا الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ بأن الله – تعالى – قد مَنَّ على البشرية بمائة وعشرين ألف نبي، وأن الله – سبحانه وتعالى – قد اصطفى من هذا العدد الغفير من الأنبياء ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً(*)، ولا يوجد أثر لأي من رسالاتهم اليوم سوى ما بقي من ذكريات عن رسالة موسى عليه السلام، وقد تعرضت إلى قدر من التحريف الشديد على أيدي أحبار اليهود، وتكفي في ذلك الإشارة إلى أن هذه الأخبار المجموعة الآن فيما يطلق عليه اسم الأسفار الخمسة الأولى من «العهد القديم» لم تدون إلا بعد وفاة موسى عليه السلام بأكثر من ثمانية قرون، وأنها قد دونت بلغات غير لغة الوحي بها، ثم أضيف إليها العديد

(*) روى الإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال ﷺ : «آدم...» قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: «نعم نبي مكلم...» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: «ثلاثمائة وبضعة عشر جمًّا غفيرًا»، وفي رواية أبي أمامة قال أبو ذر: قلت: يا رسول الله، كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا» [رواه أحمد].

من الأسفار المنحولة، والقصص المكذوبة، والمسماة بأسماء عدد من الرجال والنساء، منهم من هم ليسوا برسل ولا بأنبياء؛ وذلك ليشتري بها أحبار اليهود ثمنًا قليلاً كما وصفهم القرآن الكريم بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: 79].

ويؤكد ربنا هذا المعنى بقوله - عز من قائل - : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَـٰبِ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّـٰعِنُونَ﴾ [البقرة: 159].

وبالمثل، فإن ما بقى من ذكريات عن رسالة نبي الله عيسي عليه السلام، كُتب بعد رفعه بأكثر من قرن من الزمان على أقل تقدير، وكتب بأيدي أناس عديدين من المجهولين، ليسوا بأنبياء ولا مرسلين، فلا يعرف منهم نبي واحد ولا رسول واحد - وكتبت هذه المذكرات في أماكن متفرقة من الأرض، وفي أزمنة متباعدة وبأساليب متعددة متباينة، وبلغات مختلفة، ثم جمعت بأيدي أناس من المجهولين أيضًا، ولا تزال تُعدل إلى يومنا هذا؛ بين حذف وإضافة، وتغيير وتبديل، وترجمات متعارضة، واختلافات فارقة، ومراجعات متعددة، وانحراف واضح!

من هنا يتضح لنا أن تَعَهُّدَ ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة مردُّه إلى العدل الإلهي الذي يقتضي ألا يعذب الله - سبحانه - عبدًا من عباده بغير إنذار كافٍ، وفي ذلك يقول - عز من قائل - : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15].

ولما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين، ولما كانت رسالته قد تكاملت فيها كل رسالات السماء السابقة، فختمت برسالته كل الرسالات، وببعثته كل النبوات، وانقطع وحي السماء، كان لا بد من حفظ هذه الرسالة الخاتمة وإلا ما تحقق وعد الله ألا يعذب عبدًا إلا بإنذار، وبإرسال رسول.

وببقاء رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم محفوظة بحفظ الله فكأنه لايزال قائمًا بيننا، بشيرًا ونذيرًا، يأمرنا بأوامر الله - سبحانه وتعالى - وينهانا عن نواهيه.

وكما سبق أن أشرنا فإن رسالات السماء هي هداية من **الله** – تعالى – للإنسان في القضايا التي لا يستطيع الإنسان أن يضع لنفسه فيها أية تصورات أو ضوابط صحيحة، وذلك إما لوقوعها في دائرة الغيب المطلق الذي لا سبيل للإنسان في الوصول إليه إلا عن طريق وحي السماء – من مثل قضايا العقيدة – أو لكونها في دائرة الأوامر الإلهية المطلقة أو النبوية المحددة، والتي لا سبيل للإنسان في الوصول إليها إلا عن طريق الرسل والأنبياء – وذلك من مثل قضايا العبادة – أو لتركزها في دائرة ضوابط السلوك التي يعجز الإنسان دومًا عن وضع ضوابط صحيحة لنفسه فيها، وذلك من مثل دستور الأخلاق وفقه المعاملات، وهذه كلها من القضايا التي إذا خاض فيها الإنسان بغير هداية ربانية خالصة فإنه يضل ضلالاً بعيدًا.

والذي يتأمل هذه القضايا في كتاب **الله** – سبحانه وتعالى – أو في سنة رسوله ﷺ يجدها واضحة الدلالة على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام **الله** الخالق، ومؤكدة أن النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي تلقى القرآن الكريم كان موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض.

من هنا كان القرآن الكريم، وكانت سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – بما فيهما من عقيدة صحيحة، وعبادة منطقية سليمة، ودعوة إلى مكارم الأخلاق وطيب المعاملات ونبل السلوك – كافيَيْن لدعوة كل ذي عقل سَوِيٍّ إلى دين **الله** الذي لايرتضي ربنا – تبارك وتعالى – من عباده دينًا سواه.

ولكن **الله** – تعالى – يعلم (بعلمه المحيط بكل شيء) أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى مرحلة كالتي نعيشها اليوم، يتجمع له فيها من المعارف بالكون، ومكوناته، وظواهره، وسننه، ما لم يتوافر لجيل من الأجيال من قبل؛ فينبهر الإنسان باكتشافاته العلمية، وتطبيقاتها التقنية، انبهارًا يغمسه في أمور الدنيا إلى آذانه، ويصرفه عن أمور الدين، وركائزه، وأركانه، أو يشغله عنها حتى يتجاهلها تمامًا، أو ينكرها بالكامل، كما هو حادث في غالبية المجتمعات غير المسلمة التي ركبها الزهو والغرور بإنجازاتها العلمية والتقنية،

فنسيت الله - تعالى - ونسيت الموت، وحساب القبر، وهول كلٍّ من البعث، والحشر، والعرض الأكبر أمام الله، كما نسيت الحساب والميزان والصراط، ونسيت الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبدًا وإما في النار أبدًا، فضلت وأضلت، وهبطت في سلوكياتها الاجتماعية إلى ما دون الحيوانية، وهددت مصير البشرية كلها بما تملكه من أسلحة وتقنيات الدمار الشامل؛ ولذلك أبقى ربنا (الحكيم الخبير) في محكم كتابه، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من حقائق الكون، ما يمكن أن يقيم على إنسان اليوم الحجة البالغة بالمنطق العلمي، الذي يتباهى به، ويثبت لكل ذي بصيرة أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي يجب ألا يعبد سواه، وأن هذا الرسول الخاتم الذي تلقى القرآن الكريم كان موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وهذا وحده مما يحرك القلوب الواعية، والنفوس السوية، ويدعو العقول المنصفة إلى قبول دين الله الذي لايرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينًا سواه، فيعود الناس - وفي مقدمتهم أهل العلوم البحتة والتطبيقية - مرة أخرى إلى الله، مسلِّمين بحقائق الغيب التي بدأت الحضارة المادية المعاصرة بإنكارها، وانتهت بحوثها العلمية إلى إقرارها والتسليم بصدقها!

وعلى ذلك، فإن من الأسرار المكنونة في كتاب الله (القرآن الكريم)، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ تلك الإشارات الكثيرة إلى الكون وإلى عدد من مكوناته، وظواهره، وسننه، والتي جاءت في أكثر من ألف آية صريحة من آيات القرآن الكريم، وفي العديد من أقوال المصطفى ﷺ .

ونحن إذ نسلم بأن هذه الإشارات الكونية لم تَرِدْ لنا من قبيل الإخبار العلمي المباشر؛ لأن الكسب العلمي قد ترك لاجتهاد الإنسان جيلاً بعد جيل، نؤكد أن تلك الإشارات الكونية جاءت كلها في مقام الاستدلال على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، وفي تأكيد أن الذي أبدع هذا الخلق قادر على إفنائه، وعلى إعادة خلقه من جديد، وقد كانت قضايا الخلق والبعث - ولا تزال - معضلة العقول القاصرة، والقلوب الغافلة، وحجتهم في إنكار الخالق وجحوده - سبحانه وتعالى - وفي رفض ما أنزل من الدِّين!!

وعلى ذلك فإن هذه الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتضمنة لبعض الإشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره جاءت في مقام الاستدلال على الألوهية والربوبية والوحدانية المطلقة لله الخالق الذي خلق جميع خلقه في زوجية واضحة (من اللبنات الأولية للمادة إلى الإنسان)، ليبقى - تعالى - متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه (بغير شريك، ولاشبيه، ولامنازع، ولاصاحبة، ولاولد)، كما جاءت هذه الإشارات الكونية لإثبات صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ وجاءت كذلك في سياق تنبيه المسلمين إلى أهمية التعرف على خلق الله، واستقراء سننه في الكون، وتوظيفها في عمارة الأرض وفي حسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها.

ومع هذا التسليم والإقرار بأن الإشارات الكونية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ هي بيان من الله الخالق، ووحي أوحاه إلى خاتم أنبيائه ورسله، فلابد أن تكون حقًا مطلقًا، ولو أن علماء المسلمين اهتموا بتحقيق تلك الإشارات الكونية تحقيقًا علميًا دقيقًا، لسبقنا غيرنا من الأمم بقرون عديدة في الوصول إلى العديد من الحقائق العلمية الكبرى.

ولو أن المسلمين - حتى بعد أخذ هذه الحقائق عن غيرهم - قاموا بالبحث عنها في كتاب الله، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله، وبتقديمها إلى الناس في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه كوثيقة مادية ملزمة على ربانية القرآن الكريم، وعلى صدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين، لكانت من أنجح وسائل الدعوة إلى هذا الدين الخاتم الذي بُعث به النبي الخاتم ﷺ والذي لايرتضي ربنا - تبارك وتعالى - من عباده دينًا سواه .. ولكان في تلك الإشارات الكونية تثبيتٌ للمؤمنين على إيمانهم، وهداية للضالين التائهين من الكفار والمشركين، وما أكثرهم في زماننا، وما أخطرهم على مجتمعاتنا في زمن الضياع الذي يعيشه إنسان اليوم...! والذي ينكر غالبية الناس فيه أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية، في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه حفظًا كاملاً على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد بهذا الحفظ تعهدًا مطلقًا حتى

يبقى القرآن الكريم شاهدًا على جميع الخلق إلى قيام الساعة بأنه كلام الله، وشاهدًا للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. وغالبية الناس في هذا الزمن ينكرون نبوة سيدنا محمد ﷺ ورسالته، مع اعتراف الكثيرين منهم بأثره البالغ في حياة البلايين من البشر، ولكنهم ينسبون ذلك زورًا إلى نبوغه وعبقريته، لا إلى نبوته وهداية ربه واتصاله بوحي السماء.

ومصادر الدين الإسلامي هي القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة التي عنيت بشرح قواعد الدين التي أنزلها الله – تعالى – في محكم كتابه، وبشرح كيفيات تطبيقها تطبيقًا عمليًا في واقع الناس، وتفصيلها وتثبيتها، ومن هنا كانت العناية بالسنة ضرورة من ضرورات الدين، ولازمة من لوازمه، وكان الاسترشاد بأحكامها في كثير من الأمور التي أجملها القرآن الكريم من العوامل المساعدة في تفسير آيات هذا الكتاب المجيد؛ ولذلك حرص علماء الإسلام على جمع السنة النبوية، وتمحيصها تمحيصًا دقيقًا، وتبويبها، وشرحها، وعملوا على صيانتها، وحفظها بمختلف وسائل الحفظ كمصدر مهم من مصادر هذا الدين الخاتم.

وقد اعتنى كل من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة بركائز الدين من العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والمعاملات، وكل ركيزة من هذه الركائز إذا درست بشيء من الموضوعية والحيدة فإنها تثبت لكل ذي بصيرة أن كلاً من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، معجز في بيانه، ونظمه، معجز في تشريعه وعدله، وفي خطابه للنفس الإنسانية، وفي قدرته على تربيتها التربية الصحيحة، ومعجز في تفاصيل العقيدة التي يدعو إليها، والعبادة التي يأمر بها، والأخلاق التي يؤكد ضرورة الالتزام بمكارمها، والمعاملات التي يحدد دساتيرها. كما أن كلاً منهما معجز في سرده لقصص عدد من الأمم السابقة، والأحداث الغابرة، وفي إنبائه بالعديد من الأمور المستقبلية التي تحقَّق بعضها بالفعل. وكل ذلك يشهد للقرآن الكريم بأنه لايمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، كما يشهد للنبي الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان دومًا موصولاً بالوحي ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض؛ ولذلك يصفه ربنا – تبارك وتعالى – بأنه ﷺ ما كان ينطق عن الهوى.

والدقة الفائقة في سرد جوانب من قصص الأمم السابقة في كل من القرآن الكريم، وأقوال النبي الخاتم ﷺ وفي إنبائهما بالعديد من أمور الغيب المرحلي والمطلق، وفي خطابهما إلى النفس الإنسانية؛ مما يؤكد هذه الحقيقة، وتأتي الإشارات الكونية بالإضافة إلى ركائز الدين داعمة لهذا التأكيد بأسلوب العصر ولغته.

ونحن في محاولاتنا لتفسير الإشارات الكونية الواردة في كل من القرآن الكريم، وأحاديث رسول الله ﷺ نحتاج إلى فهم النص أولاً فهمًا دقيقًا في إطار اللغة العربية، ودلالات ألفاظها، وأساليب التعبير فيها، وفي ضوء أسباب النزول أو سياق الحديث النبوي الشريف، وأسباب وروده، وفي أنوار النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الأخرى المتعلقة بنفس الموضوع، وفي إطار المبادئ العامة والمقاصد الكلية للإسلام، بالإضافة إلى توظيف كل قطعي وثابت من المعارف العلمية الحديثة في المجال الذي تتحدث عنه الآية القرآنية الكريمة أو يشير إليه الحديث النبوي الشريف.

وإبراز السبق القرآني والنبوي لكل المعارف الإنسانية المكتسبة بعدد متطاول من القرون بالإشارة إلى عدد من حقائق الكون وأسراره وظواهره وسننه، مع دقة علمية في التعبير، وشمول وإحاطة في الدلالة، وإيجاز، يعتبر ضربًا من الإعجاز، يجعل تلك الإشارات الكونية وسيلة من أفضل وسائل الدعوة إلى دين الله في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، والذي يتعرض فيه الإسلام والمسلمون إلى هجمة همجية، كافرة، شرسة، مدعومة بكل وسائل التفوق المادي، ولكنها تفتقر إلى أبسط القيم الإنسانية، وأقل الضوابط الأخلاقية والسلوكية الصحيحة!!

وليس بغائب عن الأذهان ما تنشره وسائل الإعلام الكافر ضد الإسلام ونبيه وكتابه ورموزه القديمة والحديثة من أكاذيب من أمثال ما يبثه شيطان من شياطين الأرض اسمه «زكريا بطرس» في قناة للموت يسميها كذبًا باسم «قناة الحياة»، وما يضعه هو وأمثاله من الشياطين على شبكة المعلومات الدولية من افتراءات لا أساس لها من الصحة.

وليس بغائب عن الأذهان ما فعلته جريدة «يولاندس بوستن» (Jyllands Posten) الدنماركية في 30 سبتمبر 2005م من نشر إساءات بالغة لشخص رسول الله ﷺ

في شكل العديد من الرسومات الهزلية المسيئة التي نقلها عنها العديد من وسائل الإعلام الغربية، وهي الجريدة التي سبق لها أن رفضت مثل هذه الرسوم عن المحرقة اليهودية أو عن شخص السيد المسيح عليه السلام، وحين عوتبت الجريدة على ذلك تذرعت بحرية التعبير، وحين طلب عدد من سفراء الدول الإسلامية مقابلة رئيس وزراء الدنمارك «أندرياس راسموسن» لمناقشة الأمر رفض بغطرسة وكبر وعدم لياقة الاستجابة لهذا الطلب في الوقت الذي استقبل فيه كاتبة صومالية مغمورة لمجرد أنها أعلنت عن قيامها بكتابة سيناريو لفيلم سينمائي يهاجم رسول الله ﷺ تحت رعاية «أندرياس راسموسن» شخصيًا.

وحين قامت بعض الدول الإسلامية بسحب سفرائها في الدنمارك وبإعلان المقاطعة الاقتصادية، ركع عبدة المال بسلسلة من الاعتذارات الملتوية المليئة بالكبر والغطرسة في محاولة لاسترضاء الجماهير الغاضبة من أبناء المسلمين.

وليس بغائب عن الأذهان تلك المسرحية الحقيرة التي جاءت تحت عنوان: «كنت أعمى» والتي حاول فيها عدد من شياطين إحدى كنائس الإسكندرية (في حي محرم بك) النيل من الإسلام العظيم ومن القرآن الكريم، وحين طلب منهم الاعتذار عن إساءاتهم رفضوا على جميع مستوياتهم، وقد أخطئوا في حق دين لا يؤمنون به، ولايمكن لهم أن يفهموه لحكم ربنا - تبارك وتعالى - عليهم بقوله الحق: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا * وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: 57، 58].

وليس بغائب عن الأذهان ما تنشره الصحافة الصهيونية/الصليبية في الوطن العربي وفي خارجه من أمثال مجلة «الكتيبة الطيبية» التي تصدر في مصر، وما يدور في العديد من الكنائس في داخل مصر وفي داخل غيرها من الدول الإسلامية وغير المسلمة من محاولات للنيل من رموز الإسلام بتلفيق الأفلام الحقيرة المزورة عليهم، وما لا يمكن أن يفسر بأنه يمكن أن يكون من أعمال رجال يخدمون معتقدًا من المعتقدات.

وليس بغائب عن الأذهان ما جرى – ولا يزال يجري – من حروب صهيونية/ صليبية حاقدة على أراضي كل من فلسطين، والبلقان، والعراق، وأفغانستان، وكشمير، والشيشان، والفلبين، وتايلاند، وأراكان، والصومال، والسودان، ولبنان وعلى غيرها من أراضي المسلمين.

فمنذ أن انتهت الحروب الصليبية بهزيمة جيوش الغرب المعتدية على أرض فلسطين، واندحار الغزاة المعتدين أمام جحافل الجيش الإسلامي على هذه الأرض العربية الإسلامية المباركة، انصبَّ تفكير الغربيين على ضرورة الانتقام من المسلمين باحتلال المزيد من أراضيهم، وإسقاط دولة خلافتهم ورمز وحدتهم، وبالعمل على تفتيت هذه الوحدة والحيلولة دون رجوعها، بفرض الدساتير الوضعية، وأنماط الحكم المتعارضة، وبإثارة الخلافات الحدودية، والعصبيات المذهبية والعرقية والفكرية، والدينية، وبإقصاء الإسلام كلية عن دوائر اتخاذ القرار، وتجريمه وتجريحه في كافة وسائل الإعلام، ثم بمحاولة دراسته ونقده من أجل تشويهه وتحريف مقاصده.

وفي هذا الجو المليء بالكراهية، والتعصب الأعمى ضد الإسلام وأهله ظهرت مدارس الاستشراق التي كرست جهودها في دراسة الإسلام، والحضارة الإسلامية، وتاريخ، وعادات، وسلوكيات المسلمين من أجل إيجاد ثغرات للهجوم عليهم منها، وطبيعي أن تأتي هذه الدراسات في غالبيتها بنتائج أبعد ما تكون عن الإنصاف، وعن الموضوعية والحيدة العلمية؛ وذلك لأن جميع الحركات الاستشراقية كانت في نشأتها الأولى مرتبطة بأجهزة الاستخبارات الصهيونية/ الصليبية، ومنبثقة عنها، ومثلت طلائع للاحتلال الأجنبي لأراضي المسلمين؛ لذلك جاءت أعمال المستشرقين غالبًا مشوبة بكثير من التزوير والتزييف والتحريف النابع عن مشاعر الكراهية والحقد، ونزعات الغرور والاستعلاء الكاذب...!

وفي هذه الحروب الكلامية حاول المستشرقون التهجم على القرآن الكريم، وعندما فشلوا في ذلك، وارتدت أسلحتهم إلى صدورهم، وجهوا سهامهم إلى السنة النبوية المطهرة في حملة تشكيكية منظمة، كانت دعواهم فيها أن السنة لم تُدَوَّن على عهد رسول الله ﷺ لنهيه – صلوات الله وسلامه عليه – عن ذلك؛ حتى

لا يختلط شيء من السنة بتدوين القرآن الكريم، وأن الوضَّاعين الذين لم يستطيعوا الدس على القرآن الكريم لكثرة حُفَّاظِه قد وجدوا لهم ثغرة في أقوال رسول الله ﷺ لقلة حُفَّاظِها، وذلك لانشغال أغلب المسلمين بحفظ القرآن الكريم أولاً. ونسي هؤلاء أن جبريل عليه السلام كان يتنزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما يتنزل بالقرآن الكريم ولذلك قال رسول الله ﷺ: «.. **ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه..**» [1].

وهؤلاء النفر من شياطين المستشرقين يعلمون جيدًا أن السنة النبوية الشريفة هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، وهي الصلة الوثيقة بين أجيال الأمة الإسلامية من جهة، وبين نبيها ورسولها الخاتم ﷺ من جهة أخرى، وهو إمام الأنبياء والمرسلين، وأن قطع هذه الصلة بالتشكيك في سنة هذا الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ يمثل تشكيكًا في الإسلام، وهدمًا لركن أساسي من أركانه!

وعلى الرغم من وضوح الهدف من وراء هذه الهجمة الاستشراقية المغرضة والمتسترة زورًا برداء البحث العلمي؛ لتخفي كمًّا هائلاً من الكراهية والحقد، والتعصب للباطل ضد الحق، والداعية زورًا وبغير أدنى دليل مادي إلى التشكيك في حجية السنة النبوية الشريفة، وفي مصداقية رواتها، وجامعيها، وشراحها، وأغلبهم من كرام الصحابة والتابعين، وتابعي التابعين ومن بعدهم، أملاً في إغراء المسلمين بالإعراض عن سنة نبيهم كوسيلة من وسائل هدم هذا الدين الخاتم– فإن نفرًا من أبناء المسلمين قد انساق وراء هذه الصيحات الشيطانية المنكرة، والمؤامرات الحاقدة الماكرة، فنادى بأن الدين جاء في القرآن الكريم لأنه متواتر، وفي السنة العملية؛ لأنها من حيث العمل بها في تواصل أصبحت تحقق صفة التواتر، أما عن السنة القولية فلا يلزم العمل بها.. وفي هذا الادعاء الباطل افتراءٌ على رسول الله ﷺ وعلى سنته، ومعارضة صريحة لأقواله الشريفة وذلك من مثل قوله ﷺ: «.. **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين، عَضُّوا عليها بالنواجذ..**» [2].

---

(1) أبو داود (4604)، وأحمد (16722).

(2) الترمذي (2676)، وأبو داود (4607)، وابن ماجه (42، 44)، وأحمد (16692).

وقوله: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه». يعني بذلك السنة، والسنة تأتيه ﷺ بالوحي كما يأتيه القرآن الكريم، إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن الكريم، والسنة تفسر القرآن وتبينه؛ ولذلك اتفق علماء الإسلام على أن الأخذ بالسنة واجب، والعمل بها حتم، وتحكيمها فرض على جميع المسلمين.

وفي الادعاء الباطل بعدم حجية السنة القولية مخالفة صريحة لأوامر الله - تبارك وتعالى - لقوله - عز من قائل -: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7].

■ ولما كانت مصادر التشريع الإسلامي تتلخص في القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والإجماع والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، قال ربنا - تبارك وتعالى - مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44].

وقال - تعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2].

■ ولما كانت السنة هي كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سيرة، سواء كان ذلك قبل البعثة الشريفة أو بعدها.

■ ولما كانت طاعة رسول الله ﷺ واجبة بنص القرآن الكريم الذي يقول الحق - تبارك وتعالى - فيه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: 132].

ويقول - وهو أصدق القائلين-: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: 54].

ويقول -تعالى- في نفس السورة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: 56].

■ ولما كان ربنا – تبارك وتعالى – قد قرن طاعة الرسول ﷺ بطاعته في عدد غير قليل من آيات القرآن الكريم، واعتبر مخالفة ذلك كفرًا، فقال – عز من قائل –: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32].

وقال – تبارك اسمه –:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: 24].

■ ولما كان القرآن الكريم يعتبر اتِّباع رسول الله ﷺ طاعة وحبًّا لله وسببًا في حب الله لعباده ومغفرة لذنوبهم، حيث يقول على لسان المصطفى ﷺ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:31].

■ ولما كان القرآن الكريم يحذر من مخالفة أوامر رسول الله ﷺ بالوقوع في الفتنة أو في العذاب الأليم، وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

■ ولما كان القرآن الكريم يحرم على المؤمنين مخالفة حكم رسول الله ﷺ أو عصيان أوامره فيقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

■ ولما كان القرآن الكريم ينفي الإيمان عن الذين يُعْرِضُون عن تحكيم الرسول ﷺ في مواطن الخلاف بينهم فيقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

■ ولما كان القرآن الكريم يؤكد أن السمع والطاعة لله وللرسول ﷺ هما من صفات المؤمنين ومن لوازم الفلاح في الدنيا والآخرة فيقول:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

ولذلك قال ربنا – تبارك وتعالى – محذرًا من معصية الناس للرسول ما نصه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾ [النساء: 42].

■ ولما كان من أقوال المصطفى ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي**»[1]. ويقول ﷺ: «**عليكم بالسمع والطاعة وإن كان عبدًا حبشيًا، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة**»[2].

■ وقيل لرسول الله ﷺ في عام سنة (أي جدب): سَعِّر لنا يا رسول الله (أي ثَمِّنْ لنا لكل سلعة). قال: «**لا يسألني الله عن سُنَّة أحدثتها فيكم لم يأمرني بها، ولكن اسألوا الله من فضله**»[3]؛ مما يدل على أن السنة تأتيه بوحي من الله، تعالى.

■ ويقول ﷺ: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أَبَى**». قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال ﷺ: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أَبَى**»[4].

■ ويقول ﷺ: «**نضَّر الله امرأ سمع منَّا شيئًا فبلَّغه كما سمع، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**»[5].

■ وقد حذر ﷺ من الكذب عليه تحذيرًا شديدًا فقال: «**إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، ومن كذب عَلَيَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[6].

لذلك كله حرص الصحابة – عليهم رضوان الله – على نقل أخبار رسول الله ﷺ بدقة بالغة على اعتبار أقواله وأفعاله وتقريراته أحكامًا شرعية لا يختلفون عليها، بل يسلمون بها تسليمًا مطلقًا، ويتَّبعونها اتِّباعًا تامًّا، ويلزمون أنفسهم بها إلزامًا

(1) مالك (1661)، والبيهقي (20833).
(2) الترمذي (2676)، وأبو داود (4607)، وابن ماجه (42، 44)، وأحمد (16692).
(3) أخرجه كل من الطبراني وأبي داود، والترمذي (1362)، وابن ماجه، وأحمد.
(4) البخاري (7280)، وأحمد (8511).
(5) الترمذي (2657)، والدارمي (230).
(6) البخاري (1291)، ومسلم (4).

كاملاً، ومن هنا فقد حرصوا على حفظها، وتناقل نصوصها نقلاً متواترًا، كما حرصوا على تدوينها في حياة المصطفى ﷺ وبعد مماته، على الرغم من حرصه الشديد ﷺ على القرآن الكريم وتدوينه قبل كل شيء فقال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عنِّي غير القرآن فليمحه**»(1). إلا أن النهي هنا كان خاصًا بمن لا يؤمَن عليه الغلط والخلط بين القرآن والسنة، وأن هذا الحديث قد نسخ بقول المصطفى ﷺ لعبد الله بن عمرو: «**اكتب عني فوالذي نفسي بيده ما خرج من فمي إلا الحق**»(2).

وعلى الرغم من ذلك كله فقد حمل أعداء الإسلام على السنة النبوية المطهرة وهاجموها وشككوا في حجيتها، وفي صدق جامعيها ورواتها من أعلام الصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

ومن المؤسف حقًا أن يتبع أعداءَ الإسلام في ذلك نَفَرٌ من أبناء المسلمين الذين فُتنوا بالحضارة الغربية فتنة كبيرة، وانخدعوا بمناهج المستشرقين والمؤرخين الغربيين، وهي مناهج كاذبة؛ لجهلهم بحقائق الإسلام وتراثه؛ ولانطلاقهم من محاضن أجهزة الاستخبارات المتعددة؛ ولحقدهم الدفين على الإسلام والمسلمين؛ ولتعصبهم الأعمى وغرورهم واستعلائهم على معرفة الحق؛ ولجهلهم بدين الإسلام، وبأصوله، ومصادره، مع شيء من الكبر وقسوة القلب، والعجب بالذات.

وقد تنبأ المصطفى ﷺ بظهور هذه الطائفة من منكري السنة النبوية المطهرة، فقال: «**يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته، يُحَدَّثُ بحديثى فيقول بينى وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حَرَّمْناه، وإن ما حَرَّمَ رسول الله ﷺ كما حَرَّم الله**»(3).

وفي رواية أبي داود يقول ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّمُوه...**»(4).

---

(1) مسلم (3004)، وأحمد (10701)، والدارمي (450).

(2) أبو داود (3646)، وأحمد (6474، 6763).

(3) أخرجه ابن ماجه رقم: 12.

(4) أخرجه أبو داود: (4606).

وهذا الحديث من معجزات رسول الله ﷺ الإخبارية بما سيقع في أمته من بعده، فوقع كما أخبر تمامًا؛ دليلٌ على اتصاله بوحي السماء، وعلى صدق نبوته. فقد تتابعت الأقوال الضالة على رد سنته، وذلك من القرن الهجري الأول إلى اليوم، وكان منهم من سموا أنفسهم باسم «**القرآنيين**»، والقرآن منهم براء. وقد ظهرت هذه الفرقة فى شبه القارة الهندية فى بدايات القرن الرابع عشر الهجري. تأثرًا بالفكر الاستشراقي المعادي للإسلام، وتحت مظلة الاحتلال البريطاني الذي أسَّس الحركة القاديانية الكافرة ليحارب بها الإسلام الذي استعصى عليهم، كما أسس حركة القرآنيين لنفس الغرض الحقير.

وانطلاقًا من عباءة الاحتلال البريطاني أنكر القرآنيون حجية السنة كلها، وأقاموا من الجمعيات المروجة لفكرهم ما أقاموا، وأصدروا الكتب والرسائل والمجلات، فأقام **الله** - تعالى - للرد عليهم من أهل العلم من فند دعاواهم الباطلة وأثبت خروجهم عن الملة الإسلامية بإنكارهم سنة رسول **الله** ﷺ، وقد حذر القرآن الكريم من أمثال هؤلاء بقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112].

ونحن لا ننكر محاولات نفر من الحاقدين من الكفار، والمشركين، والمنافقين، والزنادقة، والشعوبيين، في الدس على رسول **الله** ﷺ، وفي وضع بعض الأحاديث المكذوبة، كما لا ننكر أن الخلافات السياسية التي أثارها هؤلاء في أواخر خلافة كل من سيدنا عثمان رضي الله عنه، وسيدنا عليٍّ - كرم **الله** وجهه - كانت من الأسباب المشجعة على وضع الحديث، إلا أن جهود علماء المسلمين من أجل تحقيق السنة وتنقيتها من دس الوضَّاعين قد فاقت جهود التحقيق في أي مجال آخر. وقد سلك علماء الحديث من أجل تحقيق ذلك طُرُقًا في النقد والتمحيص لم يُسْبَقُوا بها من أجل تمحيص إسناد الحديث والتوثق منه، وأنشئوا من أجل ذلك من العلوم ما لم تعرفه البشرية من قبل، وذلك من مثل «**علم الجرح والتعديل**»، و«**علم مصطلح الحديث**»، وغيرهما من علوم الحديث التي فاقت خمسة وستين علمًا، وبذلك قسموا الحديث إلى **صحيح**، **وحسن**، **وضعيف**، وتمكنوا من تدوين وتحقيق كل من: السيرة، والسنة النبوية المطهرة، كما لم تدون سيرة أو يدون أو يحقق علم من

العلوم الإنسانية من قبل. وقد وضع علماء الحديث العديد من الضوابط المنطقية لمعرفة **الأحاديث الموضوعة** من مثل كتاب «الموضوعات» لابن الجوزي، وكتابي «الضعفاء» للعقيلي، و«الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي.

وردًا لهذه الدعوة الباطلة المشبوهة اهتممت بجمع أحاديث رسول **الله** ﷺ التي أشارت إلى عدد من أشياء الكون وظواهره؛ لشرح ما جاء فيها من حقائق كونية، تمت صياغتها بدقة تعبيرية فائقة، وبحكمة علمية بالغة، وسَبْقٍ بالإشارة إلى عدد من الحقائق الكونية أو الظواهر والسنن التي لم تصل إليها العلوم المكتسبة إلا منذ عقود قليلة، وقد تكلم بها المصطفى ﷺ من قبل أربعة عشر قرنًا، **وهذا السبق يؤكد جانبًا من جوانب الإعجاز في أحاديث رسول الله** ﷺ، **هو «الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة»** الذي لم يسبق أن لقي اهتمامًا كافيًا من علماء الحديث؛ لأن هذه الحقائق العلمية لم تكن متاحة لأحد من الناس في أزمنتهم، ولم تلق اهتمامًا كافيًا من المشتغلين بجوانب الإعجاز العلمي في كتاب **الله** لانشغالهم ببحار المعرفة العلمية في هذا الكتاب المجيد.

وهذا الجانب العلمي هو أحد جوانب الإعجاز العديدة في أحاديث رسول **الله** ﷺ، وهو وحده كافٍ لدحض دعاوى المبطلين، وتشكيك المشككين في صدق رواة الأحاديث، ودقة جامعيها، ولرفض الدعوة الباطلة إلى إسقاط حجيتها، مع تسليمنا بأن هناك من الأحاديث **الضعيف، والغريب، والموضوع، والمضطرب، والشاذ، والمردود، والمتروك، والمعلَّ، والمنكر وغيرها من الأحاديث التي لا يؤخذ بها**، والتي قام علماء الحديث بغربلتها غربلة دقيقة في تصانيفهم المتعددة لها.

وعلماء الحديث – بصفة عامة – وعلماء الجرح والتعديل – بصفة خاصة – قد أعطوا علم الحديث من جهدهم ما أغنانا عن الخوض في كلام دسه أعداء الإسلام على رسول **الله** ﷺ زورًا وبهتانًا، وكان علم الحديث مدرسة تعلم منها الغرب، بل العالم كله معنى التوثيق العلمي الصحيح.

وفي محاولة لعرض شيء من جوانب الإعجاز العلمي في أحاديث رسول **الله** ﷺ الذي يصفه القرآن الكريم بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3، 4]. قمت بشرح الدلالات العلمية لحوالي سبعين حديثًا من أحاديث رسول **الله** ﷺ، وصدرت في ثلاثة أجزاء متتابعة من سلسلة «الإعجاز العلمي في السنة النبوية» بدءًا من يناير 2002م إلى يناير 2006م، وقد رأيت في

كل حديث منها لمحة من لمحات الإعجاز العلمي تشهد لهذا النبي الخاتم والرسول الخاتم بالنبوة وبالرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض؛ لأنه لم يكن لأحد في زمانه، ولا لقرون متطاولة من بعده إلمام بشيء من هذه الحقائق العلمية التي أجراها الله - سبحانه وتعالى - على لسانه، ولم يكن لأحد من الناس الذين كانوا حوله قدرة على مجرد السؤال عن شيء من تلكم الحقائق.

وقد رأت دار «نهضة مصر» - وهي الدار القائمة على نشر هذه السلسلة - كما رأى كثير من القراء والزملاء ضرورة جمع هذه الأحاديث في مجلد واحد. وتحقيقًا لهذه الرغبة، تم جمع الأجزاء الثلاثة السابقة في هذا المجلد، وتم تبويب الأحاديث السبعين في عشرة فصول بعد هذه المقدمة، **أولها اهتم بضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ﷺ واهتمت الفصول التسعة الباقية بالموضوعات التالية: أن الله - تعالى - هو الأول والآخر، ثم أحاديث الكونيات، وأحاديث خلق الإنسان، ثم أحاديث المفضل من الطعام، يتبعها أحاديث المحرمات من الطعام، ثم أحاديث الوقاية والأشفية، يتبعها أحاديث السلوكيات، ثم تختتم بأحداث الساعة.**

هذا وقد تم تزويد هذا المجلد بالصور والرسوم العلمية اللازمة لشرح الدلالة العلمية لما جاء بالحديث؛ أملاً في المزيد من توضيح الحجة وتقريبها إلى ذهن القارئ الكريم، والله - تعالى - نسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وانتصارًا لمن بعثه خاتمًا للأنبياء والمرسلين وهاديًا للعالمين، وأن يجعله كذلك دحرًا للعديد من شياطين الأرض الذين حاولوا - ولا يزالون - الإساءة إلى شخص سيد المرسلين، والقرآن المجيد يطيب خاطره ﷺ بقول ربنا - تبارك وتعالى - له:

■ ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: 10].

ويقوله - تعالى -:

■ ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد: 32].

ويقوله - عز من قائل -:

■ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر: 95].

وكثير من الناس يردد اليوم أن حقائق الدين مطلقة بينما حقائق العلم نسبية، مرحلية، تاريخية، بمعنى أنها قابلة للتطوير والتغيير، وأنه لايجوز مقابلة المطلق بالنسبي. وللرد على هؤلاء أقول: إن كلاً من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نزل إلينا لنفهمه في حدود قدراتنا العقلية والحسية، وأن العلم المكتسب ليس كله فروضًا ونظريات نسبية، مرحلية، تاريخية، ولكن هذه المراحل توصلنا في النهاية إلى أعداد من الحقائق والقوانين الثابتة وغير القابلة للتغيير، والعلوم المكتسبة إذا وصلت إلى مرحلة الحقيقة أو القانون فإنها لاتنتكس على أعقابها وإن أمكن توسعها والإضافة إليها. وهذه الحقائق والقوانين العلمية هي كلها من الحكمة التي أوصانا رسولنا ﷺ أن نتشبث بها، فقال: «**الحكمة ضالة المؤمن أنَّى وجدها فهو أولى الناس بها**»[1] .

وإجلالاً لرسول الله ﷺ لا يجوز لمسلم أن يطعن في حديث منسوب إليه، بل الواجب - إن فهم الحديث الشريف - أن يعمل به، وإن لم يفهم دلالته أن يسأل أهل الذكر، أو أن يتوقف عنده، خاصة إذا ثبتت صحة سند الحديث عن طريق علماء تحقيق السند.

وحتى بعض الأحاديث التي قد يكون في سندها شيء من الضعف، فإن الدقة العلمية الواردة فيها قد تجبر هذا الضعيف، ما لم تكن هناك مخالفات أخرى (شرعية، أو لغوية، أو تاريخية أو غير ذلك). **ومن هنا كانت الدقة العلمية الواردة في الحديث النبوي الشريف إحدى القرائن لتصنيفه، ولرفع السند إذا كان أحد الرواة فيه شيء من الجرح؛ لأن ذلك لا يطعن في صحة الحديث ما دام مضمونه العلمي صحيحًا.**

وكذلك بعض الأحاديث الصحيحة السند، والتي وضعت في مجموعة غريب الحديث، أو غريب غريب الحديث، أو فائق غريب الحديث؛ لغرابة في ألفاظها

(1) الترمذي (2687)، وابن ماجه (4169).

أو لسبق محتواها العلمي لسنوات التحقيق بقرون كثيرة، ولعجز المحققين عن فهم دلالاتها العلمية في زمن التحقيق؛ لعدم توافر المادة العلمية في زمانهم، ولا التخصص العلمي الذي يمكن أن يوصلهم إلى ذلك؛ هذه الأحاديث لا بد للعلماء – في عصر تفجر المعارف العلمية الذي نعيشه – من إعادة النظر فيها مستعينين – بعد الله سبحانه وتعالى – بفيض الحقائق العلمية المتاحة، وبالمتخصصين في كل حقل من حقولها من علماء المسلمين الذين اشتهروا – مع تفوقهم في تخصصاتهم – بتقواهم وورعهم؛ وذلك لفهم دلالة تلك الأحاديث ورفعها من الخانات التي تم الحجر عليها فيها لاستفادة الأمة بها؛ لأن رسول الله ﷺ لم يقل إلا ما فيه صلاح الناس عامة، وصلاح أمته خاصة، ولا يجوز للأمة أن تحرم من هذا الخير قطرة واحدة؛ بسبب أي من الحواجز العلمية أو اللغوية أو التاريخية.

والله – تعالى – أسأل أن ينفع بهذا العمل المتواضع، وألا يحرمني أجره في الدنيا والآخرة، وأن يعفو عن أي خطأ جاء فيه، وألا يحملني وزره، وأن يكتب لنا الرشد والسداد في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة، فهو رب ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه

زغلول راغب محمد النجار

تمهيد

ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة

تعرض شخص رسول الله ﷺ ولا يزال يتعرض لكثير من التهجم والافتراء والسخرية والتطاول من عدد من أعداء الله، من الملاحدة والكفار والمشركين الذين لايؤمنون بنبوته، ولا بالقرآن الكريم الذي أنزل إليه، وفي ذلك يقول ربنا - تبارك وتعالى - وهو أحكم القائلين، مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ ومؤيدًا نبوته ورسالته والقرآن الذي أنزل إليه، ومدافعًا عن شخصه الكريم بقوله العزيز:

■ ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 119، 120].

■ ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184].

■ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 33، 34].

■ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر: 4].

■ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [فاطر: 25].

وللرد على هؤلاء المرجفين في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه أرى أن إثبات الإعجاز العلمي في أقوال رسول الله ﷺ هو من أبلغ الردود وأنسبها؛ وذلك لأن الغالبية الساحقة من الناس في هذا الزمن قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة حتى أعماهم ذلك عن حقيقة رسالة الإنسان في هذه الحياة: عبدًا لله - تعالى - يعبد ربه بما أمر، ومستخلفًا فى الأرض من أجل عمارتها وإقامة عدل الله فيها، وعليه بعد ذلك الموت وحساب القبر، ثم البعث والحساب والجزاء ومنه الخلود في الآخرة إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا.

وانطلاقًا من غفلة إنسان اليوم عن حقيقة رسالته في الحياة الدنيا شاعت مذاهب الكفر والإلحاد والشرك والضلال، بمختلف صورها وأشكالها ومبرراتها، وغرق الإنسان إلى آذانه في ماديات الحياة التي شغلته عن حقيقة رسالته على هذه الأرض، ومن ثَمَّ لم تعد الحوارات الدينية أو الفكرية المألوفة تجدي بين من يتسمون باسم مثقفي العصر، ولذلك تنادوا - كذبًا - بحتمية صراع الحضارات، وصدام الديانات، ونهاية التاريخ، في وقت تركزت فيه أسباب الغلبة المادية بأيدي أكثر الناس بعدًا عن التدين الصحيح.

وفي هذا العالم المضطرب الذي اختلَّت فيه كل الموازين إلا ميزان العلوم المادية، أصبح الدليل العلمي المادي هو وسيلة الإقناع الرئيسة - إن لم تكن الوحيدة - المقبولة من الناس. ولعلم الله - سبحانه وتعالى - بأن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى هذه الحال أنزل في محكم كتابه أكثر من ألف آية قرآنية كريمة تتحدث عن السماوات والأرض وما بينهما، وعن مكونات

كل منها، وما بها من ظواهر ومخلوقات، وعن كيفية خلق كل ذلك، ثم إفنائه واستبداله أو بعثه، كما أنطق الله – سبحانه وتعالى – خاتم أنبيائه ورسله ﷺ – بالعديد من تلك الحقائق الكونية الشاهدة له – في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه – بالنبوة وبالرسالة وبأنه – صلوات الله وسلامه عليه – كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض، لأنه لا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدرًا لهذا الكم الهائل من الحقائق العلمية في أحاديث رسول الله ﷺ غير الله الخالق – سبحانه وتعالى – لأن هذا النبي والرسول الخاتم كان أميًّا، وبعث من قبل ألف وأربعمائة سنة في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي زمن لم يتوافر للإنسان شيء من العلوم المكتسبة يمكن أن يرقى إلى مستوى ما نطق به ﷺ من حق، لم يتعرف الإنسان على شيء منه إلا منذ أقل من قرن واحد من الزمان، وبعد مجاهدات استغرقت آلافًا من العلماء والباحثين مما يؤكد أن هذا العلم النبوي لا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق – سبحانه وتعالى – .

وانطلاقًا من ذلك فإن الإشارات الكونية في كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، تبقى حجة على الناس كافة إلى يوم الدين بأن القرآن هو كلام الله، وأن سيدنا ونبينا محمدًا هو خاتم أنبيائه ورسله – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين.

والمحاجة بالعلم لا تكون إلا بالحقائق القطعية الثابتة التي لا رجعة فيها، وذلك لأن المعارف المكتسبة في مجال العلوم البحتة تمر في عدد من المراحل المتتابعة من المشاهدة والملاحظة والاستنتاج، أو من التجربة والملاحظة والاستنتاج التي تؤدي إلى وضع عدد من الفروض والنظريات، ثم بمزيد من تكرار التجارب وإعادتها، وتدوين الملاحظات والاستنتاجات وتدقيقها وتمحيصها يمكن أن ترتقي هذه النظريات إلى مقام الحقيقة أو القانون، فإذا وصلت المعلومة المكتسبة إلى هذا المقام فإنها لاتنتكس ولاترتد على أعقابها أبدًا، وإن بقيت قابلة للتوسع والزيادة.

وفي التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ لا بد من الالتزام بعدد من الضوابط الحاكمة للمتعاملين في هاتين القضيتين الهامتين.

وفي سلسلة من الكتابات السابقة تعرضت لقضية الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وضوابط التعامل معها، وأوجز هنا ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة في النقاط التالية:

(1) اختيار الأحاديث المحتوية علي إشارات إلى الكون ومكوناته وظواهره، وعمليات خلقه وإفنائه واستبداله، وإلى الإنسان وخلقه الأول ومراحل تطوره وإفنائه وبعثه، وإلى ضوابط سلوكه، وإلى ما أحل الله – تعالى – له وحرَّم عليه من المطعومات والمشروبات وما أباح له من وسائل الوقاية من الأمراض والتداوي والعلاج.

(2) معرفة درجة الحديث عند أهل العلم واستبعاد كل الأحاديث التي ثبت بالدراسة المتأنية أنها موضوعة.

(3) جمع الأحاديث الواردة في الموضوع الواحد، والروايات المتعددة للحديث الواحد؛ حتى يتضح المعنى المراد منها؛ دون ترجيح حديث على آخر أو رواية على رواية أخرى، لأن الجمع والتوفيق بين الأحاديث والروايات الصحيحة هو أولى من ترجيح أحدها على الآخر.

(4) فهم النص أو النصوص النبوية الشريفة وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، ووفق قواعدها وأساليب التعبير فيها.

(5) فهم النص النبوي الشريف في ضوء سياقه، وأسبابه، وملابساته، ومقاصده، وتحديد ارتباطه – من عدمه – بعلة معينة منصوص عليها في الحديث أو مستنبطة منه، أو مفهومة من سياقه، والتمسك بروح السنة ومقاصدها قبل التمسك بحرفيتها.

(6) فهم النص النبويَ الشريف في نور القرآن الكريم؛ لأن أحاديث رسول الله ﷺ شارحة لكتاب الله، ومبينة لدلالات آياته، ومن هنا فلا يمكن أن يكون

بينهما شيء من التعارض، فإن بدا شيء من ذلك، فإما أن يكون اللبس في فهم قارئ الحديث أو شارحه، أو أن يكون الحديث غير صحيح، وهنا لا بد من مراجعة سند الحديث.

(7) لايجوز للمسلم رد حديث صحيح لرسول الله ﷺ أبدًا، فإن فهمه عمل به، وإن لم يفهمه توقف عن الخوض فيه إجلالاً لرسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – وذلك خشية انغلاق معنى الحديث على قارئه انغلاقًا مؤقتًا أو دائمًا.

كذلك لا يمكن رفض الحديث النبوي الشريف الذي يشير إلى حقيقة علمية ثابتة لمجرد وجود ضعف في سنده؛ لأن الحق العلمي يمكن أن يجبر ضعف السند.

(8) ضرورة التفريق بين الحقيقة والمجاز في فهم نص الحديث النبوي الشريف، على ألا يخرج دارس الحديث باللفظ النبوي من الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية، وعند الضرورة القصوى. ومن هنا فإنه لا يمكن إثبات الإعجاز العلمي للحديث النبوي الشريف بتأويل النص، وذلك لأن التأويل هو من الأمور المرفوضة تمامًا في التعامل مع أحاديث رسول الله ﷺ. خاصة إذا كان بغير دليل مقبول.

كذلك فإن حمل المجاز على الحقيقة مع وجود المانع العقلي أو الشرعي أو العلمي هو من الأمور المرفوضة، علمًا بأنه لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول.

(9) عدم التكلف أوْ لَيُّ أعناق الأحاديث من أجل موافقتها للحقيقة العلمية؛ لأن أحاديث رسول الله ﷺ أعز علينا وأكرم من كل المعارف المكتسبة.

(10) عدم الدخول في التفاصيل العلمية الدقيقة التي لا تخدم قضية الإعجاز العلمي للحديث النبوي الشريف، والاكتفاء من ذلك بالقدر اللازم لإثبات وجه الإعجاز العلمي.

(11) عدم الخوض في القضايا الغيبية غيبة مطلقة من مثل: الذات الإلهية، الروح، الملائكة، الجن، العرش، الكرسي، اللوح، القلم، حياة البرزخ، البعث، الحشر، أهوال يوم القيامة، الحساب، الميزان، الصراط، الجنة ونعيمها،

والنار وعذابها، وذلك لأن عالم الغيب المطلق له من السنن والقوانين ما يغاير سنن وقوانين عالم الشهادة، وعلى ذلك فإن القياس بين العالمين قياس باطل، ومغالطة كبيرة، ومن هنا وجب التسليم بما جاء عن عالم الغيب المطلق في كتاب **الله** وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ دون محاولة تفسير ذلك في حدود المعارف العلمية المكتسبة.

(12) الاقتصار على توظيف الحقائق العلمية الثابتة في الاستشهاد على الإعجاز العلمي للحديث النبوي الشريف، وذلك في جميع الإشارات العلمية الواردة في أحاديث رسول **الله** ﷺ، فيما عدا قضايا الخلق والإفناء والبعث، لكل من الكون والحياة والإنسان، وهي من القضايا التي لا يمكن للعلوم المكتسبة أن تتجاوز فيها حدود وضع نظرية من النظريات. وهنا تتعدد النظريات بتعدد خلفية واضعيها، وإن بقيت المشاهدات واحدة، ويبقى للمسلم نور من **الله** – تعالى – في آية قرآنية كريمة أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول **الله** ﷺ يمكن أن يعينه على الارتقاء بإحدى هذه النظريات إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب **الله** أو في أحاديث خاتم أنبيائه ورسله – صلي **الله** وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – حيث يتم الانتصار للعلم وتصويب مساره بكلام الخالق – سبحانه وتعالى – أو بأقوال سيد المرسلين ﷺ، وليس العكس.

وهنا لا بد من التأكيد على أن العلوم المكتسبة إذا وصلت إلى مستوى الحقيقة أو القانون فإنها لا تنتكس على أعقابها أبدًا، ولكنها تبقى قابلة للزيادة مع الزمن، وذلك لأن حقائق العلوم المكتسبة هي جزئية في طبيعتها، وفي القوانين الحاكمة لها، لأنها تعبر عن عدد من القضايا الجزئية المحددة بحدود قدرات الإنسان الحسية والعقلية؛ ومن طبيعة الحقائق الجزئية أنها تنمو نموًا مطردًا مع الزمن – دون تناقض أو إلغاء – فتزداد وضوحًا وجلاءً مع استمرار مجاهدة العلماء في توضيح ما سبق الوصول إليه من حقائق هذا الوجود.

وفي التأكيد على جزئية المعرفة الإنسانية يقول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿...نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76].

ويقول - عز من قائل -:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

(13) ضرورة التمييز بين محقق الدلالة العلمية للحديث النبوي الشريف والناقل لتلك الدلالة، مع مراعاة التخصص العلمي الدقيق في جميع مراحل إثبات وجه الإعجاز العلمي أو ما يعرف باسم «التحقيق العلمي للنص النبوي الشريف»، وذلك لأن المعارف العلمية قد توسعت اليوم توسعًا مذهلاً؛ مما اضطر العلماء إلى المبالغة في تحديد مساحة التخصص دقة وعمقًا، وعلى ذلك فلا يجوز أن يخوض كل خائض في تحقيق قضية الإعجاز العلمي في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله، احترامًا لهذين المصدرين الوحيدين من مصادر التشريع الإلهي المحفوظين في نفس لغة الوحي بهما - اللغة العربية - على مدى يزيد على الأربعة عشر قرنًا الماضية، واللذين تعهد الله - تعالى - بحفظهما تعهدًا مطلقًا حتى يبقيا شاهدين على جميع الخلق إلى قيام الساعة.

فالتحقيق العلمي لا بد من أن يجري على أيدي المتخصصين، وإذا نقل ذلك أحد الرواة فلا بد من رد كل قضية إلى محققها من المتخصصين بوضوح وإثبات كاملين إنصافًا للمحقق الأصلي للقضية، وسندًا للناقل لها رواية عنه. وعلماؤنا الأوائل قد علموا الإنسانية فن الإسناد، ولايجوز لمسلم اليوم أن يتجاهله أو أن يغمط عالمًا من العلماء حقه في ذلك.

(14) التأكيد على أن ما يتوصل إليه محقق علمي في فهم الدلالة لأية إشارة علمية في حديث نبوي شريف ليس منتهى الفهم له، وذلك لأن الرسول الخاتم ﷺ قد أوتي جوامع الكلم، وعلى ذلك فقد يرى القادمون من بعدنا في نفس الحديث ما يكمل أو يُوَسِّع ما نراه اليوم فيه.

(15) التسليم بأن النص النبوي الشريف، وإن جاء في مقام التشبيه أو المجاز أو ضرب المثل فإنه يبقى صحيحًا من الناحية العلمية في لفظه ومعناه صحة مطلقة، وإن لم تكن الحقيقة العلمية مقصودة لذاتها؛ لأنه – صلوات الله وسلامه عليه – كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبَلِ خالق السماوات والأرض:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3، 4].

(16) **ضرورة التفريق بين قضيتي التفسير والإعجاز العلمي للنص النبوي الشريف.** وذلك لأن التفسير هو محاولة بشرية لحسن فهم دلالة الحديث، إن أصاب فيه المفسر فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد. والمعوَّل عليه في ذلك هو قصده ونيته، والخطأ في تفسير الحديث النبوي الشريف يعود على المفسر، ولاينسحب على جلال النص النبوي الصحيح. وهنا لابد من التأكيد على أنه لايمكن وقوع تعارض بين النصوص الموحى بها في كتاب الله أو على لسان خاتم أنبيائه ورسوله وبين الحقيقة العلمية الثابتة. فإن بدا للقارئ شيء من التعارض فعليه بسؤال أهل العلم، فقد تكون هناك حكمة خفيت على قارئ النص لأول وهلة، أو أن يكون هناك خلل في الفهم تجب معالجته قبل إصدار أحكام متعجلة على حديث من أحاديث رسول الله ﷺ كما يحدث كثيرًا في زمن الفتن الذي نعيشه، وقد يكون هناك شيء أغفل في نقل نص الحديث.

وهنا أيضًا قد يكون الجمع بين النصوص والروايات المتعددة في القضية الواحدة، ووضع كل منها في موضعه الصحيح وسيلة من وسائل تكامل الرؤية وإيضاح الصورة، وتصحيح التفسير وتجنب الشطط فيه.

وفي التفسير العلمي للنص النبوي الشريف نحرص على توظيف الحقائق العلمية الثابتة، ولكن بما أن العلم لم يصل إلى الحقيقة في كل أمر من أمور الوجود، فلا أرى حرجًا من توظيف النظرية العلمية المقبولة والسائدة في تحقيق التفسير العلمي للحديث النبوي الشريف حتى تصل المعرفة الإنسانية في هذا الأمر إلى مستوى الحقيقة.

أما الإعجاز العلمي للحديث النبوي الشريف فيقصد به إثبات سبق رسول الله ﷺ بالإشارة إلي حقيقة علمية قبل وصول العلوم المكتسبة لها بقرون عديدة. وهذا السبق العلمي من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدائية، وزمن لم يكن ممكنًا لأي من البشر الوصول إلى تلك الحقيقة عن طريق الاكتساب المعرفي مما يقطع بأنه لا يمكن أن يكون لها من مصدر غير وحي السماء.

وانطلاقًا من هذا التعريف فإن موقف التحدث بالإعجاز العلمي هو موقف تحدٍّ للناس جميعًا، مسلمين وغير مسلمين: أن نبيًّا أميًّا ﷺ بعث من قبل ألف وأربعمائة سنة في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين قد نطق بهذا الحق الذي لم تصل إليه معارف الإنسان المكتسبة إلا منذ بضعة عقود قليلة من السنين، مما يثبت نبوته، ورسالته، وصلته بوحي السماء. والمتحدي لا بد أن يكون واقفًا على أرض صلبة، ومن هنا فلا بد من الحرص على توظيف القطعي الثابت من الحقائق العلمية في إثبات الإعجاز العلمي لأحاديث رسول الله ﷺ في كل القضايا التي تعرض لها، باستثناء الأحاديث المتعلقة بقضايا غيبية من مثل قضايا الخلق والإفناء والبعث لكل من الكون والحياة والإنسان كما سبق أن أوضحنا، وذلك لأن هذه القضايا لا تخضع للإدراك المباشر من الإنسان على الرغم من إلحاح كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة على تدبرها والتفكر فيها. ومعنى ذلك: أنه على الرغم من أن هذه القضايا لم يشهدها أي منا فإن الله – تعالى – قد أبقى لنا في صفحة السماء وفي صخور الأرض من الشواهد الحسية ما يمكن أن يعين الإنسان – بحسه المحدود وقدرات عقله المحدودة – على الوصول إلى تصورٍ ما عن خلق السماوات والأرض وخلق كل من الأحياء والإنسان.

وهنا تتعدد الرؤى وتكثر النظريات، وتتعارض الفلسفات بتعارض خلفية واضعيها من الإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والاستقامة والانحراف، والجدية والهزل، وغير ذلك من المواقف البشرية، وهنا يظهر للمسلم – وللمسلم فقط – نور من الله – تعالى – في آية قرآنية كريمة،

أو في حديث نبوي صحيح مرفوع إلى رسول الله ﷺ يمكن أن يعين على الارتقاء بإحدى النظريات المطروحة إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله أو في سنة خاتم أنبيائه ورسله.

(17) عدم التقليل من جهود العلماء السابقين الذين اجتهدوا في تفسير أحاديث رسول الله ﷺ في حدود المعلومات العلمية التي كانت متاحة لهم في أزمنتهم، وذلك لأن من طبيعة المعارف العلمية أن تزداد اتساعًا وعمقًا مع مرور الزمن ما لم تنتكس الحضارات الإنسانية وترتد على أعقابها، أو تدمر بأمر من الله – تعالى – عقابًا لها على جرائمها، ومنها الكفر والشرك والظلم والجور والإفساد في الأرض.

(18) الأخذ في الاعتبار أنه من الممكن الانطلاق من الحديث النبوي الشريف للوصول إلى حقيقة علمية لم يصل إليها أحد من قبل، ولو وعى المسلمون هذه الحقيقة لسبقوا غيرهم من الأمم في الوصول إلي العديد من حقائق العلم؛ لوفرة الإشارات العلمية في كتاب الله وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله. وعلى الرغم من تخلف المسلمين المعاصرين في مجالي العلوم والتقنية فإن الباب لا يزال مفتوحًا أمامهم للانطلاق من آية قرآنية كريمة أو من حديث نبوي شريف من أجل الوصول إلي ما لم يسبقهم إليه غيرهم من حقائق الوجود.

(19) يجب تحري الدقة المتناهية في التعامل مع أحاديث رسول الله ﷺ وإخلاص النية لله في ذلك، والتجرد من كل هوى نفسي وغاية شخصية أو مكاسب مادية، حتى يبارك في العمل ويكون خالصًا لوجه الله – تعالى – .

الفصل الأول

اللّه
الأول بلا بداية
والآخر بلا نهاية

الحديث الأول

«كان الله
ولم يكن شيء غيره...»

الله جل جلاله

1 «كان الله ولم يكن شيء غيره ...»

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين (رضي الله عنهما) قال: دخلت على النبي ﷺ وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، فقال: «اقبلوا البشرى يا بني تميم»، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا، مرتين، ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قَبِلْنَا يا رسول الله. قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر، قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»، فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا بن الحصين، فانطلقت فإذا هى يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها.

(صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، حديث 3192)

شرح الحديث

هذا الحديث النبوي الشريف يؤكد حقيقة الخلق وأن الله – تعالى – هو خالق كل شيء، ويشرح عددًا من الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت في هذا المعنى العظيم، ومنها أقوال ربنا – تبارك وتعالى–:

- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 102].
- ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: 16].
- ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].
- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: 62].

وهذه الحقائق جاءت في زمن سيادة الاعتقاد بأزلية الكون، رغم مشاهدة الناس للموت الذي يحصد منهم في كل يوم، بل في كل لحظة نفرًا من أبناء جلدتهم، وجاء رسول الله ﷺ جازمًا بأن بدء كل شيء كان بأمر من الله – تعالى – مع بداية خلق الكون، أي خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما.

وبعد ادعاءات عديدة بأزلية المادة (قانون بقاء المادة والطاقة) ودوام السماوات والأرض أو أزلية الكون (The Steady State Theory) جاءت العلوم المكتسبة لتؤكد في أواخر القرن العشرين حقيقة أننا نعيش في كون عارض مستحدث، كانت له في القديم بداية يحاول العلماء تقديرها، وكل ما له بداية فلا بد له من نهاية لا تستطيع العلوم المكتسبة حسابها؛ لأن الآخرة لا تتم بسنن الدنيا، وإن أبقى لنا الخالق – سبحانه وتعالى – في صخور الأرض، وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يشير إلى حتمية وقوعها. ومن ذلك تولد أجرام السماء من مثل النجوم والكواكب، وفناؤها، وفقدان الشمس حوالي 4,6 بليون طن من كتلتها في كل ثانية على هيئة طاقة، وانتقال الحرارة من الأجسام الحارة إلى الأجسام الباردة باستمرار في الكون كله؛ حتى تتساوى درجات الحرارة وينتهي الوجود كله.

ونظرية الانفجار العظيم وهي أكثر النظريات قبولاً من علماء الفلك اليوم، تؤكد بداية للكون؛ مما ينفي الادعاء الباطل بأزليته ويقطع بحقيقة الخلق، وبوجود الخالق – سبحانه وتعالى – وكذلك اكتشاف ظاهرة الإشعاع التي تتحلل بواسطتها العناصر المشعة إلى حدٍّ الاقتراب من الفناء التام وإن حدث بالتدريج، وتقدر العلوم المكتسبة عمر الكون الذي نحيا فيه بحوالي 13,7 بليون (مليار) سنة، وعمر المجرات فيه بعشرة مليارات من السنين، وتقدر بداية خلق الحياة في المياه الأرضية بحوالي 3800 مليون سنة مضت، وعلى اليابسة في حدود (440) مليون سنة مضت، بينما يقدر أقدم أثر للإنسان على الأرض بأقل من أربعين ألف سنة مضت. والله – تعالى – قادر على أن يخلق الكون بكل ما فيه ومن فيه في أقل من الفترة الزمنية التي تقع بين الكاف والنون بأمره العزيز (كن) الذي وصفه – سبحانه وتعالى – بقوله:

- ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].
- وقال – تعالى –: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40].
- وقال – عز من قائل –: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: 35].
- وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: 68].

وقد شاءت الإرادة الإلهية أن يتم الخلق على مراحل متتالية حتى يستطيع الإنسان فهم قوانين الله في الكون، والسنن الإلهية الحاكمة فيه؛ لأنه لو كان الخلق كله قد تم في لحظة واحدة، ما تمكن الإنسان من استشراف شيء من ذلك أبدًا – وهو المخلوق العاقل، المكرم، والمستخلف في الأرض لعبادة الله – تعالى – بما أمر، ولحسن القيام بواجبات الاستخلاف فيها بعمارتها وإقامة شرع الله وعدله.

والزمن – مهما طال – هو من خلق الله – تعالى – والمخلوق لا يحد خالقه أبدًا، وكذلك كل من المكان والمادة والطاقة، والله الخالق منزه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله؛ ولذلك جاء هذا الحديث النبوي الشريف منزهًا لله – سبحانه وتعالى – عن جميع صفات خلقه؛ ولذلك قال المصطفى ﷺ وهو الموصول بوحي من الله – تعالى – والمعلم بواسطته، والموصوف بأنه لا ينطق عن الهوى – هذا النبي والرسول الخاتم قال: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض»

وطبيعة العرش وكنهه غيب لا نعلمه، والماء الذي كان العرش فوقه غيب كذلك، والغيوب المطلقة من مثل الذات الإلهية، والملائكة، والروح، والجن، وحياة البرزخ، وحساب القبر وجزائه، والبعث، والحشر، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، والعرش، والكرسي. كل ذلك نهينا عن الخوض فيه؛ لعجز القدرات البشرية عن الوصول إلى شيء منه ما دامت الروح محبوسة في هذا الجسد الطيني، وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى – عن ذاته العلية: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: 103]، ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:11]، ويقول مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85].

والحقيقة التي ينبهنا إليها هذا الحديث الشريف هي أن كل شيء ما عدا الله – سبحانه وتعالى – مخلوق، مستحدث، عارض، له بداية، وله نهاية مهما طال أجله، والله – تعالى – وحده هو الحي الباقي، بلا بداية ولا نهاية؛ لأن الزمن الذي يحد المخلوقين هو من خلق الله، والمخلوق لا يحد خالقه أبدًا فـ «كان الله ولم يكن شيء غيره...»؛ ولذلك وصف ذاته العلية بقوله العزيز: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]، و(الأول) من صفات الله – تعالى – ومن أسمائه

الحسنى تعني السابق علي جميع الموجودات، والذي منه مبدأ كل شيء، و(الآخر) تعني الذي إليه مصير جميع الموجودات، وإليه المرجع والمصير الأخير لكل شيء، و(**الظاهر**) أي الواضح البيِّن إذا طلب بدلالة العقل وطرائق الاستدلال، و(**الباطن**) إذا طلب بدلالات الحس وإدراك الشعور للشهادة المطبوعة في الجبلة الإنسانية والتي أخذت في عالم الذر بأنه «لا إله إلا الله»، و(**العليم**) أي الذي يحيط علمًا بكل شيء؛ ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، فاتحته وعاقبته، وهذه الصفات العليا لا يمكن أن تكون لغير الإله الخالق المنزه عن كل من المادة، والطاقة، والزمان، والمكان، وعن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله – سبحانه وتعالى علوًّا كبيرًا.

وقد نطق رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – بهذه الحقيقة في زمن فقدت فيه الأرض صلتها بهداية السماء؛ وذلك لأن أصول الوحي السماوي السابق كله، كانت قد ضاعت، وما بقي منه من ذكريات تعرض للتحريف، فشاع في الأرض مختلف صور الكفر والشرك والضلال، وانتشرت الوثنيات على اختلاف أشكالها، وهيمنت الخرافات والأساطير، وفسدت المعتقدات، وحرفت العبادات، وساءت الأخلاق، وتدنت المعاملات، وانتشرت في الأرض الانحرافات الفكرية والسلوكية، من مثل الزرادشتية، والمزدكية، والدهرية، والصابئة، ولم يُجْدِ في مقاومة هذا المدِّ من الكفر والشرك وغيرهما من صور الضلال والانحراف وجود بقايا من الأفكار اليهودية والنَّصرانية؛ لأن أصول هذه المعتقدات كانت قد فقدت، وما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهًا لقرون قبل أن تدون بأيدي مجهولين ممن ليسوا بالأنبياء ولا بالمرسلين، وفي لغات غير لغات الوحي بها، فتعرضت لسلسلة طويلة من التحريف والتبديل والتغيير الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية معتنقيها.

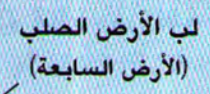
وتقرير حديث رسول الله ﷺ بأن الله – سبحانه وتعالى – هو خالق كل شيء، وأنه – تعالى – كان ولم يكن شيء غيره، مما يشهد لهذا الرسول الخاتم بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض. فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

من أحاديث الكونيات



الأرضون السبع



شكل (1) يوضح النُطق الداخلية للأرض

2 الأرضـــون الســـبع

يروى عن رسول الله ﷺ أقواله التالية:

* « من ظلم قِيدَ شبر طُوّقَه من سبع أرضين ».
* « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين ».
* « من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين ».
* « من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا فإنه يُطَوَّقُهُ يوم القيامة من سبع أرضين ».
* « من ظلم من الأرض شيئًا طوقه من سبع أرضين ».
* « من أخذ شيئًا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين ».

(1) «من ظلم قيد شبر طُوّقَه من سبع أرضين»

هذا الحديث الشريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (حديث رقم: 3023، باب ما جاء في سبع أرضين، كتاب بدء الخلق) قال:

■ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الله، أَخْبَرَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عن عَلِيِّ بْنِ المبَارَك، حَدَّثَنَا يَحْيَى ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ، عن مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الحارِثِ عن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنَاسٍ خُصُومَةٌ فِى أَرْضٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ لَهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، اجْتَنِبِ الأَرْضَ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ ».

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 24550)، قال:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ، حَدَّثَنَا حَرْبٌ قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَى عن مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهُ – وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ خُصُومَةٌ في أَرْضٍ – أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، اجْتَنِبِ الأَرْضَ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ ».

(2) «من ظلم قيد شبر من الأرض طُوّقَه من سبع أرضين»

هذا الحديث الشريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (حديث رقم: 2321، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض)، قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَارِثِ، حَدَّثَنَا حُسَيْنٌ، عن يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أُنَاسٍ خُصُومَةٌ فَذَكَرَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، اجْتَنِبِ الأَرْضَ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِن الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

– وأخرجه أيضًا مسلم في صحيحه (حديث رقم: 1612 – كتاب المساقاة) قال:

■ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الدَّوْرَقِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الصَّمَدِ – يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الْوَارِثِ – حَدَّثَنَا حَرْبٌ وَهُوَ ابْنُ شَدَّادٍ حَدَّثَنَا يَحْيَى وَهُوَ ابْنُ أَبِي كَثِيرٍ عن مُحَمَّدِ بنِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهُ وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ خُصُومَةٌ فِي أَرْضٍ وَأَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهَا فَقَالَتْ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، اجْتَنِبِ الأَرْضَ؛ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ». وحَدَّثَنِي إِسْحَقُ بنُ مَنْصُورٍ، أَخْبَرَنَا حَبَّانُ بْنُ هِلالٍ، أَخْبَرَنَا أَبَانُ، حَدَّثَنَا يَحْيَى أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَا سَلَمَةَ حَدَّثَهُ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ. فَذَكَرَ مِثْلَهُ.

(3) «من أخذ من الأرض شيئًا بغير حقه خُسِف به يوم القيامة إلى سبع أرضين»

هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (حديث رقم: 3024، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض، كتاب المظالم):

■ حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ المبَارَكِ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، عن سَالِمٍ، عن أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ».

وأخرجه أيضًا أحمد في مسنده (حديث رقم: 5740) قال:

■ حَدَّثَنَا عَارِمٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُالله بْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، عن سَالِمٍ، عن ابْنِ عُمَرَ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا خُسِفَ بِهِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ».

(4) «من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين»

هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (حديث رقم: 1026، باب: إثم من ظلم شيئًا من الأرض، كتاب بدء الخلق) قال:

■ حَدَّثَنِي عُبَيْدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عن هِشَام، عن أَبِيه، عن سَعِيدِ ابْنِ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ أَنَّهُ خَاصَمَتْهُ أَرْوَى في حَقٍّ زَعَمَتْ أَنَّهُ انْتَقَصَهُ لَهَا إلَى مَرْوَانَ، فَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أَنْتَقِصُ مِنْ حَقِّهَا شَيْئًا؟! أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا فإنَّهُ يُطَوَّقه يومَ القيامة مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

(وأخرجه مسلم في صحيحه حديث رقم: 1610، كتاب المساقاة).

■ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّاءَ بْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عن هِشَام، عن أَبِيه، عن سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقُول: «مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا فإنَّهُ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

(5) «من ظَلَمَ من الأرض شيئًا طوقه من سبع أرضين»

هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (حديث رقم: 2320، كتاب المظالم والغصب) قال:

■ حَدَّثَنَا أَبو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عن الزُّهْرِيِّ قَالَ حَدَّثَنِي طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ الله أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا طُوقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

وأخرجه أحمد في مسنده (حديث رقم: 1643) قال:

■ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ رَبِّهِ، حَدَّثَنَا بَقِيَّةُ بْنُ الْوَلِيدِ، حَدَّثَنِي الزُّبَيْدِيُّ، عن الزُّهْرِيِّ، عن طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِالله بْنِ عَوْفٍ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ سَعِيدَ ابْنَ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ ظَلَمَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا فَإِنَّهُ يُطَوَّقُهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ».

(6) «من أخذ شيئًا من الأرض بغير حقه خُسِفَ به يوم القيامة إلى سبع أرضين»

هذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (حديث رقم: 3024، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض) قال:

■ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُالله، عن مُوسَى بْنِ عُقْبَة، عن سَالِم، عن أَبيهِ قالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَخَذَ شَيْئًا مِنَ الأَرْضِ بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ».

■ حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْراهِيمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ الْمُبارَك حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَة، عن سَالِم، عن أبيهِ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَخَذَ مِنَ الأَرْضِ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ خُسِفَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلَى سَبْعِ أَرَضِينَ».

(صحيح البخاري، حديث رقم: 2322، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض).

شرح الحديث

هذه الأحاديث تنهى عن الظلم بصفة عامة، وعن الظلم في اغتصاب الأرض بصفة خاصة؛ انطلاقًا من قول الحق (تبارك وتعالى):

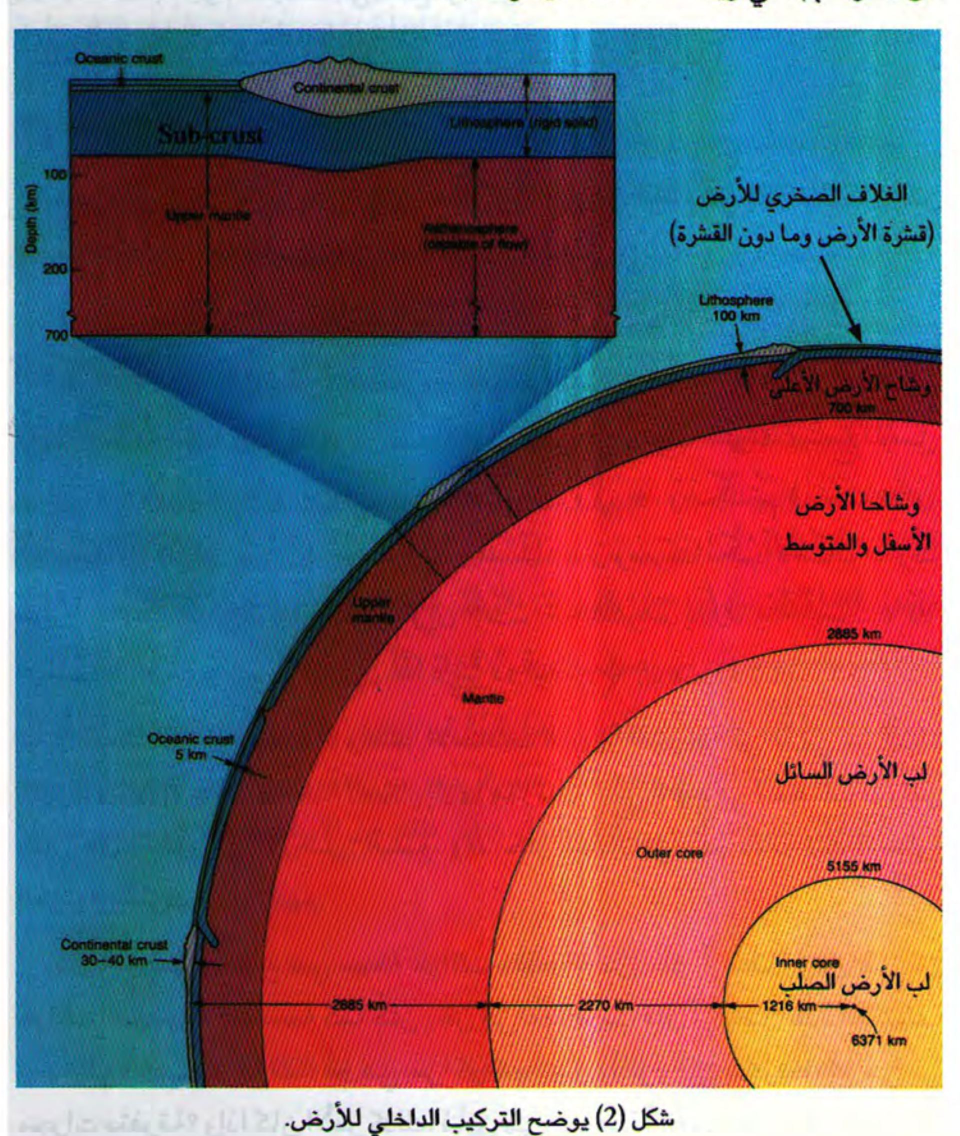
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ * وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ * وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ * وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ * فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: 42-47].

والآيات القرآنية الكريمة، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة في النهي عن الظلم كثيرة، ولكن الأحاديث الستة المشار إليها هنا تركز على الظلم في اغتصاب الأرض بغير حق وتشير إلى الأرضين السبع، وقد حار الناس في فهم دلالة تلك الإشارة الكونية وكثرت تساؤلاتهم:

هل الأرضون السبع هي سبعة كواكب منفصلة من مثل أرضنا؟ وهل هي من كواكب المجموعة الشمسية كما كان يظن إلى عهد قريب قبل أن يصل عدد المكتشف منها إلى أحد عشر كوكبًا، أم هي من كواكب نجوم أخرى في مجرتنا، أم هي في مجرات متفرقة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فأين هي؟ خاصة أن أعداد الكواكب المشابهة

لأرضنا في الجزء المدرك من السماء الدنيا كثيرة، وقد بدأت البحوث الفلكية في اكتشاف أعداد منها، على الرغم من صعوبة ذلك، هل هي موزعة في السماوات السبع على افتراض أن لكل أرض سماءها كما تخيل البعض؟

وهو افتراض ترفضه النصوص القرآنية التي تؤكد أن النجوم (وبالتالي توابعها من الكواكب) هي زينة السماء الدنيا وحدها.



شكل (2) يوضح التركيب الداخلي للأرض.

أم هي سبعة نُطُقٍ في أرضنا التي نحيا عليها، يغلف الخارج منها الداخل فيها، وتتطابق حول مركز واحد؟

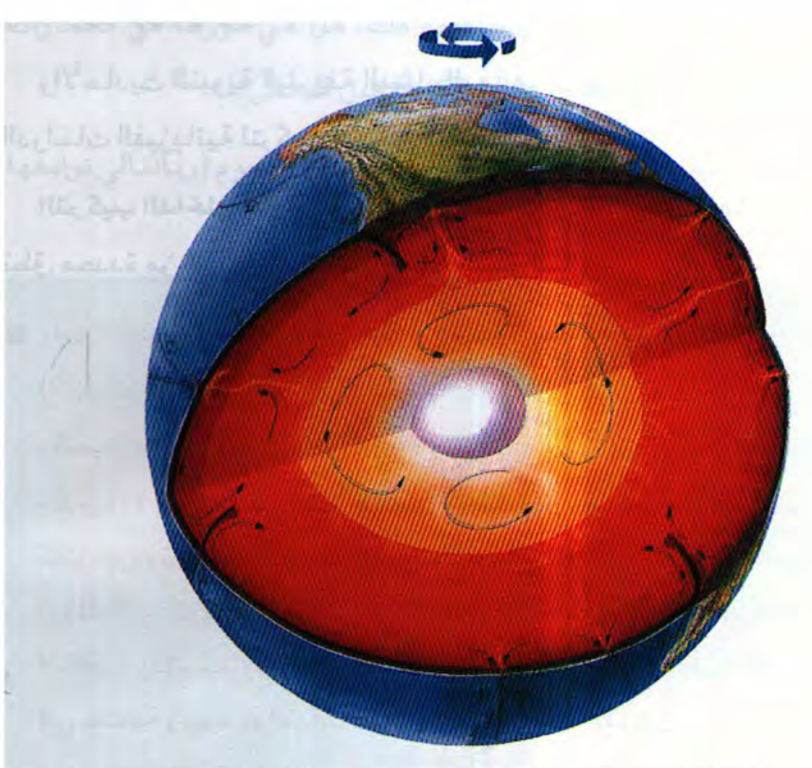
والأحاديث النبوية الشريفة المشار إليها هنا تؤيد التصور الأخير الذي أثبتته الدراسات الفيزيائية لتركيب الأرض الداخلي.

التركيب الداخلي للأرض: أثبتت دراسات فيزياء الأرض أنها تُبنى من سبعة نطق محددة من الداخل إلى الخارج على النحو التالي:

- **(لبُ الأرض الصلب)**: وهو عبارة عن نواة صلبة من الحديد (90٪)، والنيكل (9٪) مع قليل من العناصر الخفيفة من مثل الكربون، والفوسفور، والكبريت، والسيليكون، والأكسجين (1٪)، وهو تركيب قريب من تركيب النيازك الحديدية مع زيادة واضحة في نسبة الحديد، ويبلغ قطر هذه النواة حاليًّا حوالي (2402) كيلومتر، وتقدر كثافتها في المتوسط بحوالي 10–13,5 جرام للسنتيمتر المكعب (وذلك لأن متوسط كثافة صخور القشرة الأرضية هو 2,7–3 جرامات للسنتيمتر المكعب، ومتوسط كثافة الأرض ككل هو 5,5 جرام للسنتيمتر المكعب)، مما يشير إلي حتمية وجود مواد ذات كثافة عالية في قلب الأرض.

وتعتبر تلك النواة اللبية في جوف الأرض هي **(الأرض السابعة)**.

- **نطاق لب الأرض السائل (الخارجي)**: وهو نطاق لدن أي شبه سائل، يحيط باللب الصلب، وله نفس تركيبه الكيميائي تقريبًا، ولكنه في حالة شبه انصهار، ويقدر سمكه بحوالي (2275) كيلومترًا، ويفصله عن اللب الصلب منطقة انتقالية، يبلغ سمكها (450) كيلومترًا تعتبر الجزء الأسفل من هذا النطاق الذي يمثل **(الأرض السادسة)**. ويكوِّن كل من اللب الصلب والسائل معًا حوالي 31٪ من كتلة الأرض المقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن (6×10^{21} طن).
- **النطاق الأسفل من وشاح الأرض (الوشاح السفلي)**: وهو نطاق صلب يحيط بلب الأرض السائل، ويبلغ سمكه حوالي (2215) كيلومترًا (من عمق 670 كم إلى عمق 2885 كم)، ويفصله عن الوشاح الأوسط (الذي يعلوه) مستوى انقطاع للموجات الاهتزازية الناتجة عن الزلازل، ويعتبر هذا النطاق **(الأرض الخامسة)**.



شكل (3) يوضح الأرضين السبع كلها في داخل الكرة الأرضية.

- **النطاق الأوسط من وشاح الأرض (الوشاح الأوسط)**: وهو نطاق صلب يبلغ سمكه حوالي (270) كيلو مترًا، ويحده من أعلى ومن أسفل مستويان من مستويات انقطاع الموجات الاهتزازية، يقع أحدهما على عمق (670) كيلومترًا (ويفصله عن الوشاح الأسفل)، ويقع الآخر على عمق (400) كيلومتر تحت سطح الأرض، ويفصله عن الوشاح الأعلى، ويمثل هذا النطاق **(الأرض الرابعة)**.
- **النطاق الأعلى من وشاح الأرض (الوشاح العلوي)**: وهو نطاق لدن، شبه منْصهر، عالي الكثافة واللزوجة، تبلغ نسبة الانصهار فيه حوالي (1٪)؛ ولذلك فإنه يعرف باسم **(نطاق الضعف الأرضي)**، ويمتد بين عمق (65، 120) كيلومترًا، وعمق (400) كيلومتر تحت سطح الأرض؛ ولذلك يتراوح سمكه بين (335) و(280) كيلومترًا، ويعتبر هذا النطاق **(الأرض الثالثة)**.



■ **النطاق السفلي من الغلاف الصخري للأرض:** ويتراوح سمكه بين (57) و(60) كيلومترًا تحت قيعان البحار والمحيطات بين أعماق تتراوح بين (5، 8 كيلومترات) بينما يتراوح سمكه على اليابسة بين 320، 340 كيلو مترًا (بعد أعماق تتراوح من 60 إلى 80 كيلومترًا في المتوسط)، ويحده من أسفل الحد العلوي لنطاق الضعف الأرضي، ومن أعلى خط انقطاع الموجات الاهتزازية المعروف باسم «الموهو»، ويمثل هذا النطاق **(الأرض الثانية)**.

■ **النطاق العلوي من الغلاف الصخري للأرض (قشرة الأرض):** ويتراوح سمكه بين (5) و(8) كيلو مترات تحت قيعان البحار، والمحيطات، وبين (60) و(80) كيلومترًا في المتوسط تحت القارات، وإن تجاوز سمكه هذا القدر بكثير تحت الجبال، ويتزايد سمك الغلاف الصخري كلما زاد ارتفاع السلاسل الجبلية. والغلاف الصخري للأرض يتكون غالبًا تحت القارات من الصخور الجرانيتية المغطاة بسمك رقيق من التتابعات الرسوبية والتربة، ويغلب على تركيب هذه الصخور العناصر الخفيفة، كما يتكون غالبًا من الصخور القاعدية وفوق القاعدية وبعض الرسوبيات تحت قيعان البحار والمحيطات، وتعتبر قشرة الأرض هي **(الأرض الأولى)**.

هذا التفسير يتطابق مع أحاديث المصطفى ﷺ المذكورة هنا، خاصة حينما يذكر التعبير المعجز «**خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**»؛ مما يشير إلى تطابق تلك الأرضين حول مركز واحد.

ويدعم هذا الاستنتاج قول الحق - تبارك وتعالى - في سورة إبراهيم عقب الآيات المحذرة من الظلم التي أشرنا إليها في الأسطر السابقة:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: 48].

وقوله (عز من قائل) في ختام سورة الطلاق:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: 12].

وقوله (سبحانه وتعالى) في سورة الملك:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 3، 4].

والوصف (طباقًا) هنا معناه أن السماوات السبع متطابقة حول مركز واحد، يغلف الخارج منها الداخل فيها، وليست طباقًا بمعنى طبقات بعضها فوق بعض بهيئة أفقية كما تصورها البعض من قبل، ورحم الله البقاعي الذي قال: «طباقًا أي ذات طباق، بحيث يكون كل جزء منها مطابقًا للجزء من الأخرى، ولا يكون جزء منها خارجًا عن ذلك، وهي لا تكون كذلك إلا أن تكون الأرض كرية، والسماء الدنيا محيطة بها إحاطة قشر البيضة من جميع الجوانب، والسماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا، وهكذا إلى أن يكون العرش محيطًا بالكل، والكرسي الذي هو أقربها بالنسبة إليه كحلقة في فلاة؛ فما ظنك بما تحته! وكل سماء من التي فوقها بهذه النسبة، وقد قرر أهل الهيئة أنها كذلك، وليس في الشرع ما يخالفه، بل ظاهره يوافقه».

ويؤكد هذا الاستنتاج مقابلة السماء – على سعتها – بالأرض – على ضآلتها النسبية – في عشرات الآيات القرآنية، والإشارة إلى فاصل بينهما في عشرين آية قرآنية كريمة من مثل قول ربنا – تبارك وتعالى–: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ...﴾ [مريم: 65].

واستنتاجنا هذا: أن الأرضين السبع كلها في أرضنا التي نحيا عليها، يغلف الخارج منها الداخل فيها، وأنها محاطة بالسماوات السبع إحاطة كاملة أيضًا أولاها السماء الدنيا المحيطة بأرضنا، ومن حولها ست سماوات يغلف الخارج منها كل ما دخل فيها، تؤكده إشارة القرآن الكريم إلى تطابق أقطار السماوات – علي ضخامتها – مع أقطار الأرض – على ضآلتها النسبية – وذلك في قول ربنا (تبارك وتعالى): ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ [الرحمن: 33].

وذلك لأن قطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مرورًا بمركزه، فإذا انطبقت أقطار السماوات – على ضخامتها – مع أقطار الأرض – علي ضآلتها النسبية – فلا بد أن تكون الأرض في مركز الكون وأن تكون الأرضون السبع كلها في أرضنا وأن تكون محاطة بالسماوات السبع إحاطة كاملة، والله أعلم.

الحديث الثالث

البحر المسجور

شكل (4)

3 البحــر المسجــور

قال ﷺ: «لاَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلاَّ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ الله فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه أبو داود في سننه (حديث رقم: 2489، باب ركوب البحر في الغزو، كتاب الجهاد) قال:

حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ زَكَرِيَّا، عن مُطَرِّفٍ، عن بِشْرٍ أَبِي عَبْدِ الله، عن بَشِيرِ بْنِ مُسْلِمٍ، عن عَبْدِالله بْنِ عَمْرِو بن العاص قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَرْكَبُ الْبَحْرَ إِلاَّ حَاجٌّ أَوْ مُعْتَمِرٌ أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ الله فَإِنَّ تَحْتَ الْبَحْرِ نَارًا وَتَحْتَ النَّارِ بَحْرًا»

وكذلك أخرجه البيهقي في سننه (ج4) وأخرجه غيرهما مرفوعًا بلفظ «إن تحت البحر نارًا، وتحت النار بحرًا» وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ج1) موقوفًا على عبدالله بن عمرو بن العاص بلفظ: «إن تحت البحر نارًا، ثم ماءً ثم نارًا» وذكر أن رجال إسناده ثقات.

(وقيل في الرواية المرفوعة السابقة إن إسنادها ضعيف، ولكن الحاكم في المستدرك (ج4/8762) أخرج له شاهدًا من حديث يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ: «إن البحر هو جهنم»، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الإمام الذهبي في «تلخيص المستدرك» على ذلك؛ وعليه يكون الحديث بمجموع طرقه حسنًا على الأقل، ومن ضَعَّفَه فقد نظر إلى طرقه الضعيفة وحدها؛ نظرًا لصعوبة فهم دلالة الحديث. فقد ذكر ابن كثير في البداية (الجزء الثاني طبعة دار هجر) معنى كون البحر جهنم: «أن البحر يسجَّر يوم القيامة ويكون من جملة جهنم». وما أروع ما جاء في كتاب «عون المعبود في شرح سنن أبي داود» للعظيم أبادي (الجزء السابع) في شرح معنى: «إن تحت البحر نارًا» قال: «قيل هو على ظاهره، فإن الله على كل شيء قدير». وقال الخطابي في «شرح سنن أبي داود»: «هو تفخيم الأمر بالبحر وتهويل من شأنه».

وذكر ابن حجر شاهدًا لصدر هذا الحديث، يقويه ويرقى به إلى مرتبة الحسن، وذلك في كتابه «التلخيص» (الجزء الثاني) من حديث لابن عمر (رضي الله عنهما)،

وبذلك يكون الحديث بمجموعه كله حسنًا، على الرغم من عجيب ما فيه من معان علمية دقيقة لم يتوصل الإنسان إلى إدراك شيء منها إلا في أواخر القرن العشرين.

شرح الحديث

والحديث الشريف الذي نحن بصدده يتفق بدقة بالغة مع القسم القرآني الوارد في مطلع سورة الطور، والذي يقسم فيه ربنا - تبارك وتعالى - وهو الغني عن القسم - بالبحر المسجور فيقول (عز من قائل):

﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ * وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ * وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: 1-8].

ولم يستطع العرب في وقت تنزل القرآن الكريم أن يستوعبوا دلالة القسم بالبحر المسجور لأن عندهم: (سجر التنور) يعني أوقد عليه حتى أحماه، والماء والحرارة من الأضداد، فالماء يطفئ الحرارة، والحرارة تبخر الماء، فكيف يمكن للأضداد أن تتعايش في تلاحم وثيق دون أن يلغي أحدها الآخر؟ وقد دفعهم ذلك إلى نسبة الأمر للآخرة استنادًا إلى ما جاء في سورة التكوير من قول الحق - تبارك وتعالى-: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: 6].

ولكن الآيات في مطلع سورة التكوير كلها تشير إلى أمور مستقبلية في الآخرة، والقسم في مطلع سورة الطور كله بأمور واقعة في حياتنا!!!

واضطر ذلك مجموعة من المفسرين إلى البحث عن معنى لغوي للفعل «سجر» غير أوقد على الشيء حتى أحماه، ووجدوا من معاني «سجر: ملأ وكف. وفرحوا بذلك فرحًا شديدًا؛ لأنه فسر الأمر لهم، بمعنى أن الله - تعالى - يمنُّ على البشرية كلها بأنه قد ملأ منخفضات الأرض بالماء وحجزها وكفها عن مزيد من الطغيان على اليابسة.

ولكن حديث رسول الله ﷺ الذي نتناوله في هذه العجالة يؤكد «أن تحت البحر نارًا، وأن تحت النار بحرًا».

والرسول (صلوات الله وسلامه عليه) لم يركب البحر في حياته الشريفة مرة واحدة، فمن كان يضطره إلى الخوض في أمر غيبي كهذا لولا أن الله - تعالى -

قد أخبره به؟ لأنه - سبحانه - يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سيكتشف هذه الحقيقة الكونية المبهرة في يوم من الأيام فأنزلها في كتابه الكريم، وعلمها لخاتم الأنبياء والمرسلين؛ لتبقى شاهدة إلى أبد الآبدين على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم الذي تلقاه كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض، الذي وصف خاتم أنبيائه ورسله بقوله (عز من قائل): ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: 3-5].

وبعد الحرب العالمية الثانية، نزل العلماء إلى أعماق البحار والمحيطات؛ بحثًا عن بعض الثروات المعدنية التي استنفدت احتياطياتها، أو قاربت النفاد من على اليابسة في ظل الحضارة المادية المسرفة التي يعيشها إنسان اليوم، ففوجئوا بسلسلة من الجبال البركانية تمتد في أواسط جميع محيطات الأرض لعدة عشرات الآلاف من الكيلو مترات أطلقوا عليها اسم: (جبال أواسط المحيطات). وبدراسة تلك السلاسل الجبلية المحيطية اتضح أنها تتكون في غالبيتها من الصخور البركانية التي اندفعت على هيئة ثورات بركانية عنيفة عبر شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي تمزق الغلاف الصخري للأرض، وتحيط بكرتنا الأرضية إحاطة كاملة في كل الاتجاهات، وتتركز أساسًا في قيعان كل من المحيطات وبعض البحار (مثل البحر الأحمر) وإن وُجدت على اليابسة.

وشبكة الصدوع تلك تصل في امتداداتها إلى أكثر من 64000 كيلومتر، وتصل في أعماقها إلى 65 كيلومترًا تحت قيعان البحار والمحيطات وإلى أكثر من (100) كيلومتر تحت قشرة الأرض، مخترقة الغلاف الصخري للأرض بالكامل، فتصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وتوجد الصخور فيه في حالة لدنة، شبه منصهرة، عالية الكثافة واللزوجة تدفعها تيارات الحمل الساخنة إلى قيعان كل محيطات الأرض وقيعان بعض البحار (من مثل البحر الأحمر) في درجات حرارة تتعدى ألف درجة مئوية، وذلك بملايين الأطنان فتدفع بجانبي المحيط أو البحر يمنة ويسرة في ظاهرة يسميها العلماء ظاهرة اتساع قيعان البحار والمحيطات (Sea-Floor Spreading). وباستمرار هذا التوسع، تملأ المناطق الناتجة عن عملية

الاتساع تلك بالصهارة الصخرية؛ مما يؤدي إلى تسجير قيعان كل محيطات الأرض وقيعان بعض بحارها (ذات القيعان المتصدعة التي تتعرض لعملية توسع).

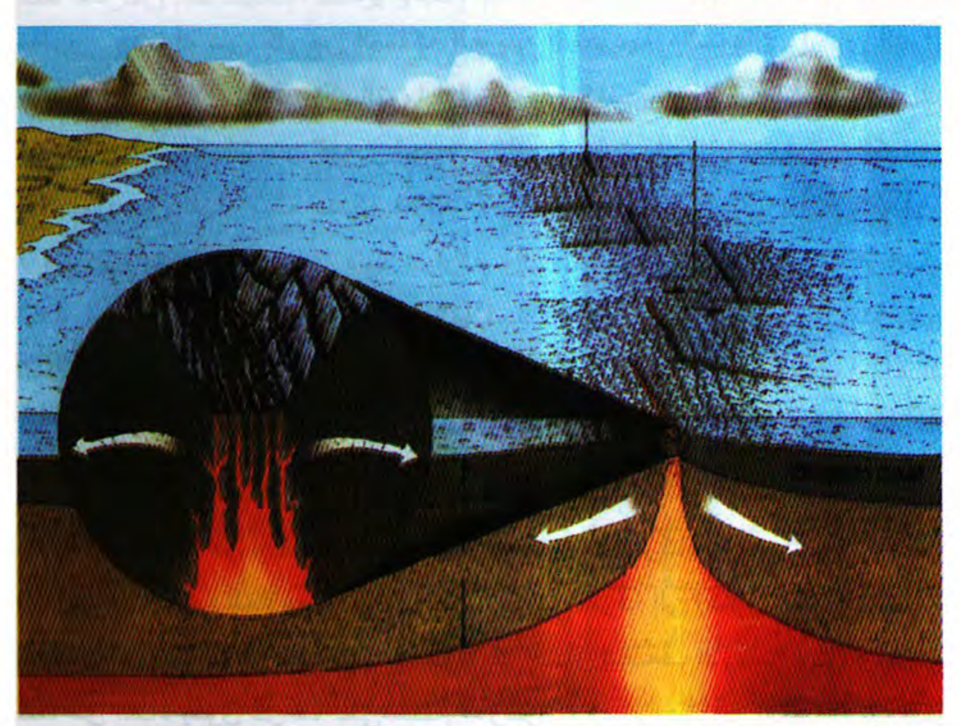
ومن الظواهر المبهرة للعلماء اليوم أن الماء في هذه المحيطات والبحار على كثرته لا يستطيع أن يطفئ جذوة تلك الصهارة، ولا الصهارة على شدة حرارتها تستطيع أن تبخر مياه البحار والمحيطات بالكامل، ويبقى هذا التوازن بين الأضداد: الماء والنار (أي الصهارة الصخرية) فوق قيعان كل محيطات الأرض (بما في ذلك المحيطان المتجمدان الشمالي والجنوبي)، وقيعان عدد من البحار (مثل البحر الأحمر) شهادة حية على طلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدها حدود، وعلى صدق القرآن الكريم، وصدق الرسول الخاتم الذي تلقاه ﷺ .

ففي مشروع لاستثمار ثروات قاع البحر الأحمر (وهو بحر قاعه منفتح تثور البراكين فيه ثورة عنيفة فتثري رسوبيات ذلك القاع بالعديد من المعادن)، قام مشروع مشترك بين كل من المملكة العربية السعودية والسودان وإحدى الدول الأوربية لاستغلال بعض تلك الثروات المعدنية وكانت باخرة أبحاث تابعة لذلك المشروع تلقي بكباش من المعدن لجمع عينات من طين ذلك القاع، وترتفع الكباش في عمود من الماء يبلغ سمكه ثلاثة آلاف متر، فإذا وصل إلى سطح الباخرة لا يستطيع أحد أن يقربه من شدة حرارته، وإذا فتح يخرج منه الطين وبخار الماء الحار في درجات حرارة تصل إلى الثلاثمائة درجة مئوية. وأصبح ثابتًا لدى العلماء اليوم أن الثورات البركانية فوق قيعان كل محيطات الأرض وقيعان أعداد من بحارها تفوق نظائرها على اليابسة بمراحل عديدة.

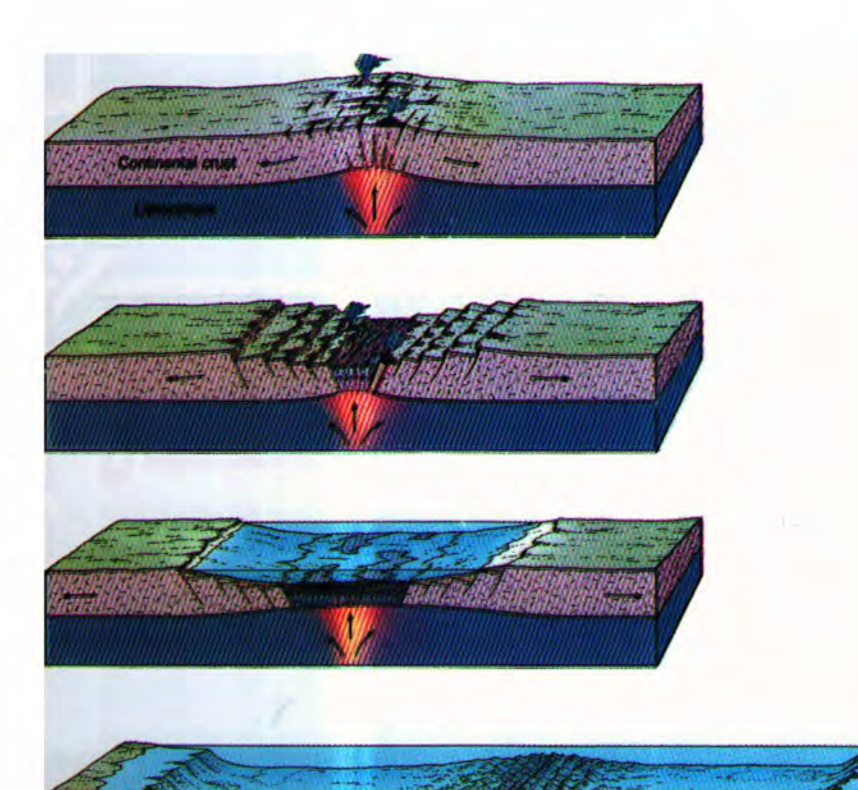
ثم ثبت بأدلة عديدة أن كل ماء الأرض – على كثرته – قد أخرجه ربنا – تبارك وتعالى – من داخل الأرض عن طريق الثورات البركانية عبر كل من فوهات البراكين، وصدوع الغلاف الصخري للأرض التي تمزقه إلى أعماق تصل إلى نطاق الضعف الأرضي، وأن الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضي ودونه تحوي كمًّا من الماء يفوق كل ما على سطح الأرض من ماء بعشرات الأضعاف، وهنا تتضح روعة هذا الحديث النبوي الشريف الذي قرر فيه المصطفى ﷺ عددًا من حقائق الأرض المبهرة بقوله: «إن تحت البحر نارًا، وتحت النار بحرًا».

وهي حقائق لم يتوصل الإنسان إلى إدراك شيء منها إلا منذ سنوات معدودة، وورودها بهذه الدقة العلمية الفائقة في حديث رسول الله ﷺ لمما يشهد له بالنبوة والرسالة، وبأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول في حقه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: 3-10].

فلم يكن أحد علي وجه الأرض يعلم هذه الحقائق قبل عقود قليلة، وورودها بهذه الدقة العلمية في حديث رسول الله ﷺ هو من الأمور المعجزة حقًا، والشاهدة بصدق نبوته، وكمال رسالته (صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين)، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



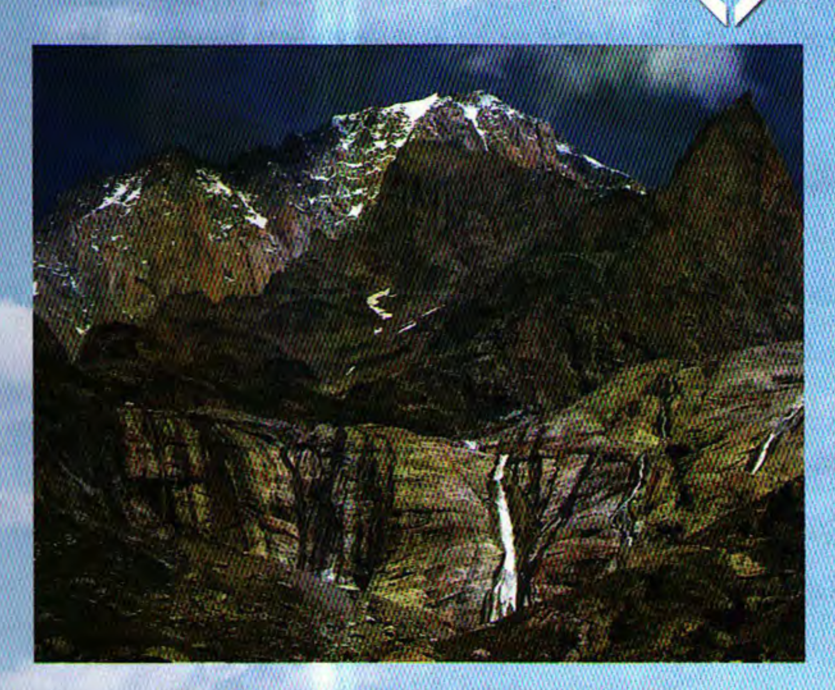
شكل (5) رسم تخطيطي يوضح تصدع قيعان المحيطات بصدوع عميقة (تصل أعماقها إلى 65كم) وبذلك تخترق الغلاف الصخري للأرض المكون لقيعان المحيطات (وسمكه يتراوح بين 5كم، 8 كم، ويصل إلى نطاق الضعف الأرضي الذي تندفع منه الصهارة باستمرار لتسجر قيعان كل محيطات الأرض، وقيعان أعداد من بحارها.



شكل (6) رسومـات تخطيطيــة توضــح كيفيــة تسجير قيعــان محيطات الأرض وقيعــان أعداد من بحــارهـــا، حيث يؤدي تزايد حجـم الصهارة الصخرية في نطاق الضعف الأرضـي بـالمزيد من انصهـارهـا إلى رفـع القشرة الأرضية إلى أعلى فترق وتتصدع ثم تنهار مكونة أحد أغوار الأرض الذي يستمر في الهبوط حتى يصل إلى مـا دون منسوب الميـاه في البحـار والمحيطات فتغمره محولة إياه إلى بحر طولي مثل البحـر الأحمـر، ويظل ذلك البحـر الطولـي يتسـع بـاستمـرار بظاهرة اتسـاع قيعان البحـار والمحيطات حتى يتحول إلى محيط، قاعه مسجر بنيران البراكين النشطة فوق ذلك القاع.

الحديث الرابع

إرساء الأرض بالجبال



شكل (7) صورة توضح الهيئة الخارجية للجبال

4 إرســـاء الأرض بالجبـــال

يروي أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فعاد بها عليها، فاستقرت..**».

هذا الحديث النبوي الشريف رواه الترمذي في سننه (حديث رقم: 3369، كتاب تفسير القرآن)، ورواه أحمد في مسنده (حديث رقم: 2275)، وكل منهما قال:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، حَدَّثَنَا الْعَوَّامُ بْنُ حَوْشَبٍ عن سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ قال:

«**لما خَلَقَ الله الأَرْضَ جَعَلَتْ تَمِيدُ فَخَلَقَ الْجِبَالَ فَعَادَ بِهَا عَلَيْهَا فَاسْتَقَرَّتْ، فَعَجِبَتِ الملائِكَةُ مِنْ شِدَّةِ الْجِبَالِ قَالُوا: يَارَبُّ هَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيءٌ أَشَدُّ مِنَ الْجِبَالِ؟ قَالَ: نَعَم الحديدُ. قَالُوا: يَارَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الْحَدِيدِ؟ قَالَ: نَعَم النَّارُ. فَقَالُوا: يَارَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: نَعَم الماءُ. قَالُوا: يَارَبِّ، فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الماءِ؟ قَالَ: نَعَم الرِّيحُ. قَالُوا: يَارَبِّ فَهَلْ مِنْ خَلْقِكَ شَيْءٌ أَشَدُّ مِنَ الرِّيحِ؟ قَالَ: نَعَمْ ابْنُ آدَمَ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ بيمينِهِ يُخْفِيهَا مِنْ شِمَالِهِ**».

قال أبو عيسى: «هذا حديث غريب، لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه».

شرح الحديث

وهذا الحديث الشريف يتفق روحًا ومعنى مع قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: 32، 33].

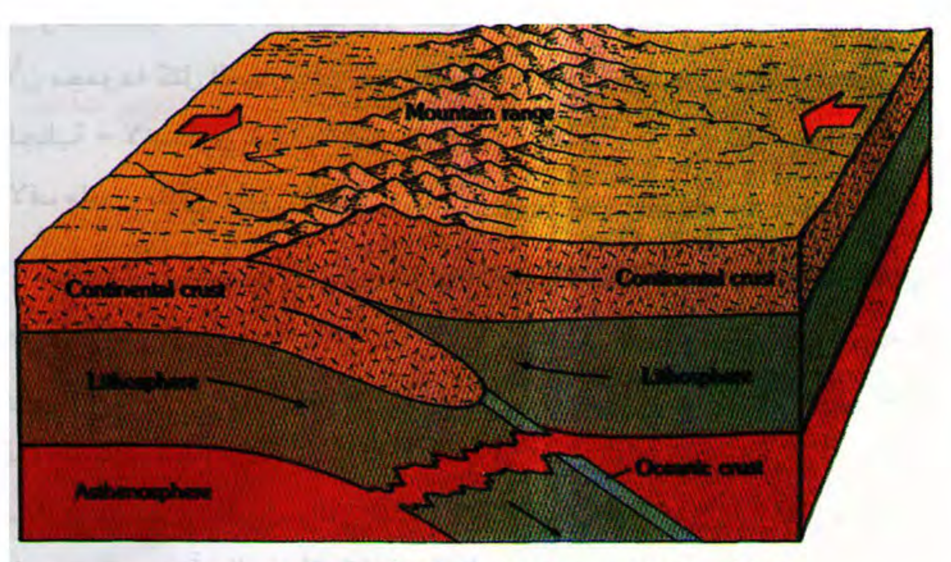
وقد تكرر هذا المعنى في تسعة مواضع أخرى من كتاب الله العزيز (الرعد: 3، الحجر: 19، النحل: 15، الأنبياء: 31، النمل: 61، لقمان: 10، فصلت: 10، ق: 7، المرسلات: 27) مما يدل على أهميته في تهيئة الأرض للعمران.

ولفظة (الأرض) ترد في القرآن الكريم، وفي أحاديث رسول الله ﷺ بمدلولات ثلاثة حسب مفهوم السياق، فهي ترد أحيانًا للدلالة على الكوكب الأرضي ككل، وأحيانًا ترد بمدلول كتل اليابسة التي نحيا عليها (الغلاف الصخري للأرض)، وأحيانًا أخرى يقصد بها التربة التي تغطي صخور اليابسة.

وقد اختلف العلماء في فهم دور الجبال في إرساء الأرض اختلافًا كبيرًا؛ وذلك لأن مجموعة كتل الجبال على سطح الأرض – على الرغم من ضخامة تلك الكتل الجبلية – لا يساوي شيئًا بالنسبة إلى كتلة كوكب الأرض والمقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن.

كذلك فإن ارتفاعات الجبال – على تعاظمها – لا تساوي شيئًا بالنسبة إلى طول نصف قطر الأرض؛ وذلك لأن الفرق بين أعلى قمة جبلية على سطح اليابسة وهي قمة إفرست، في سلسلة جبال الهيمالايا والتي يبلغ ارتفاعها (8848 مترًا) فوق مستوى سطح البحر، وبين أعمق بقعة في أغوار المحيطات وهي غور ماريانا بالقرب من جزر الفلبين، والتي تبلغ في العمق أكثر قليلاً من أحد عشر كيلومترًا تحت مستوى سطح البحر لا يكاد يصل إلى عشرين كيلومترًا (19,715 كيلو متر) بينما يبلغ نصف القطر الاستوائي للأرض 6378,160 كيلو متر، وهنا تتضح ضآلة تضاريس الأرض بالنسبة إلى نصف قطرها ونسبتها لا تكاد تتعدى 3,-٪.

وهنا يبرز التساؤل المنطقي: كيف يمكن للجبال أن تثبت الأرض وكتلتها وأبعادها بهذه الضآلة إذا ما قورنت بكتلة وأبعاد الأرض؟ والجواب لم يكن ممكنًا قبل أواسط الستينيات من القرن العشرين حين اتضح لنا أن الغلاف الصخري للأرض ممزق بشبكة هائلة من الصدوع التي تمتد لعشرات الآلاف من الكيلو مترات، وهذه الصدوع محيطة بالأرض إحاطة كاملة بعمق يتراوح بين 65 و150 كم في المتوسط، فتؤدي إلى تمزيق هذا الغلاف إلى عدد من الألواح الصخرية المعزولة بعضها عن البعض بمستويات تلك الصدوع. وتطفو ألواح الغلاف الصخري للأرض فوق طبقة لدنة، شبه منصهرة، عالية الكثافة واللزوجة، تعرف باسم نطاق الضعف الأرضي. وفي هذا النطاق تنشط التيارات الحرارية على هيئة دوامات عاتية من تيارات الحمل التي تدفع بألواح الغلاف الصخري للأرض متباعدة بعضها عن البعض، أو مصطدمة بعضها بالبعض بسرعات لا تسمح بعمرانها على الإطلاق.



شكل (8) رسم تخطيطي يوضح كيفية إرساء حركة ألواح الغلاف الصخري للأرض بتكون الجبال التي تثبت بجذورها أحد اللوحين في الآخر

وهذه الحركات لألواح الغلاف الصخري للأرض لا يُهَدِّئ من عُنْفِها إلا تَكَوُّن السلاسل الجبلية نتيجة لتصادم ألواح الغلاف الصخري للأرض. وهذه السلاسل الجبلية تتكون على مراحل متتالية حتى تصل إلى مرحلتها النهائية باستهلاك قاع المحيط الفاصل بين قارتين استهلاكًا كاملاً، وذلك بدفع إحدى القارتين له تحت القارة الأخرى، حتى تصطدم القارتان، وينتج عن ذلك تضاغط وتكسر الصخور المتجمعة بينهما على هيئة سلاسل جبلية عظيمة، تمتد بأوتادها لتثبت صخور إحدى القارتين بصخور الأخرى، كما يثبت الوتد أركان الخيمة بالأرض، كما قد حدث بتحرك الهند في اتجاه القارة الآسيوية، حتى اصطدمتا ونتج عن ذلك تكوُّن جبال الهيمالايا كأحدث سلسلة جبلية على سطح الأرض، وأعلاها ارتفاعًا.

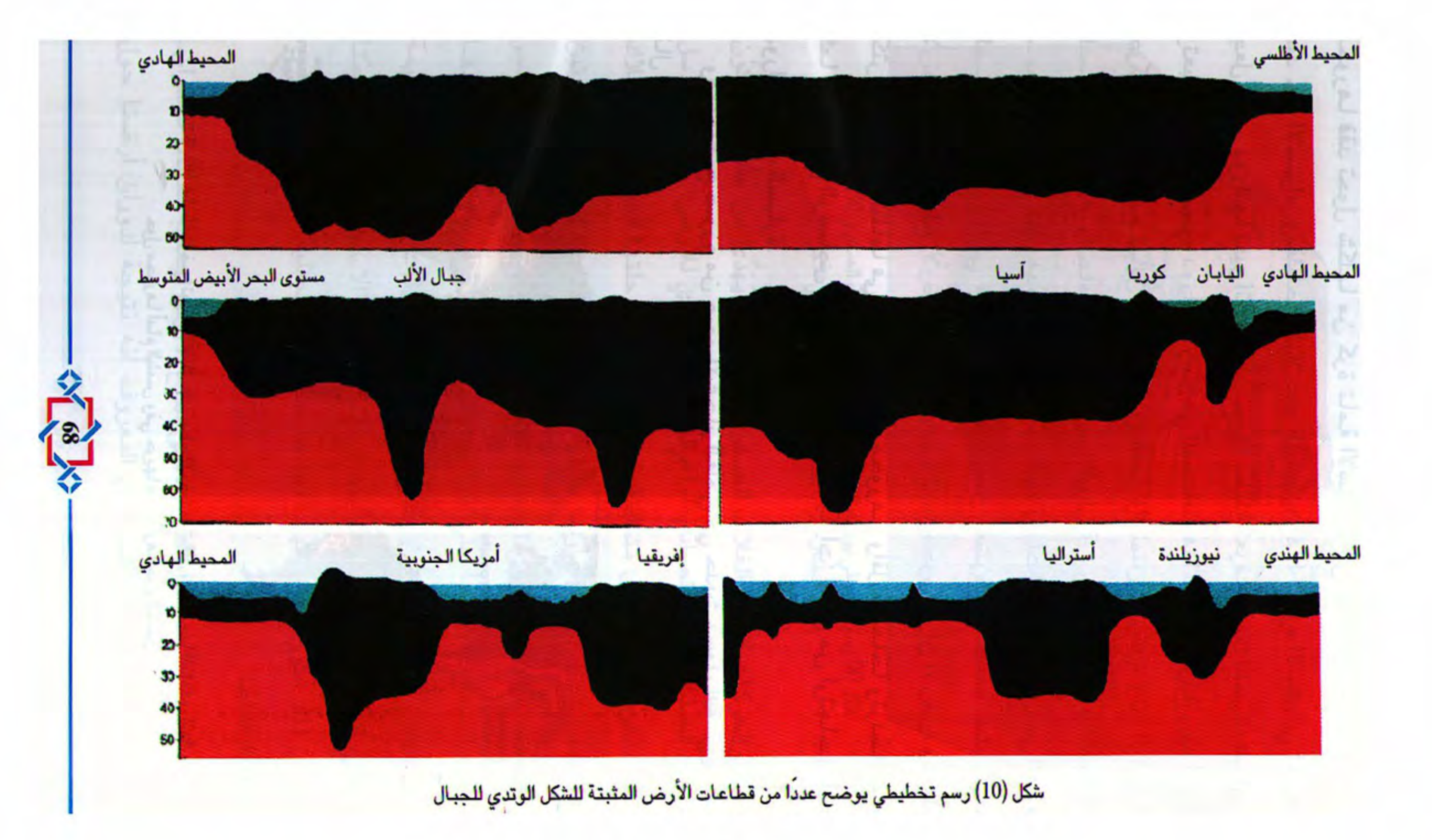
هذا بالنسبة لتثبيت كتل القارات على سطح الأرض لجعلها صالحة للعمران.. أما بالنسبة للأرض ككوكب، فمن المعروف أنه نتيجة لدوران أرضنا حول

محورها فقد تحول شكلها من كرة تامة الاستدارة إلى شبه كرة، منبعجة قليلاً عند خط الاستواء، ومفلطحة قليلاً عند القطبين، وهذا النتوء الاستوائي للأرض جعل محور دورانها يغير اتجاهه في حركة بطيئة تعرف باسم: (الحركة البدارية) وتعبر عن حركة محور دوران الأرض في الفضاء، وهذا المحور يترنح ويتمايل في حركات مختلفة مع تباين جذب كل من القمر والشمس للأرض، ومع المتغيرات المستمرة في مقدار واتجاه قوتي كل منهما البدارية، ووضع الأرض بالنسبة لكل منهما، ويقلل من عنف هذه الحركات وجود الجبال ذات الجذور الغائرة في الغلاف الصخري للأرض (التي تمتد في عمق الأرض بعشرة إلى خمسة عشر ضعفًا لارتفاعها فوق سطح الأرض) فتقلل من شدة ترنح محور دوران الأرض، وتجعلها أكثر استقرارًا وانتظامًا في دورانها حول محورها، وأقل ارتجاجًا وترنحًا، تمامًا كما تفعل قطع الرصاص حول أطر عجلات السيارات؛ لتقلل من ارتجاجها أثناء دورانها تحت السيارة.

وهنا تتضح صورة من صور الإعجاز العلمي في حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه:



شكل (9) خارطة توضح توزيع الجبال على سطح الأرض بما يقلل من ترنحها أثناء دورانها حول محورها أمام الشمس وفي جريها في مدارها حول الشمس

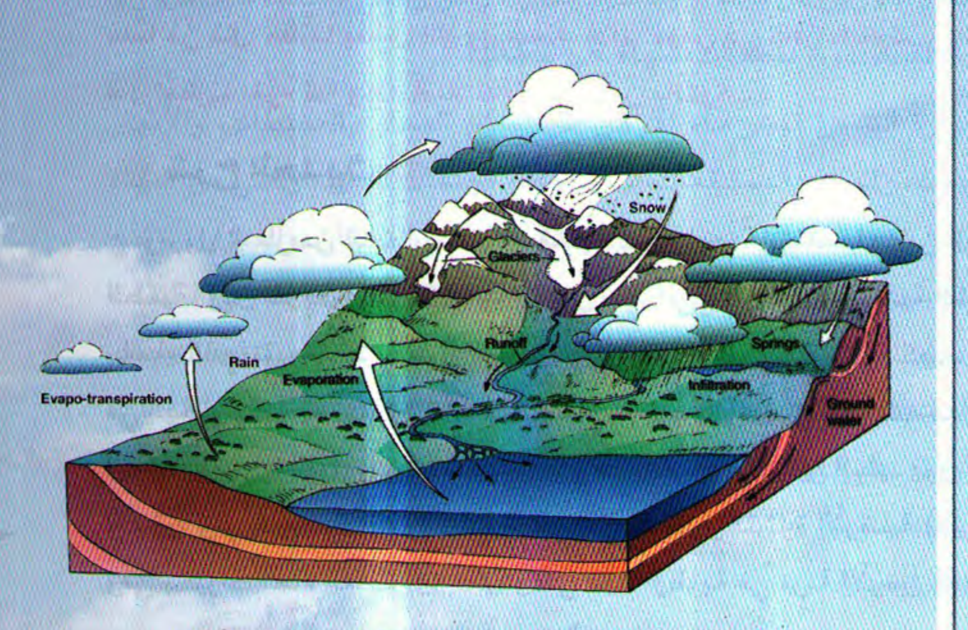


شكل (10) رسم تخطيطي يوضح عددًا من قطاعات الأرض المثبتة للشكل الوتدي للجبال

«عندما خلق الله الأرض جعلت تميد، فأرْساها بالجبال» والحديث الشريف يتفق نصًا ومعنى مع آيات قرآنية كريمة (سبقت الإشارة إليها)، فسبحان الذي أنزل القرآن من قبل أربعة عشر قرنًا بهذه الحقيقة العلمية المبهرة، وألهمها خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فصاغها هذه الصياغة المعجزة (وقد أوتي جوامع الكلم)، ولم يتوصل الإنسان إلي شيء من هذا الفهم لوظيفة الجبال إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ولا يمكن لعاقل أن يتصور أن هذه الحقيقة العلمية، والعديد غيرها من الحقائق التي جاءت على لسان هذا النبي الأمي (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، والذي بعث من قبل ألف وأربعمائة سنة، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين – كان لها من مصدر غير الله الخالق، فلم يكن لأحد من الخلق أي إدراك لتلك الحقيقة قبل العقود المتأخرة من القرن العشرين. وإن ورودها في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ بهذه الصياغة الدقيقة المحكمة لمما يشهد لهذا النبي الخاتم والرسول الخاتم بالنبوة والرسالة، ويشهد للوحي الذي تلقاه بأنه كلام الله الخالق، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض.

الحديـث الخامـس

المطــر
فضــلٌ مــن اللّــه ورحمــة



شكل (11) رسم تخطيطي يوضح دورة الماء حول الأرض

5 المطـر فضـل مـن الله ورحمـة

أخرج البخاري في صحيحه (حديث رقم: 810) قال:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُالله بْنُ مَسْلَمَةَ، عن مَالِكٍ، عن صَالِحِ بْنِ كَيْسَانَ، عن عُبَيْدِ الله ابْنِ عَبْدِ الله بْنِ عُتْبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ، عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلَةِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قال ربُكم: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ومُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وأخرج أبو داود في سننه (حديث رقم: 3906) قال:

■ حَدَّثَنَا الْقَعْنَبِيُّ، عن مَالِكٍ، عن صَالِحِ بنِ كَيْسَانَ، عن عُبَيْدِ الله بْن عَبْد الله، عن زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجهَنِيِّ أَنَّهُ قَالَ: «صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ في إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَبِرَحْمَتِهِ. فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا. فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

شرح الحديث

ونزول المطر من السحاب لا يزال قضية غير مفهومة بتفاصيلها من الوجهة العلمية، وكل ما يعرفه العلماء أن الأرض هي أغنى كواكب المجموعة الشمسية بالماء الذي تقدر كميته بحوالي (1360 – 1385) مليون كيلو متر مكعب، أغلبه في البحار والمحيطات (97,2٪)، وأقله ماء عذب حوالي (2,8٪)، وأغلب هذا الماء العذب (2,052٪ إلى 2,150٪) محبوس على هيئة سمك هائل من الجليد فوق قطبي الأرض وفي قمم الجبال، والباقي مختزن في صخور القشرة الأرضية (27,–٪)، وفي بحيرات الماء العذب (33,–٪) وعلى هيئة رطوبة في تربة الأرض (18,–٪)

وعلى هيئة رطوبة كذلك في الغلاف الغازي للأرض (036,-٪) وأقل ذلك كله هي المياه الجارية في الأنهار والجداول (0047,-٪).

وهذا الماء الأرضي أخرجه ربنا - تبارك وتعالى - كله من داخل الأرض عن طريق ثورة البراكين، ووزعه بتقدير حكيم، وأداره في دورة منضبطة بين الأرض وغلافها الغازي (السماء)، ولولا هذه الدورة المحكمة لفسد ماء الأرض؛ لوجود بلايين البلايين من الكائنات الحية التي تحيا وتموت في مختلف الأوساط المائية في كل لحظة، والتي كان من الممكن أن تُحَوِّل هذا الماء إلى ماء عفن آسن، لولا دورته حول الأرض بالتبخير الذي يصفيه مما فيه من أملاح وملوثات.

وقد اقتضت مشيئة الله الخالق - جل وعلا - أن يسكن في الأرض هذا القدر المحدد من الماء، وأن يوزعه بدقة بالغة بين البحار والمحيطات، والأنهار والبحيرات، وأن يختزن جزءًا منه في صخور القشرة الأرضية، أو يحبسه على هيئة المجالد في قمم الجبال وفوق القطبين، أو ينشره برقة على هيئة درجة من الرطوبة في كل من الجو وتربة الأرض، وهذا كله بالقدر المنضبط الكافي لمتطلبات الحياة الأرضية، وللتوازن الحراري على سطح الأرض من مكان إلى آخر ومن فصل مناخي إلى آخر. وهذا القدر الموزون من الماء لو زاد قليلاً لغمر الأرض وغطى سطحها بالكامل، ولو قلَّ قليلاً لقصر دون متطلبات الحياة على سطحها.

وحرارة الشمس تبخر ماء الأرض من أسطح البحار والمحيطات، والأنهار والبحيرات، والبرك والمستنقعات، ومن أسطح تجمعات الجليد، وحتى من المياه المختزنة تحت سطح الأرض، ومن تنفُّس كل من الإنسان والحيوان، ونتْح النباتات، وغير ذلك من مختلف مصادر المياه، فيرتفع بخار الماء إلى الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض (نطاق المناخ) الذي تتناقص فيه درجات الحرارة مع الارتفاع، ويقل الضغط، مما يساعد على تكثف بخار الماء الصاعد من الأرض على نوى دقيقة من الغبار العالق بالهواء تعرف باسم: (نوى التكثف)، مما يعين على عودة ماء الأرض إليها على هيئة مطر أو برد أو ثلج أو ضباب أو ندى.

ويتبخر من ماء الأرض 380 ألف كيلو متر مكعب في كل سنة، أغلبها (320 ألف كيلو متر مكعب) من أسطح البحار والمحيطات، وأقلها (60 ألف كيلو متر مكعب) من أسطح اليابسة، وتعود هذه الكمية إلى الأرض بمعدلات مختلفة (284 ألف كيلو متر مكعب على البحار والمحيطات، 96 ألف كيلو متر مكعب على اليابسة) ويفيض الفارق في الحالتين (36 ألف كيلو متر مكعب) من اليابسة إلى البحار والمحيطات، بعد أن يكون قد أدى دوره في ري النباتات والحيوانات والأناسي، وفي تفتيت صخور الأرض، وتكوين التربة وتركيز العديد من الخامات الرسوبية، وفي شق المجاري المائية والفجاج والسبل، وفي تلطيف الجو وترطيبه.

وأكرر القول بأن نزول المطر من السحاب يبقى عملية معقدة وغير مفهومة علميًّا بتفاصيلها الدقيقة؛ وذلك لأنها تتم بعدد من العمليات المشاهدة وغير المشاهدة بطريقة مباشرة؛ ولذلك وُضعت لها أعداد من الفروض والنظريات، منها: تأثير حركة الرياح الأرضية، والغبار الذي تثيره من فوق سطح الأرض، ومنها الشحنات الكهربية في السحابة الواحدة أو بين السحب المنفصلة عند التقائها وتصادمها مع بعضها البعض، ومنها تأثير الرياح الشمسية على أغلفة الأرض وأجوائها المختلفة، وفوق ذلك وقبله وبعده إرادة الخالق العظيم، كما هو واضح من توجيه الحديث النبوي الشريف الذي نحن بصدده.

ومن المعروف أن نسبة الماء في السحب ضئيلة جدًّا؛ إذ لا تتعدى 2٪ من مجموع الماء الموجود في الغلاف الجوي للأرض الذي لا تكاد نسبته تتعدى 036,–٪ من مجموع ماء الأرض؛ أي في حدود 00072,–٪ من مجموع ماء الأرض.

ويوجد الماء في نطاق المناخ للأرض على هيئة قطرات صغيرة جدًّا (أكبر قليلاً من الميكرون وهو يساوي 001,– من المليمتر)، وتلتصق تلك القطيرات المائية بالهواء للزوجتها، ولشدة التوتر السطحي للماء، وذلك في السحب العادية التي تحملها الرياح دون أن تسقط مطرًا على الأرض إلا بعد تلقيحها. ويتم تلقيح السحب إما بامتزاج سحابتين إحداهما ساخنة والأخرى باردة، أو تحمل إحداهما شحنة كهربية موجبة والأخرى سالبة، أو بواسطة عدد من الجسيمات الصلبة الدقيقة للغبار الذي تثيره الرياح من فوق سطح الأرض وتلقح به السحب فتعين على

تكثف بخار الماء فوق أسطح تلك الهباءات الدقيقة من الغبار وغيره من الجسيمات الصلبة وهطوله مطرًا بإذن الله، حيثما يشاء وحينما يشاء.

والمطر عادة ينزل بقطيرات دقيقة (لا يكاد يتعدى قطر الواحدة منها 001,– من المليمتر) ولكنه قد ينزل أحيانًا بقطرات كبيرة (يزيد قطرها في بعض الحالات على 4–8 مليمترات)، وتنتج هذه القطرات الكبيرة من تكثف بخار الماء على نوى من الغبار كبيرة نسبيًّا تنمو بالتدريج، حتى تصل إلى تلك الأحجام بتوالي تكثف بخار الماء عليها.

وتوافر هذه الشروط، مجتمعة أو منفردة، يتطلب تقديرًا مسبقًا؛ إذ لا يمكن أن يتم بعشوائية أو مصادفة. ويتضح من ذلك أن تَكَوُّن المطر هو سر من أسرار الكون، لم يتمكن الإنسان من فهمه بعد فهمًا كاملاً، ولكن يد القدرة الإلهية واضحة فيه وضوح الشمس، ويتضح ذلك بشكل أكثر إعجازًا في توزيع المطر على سطح الأرض بإرادة الخالق الحكيم العليم – سبحانه وتعالى – . ومن هنا كان حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده، وكان التفصيل القرآني الذي يقول فيه الحق – تبارك وتعالى–:

1- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 57].

2- ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ [الحجر: 22].

3- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: 21، 22].

4- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىۡءٖ ... ﴾ [الأنعام: 99].

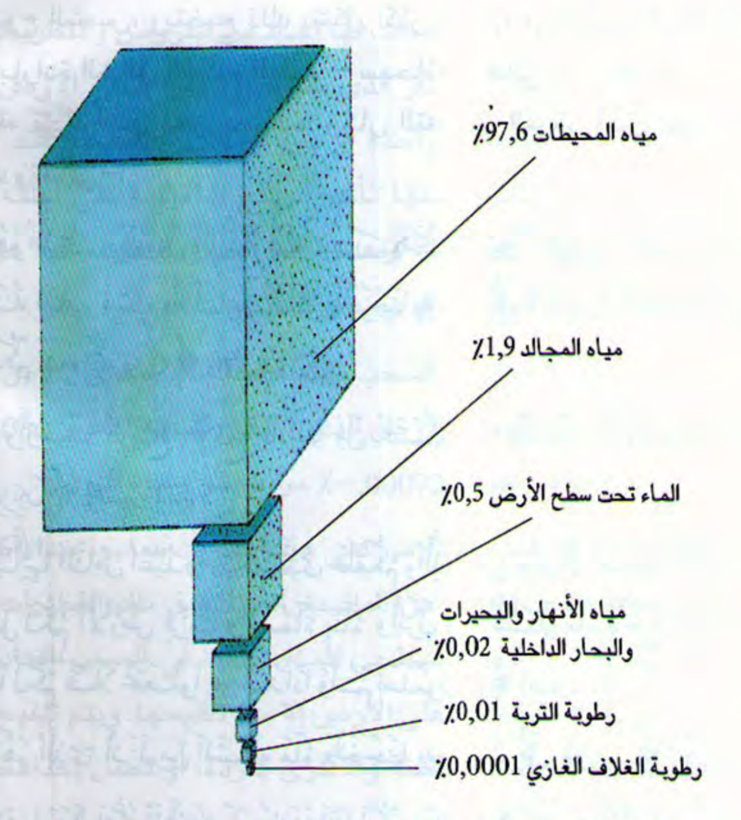
5- ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ ﴾ [طه: 53].

6- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾
[المؤمنون: 18].

7- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾
[الفرقان: 48].

وهذه الآيات الكريمة وغيرها من آي القرآن العظيم تنسب الفعل كله لله (تعالى)، ومن هنا جاء نص حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده داعمًا نبوته ورسالته، وشاهدًا على أنه ﷺ كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول في صفة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ:

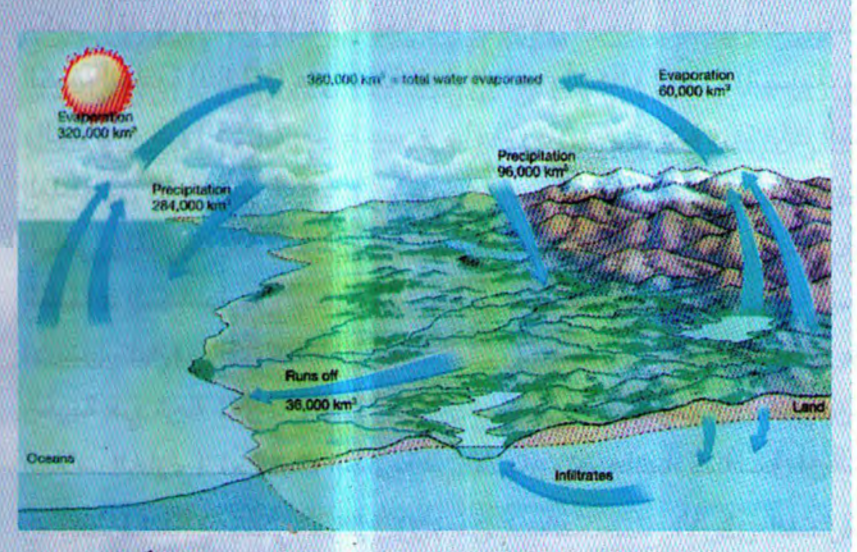
﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3، 4].



شكل (12) رسم تخطيطي يوضح توزيع الماء على سطح الأرض

الحديث السادس

«ما من عام بأقل مطرًا من عام»



شكل (13) رسم تخطيطي يوضح دورة الماء حول الأرض

6 «ما من عام بأقل مطرًا من عام»

أخرج الإمام البيهقي (يرحمه الله) في السنن الكبرى (ج3، ص363 من طبعة الهند) هذا الحديث الشريف الذي رواه ابن مسعود (رضي الله تعالى عنه) عن رسول الله ﷺ، ولفظه: «ما من عام بأقل مطرًا من عام».

وهذا الحديث الشريف أخرجه الحاكم في المستدرك (ج2، ص403 من طبعة الهند) مرويًا عن ابن عباس (رضي الله عنهما) بلفظ: «ما من عام بأمطر من عام ولكن الله يَصْرِفُهُ (أو يُصَرِّفُهُ)»، على الرغم من أن النص الأول موقوف على ابن مسعود، والنص الثاني موقوف على ابن عباس (رضي الله عنا وعنهم أجمعين) مما دفع ببعض دارسي الحديث إلى تضعيف الرفع لعدم فهم دلالته العلمية.

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف الذي ضعفه عدد من علماء السنة النبوية المشرفة يمثل سبقًا علميًا للمعارف الإنسانية بأكثر من ألف وأربعمائة سنة، كما يمثل نصًا رائعًا من نصوص الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ﷺ، ومن هنا تأتي قوته، فقد ثبت علميًا أن كمية الماء على سطح الأرض تقدر بحوالي 1360 مليون كيلو متر مكعب، أغلبها (97,20٪) على هيئة ماء مالح في البحار والمحيطات، بينما تتجمع الكمية الباقية (2,80٪) على هيئة الماء العذب بأشكاله الثلاثة (الصلبة، والسائلة، والغازية)، منها 2,15٪ من مجموع ماء الأرض على هيئة تراكمات الجليد فوق المنطقتين القطبيتين الشمالية والجنوبية من الأرض وعلى قمم جبالها، والماء الباقي وتقدر كميته بحوالي 65,–٪ من مجموع مياه الأرض يختزن أغلبه في الطبقات المسامية من صخور القشرة الأرضية على هيئة ماء مخزون تحت سطح الأرض، تليه في الكثرة النسبية مياه البحيرات العذبة، ثم الماء المختزن على هيئة رطوبة في تربة الأرض، ويليه بخار الماء في الغلاف الغازي للأرض (رطوبة الغلاف الغازي)، ثم المياه الجارية في الأنهار وتفرعاتها، كما سبق أن أسلفنا.

والماء المالح يغطي حوالي 71٪ من مساحة سطح الأرض المقدرة بحوالي 510 ملايين كيلومتر مربع، أي إن مساحة المسطحات المائية فوق الأرض

تقدر بحوالي (361 مليون كيلو متر مربع)، بينما تقدر مساحة اليابسة بحوالي (149 مليون كيلومتر مربع) فقط.

وعلى ذلك، فإن معدل البخر من أسطح البحار والمحيطات يقدر بحوالي (320,000 كيلو متر مكعب) من الماء في كل عام، بينما يقدر معدل البخر من اليابسة بحوالي 60,000 كيلو متر مكعب، وبجمع هذين الرقمين يتضح أن دورة الماء بين الأرض وغلافها الغازي تشمل (380,000 كيلو متر مكعب) في السنة، وأغلب هذه الكمية يتبخر من المناطق الاستوائية حيث يصل متوسط درجة الحرارة السنوي إلى 25 درجة مئوية.

وعندما يتبخر الماء من أسطح كل من البحار والمحيطات واليابسة الأرضية فإنه يرتفع بفعل قلة كثافته، ويدفع التيارات الهوائية له إلى النطاق الأسفل من الغلاف الغازي للأرض (نطاق التغيرات المناخية)، وهو يتميز بالتبرد مع الارتفاع حتى تصل درجة حرارته إلى (60) درجة مئوية تحت الصفر فوق خط الاستواء، وفي هذا النطاق البارد يتكثف بخار الماء الصاعد من الأرض ويعود إليها بإذن الله – تعالى – مطرًا أو ثلجًا، أو بردًا، أو طلاً (على هيئة الشَّبُورة أو الندى).

والماء في عودته إلى الأرض يُصَرِّفُهُ الله – تعالى – بحكمة بالغة حيث يُنزل على اليابسة قدرًا أعلى مما يتبخر من أسطحها (96,000 كيلو متر مكعب مقابل 60,000 كيلو متر مكعب مجموع المتبخر منها)، بينما يُنزل على البحار والمحيطات قدرًا أقل مما يتبخر من أسطحها (284,000 كيلو متر مكعب مقابل 320,000 كيلو متر مكعب يتبخر منها)، والفارق بين هذين الرقمين هو نفس الفارق بين كميتي المطر والبخر على اليابسة، ويقدر بحوالي (36,000 كيلو متر مكعب من الماء) يفيض من اليابسة إلى البحار والمحيطات في كل عام بعد أن يكون قد أدى دوره على سطح اليابسة من تفتيتٍ للصخور، وتكوينٍ للتربة، وشقّ للفجاج والسبل، وتسويةٍ لسطح الأرض، وتركيزٍ للعديد من الخامات الرسوبية، وريٍّ للإنسان والحيوان والنبات، وخزنٍ لبعض الماء في صخور الأرض، وترطيبٍ لكل من الغلاف الغازي والتربة، وازدهارٍ للحياة.

ودورة الماء حول الأرض دورة معجزة تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وإحكام الخلق، فكميتها في مجموعها ثابتة، ومحسوبة بما يكفي متطلبات

الحياة على الأرض، والدورة ذاتها بين البخر والتكثف والمطر تعمل على تنقية مياه الأرض التي يحيا ويموت فيها بلايين الأفراد من صور الحياة المختلفة في كل لحظة، وهي تعمل على حفظ التوازن الحراري على سطح الأرض، وعلى التقليل من شدة حرارة الشمس في الصيف، فتعمل بذلك على تقليل الفرق بين درجتي الحرارة صيفًا وشتاءً؛ وذلك لصون الحياة الأرضية بمختلف أشكالها.

ولما كان مجموع ما يتبخر من ماء الأرض إلى غلافها الغازي ثابتًا في كل عام، وكان مجموع ما يحمل هذا الغلاف الغازي من بخار الماء ثابتًا كذلك على مدار السنة، فإن مجموع ما ينزل من مطر إلى الأرض يبقى ثابتًا في كل سنة، وإن تباينت كميات سقوطه من مكان إلى آخر حسب مشيئة الله. ويبلغ متوسط سقوط المطر على سطح الأرض اليوم 85,7 سنتيمتر مكعب في السنة، وتتراوح كمياته بين الصفر في المناطق الصحراوية الجافة والقاحلة و11,45 متر مكعب في السنة في جزر هاواي.

وهذه الملاحظات الدقيقة التي لم يستطع الإنسان الوصول إليها إلا في أواخر القرن العشرين سبقتها بأربعة عشر قرنًا أو يزيد أحاديث رسول الله ﷺ التي قال فيها: «ما من عام بأقل مطرًا من عام». وقال ﷺ : «ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يَصْرِفُهُ (أو يُصَرِّفُهُ)». وهذه الحقيقة العلمية التي نطق بها خاتم الأنبياء والمرسلين لا يمكن أن يكون لها مصدر إلا وحي السماء، فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم وعلى آله وصحبه وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث السابع

«... ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا اللّه...»



شكل (14) صورة للبرق المصاحب للأمطار من السحب الركامية

7 «... ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله...»

هذا النص المعجز من كلام رسول الله ﷺ جاء ضمن حديث عبدالله بن عمر (رضي الله تبارك وتعالى عنهما) الذي يروي فيه قول رسول الله ﷺ:

«مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمُها إلا الله: لا يعلمُ ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلمُ ما تَغِيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلا الله»

(صحيح البخاري: حديث رقم: 4382)

■ وجاء الحديث في صحيح الإمام البخاري أيضًا (كتاب التوحيد – رقم: 6831) بسنده بالنص التالي:

حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ مَخْلَدٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بلالٍ حَدَّثَنِي عَبْدُالله بْنُ دينَارٍ عَن ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمُها إلا الله: لا يعلمُ ما تَغِيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يعلمُ ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلا الله، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلا الله».

■ وجاء الحديث أيضًا في مسند الإمام أحمد (حديث رقم: 3477) بسنده:

حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ شُعْبَةَ حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ سَلَمَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُالله: «أوتِيَ نَبِيُكُمْ مَفَاتِيحَ كُلِّ شَيْءٍ غَيْرَ خَمْسٍ: إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا في الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، ومَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ».

■ وجاء الحديث (تحت رقم: 4536) بسند آخر، قال:

حَدَّثَنَا وَكِيعٌ حدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ دِينَار عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَفَاتِيحُ الْغَيبِ خَمْسٌ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ الله: إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعةِ، ويُنَزِّل الغَيْثَ، ويَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إن الله عَلِيمٌ خَبِير».

■ كذلك أخرج الإمام البخاري في صحيحه (كتاب تفسير القرآن حديث رقم: 4328) بسند صحيح ما نصه:

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمُنْذِرِ حَدَّثَنَا مَعْنٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَنْ عَبْدِالله بْنِ دِينَارٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مفاتحُ الغيبِ خمسٌ لا يعلمُها إلا الله: لا يعلمُ ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلمُ ما تَغِيضُ الأرحامُ إلا الله، ولا يعلمُ متى يأتي المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، ولا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلا الله».

شرح النص المختار من الحديث

هذه القضايا الخمس من قضايا الغيب تحتاج إلى مجلدات للتعليق على حقيقة غيبيتها غيبية مطلقة لا يعلمها إلا الله - سبحانه وتعالى - ولذلك فسوف أقصر حديثي هنا على القضية الثالثة: «.. **ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله...**».

وذلك لأن المطر من الرزق، والرزق لا يهبه إلا الله، وقد يكون - أحيانًا - من صور العذاب، ولا يُنزل العذاب إلا الله، ولأن نزول المطر عملية معقدة للغاية، يدخل في تحقيقها من العوامل ما لا سلطان لأحد من المخلوقين عليه، وما لا يمكن لمخلوق أن يتحكم فيه؛ وذلك لأن إنزال المطر يتم بواسطة العديد من التفاعلات الطبيعية والكيميائية غير المعروفة بالكامل، من بينها تصريف الرياح، وتبخير الماء من الأوساط المائية، وتجميع بخار الماء المنطلق من جميع الأنشطة الحياتية، ونقله بواسطة الرياح التي تثير السحاب، وتؤلف بينه وتبسطه في السماء، أو تركمه إلى أعلى نطاق الرجع من الغلاف الغازي، وتستمر في تلقيحه بمزيد من بخار الماء الذي يثريه، وبهباءات الغبار التي تعمل كنوى للتكثف فيه فتعمل على نمو قطيرات الماء حتى تصل إلى الحجم المناسب لهطول المطر أو البرد أو الثلج. كل ذلك والسحاب في حركة دائبة لا يحكمها إلا الله - تعالى - الذي يصرفه بعلمه وحكمته وقدرته، فلا يعلم إلا الله - سبحانه وتعالى - أين يُنزل مطره، ولا كمّ المطر النازل، ولا متى ينزل هذا المطر، وهل سيكون رحمة من الله أم عذابًا.

ومن العوامل المتحكمة في هذه العملية المعقدة، كمُّ ونوعُ الشحنات الكهربية في السحابة الواحدة، وفي السحب المتصادمة ، وأثر الرياح الشمسية على أجواء الأرض، وغير ذلك من العوامل المعروفة وغير المعروفة لنا ..!

أضف إلى ذلك أن السحب لا تحمل في أي وقت من الأوقات أكثر من 2٪ من بخار الماء الموجود في الغلاف الغازي للأرض، والمقدر بحوالي (15000) كيلو متر مكعب، ويوجد الماء فيها على هيئة قطيرات متناهية الضآلة في الحجم لا تكاد تتعدى الواحد من ألف من المليّمتر في أطوال أقطارها، وتلتصق هذه القطيرات الدقيقة بجزيئات الهواء للزوجتها العالية؛ ولذلك فهي لا تسقط مطرًا إلا إذا تم تلقيحها بمزيد من بخار الماء وتم تلقيح السحاب بهباءات الغبار التي تثيرها الرياح من فوق سطح الأرض وبغير ذلك من نوى التكثف فتعين على إنزال الماء منها بإذن الله، وقد يتم ذلك بامتزاج السحب (أي التأليف بينها) مع اختلافها في درجات الحرارة، والرطوبة، والشحنات الكهربية وغير ذلك من الصفات.

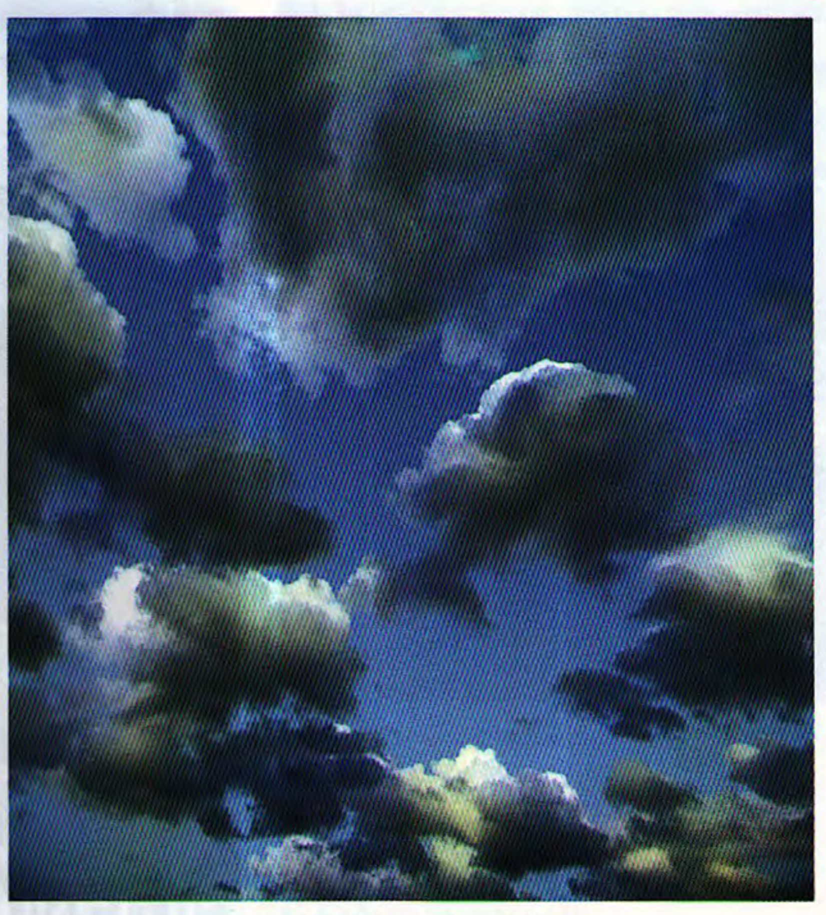
ومن هنا يتضح أن إنزال المطر هو في حقيقته سر من أسرار الكون لا يعلمه ولا يرتبه إلا الله – تعالى – وإن جاهد العلماء جهادًا مضنيًا في محاولة فهم



شكل (15) صورة للسحب الركامية الممطرة.

كيفية تكوُّن ونزول المطر من السحب المختلفة المحملة ببخار الماء وقطيراته، إلا أن العملية تبقى خارجة تمامًا عن طاقة القدرة الإنسانية مهما تطورت معارف الإنسان، وارتقت تقنياته.

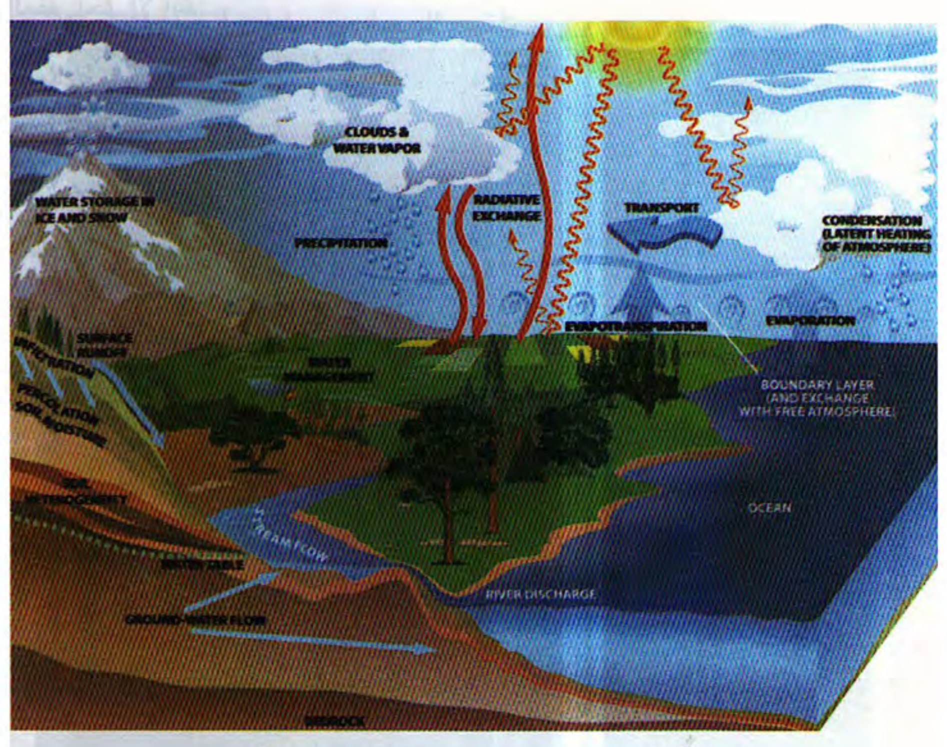
ويؤكد ذلك أن كل محاولات استمطار السحاب برشه بعدد من المركبات الكيميائية التي لها قابلية شديدة للماء مع نجاحها في بعض الأحيان، إلا أن القائمين بها بقوا عاجزين كل العجز عن التحكم في أماكن إمطارها تأكيدًا لهذه الحقيقة التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «... **ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله...**».



شكل (16) صورة للسحب الركامية الممطرة.

علمًا بأن التنبؤات الجوية بنزول المطر لا تتم إلا قبلها بساعات قليلة، ولا تصدق في كثير من الأحيان.

فسبحان الذي علم خاتم أنبيائه ورسله هذا العلم اللدني الصحيح، وصلى الله وسلم وبارك على النبي الخاتم الذي تلقاه فوعاه، وصاغه لنا بهذه الدقة العلمية المبهرة ليبقى أبد الدهر شاهدًا له بالنبوة وبالرسالة إلى يوم الدين.



شكل (17) رسم تخطيطي يوضح دورة الماء حول الأرض.

الحديـث الثامـن

«مـــاء زمـــزم لمـا شُـرب لــه»



شكل (18) صورة للكعبة المشرفة وحولها الطائفون وتحت أقدامهم بئر زمزم

8 «مــاء زمــزم لمــا شُـــرب لـــه»

■ يروى عن جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شرب له». ويضيف ابن عباس (رضي الله عنهما) في روايته للحديث: «ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تتشفى به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه الله، وهي هزمة جبريل وسقيا الله إسماعيل».

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه ابن ماجه في سننه (حديث رقم: 3062)، قال:

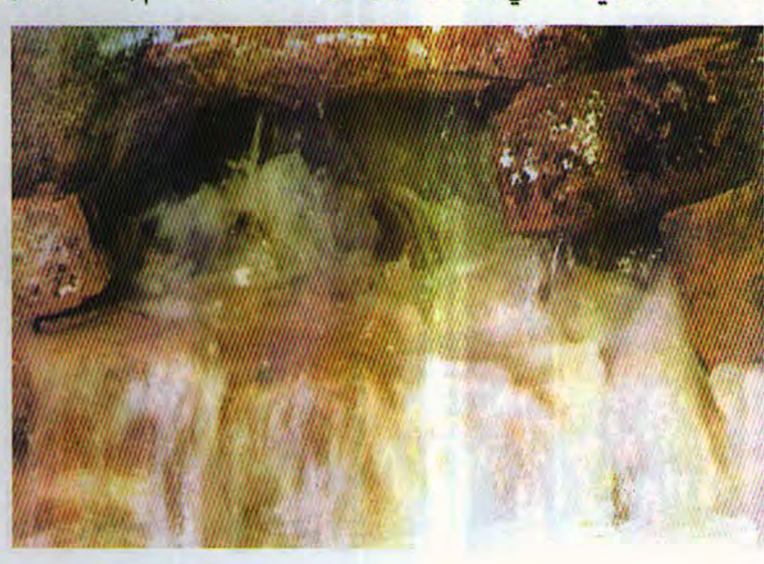
■ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ قَالَ:

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ المؤَمَّلِ إنَّهُ سَمِعَ أَبَا الزُّبَيْرِ يَقُولُ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ»

كذلك رُوي عن هذا النبي الخاتم ﷺ عدد غير قليل من الأحاديث في ماء زمزم، وفضله، ووصف بئره التي قال فيها ﷺ بأنها: «هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل» (سنن الدارقطني حديث رقم: 238).

شرح الحديث

وبئر زمزم فجرها جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمر من الله – تعالى – قبل 3999 سنة من عامنا الهجري الحالي (1427هـ) وكان ذلك؛ تكريمًا لأم إسماعيل ورضيعها اللذين



شكل (19) صورة توضح تدفق الماء إلى بئر زمزم عبر شقوق في الصخور المحيطة بها.

تركهما نبي الله إبراهيم عليه السلام بوادٍ غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، وعندما هَمَّ بالانصراف فزعت هذه السيدة الصالحة من قفر المكان، وخلوه من الماء والنبت والسكان، فجَرَت وراء زوجها تسائله: إلى من تكلنا؟ إلى من تتركنا في هذا المكان القفر؟ قال: إلى الله عز وجل. قالت: قد رضيت بالله - عز وجل - ثم سألته بثقتها فيه، ويقينها بأنه نبي مرسل: آلله أمرك بهذا؟ فأجاب بنعم، واستمر في سيره حتى غاب عن زوجه وولده فاستقبل بوجهه البيت ودعا الله لهما بالأنس والرزق والستر، قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37].

وقفلت أم إسماعيل راجعة وهي تقول: إذن فلن يضيعنا، وردًّا على هذا الإيمان العميق بالله، واليقين الصادق بقدرته ورحمته، ومعيته، أكرمها ربنا - تبارك وتعالى - بتفجير هذه البئر المباركة بغير حول منها ولا قوة!! يقول ابن عباس (رضي الله عنهما): قال أبو القاسم ﷺ: «فحاضته أم إسماعيل بتراب خشية أن يفوتها قبل أن تأتي بشنتها». ويضيف ﷺ: «ولو تركته أم إسماعيل كان عينًا معينًا يجري»

وقال لها جبريل عليه السلام: لا تخافي الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله (الجامع اللطيف للمخزومي).

وكان ذلك سنة 1910 ق.م. أي قبل مولد رسول الله ﷺ بحوالي 2572 سنة.

وخروج بئر وسط صخور نارية ومتحولة معقدة، شديدة التبلور، مصمتة، لا مسامية فيها، ولا نفاذية لها في العادة - أمر لافت للنظر. والذي هو أكبر من ذلك وأكثر أن تظل هذه البئر تتدفق بالماء الزلال على مدى أربعة آلاف سنة تقريبًا على الرغم من وجودها في منطقة قارية قليلة الأمطار، وعلى الرغم من طمرها وحفرها عدة مرات على فترات، ويبلغ معدل تدفق بئر زمزم اليومَ ما بين 11 و 18,5 لتر في الثانية، فهي بئر مباركة، فجرت بمعجزة؛ كرامةً لسيدنا إبراهيم وزوجه وولده (عليهم جميعًا من الله السلام).

ولم يعرف مصدر المياه المتدفقة إلى بئر زمزم إلا بعد حفر الأنفاق حول مكة المكرمة، حين لاحظ العاملون تدفق المياه بغزارة في تلك الأنفاق من تشققات شعرية دقيقة، تمتد لمسافات هائلة بعيدًا عن مكة المكرمة، وفي جميع الاتجاهات من حولها، وهذا يؤكد قول المصطفى ﷺ بأنها نتجت عن طرقة شديدة وصفها بقوله الشريف أنها هي:

«وهي: هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل»، والهزمة في اللغة العربية هي: الطرقة الشديدة. وبئر زمزم هي إحدى المعجزات المادية الملموسة الدالة على كرامة المكان، وعلى مكانة كل من سيدنا إبراهيم، وولده سيدنا إسماعيل، وأمه (الصديقة هاجر) عند رب العالمين، وسيدنا إبراهيم عليه السلام هو خليل الرحمن وأبو الأنبياء الذي أعاد حفر بئر زمزم، وسيدنا إسماعيل هو الذبيح المفتدَى بفضل من الله - تعالى - والذي عاون أباه في رفع قواعد الكعبة المشرفة. وانطلاقًا من كرامة المكان، وعميق إيمان المكرمين فيه، كان شرف ماء زمزم الذي وصفه المصطفى ﷺ بقوله: «ماء زمزم لما شرب له»، وبقوله: «خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعام طعم، وشفاء سقم»[1].

ويروى عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله تبارك وتعالى عنها) أنها كانت تحمل من ماء زمزم كلما زارت مكة المكرمة، وأن رسول الله ﷺ كان يحمل منه كذلك ليسقي المرضى، ويصب على أجزاء أجسادهم المصابة فيشفون وتشفى أجسادهم بإذن الله.

ولقد جاء في كتاب «فيض القدير» في شرح حديث المصطفى ﷺ الذي يقول فيه: «ماء زمزم لما شرب له» ما نَصُّهُ: «وأما قوله (لما شُرب له) فلأنه سقيا الله وغياثه لولد خليله، فبقي غياثًا لمن بعده، فمن شربه بإخلاص وجد ذلك الغوثَ، وقد شربه جمع من العلماء لمطالب فنالوها».

وذكر ابن القيم (رحمه الله) في كتابه (زاد المعاد): «وقد جربت أنا وغيري من الاستشفاء بماء زمزم أمورًا عجيبة، واستشفيت به من عدة أمراض فبرئت بإذن الله، وشاهدت من يتغذى به الأيام ذوات العدد قريبًا من نصف الشهر أو أكثر،

(1) الطبراني: 11167، السلسلة الصحيحة للألباني 1056.

ولا يجد جوعًا»؛ وذلك تصديق لوصف المصطفى ﷺ لهذا الماء المبارك بقوله: «فيه طعام طعم وشفاء سقم»

وذكر الشوكاني (رحمه الله) في كتابه (نيل الأوطار) ما نصه: «قوله: (ماء زمزم لما شُرب له) فيه دليل على أن ماء زمزم ينفع الشارب لأي أمر شربه لأجله، سواء أكان في أمور الدنيا أم الآخرة؛ لأن (ما) في قوله (لما شرب له) من صيغ العموم». هذا وقد دونت في زماننا أحداث كثيرة برئ فيها أعداد من المرضى بأمراض مستعصية بمداومتهم على الارتواء من ماء زمزم.

من خصائص ماء زمزم: أثبتت الدراسات العلمية التي أجريت على ماء بئر زمزم أنه ماء متميز في صفاته الطبيعية والكيميائية، فهو ماء غازي عسر، غني بالعناصر والمركبات الكيميائية النافعة التي تقدر بحوالي (2000) ملليجرام بكل لتر، بينما لا تزيد نسبة الأملاح في مياه آبار مكة وآبار الأودية المجاورة لها على 260 ملليجرامًا بكل لتر؛ مما يوحي ببعد مصادرها عن المصادر المائية حول مكة المكرمة، ويتميزها عنها في محتواها الكيميائي وصفاتها الطبيعية، ومنها أنه يصعب تبلورها بالتبريد حتى يتم تخفيفها إلى ألف ضعف بماء مقطر.



شكل (20) صورة توضح تدفق الماء إلى بئر زمزم عبر شقوق في الصخور المحيطة بها.

والعناصر الكيميائية في ماء زمزم يمكن تقسيمها إلى أيونات موجبة وهي بحسب وفرتها تشمل: أيونات كل من الصوديوم (حوالي 250 ملليجرامًا/لتر)، والكالسيوم (حوالي 200 ملليجرام/لتر)، والبوتاسيوم (حوالي 120 ملليجرامًا/لتر)، والمغنسيوم (حوالي 50 ملليجرامًا/لتر)؛ وأيونات سالبة وتشمل: أيونات كل من الكبريتات (حوالي 372 ملليجرامًا/لتر)، والبيكربونات (حوالي 366 ملليجرامًا/لتر)، والنترات (حوالي 273 ملليجرامًا/لتر)، والفوسفات (حوالي 0.25 ملليجرام/لتر)، والنشادر (حوالي 6 ملليجرامات/لتر). وكل مركب من هذه المركبات الكيميائية له دوره المهم في النشاط الحيوي لخلايا جسم الإنسان، وفي تعويض الناقص منها في داخل تلك الخلايا.

ومن الثابت أن هناك علاقة وطيدة بين اختلال التركيب الكيميائي لجسم الإنسان والعديد من الأمراض. ومن المعروف أن المياه المعدنية الصالحة وغير الصالحة للشرب قد استعملت منذ قرون عديدة في الاستشفاء من عدد من الأمراض، فالمياه المعدنية الصالحة للشرب ثبت دورها في علاج أعداد غير قليلة من الأمراض من مثل حموضة المعدة، وعسر الهضم، وأمراض شرايين القلب التاجية (المتسببة في الذبحة الصدرية أو جلطة الشريان التاجي)، وغيرها. أما المياه المعدنية غير الصالحة للشرب فتفيد في علاج العديد من الأمراض الجلدية، والروماتيزمية، والتهاب العضلات والمفاصل وغيرها، ودورها في ذلك هو في الغالب دور تنشيطي للدورة الدموية، أو دور تعويضي لنقص بعض العناصر في جسم المريض التي يمكن أن تصله عن طريق الجلد.

فسبحان الذي أمر بتفجُّر بئر زمزم من بين صخور مكة المكرمة، وهي صخور معقدة، شديدة التبلور والتحول، مصمتة بلا مسام، فكانت هذه البئر المباركة، وسبحان الذي أمر الماء بالتدفق إليها من مسافات بعيدة، عبر شقوق شعرية دقيقة، وسبحان الذي علم خاتم أنبيائه ورسله بحقيقة ذلك كله، فصاغه في عدد من أحاديثه الشريفة التي بقيت شاهدة له ﷺ بالنبوة وبالرسالة. فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث التاسع

«كانت الكعبة خشعة على الماء، فدحيت منها الأرض»

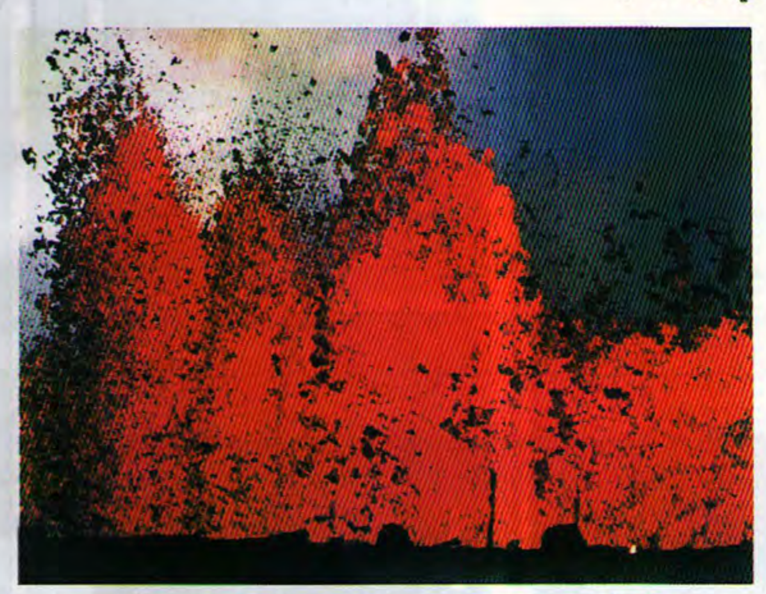


شكل (21) صورة حقيقية للكعبة المشرفة

9 «كانت الكعبة خشعة على الماء، فدحيت منها الأرض»

عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «كانتِ الكعبةُ خُشْعَةً على الماءِ فدُحِيَت منها الأرضُ» . (أخرجه كل من ابن جرير وأبي الشيخ في كتاب «العظمة» عن ابن عباس، وأخرجه كل من أبي الوليد الأزرقي في «تاريخ مكة» عن سعيد بن المسيب، وعبد بن حميد في «مسنده» عن ابن عباس، ومجاهد، وذكره السيوطي في الدر المنثور 310/1).

«والخُشْعَةُ» أكمة لاطئة بالأرض، والجمع «خُشَعٌ». (النهاية في غريب الحديث والأثر، الجزء الثاني ص34، 35).



شكل (22) صورة حقيقية توضح نافورة من اللابة تندفع من الخسف الشرقي لبركان كيلاوايا (Kilauea) بجزر هاواي سنة 1983م.

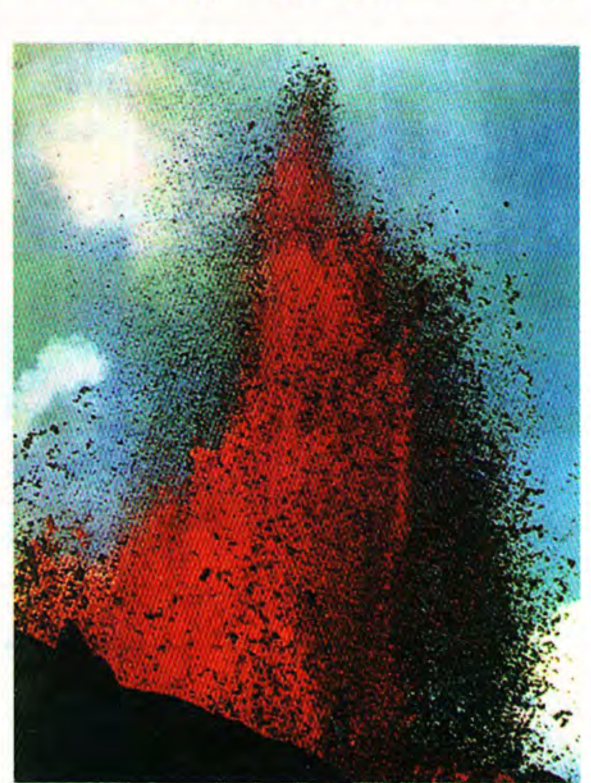
شرح الحديث

هذا الحديث الشريف الذي استغربه العلماء في القديم والحديث يحوي حقيقة علمية لم يدركها الإنسان إلا في منتصف الستينيات من القرن العشرين، فبعد مجاهدة طويلة استغرقت جهود آلاف من العلماء، وقرونًا طويلة من الدراسة ثبت للإنسان أن أرضنا الابتدائية غمرت بالماء غمرًا كاملاً بعد خلقها حتى لم يبق ظاهرا منها شيءٌ من اليابسة.

ثم شاءت إرادة الله – تعالى – أن يفجر قاع هذا المحيط الغامر بثورة بركانية عنيفة ظلت تلقي بالحمم التي تراكمت فوق بعضها البعض مكونة سلسلة جبلية في وسط هذا المحيط الغامر، وظلت هذه السلسلة الجبلية في الارتفاع حتى برزت أعلى قمة فيها فوق سطح الماء مكونة أول جزء من اليابسة، على هيئة جزيرة بركانية تشبه العديد من الجزر البركانية المنتشرة في محيطات اليوم، من مثل جزر اليابان والفلبين وإندونيسيا وهاواي، ولا تزال هذه الجزر البركانية تتكون على هيئة قمم السلاسل الجبلية المحيطية (حواف أواسط المحيطات) في أيامنا هذه.

وباستمرار النشاط البركاني، نمت هذه الجزيرة البركانية الأولية بالتدريج بواسطة عملية الدحو (أي المد والبسط والإلقاء) والإضافة والنمو بواسطة الثورات البركانية المتلاحقة حتى تكونت اليابسة على هيئة قارة واحدة عرفت باسم قارة بانجيا (Pangaea) أو القارة الأم. ولعل هذا من مقاصد الآية الكريمة التي يقول فيها ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: 30].



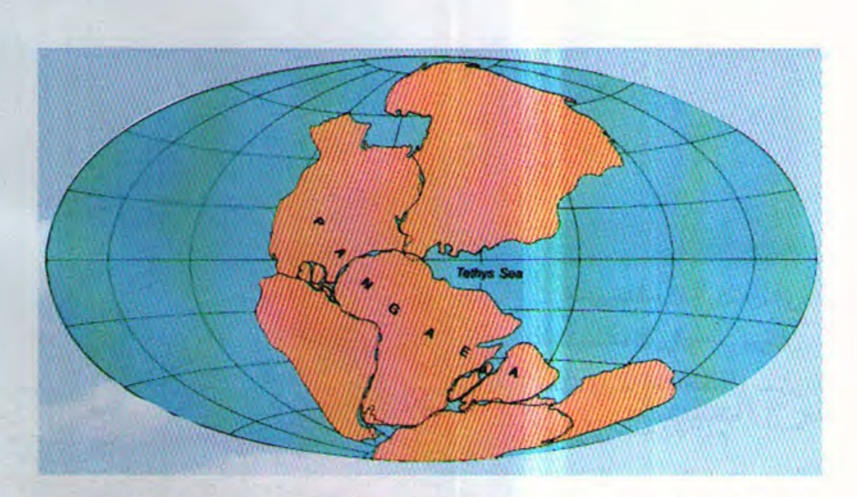


شكل (23)

صورة لثورة البركان في الخسف الشرقي من بركان كيلاوايا (Kilauea) بجزر هاواي سنة 1983م.

ثم شاءت إرادة الله – تعالى – أن يمزق هذه القارة الأم بواسطة شبكة من الصدوع والخسوف الأرضية فتقطعت إلى القارات السبع المعروفة لنا اليوم التي ظلت تتباعد بعضها عن بعض حتى وصلت إلى أوضاعها الحالية، وتسمى هذه العملية باسم «دورة المحيط واليابسة» التي فيها يتحول جزء من قاع المحيط إلى يابسة بواسطة الثورات البركانية المتكررة، كما تنشق اليابسة بواسطة الصدوع والخسوف الأرضية إلى كتلتين متوازيتين يفصلهما بحر طولي من مثل البحر الأحمر يظل يتسع باستمرار حتى يتحول إلى محيط.

وقول رسول الله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذا الحديث المعجز: «كانت الكعبة خشعة على الماء فدحيت منها الأرض» يعتبر سبقًا علميًا معجزًا يشهد له ﷺ بأنه كان موصولاً بالوحي ومُعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق في زمانه ولا لقرون متطاولة من بعده إدراك لشيء من هذه الحقيقة حتى منتصف الستينيات من القرن العشرين.

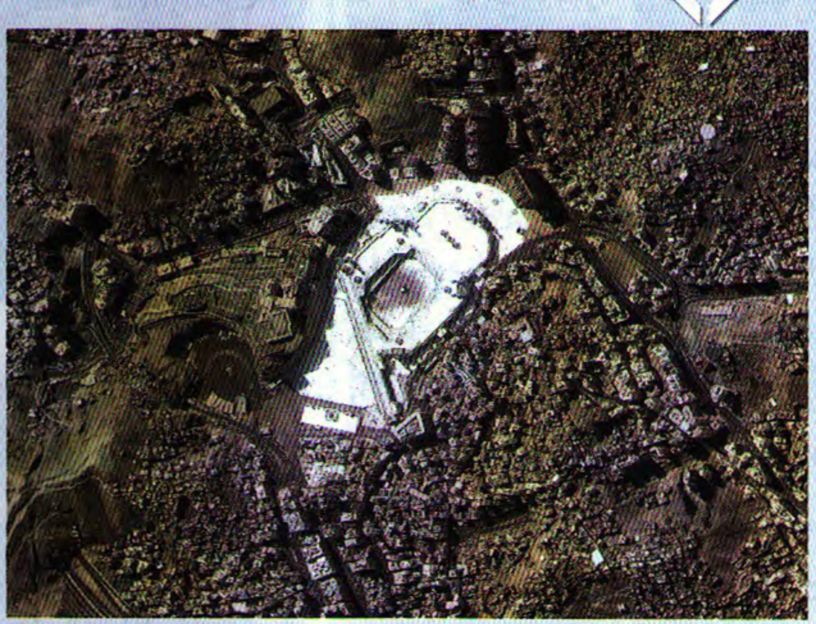


شكل (24) رسم تخطيطي للقارات وهي ملتحمة في كتلة واحدة (القارة الأم) أو أم القارات، وقد دحيت من تحت مكة المكرمة ولذلك بقيت في مركزها

ويزيد الحديث فوق العلم الكسبي حقيقة علمية أخرى مؤداها أن اليابسة تحت الكعبة المشرفة تعتبر أقدم يابسة على وجه الأرض، كما تعتبر أقدم صخور الأرض على الإطلاق، وهو ما لم يتمكن العلم المكتسب من إثباته بعد، وعلى المسلمين أن يحققوا هذه القضية بتحديد العمر المطلق للصخور القائمة تحت الكعبة المشرفة بواسطة العناصر المشعة الموجودة فيها – إن وجدت – حتى يمكن تقديم هذه الحقيقة العلمية للناس كافة من المسلمين وغير المسلمين؛ مما يعتبر وثيقة دامغة في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه، وحجة بالغة على الناس كافة وشهادة مؤكدة بنبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ، وبكرامة هذه البقعة الطاهرة التي اختارها الله – تعالى – بعلمه المحيط ليقام فيها أول بيت وضع للناس في الأرض، وليجعله الله – تعالى – قبلة للمؤمنين، ومحجًّا ومعتمرًا لهم، وليضاعف من بركاته فيجعل الحسنة فيه بمائة ألف ضعف، وليُحَرِّمه ويحرم أرضه يوم خلق السماوات والأرض.

الحديث العاشر

«إن الحرم حرم مَناء من السماوات السبع والأرضين السبع»



شكل (25) صورة من الجو للحرم المكي وهو يقع في واد يبلغ طوله حوالي 30كم ومتوسط عرضه حوالي 20 كم أي أنه يشمل مساحة تقدر بحوالي 600كم مربع حددها جبريل - عليه السلام - يوم خلق الله السماوات والأرض

10 «إن الحرم حرم مَناءٌ من السماوات السبع والأرضين السبع»

رَوَى مجاهدٌ عن رسولِ الله ﷺ قولَه: «إنَّ الحرمَ حرمٌ مَناءٌ من السماوات السبعِ والأرَضِينَ السبعِ». (أخبار مكة عن مجاهد، شعب الإيمان للبيهقي).

شرح الحديث

لفظة مناء معناها قصده وفي حذاه، و«المنا» – مقصور – الذي يوزن به، والتثنية: «منوان» والجمع: «أمْناء»، يقال داري «منا» دار فلان أي في مقابلتها.

■ ومعنى هذا الحديث الشريف أن الكعبة المشرفة هي مركز الكون؛ لأن القرآن الكريم يقابل دومًا بين الأرض والسماوات، على ضآلة حجم الأرض النسبية إذا قورنت بضخامة السماء الدنيا وحدها فضلاً عن السماوات السبع. وهذه المقابلة لا يمكن أن تكون إلا إذا كان للأرض موقع خاص في مركز الكون.

■ ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكره القرآن الكريم في عشرين آية من آياته مؤكدًا وجود بينية تفصل السماوات عن الأرض، وذلك من مثل قوله – تعالى –: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [النبأ: 37]. وجاءت الإشارة إلى هذه البينية الفاصلة فى تسع عشرة آية قرآنية أخرى [المائدة: 17، 18؛ الحجر:85؛ مريم: 65؛ طه: 6؛ الأنبياء: 16؛ الفرقان: 59؛ الشعراء: 24؛ الروم: 8؛ السجدة: 4؛ الصافات: 5؛ ص: 10، 27، 66؛ الزخرف: 85؛ الدخان: 7، 38؛ الأحقاف: 3؛ ق: 38]، وجاءت هذه البينية مرة فاصلة للسماء عن الأرض (السماء والأرض وما بينهما) ومرة أخرى فاصلة بين السماوات والأرض (السماوات والأرض وما بينهما)، ولا يمكن لهذه البينية أن تقوم إلا إذا كانت الأرض فى مركز الكون.

■ دليل ثالث من القرآن الكريم نقرؤه في «سورة الرحمن» حيث يقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: 33، 34].

وقطر أي شكل هندسي هو الخط الواصل بين طرفيه مرورًا بمركزه، ولا يمكن أن تكون أقطار السماوات متطابقة مع أقطار الأرض إلا إذا كانت الأرض في مركز هذه السماوات.

مما سبق يتضح جانب من جوانب الإعجاز العلمي في حديث رسول **الله** ﷺ الذي نحن بصدده والذي يقول فيه: «**إن الحرم حرم مَناء من السماوات السبع والأرضين السبع**».

والأرضون السبع كلها في أرضنا التي نحيا عليها، يغلف الخارج منها الداخل، والسماوات السبع كلها محيطة بنا في تطابق واضح حول الأرض، ويغلف الخارج منها الداخل.

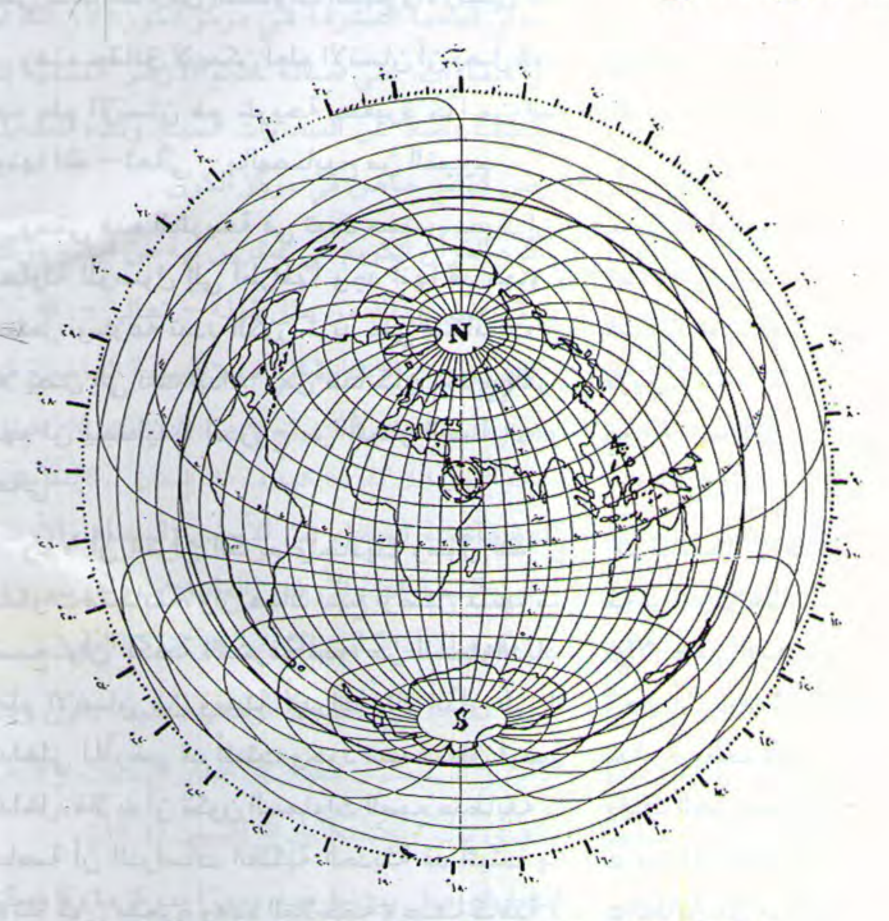
والكعبة المشرفة في وسط الأرض الأولى «أي اليابسة» ومن دونها ست أرضين، وهي بذلك مناء من السماوات السبع والأرضين السبع.

وهذه حقائق لا يمكن لعلم الإنسان أن يصل إليها؛ لأن أقصى ما يمكن أن يصل إليه علم الإنسان هو شريحة صغيرة جدًّا من السماء الدنيا المحيطة بنا والتي زينها **الله** – تعالى – بالمصابيح من النجوم.

وحتى هذه الشريحة في تمدد مستمر بحيث إن الإنسان كلما طور أجهزته في محاولة للوصول إلى أطرافها وجد أنها قد تجاوزته؛ وذلك لأن السماء في تمدد مستمر، وسرعة تمدد الكون تزيد على إمكانيات وتقنيات الإنسان مهما تطورت، فلا يصل إلى ذلك أبدًا...! ومن هنا كان تحدي القرآن الكريم لكل من الإنس والجن أنهم لن يستطيعوا الخروج من أقطار السماوات والأرض إلا بسلطان من **الله** – تعالى– .

ولولا أن القرآن الكريم وأحاديث رسول **الله** ﷺ قد أعلمتنا أن هناك سبع سماوات متطابقة، وأن هناك سبع أرضين مثلها متطابقة في مركز هذه السماوات السبع، وأن الكعبة المشرفة مناء من السماوات السبع والأرضين السبع، ما كان أمام الإنسان من وسيلة لإدراك ذلك أبدًا، على الرغم من أن دراسات التركيب الداخلي للأرض قد أثبتت وجود سبعة نطق أرضية متمايزة يغلف الخارج منها الداخل، فلا بد أن تكون السماوات السبع متطابقة كذلك يغلف الخارج منها الداخل، خاصة أن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت بالعديد من الأدلة الرياضية أن كوننا كونٌ منحنٍ، وهذه الملاحظة وحدها كافية لإثبات تطابق كل من السماوات السبع والأرضين السبع حول مركز واحد هو مركز أرضنا، والذي تتوسط الكعبة المشرفة منها الأرض الأولى، فتكون مَناءً من السماوات السبع والأرضين السبع.

من هنا تتضح لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في قول المصطفى ﷺ: «إن الحرم حرم مَناءٌ من السماوات السبع والأرضين السبع»، وقوله أيضًا ﷺ في حديث آخر: «البيت المعمور منا مكة»، ووصفه ﷺ البيت المعمور – كما جاء في تفسير القرطبي – بأنه «بيت في السماء السابعة على حيال الكعبة تمامًا حتى لو خرَّ لخرَّ فوقها»، وهذا كلام لا يمكن أن يصدر إلا عن نبي موصول بالوحي، ومُعلَّم من قِبَل خالق السماوات والأرض. فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (26) مكة المكرمة في الإسقاط المساحي المكي تمثل مركز اليابسة كما حدده الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين (رحمه الله).

الحديث الحادي عشر

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله وكبروا وصلوا وتصدقوا»



شكل (27) صورة للقمر قبل أن يقترب من التمام

11 «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته ...»

هذا الحديث النبوي الشريف رواه البخاري في صحيحه (حديث رقم:994، باب الصلاة في كسوف الشمس، كتاب الكسوف) عن أبي مسعود حيث قال:

■ حَدَّثَنَا شِهَابُ بْنُ عَبَّادٍ قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ حُمَيْدٍ، عن إِسْمَاعِيلَ، عن قَيْسٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا مَسْعُودٍ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَنْكَسِفَانِ لمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا».

■ حَدَّثَنَا أَصْبَغُ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَمْرٌو، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، حَدَّثَهُ عن أَبِيهِ، عن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عَنهُمَا أَنَّهُ كَانَ يُخْبِرُ عن النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَخْسِفانِ لمَوْتِ أَحَدٍ وَلا حَيَاتِهِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَصَلُّوا» صحيح مسلم (حديث رقم: 914).

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مَسْلَمَةَ، عن مَالِكٍ، عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عن أَبِيهِ، عن عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ في عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ ركَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ ثُمَّ فَعَلَ في الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ مِثْلَ مَا فَعَلَ في الأولَى، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَد انْجَلَتِ الشَّمْسُ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا الله وَكَبِّرُوا وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا». ثُمَّ قَالَ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» صحيح البخاري (حديث رقم: 997، باب الصدقة في الكسوف).

ورواه أيضًا في كتاب النكاح عن ابن عباس (رضي الله عنهما) فقال:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عن عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً نَحْوًا مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ

رُكُوعًا طَوِيلاً، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ قَامَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا الله» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ! فَقَالَ: «إِنِي رَأَيْتُ الجَنَّةَ – أَوْ أُرِيتُ الجَنَّةَ – فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ». قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ» صحيح البخاري (حديث رقم: 4901، باب كفران العشير وهو الزوج وهو الخليط).

ورواه كذلك في كتاب اللباس عن أبي بكرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

■ حَدَّثَنِي مُحَمَّدٌ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الأَعْلَى، عن يُونُسَ، عن الحَسَنِ، عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ وَنَحْنُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ يَجُرُّ ثَوْبَهُ مُسْتَعْجِلاً حَتَّى أَتَى المَسْجِدَ، وَثَابَ النَّاسُ، فَصَلَّى رَكْعَتينِ فَجُلِّيَ عَنهَا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا وَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْهَا شَيْئًا فَصَلُّوا وَادْعُوا الله حَتَّى يَكْشِفَهَا» صحيح البخاري (حديث رقم: 5448، باب من جرّ إزاره خيلاء).

والحديث رواه مسلم في صحيحه (حديث رقم: 901، كتاب الكسوف) عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها وأرضاها) فقال:

■ وحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، عن مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عن أَبِيهِ، عن عَائِشَةَ. وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَاللَّفْظُ لَهُ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ نُمَيْرٍ، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، عن أَبِيهِ، عن عَائِشَةَ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَطَالَ الْقِيَامَ جِدًّا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جِدًّا وَهُوَ

دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِن آيَاتِ الله وَإِنَّهُمَا لا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبِّرُوا وَادْعُوا الله وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، إِنْ مِن أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ الله أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَالله لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً.. أَلا هَلْ بَلَّغْتُ». وَفِي رِوَايَةِ مَالِكٍ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِن آيَاتِ الله». وحَدَّثَنَاه يَحْيَى بْنُ يَحْيَى أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ بِهَذَا الإِسْنَادِ وَزَادَ ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِن آيَاتِ الله». وَزَادَ أَيْضًا: ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ».

ورواه أيضًا في كتاب الكسوف عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بنُ نُمَيْرٍ. وحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله ابْنِ نُمَيْرٍ - وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ - قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا عَبْدُ الملِكِ عن عَطَاءٍ عن جَابِرٍ قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ؛ بَدَأَ فَكَبَّرَ ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الأُولَى ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ، ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضًا ثَلاثَ رَكَعَاتٍ لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلا الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا وَرُكُوعُهُ نَحْوًا مِن سُجُودِهِ ثُمَّ تَأَخَّرَ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَتَّى انْتَهَى إِلَى النِّسَاءِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ حَتَّى قَامَ فِي مَقَامِهِ فَانْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ وَقَدْ آضَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ - وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لِمَوْتِ بَشَرٍ - فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا



شكل (28) صورة للكسوف الحلقي للشمس.

مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ، مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إلا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاتِي هَذِهِ، لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ كَانَ يَسْرِقُ الحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ من خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، ثُمَّ جِيءَ بِالجَنَّةِ وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لا أَفْعَلَ، فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاتِي هَذِهِ» صحيح مسلم، (حديث رقم: 904).

ورواه كذلك في كتاب الكسوف قائلاً:

■ عن المغيرة بن شعبة. وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله ابْنِ نُمَيْرٍ قَالا: حَدَّثَنَا مُصْعَبٌ وَهُوَ ابْنُ الْمِقْدَامِ، حَدَّثَنَا زَائِدَةُ حَدَّثَنَا زِيَادُ بْنُ عِلاقَةَ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: قَالَ زِيَادُ بْنُ عِلاقَةَ – سَمِعْتُ المغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يَقُولُ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا الله وَصَلُّوا حَتَّى تَنْكَشِفَ». صحيح مسلم (حديث رقم: 915):

والحديث رواه النسائي في سننه (حديث رقم: 1459، باب كسوف الشمس والقمر، كتاب الكسوف) عن أبي بكرة رضي الله عنه قال:

■ أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عن يُونُسَ، عن الحسَنِ، عن أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله تَعَالَى لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ».

– ورواه أيضًا في سننه (حديث رقم: 148، باب الجهر بالقراءة في صلاة الكسوف، كتاب الكسوف) عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – قال:

■ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ، عن ابْنِ وَهْبٍ، عن يُونُسَ، عن ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عن عَائِشَةَ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي حَيَاةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَامَ فَكَبَّرَ وَصَفَّ النَّاسُ وَرَاءَهُ فَاقْتَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ قِرَاءَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحمد ...

– ورواه كذلك في (كتاب الكسوف) عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

■ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْقَاسِمِ، عن مَالِكٍ قَالَ: حَدَّثَنِي زَيْدُ ابْنُ أَسْلَمَ، عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عن عَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً، قَرَأَ نَحْوًا مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ

الْقِيَام الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا الله عَزَّ وَجَلَّ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ! قَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ - أَوْ أُرِيتُ الجَنَّةَ - فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ». قِيلَ: يَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ: لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ». سنن النسائي (حديث رقم: 1493، باب قدر القراءة في صلاة الكسوف).

والحديث رواه أبو داود في سننه (حديث رقم: 177، باب صلاة الكسوف، كتاب: الصلاة) عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) فقال:

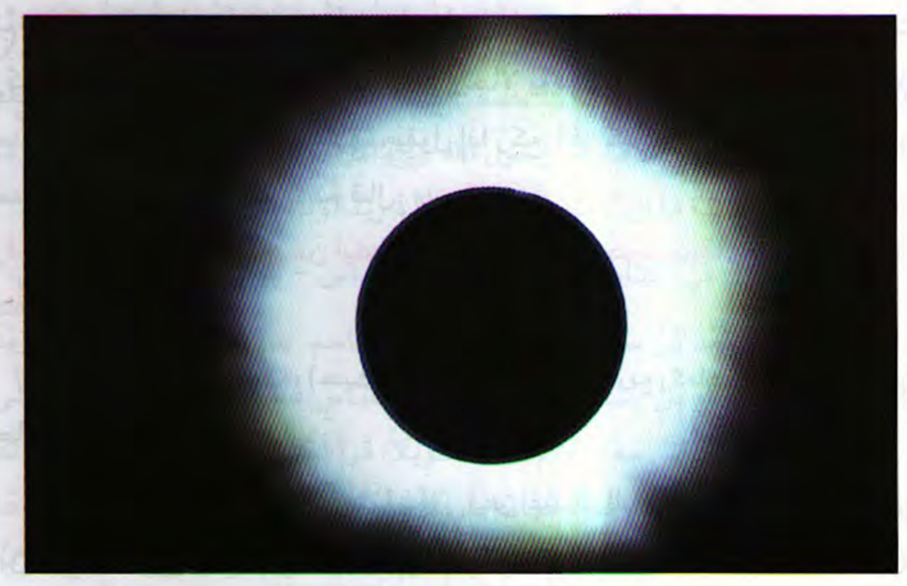
■ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُلَيَّةَ، عن ابْنِ جُرَيْجٍ، عن عَطَاءٍ، عن عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ، أَخْبَرَنِي مَنْ أُصَدِّقُ - وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُرِيدُ عَائِشَةَ - قَالَ: كُسِفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ قِيَامًا شَدِيدًا، يَقُومُ بِالنَّاسِ، ثُمَّ يَرْكَعُ، ثُمَّ يَقُومُ، ثُمَّ يَرْكَعُ، ثُمَّ يَقُومُ، ثُمَّ يَرْكَعُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ثَلاثُ رَكَعَاتٍ يَرْكَعُ الثَّالِثَةَ ثُمَّ يَسْجُدُ، حَتَّى إِنَّ رِجَالاً يَوْمَئِذٍ لَيُغْشَى عَلَيْهِمْ مِمَّا قَامَ بِهِمْ، حَتَّى إِنَّ سِجَالَ الماءِ لَتُصَبُّ عَلَيْهِمْ، يَقُولُ إِذَا رَكَعَ: الله أَكْبَرُ. وَإِذَا رَفَعَ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ. حَتَّى تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله - عَزَّ وَجَلَّ - يُخَوِّفُ بِهِمَا عِبَادَهُ فَإِذَا كُسِفَا فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلاةِ»

- ورواه أيضًا في سننه، (حديث رقم: 1178، باب من قال أربع ركعات، كتاب: الصلاة) عن جابر بن عبدالله (رضي الله عنه) قال:

■ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عن عَبْدِ الملِكِ، حَدَّثَنِي عَطَاءٌ، عن جَابِرِ ابْنِ عَبْدِالله، قَالَ: كُسِفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَكَانَ ذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا كُسِفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ

ابْنِهِ ﷺ. فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ فِي أَرْبَعِ سَجَدَاتٍ، كَبَّرَ ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ ثمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَرَأَ دُونَ الْقِرَاءَةِ الأولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَرَأَ الْقِرَاءَةَ الثَّالِثَةَ، دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَانْحَدَرَ لِلسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ ثَلاثَ رَكَعَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إلاَّ الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا إلاَّ أَنَّ رُكُوعَهُ نَحْوٌ مِن قِيَامِهِ. قَالَ: ثُمَّ تَأَخَّرَ فِي صَلاتِهِ فَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ مَعَهُ ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَامَ فِي مَقَامِهِ وَتَقَدَّمَتِ الصُّفُوفُ فَقَضَى الصَّلاةَ وقَدْ طَلَعَت الشَّمْسُ فَقَالَ: «يَأَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله - عَزَّ وَجَلَّ - لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ بَشَرٍ، فَإذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِن ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ». وَسَاقَ بَقِيَّةَ الحدِيثِ.

حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ هِشَامٍ حَدَّثَنَا إسْمَاعِيلُ، عن هِشَامٍ، حَدَّثَنَا أَبُو الزُّبَيْرِ، عن جَابِرٍ قَالَ: كُسِفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الحرِّ، فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِأَصْحَابِهِ فَأَطَالَ الْقِيَامَ حَتَّى جَعَلُوا يَخِرُّونَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ رَفَعَ فَأَطَالَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَصَنَعَ نَحْوًا مِنْ ذَلِكَ، فَكَانَ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ وَأَرْبَعُ سَجَدَاتٍ. وَسَاقَ الحدِيثَ.



شكل (29) صورة للكسوف الكلي للشمس.

ومن رواة الحديث أيضًا ابن ماجه في سننه (حديث رقم: 1263، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها) عن أم المؤمنين السيدةِ عائشة – رضي الله عنها – قال:

■ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ السَّرْحِ الْمِصْرِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عن ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ، عن عَائِشَةَ قَالَتْ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ في حَيَاةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَسْجِدِ فَقَامَ فَكَبَّرَ فَصَفَّ النَّاسُ وَرَاءَهُ، فَقَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِرَاءَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ». ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ قِرَاءَةً طَوِيلَةً هِيَ أَدْنَى مِنَ الْقِرَاءَةِ الأولى ثُمَّ كَبَّرَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً هُوَ أَدْنَى مِنَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ ثُمَّ قَالَ: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْد». ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَاسْتَكْمَلَ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ وَأَرْبَعَ سَجَدَاتٍ وَانْجَلَتِ الشَّمْسُ قَبْلَ أَنْ يَنْصَرِفَ، ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ النَّاسَ فَأَثْنَى عَلَى اللهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلاةِ».

والحديث رواه أحمد في مسنده (حديث رقم: 2711) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال:

■ حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ يَعْنِي ابْنَ عِيسَى قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عن زَيْدٍ يَعْنِي ابْنَ أَسْلَمَ، عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ، فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ، فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً. قَالَ: نَحْوًا مِن سُورَةِ الْبَقَرَةِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ قَامَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً، وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ. قَالَ عَبْد الله: قَالَ أَبِي: وَفِيمَا قَرَأْتُ عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلاً – قَالَ – دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ إِسْحَاقَ: ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا الله». قَالُوا:

يَا رَسُولَ الله، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ، ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ! فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الجنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنهُ مَا بَقِيتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «بِكُفْرِهِنَّ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ».

– ورواه أيضًا عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال:

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى، عن عَبْدِ الْمَلِكِ، أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ، عن جَابِرٍ قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ وَكَانَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا كَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَصَلَّى بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ فِي أَرْبَعِ سَجَدَاتٍ، كَبَّرَ ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَرَأَ دُونَ الْقِرَاءَةِ الأولَى، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَرَأَ دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ رَكَعَ نَحْوًا مِمَّا قَامَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَانْحَدَرَ لِلسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ ثَلاثَ رَكَعَاتٍ قَبْلَ أَنْ يَسْجُدَ، لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلا الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا، إِلا أَنَّ رُكُوعَهُ نَحْوٌ مِنْ قِيَامِهِ ثُمَّ تَأَخَّرَ فِي صَلاتِهِ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ مَعَهُ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَقَامَ فِي مَقَامِهِ وَتَقَدَّمَتِ الصُّفُوفُ، فَقَضَى الصَّلاةَ وَقَدْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «يَأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ بَشَرٍ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئًا مِنَ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ، إِنَّهُ لَيْسَ مِن شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلا قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاتِي هَذِهِ، وَلَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ فَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِن لَفْحِهَا حَتَّى قُلْتُ: أَيْ رَبِّ، وَأَنَا فِيهِمْ! وَرَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ، كَانَ يَسْرِقُ الحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ فَإِنْ فُطِنَ بِهِ قَالَ إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي وَإِنْ غُفِلَ عَنهُ ذَهَبَ بِهِ، وَحَتَّى رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَتْرُكْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، وَجِيءَ بِالجنَّةِ فَذَلِكَ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي مَقَامِي فَمَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لا أَفْعَلَ». مسند أحمد (حديث رقم: 14457).

– ورواه أيضًا عن محمود بن لبيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ الْغَسِيلِ، عن عَاصِمِ ابْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عن مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ قَالَ: كَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: كَسَفَتِ الشَّمْسُ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله عَزَّ وَجَلَّ، أَلا وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِه، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا كَذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى المسَاجِدِ». ثُمَّ قَامَ فَقَرَأَ فِيمَا نَرَى بَعْضَ ﴿الٓر كِتَٰبٌ﴾، ثُمَّ رَكَعَ، ثُمَّ اعْتَدَلَ، ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ قَامَ فَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ فِي الأُولَى» مسند أحمد (حديث رقم: 23679).

– ورواه أيضًا عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما وأرضاهما) قال:

■ حَدَّثَنَا سُرَيْجُ بْنُ النُّعْمَانِ، حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ، عن مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ الله بْنِ الزُّبَيْرِ، عن أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَسَمِعْتُ رَجَّةَ النَّاس وَهُمْ يَقُولُونَ: آيَةٌ. وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ فِي فَازِعٍ، فَخَرَجْتُ مُتَلَفِّعَةً بِقَطِيفَةٍ لِلزُّبَيْرِ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَى عَائِشَةَ وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ يُصَلِّي لِلنَّاسِ، فَقُلْتُ لِعَائِشَةَ: مَا لِلنَّاسِ؟! فَأَشَارَتْ بِيَدِهَا إِلَى السَّمَاءِ. قَالَتْ: فَصَلَّيْتُ مَعَهُمْ وَقَدْ كَانَ



شكل (30) صورة حقيقية للكسوف الكلي للشمس

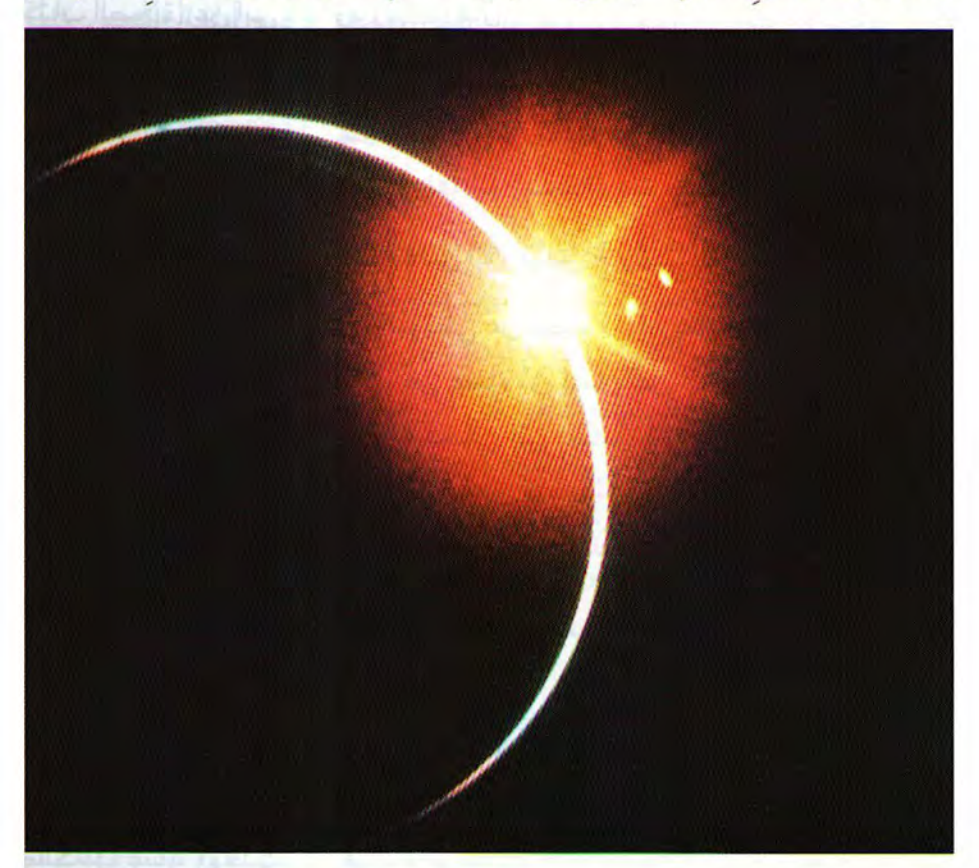
رَسُولُ الله ﷺ فَرَغَ مِن سَجْدَتِهِ الأولَى. قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ قِيَامًا طَوِيلاً حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَ مَنْ يُصَلِّي يَنْتَضِحُ بِالماءِ ثُمَّ رَكَعَ فَرَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً ثُمَّ قَامَ وَلَمْ يَسْجُدْ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ رُكُوعِهِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ سَلَّمَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ، ثُمَّ رَقِيَ المِنْبَرَ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى الصَّلاةِ وَإِلَى الصَّدَقَةِ وَإِلَى ذِكْرِ الله. أَيُّهَا النَّاسُ. إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ لَمْ أَكُنْ رَأَيْتُهُ إِلا وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي مَقَامِي هَذَا، وَقَدْ أُرِيتُكُمْ تُفْتَنُونَ فِي قُبُورِكُمْ: يُسْأَلُ أَحَدُكُمْ: مَا كُنْتَ تَقُولُ وَمَا كُنْتَ تَعْبُدُ؟ فَإِنْ قَالَ: لا أَدْرِي، رَأَيْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَصَنَعْتُهُ. قِيلَ لَهُ: أَجَلْ عَلَى الشَّكِّ عِشْتَ وَعَلَيْهِ مِتَّ، هَذَا مَقْعَدُكَ مِنَ النَّارِ. وَإِنْ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله. قيل: عَلَى الْيَقِينِ عِشْتَ وعليه مِتَّ، هَذَا مَقْعَدُكَ مِنَ الجنَّةِ. وَقَدْ رَأَيْتُ خَمْسِينَ أَوْ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي مِثْلِ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ» . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ.. قَالَ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ لَنْ تَسْأَلُونِي عن شَيْءٍ حَتَّى أَنْزِلَ إِلا أَخْبَرْتُكُمْ بِهِ». فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «أَبُوكَ فُلانٌ» الَّذِي كَانَ يُنْسَبُ إِلَيْهِ. مسند أحمد، (حديث رقم: 27037).

والحديث رواه الإمام مالك في الموطأ (ج1/444، باب العمل في صلاة الكسوف، كتاب: النداء للصلاة) عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها وأرضاها) قال:

■ حَدَّثَنِي يَحْيَى، عن مَالِك، عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عن أَبِيهِ، عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِالنَّاسِ، فَقَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ، ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ فَسَجَدَ، ثُمَّ فَعَلَ فِي الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمِدَ الله وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَادْعُوا الله وَكَبِّرُوا وَتَصَدَّقُوا». ثُمَّ قَالَ:

«يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ مَا مِن أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ.. يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»

– ورواه أيضًا في الموطأ (ج1/445، باب العمل في صلاة الكسوف، كتاب النداء للصلاة) عن ابْنِ عَبَّاسٍ؛ وحَدَّثَنِي عَنْ مَالِكٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّهُ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالنَّاسُ مَعَهُ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً نَحْوًا مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. قَالَ: ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الأَوَّلِ، ثُمَّ



شكل (31) صورة لكسوف جزئي للشمس يعرف باسم كسوف الخاتم الماسي.

رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلاً وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الأَوَّلِ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا الله». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ هَذَا ثُمَّ رَأَيْنَاكَ تَكَعْكَعْتَ! فَقَالَ: «إِنِّي رَأَيْتُ الجنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ مِنهَا عُنْقُودًا وَلَوْ أَخَذْتُهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتِ الدُّنْيَا، وَرَأَيْتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ مَنْظَرًا قَطُّ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ». قَالُوا: لِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «لِكُفْرِهِنَّ» قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ بِالله؟ قَالَ: «وَيَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ؛ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنكَ خَيْرًا قَطُّ».

والحديث رواه الدارمي في سننه (حديث رقم: 1525، باب الصلاة في الكسوف، كتاب الصلاة) عن أبي مسعود (رضي الله عنه) قال:

■ حَدَّثَنَا يَعْلَى، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ، عن قَيْسٍ، عن أَبِي مَسْعُودٍ، عن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيْسَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا».

– ورواه أيضًا في كتاب الصلاة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو يَعْقُوبَ يُوسُفُ الْبُوَيْطِيُّ عن مُحَمَّدِ بْنِ إِدْرِيسَ هُوَ الشَّافِعِيُّ، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ، عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عن عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، فَحَكَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ صَلاتَهُ ﷺ رَكْعَتَيْنِ؛ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ خَطَبَهُمْ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ الله لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَافْزَعُوا إِلَى ذِكْرِ الله». سنن الدارمي (حديث رقم: 1528).

شرح الحديث

وكسوف الشمس (أو انخسافها) يتم نتيجة لوقوع القمر بين كل من الأرض والشمس فيحجب أشعتها عنا، وقد يكون هذا الكسوف كليًا (يحجب قرص الشمس بالكامل عنا)، ويحدث ذلك في حزام محدود على نصف الكرة الأرضية المواجه للشمس، فيتحول النهار ليلاً خلال دقائق معدودة، وإلى الشمال والجنوب من هذا

الشريط يكون الكسوف جزئيًّا، أي يحجب جزءًا من الشمس فقط، ويتناقص الجزء المكسوف من الشمس بالبعد عن حزام الكسوف الكلي في اتجاه القطبين.

وقد جاء في الحديث الشريف الذي نحن بصدده: «**إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته**» بمعنى أنهما ظاهرتان كونيتان دائبتا الحدوث بغض النظر عن موت الأفراد وحياتهم، كما كان يدعي عدد من الناس في جزيرة العرب وفي غيرها من بلدان العالم الذين كانوا ينسبون تلك الظواهر الكونية لميلاد عظيم أو وفاته، وجاء حديث المصطفى ﷺ لينفي تلك الخرافات نفيًا قاطعًا، وليؤكد دورية حدوث هذه الظواهر الكونية.

ويحدث كسوف الشمس عندما يحجبها القمر بظله عن أهل الأرض، وقد ثبت علميًّا أن القمر يتبعه مخروطٌ من الظل بفضل حجبه أشعة الشمس كليًّا أو جزئيًّا عن الأرض. وفي دورة القمر حول الأرض يمر معه مخروط ظله، وفي وقت الاقتران الذي يحدث مرة في كل شهر قمري، يكون القمر متوسطًا تمامًا بين الشمس والأرض فيحجب ضوء الشمس عن أهل الأرض كليًّا أو جزئيًّا، وفي معظم شهور السنة ينحرف القمر في مروره بيننا وبين الشمس فلا ينحجب ضوءُها عنا، وبالتالي لا تنكسف الشمس، ويحدث كسوف الشمس من مرتين إلى خمس مرات في السنة، ويمكن للكسوف الكلي أن يدوم لمدة تصل إلى سبع دقائق ونصف الدقيقة. أما خسوف القمر فيحدث بدخوله في ظل الأرض الذي يتكون مع سبح الأرض في مدارها حول الشمس، وهي ظاهرة ترى من جميع الأرض. ولكن في معظم شهور السنة يمر القمر فوق أو تحت مخروط ظل الأرض، ويتحاشاه فلا ينخسف، وخسوف القمر قد يكون كليًّا أو جزئيًّا، ويحدث الخسوف والقمر في بدر التمام، ويمكن للخسوف الكلي للقمر أن يستمر إلى مائة دقيقة، ويخسف القمر ثلاث مرات في الشهر كحد أقصى.

ولذلك فإن حوادث الكسوف الكلي للشمس هي حوادث نادرة، وفي أثناء كسوف الشمس يتوسط القمر بيننا وبينها، قد يحدث أن يبقى من أطراف الشمس ما يشبه الحلقة المضيئة تحيط بقرص القمر المظلم، ويسمى هذا الكسوف باسم الكسوف الحلقي.

وعند حدوث الكسوف الكلي للشمس تظلم السماء، وتظهر النجوم في منتصف النهار، وينتقل الناس في دقائق معدودات من وضح النهار إلى ما يشبه الليل، مما يدعو إلى شيء من الذعر والانقباض ليس عند الإنسان فحسب بل عند جميع المخلوقات، فتأوي الطيور إلى أوكارها، والحيوانات إلى جحورها، أو تخلد إلى شيء من السكون الحذر.

وفي لحظات كسوف الشمس تقل كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلينا، فتنخفض درجة حرارة الأرض، وعلى العكس من ذلك فإنه في لحظات خسوف القمر تزداد كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلينا فترتفع درجة الحرارة نسبيًّا لدقائق معدودة، ولما كانت هذه الأمور محسوبة بدقة بالغة، فإن الأرض تكون معرضة خلال هاتين الظاهرتين الكونيتين لمخاطر لا يعلمها إلا **الله**، ومن هنا كانت وصية رسول **الله** ﷺ بالإكثار من ذكر **الله** بتحميده وتكبيره وتمجيده، وباللجوء إلى الصلاة، والمبادرة بإخراج الصدقات لعل **الله** – تعالى – أن يكشف تلك المخاطر عن الأرض ومن عليها، فلا تزال هاتان الظاهرتان تكتنفان من المخاطر والأسرار ما لا يعلمه إلا **الله**!

ولذلك جاء في نصوص أخرى لنفس الحديث الذي نحن بصدده قول المصطفى ﷺ: «فافزعوا إلى الصلاة». وقوله: «**هذه الآيات التي يرسل الله لا تكون لموت أحد ولا لحياته، ولكن يُخَوِّف الله بها عباده، فإذا رأيتم شيئًا من ذلك فافزعوا إلى ذكر الله ودعائه واستغفاره**». ويعجب الإنسان من هذا العلم النبوي الدقيق الذي نطق به ﷺ منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، في زمن كان الناس غارقين إلى آذانهم في محيط من الخرافات والأساطير، ولم يكن لأحد من الناس علم بتلك الحقائق الكونية التي بدأت في التكشف لعلم الإنسان منذ عشرات قليلة من السنين، وهذا الحديث الشريف وحده يكفي أن يكون شهادة حق لنبوة هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ، الذي كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض، فصلى **الله** وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من اتبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد **لله** رب العالمين.

الحديث الثاني عشر

«انشقاق القمر كرامة لرسول الله ﷺ»



شكل (32) صورة للقمر توضح الحفر العميقة على سطحه

12 «انشقاق القمر كرامة لرسول الله ﷺ»

أخرج الإمام البخاري في صحيحه (حديث رقم: 3655، باب انشقاق القمر، كتاب المغازي) ما نصه:

■ حَدَّثنِي عَبْدُالله بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ، حَدَّثنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّل، حَدَّثنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي عَرُوبَةَ، عن قَتَادَةَ، عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُم آيَةً، فَأَرَاهُمُ الْقَمَرَ شقين حَتَّى رَأَوْا حِرَاءَ بَيْنَهُمَا.

وفي رواية أخرى له في صحيحه (حديث رقم: 3437، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية فأراهم انشقاق القمر):

■ حَدَّثنَا صَدَقَةُ بْنُ الْفَضْل، أَخْبَرَنَا ابْنُ عُيَيْنَةَ عن ابْنِ أَبِي نَجِيح، عن مُجَاهِدٍ، عن أَبِي مَعْمَرٍ، عن عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ شَقَّتَيْنِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «اشْهَدُوا».

وفي رواية ثالثة في صحيحه (حديث رقم: 3438):

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مُحَمد، حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حدَّثنَا شَيْبَانُ، عن قَتَادَةَ، عن أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ رسول الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُمُ انْشِقَاقَ الْقَمَر.

والحديث رواه أيضًا الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2800، باب انشقاق القمر، كتاب صفة القيامة والجنة والنار) قائلاً:

■ حَدَّثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالا: حَدَّثَنَا يُونُسُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا شَيْبَانُ، حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، عن أَنَسٍ أَنَّ أَهْلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً فَأَرَاهُم انْشِقَاقَ الْقَمَرِ مَرَّتَيْنِ. وحَدَّثَنِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عن قَتَادَةَ عن أَنَسٍ بِمَعْنَى حَدِيثِ شَيْبَانَ.

وأخرج الحديث برواية أخرى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ بمنًى إذ انفلق القمر فلقتين، فكانت فلقة وراء الجبل، وفلقة دونه، فقال لنا رسول الله ﷺ: «اشهدوا». صحيح مسلم (حديث رقم: 2802).

وهذا الحديث رواه الترمذي في سننه (حديث رقم: 3286، باب، من سورة القمر، كتاب تفسير القرآن) قائلاً:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عن مَعْمَرٍ عن قَتَادَةَ عن أَنَسٍ قَالَ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِي ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ القَمَرُ بِمكَّةَ مَرَّتَيْنِ فَنَزَلَت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يَقُولُ: ذَاهِبٌ قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

والحديث رواه كذلك أحمد في مسنده (حديث رقم: 12711) حيث يقول:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عن قَتَادَةَ عن أَنَسٍ: سَأَلَ أَهْلُ مَكَّةَ النَّبِيَّ ﷺ آيَةً، فَانْشَقَّ الْقمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

شرح الحديث

وفي كتب الحديث ومؤلفات السيرة رويت واقعة شق القمر على لسان عدد غير قليل من صحابة رسول **الله** ﷺ منهم عبدالله بن عمر (رضي **الله** عنهما) وعبد **الله** ابن عباس (رضي **الله** عنهما) وغيرهما.

وقد دون كل من التاريخ الهندي والصيني القديم حادثة انشقاق القمر، وأرَّخوا بها.

ففي إحدى المخطوطات الهندية القديمة والمحفوظة في مكتبة المركز الهندي بالمتحف البريطاني بمدينة لندن (تحت رقم 152/2807 – 173) والتي قام بدراستها المفكر الإسلامي الكبير الأستاذ الدكتور محمد حميد **الله** (رحمه **الله** رحمة واسعة) وأشار إليها في كتابه المعنون «محمد رسول **الله**» جاء في هذه المخطوطة أن أحد ملوك ماليبار (وهي إحدى مقاطعات جنوب غربي الهند) وكان اسمه شاكرواتي فارماس (Chakarawati Farmas) شاهد انشقاق القمر على عهد رسول **الله** ﷺ وأخذ يحدث الناس به. وحدَث أن مرَّ عدد من التجار المسلمين بولاية ماليبار وهم في طريقهم إلى الصين وسمعوا حديث الملك وأفهموه أن الحدث كان معجزة للنبي الخاتم ﷺ فزاره الملك وأسلم على يديه، ولكن أجله انتهى قبل عودته فمات ودفن في أرض «طفار»، وحينما وصل خبره إلى أهل ماليبار كانوا أول أهل الهند إسلامًا.



شكل (33) صورة حقيقية للقمر وقت البدر الكامل مأخوذة بواسطة تليسكوب مرصد ليك (The Lick Observatory) يوضح شق هـايجينيس في منتصف سطح القمر تقريبًا (The Hyginus Rille).

وفي محاضرة لي بكلية الطب - جامعة كارديف، في مقاطعة ويلز، غربي بريطانيا، من عدة سنوات مضت، وجه أحد الحضور من المسلمين سؤلاً عن الآيات في مطلع سورة القمر، وهل تمثل ومضة من ومضات الإعجاز العلمي في كتاب الله؟ فأجبت بأن هذه الواقعة تمثل إحدى المعجزات الحسية التي وقعت تأييدًا لرسول الله ﷺ في مواجهة كفار ومشركي قريش وإنكارهم لنبوته - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - وأن المعجزات خوارق للسنن، وعلى ذلك فإن السنن الدنيوية لا يمكن لها تفسير كيفية حدوث المعجزة، ولولا ورودها في كتاب الله، وفي سيرة رسول الله ﷺ ما كان علينا نحن مسلمي اليوم أن نؤمن بها، ولكننا نقر بها، ونؤمن بوقوعها لورودها في كتاب الله بالنص الإلهي الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى - :

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ * وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: 1 - 5].



شكل (34) صورة لنصف القمر المنير وعليه الحفر العميقة الناتجة من اصطدام النيازك بسطح القمر.



شكل (35)

صورة حقيقية لأحد الشقوق الكبرى الظاهرة على سطح القمر وهذا الشق يعرف باسم غور هايجينيس (The Hyginus Rille)؛ والصورة مأخوذة بميل بواسطة مركبة القمر المدارية المعروفة باسم (Orbiter-3) من ارتفاع يقدر بحوالي 60 كيلومترًا فوق سطح القمر؛ وهذا الشق يمتد لأكثر من 150 كم (مائة وخمسين كيلومترًا) في الطول، حوالي الخمسة كيلومترات في العرض، ثمانين كيلومترًا فى العمق، ويمر بإحدى الحفر العميقة المنتشرة على سطح القمر.

وقد أثبتت دراسات القمر وجود تمزقات طويلة وغائرة في جسم القمر، تتراوح أعماقها بين عدة مئات من الأمتار وأكثر من ألف متر، ويتراوح اتساعها بين نصف كيلو متر وخمسة كيلو مترات، وتمر هذه الشقوق بالعديد من الحفر التي يزيد عمق بعضها على تسعة كيلو مترات، ويزيد قطرها على ألف كيلو متر، ومن أمثلتها الحفرة المعروفة باسم «بحر الشرق» (Mare Orientalis). وتعرف هذه الشقوق باسم شقوق القمر (Rimae or Lunar Rilles) ومن أمثلتها غور هايجينيس (The Hyginus Rille).

هذا في الوقت الذي يحاول فيه نفر من أبناء المسلمين القول بأن انشقاق القمر لم يحدث بعد، وأنه من علامات الآخرة استنادًا إلى مطلع السورة: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾. ويتناسى هؤلاء قول المصطفى ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن سهل بن سعد – رضي الله عنهما – أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يشير بإصبعه التي تلي الإبهام والوسطى وهو يقول: «بُعثت أنا والساعة هكذا».

وإذا علمنا أننا نعيش في كون يقدر عمره بما يقارب الأربعة عشر ألف مليون من السنين (13.7 مليار سنة)، وأن رسول الله ﷺ بعث منذ حوالي 1444 سنة اتضح لنا معنى هذا الحديث الشريف.

ويستشهد المنكرون لواقعة انشقاق القمر استشهادًا خاطئًا بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء: 59].

وهو استشهاد في غير موضعه لوقوع العديد من الآيات والمعجزات الحسية لرسول الله ﷺ طيلة حياته الشريفة. فصلى الله وسلم وبارك على هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم الذي شق له الله – تعالى – القمر مرتين، كرامةً له، وتعظيمًا لشأنه، وأبقى لنا أثر هذا الانشقاق شاهدًا ملموسًا على نبوته، ونُبل رسالته، وصدق الكتاب الذي أنزل إليه، والحمد لله أولاً وآخرًا.

الحديث الثالث عشر

«إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض...»



شكل (36) صورة حقيقية لأغلب كواكب المجموعة الشمسية التقطتها سفينة الفضاء فويجر-1 (Voyager-1) من خلف مدار كوكب نيبتون

13 «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ...»

■ جاء في صحيح البخاري (كتاب بدء الخلق حديث رقم: 2958) بسنده ما نصه:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَن ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَن أبِي بكرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «الزَّمَانُ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

■ وورد الحديث أيضًا في (كتاب تفسير القرآن حديث رقم 4294) بسند آخر بالنص التالي:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ محَمَّدٍ عَن ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَن أبي بكرةَ عَن النَّبِي ﷺ قَالَ: «إِنَّ الزَّمَانَ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْم خَلَقَ الله السَّمَاوَات وَالأَرْضَ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ».

■ وجاء الحديث في صحيح مسلم (كتاب القسامة والمحاربين حديث رقم: 3179) بالنص التالي:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَيَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ الحارِثِيُّ وَتَقَارَبَا في اللَّفْظِ قَالا: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ عَنْ أَيُّوبَ عَن ابْنِ سِيرِينَ عَن ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَن أَبِي بَكْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَ الزَّمَانَ قَد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمحَرَّمُ وَرَجَبُ شهر مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا» قُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ ذَا الحِجَّةِ؟» قُلْنَا بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قُلْنَا: الله وَرَسُوله أَعْلَم. قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ الْبَلْدَةَ؟» قُلْنَا: بَلَى. قَالَ: «فَأَيُّ يَوْم هَذَا؟» قُلنا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ. قَالَ: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ الله. قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ – قَالَ

مُحَمَّد وَأَحْسبُهُ قَالَ: وَأَعْرَاضَكمْ - حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، وَسَتلقونَ رَبَّكُمْ فيسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُم، فَلا تَرْجعُنَّ بَعْدِي كُفَّارًا أَوْ ضُلالاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَاب بَعْضٍ ألا ليُبَلِّغ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ فَلَعَلَّ بَعْضَ مَنْ يُبَلَّغُهُ يَكُونُ أَوْعَى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَهُ ثُمَّ قَالَ: ألا هَلْ بَلَّغْتُ».

قَالَ ابْنُ حَبيبٍ فِي رِوَايَتِهِ: وَرَجَبُ مُضَرَ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ: فَلا تَرْجعُوا بَعْدِي.

■ والحديث رواه أيضًا أبو داود في سننه (كتاب المناسك حديث رقم 1663) قال:

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فِي حَجَّتِهِ فَقَالَ: «إِنَّ الزَّمَانَ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، منْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ثَلاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الحِجَّةِ وَالمحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَان».

وأضاف قائلاً: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ فَيَّاضٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِين عَن ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِي بكْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ بِمَعْنَاهُ.

قَال أَبُو دَاوُد: سَمَّاهُ ابْنُ عَوْنٍ فَقَالَ: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ فِي هَذَا الحدِيث.

شرح الحديث

تأكيد رسول الله ﷺ أن السنة اثنا عشر شهرًا فيه لمحة علمية معجزة؛ لأن سنة أي كوكب من كواكب المجموعة الشمسية هي الفترة الزمنية التي يستغرقها لكي يتم دورة كاملة في سبحه حول الشمس، وطول هذه المدة يحدده متوسط طول نصف قطر المدار «أي متوسط بعد الكوكب عن الشمس»، وسرعة سبح الجرم السماوي، وهاتان الحقيقتان ثابتتان منذ اللحظة الأولى لخلق السماوات والأرض؛ لأن أي تغيير في إحداهما يتبعه اضطراب شديد في نظام المجموعة الشمسية التي بقيت لعدة بلايين من السنين تجري على وتيرة واحدة بنظامها الذي نراها به اليوم.

أما عن استدارة الزمان فهو وحي أوحاه الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ لأن العرب كانوا قد ابتدعوا خدعة «النسيء»، بمعنى أن يجردوا



شكل (37) صورة للكرة الأرضية وعلى سطحها عقارب الساعة.

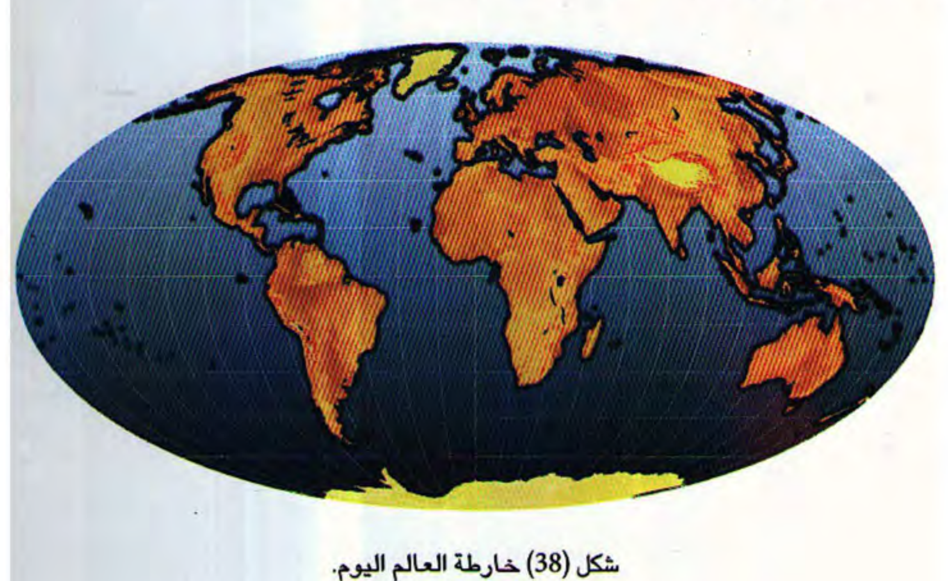
شهرًا من الأشهر الحرم عن حرمته كي يستحلوا القتال فيه وهو فيه محرم، وبذلك ارتبكت شهورهم وتداخلت تداخلاً شديدًا، فأوحى الله - تعالى - إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ بحقيقة هذه الشهور والتي تضبطها منازل كل من القمر والشمس كما تضبطها دورة القمر حول الأرض، ومع الأرض حول الشمس.

واللفظ الذي استخدمه رسول الله ﷺ بقوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» فيه إشارة ضمنية رقيقة إلى تكور الكون، وتكور جميع الأجرام فيه لأن اللفظة «استدار» تحوي - بالإضافة إلى العودة والبدء - إشارة واضحة إلى استدارة وتكور الكون.

ويؤكد ذلك أن الزمان ليس جسمًا ماديًا يستدير، ولكنه فترة تمر، فإذا استدار الزمان كان في ذلك إشارة إلى استدارة الكون واستدارة جميع الأجرام والمدارات فيه.

وفي قول رسول الله ﷺ: «كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض» يؤكد ثبات تلك الهيئة عبر تاريخ الكون الطويل والذي يقدر بأكثر من ثلاث عشرة من بلايين السنين التي نعدها، وسيبقى إلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى.

وورود هذه الحقائق العلمية في الحديث الشريف الذي نحن بصدده – وهي لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده – لا يمكن أن يكون له من مصدر غير الله الخالق – سبحانه وتعالى – ومن هنا فهي شهادة على أهل عصرنا جميعًا (عصر العلم والتقنية الذي نعيشه) من المسلمين وغير المسلمين بأن سيدنا محمد بن عبد الله – عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم – كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وأنه ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين فليس من بعده من نبي ولا من رسول، وأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



شكل (38) خارطة العالم اليوم.

الحديث الرابع عشر

«النجـوم أَمَنَـةٌ للسمـاء..»



شكل (39) صورة حقيقية توضح حشوذًا نجمية كروية في إحدى المجرات.
صورتها عدسات تلسكوب «هابل» الفضائي

14 «النجــوم أَمَنَــةٌ للسمــاء...»

هذا الحديث النبوي الشريف رواه مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2531، باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه، وبقاء أصحابه أمان للأمة، كتاب: فضائل الصحابة).

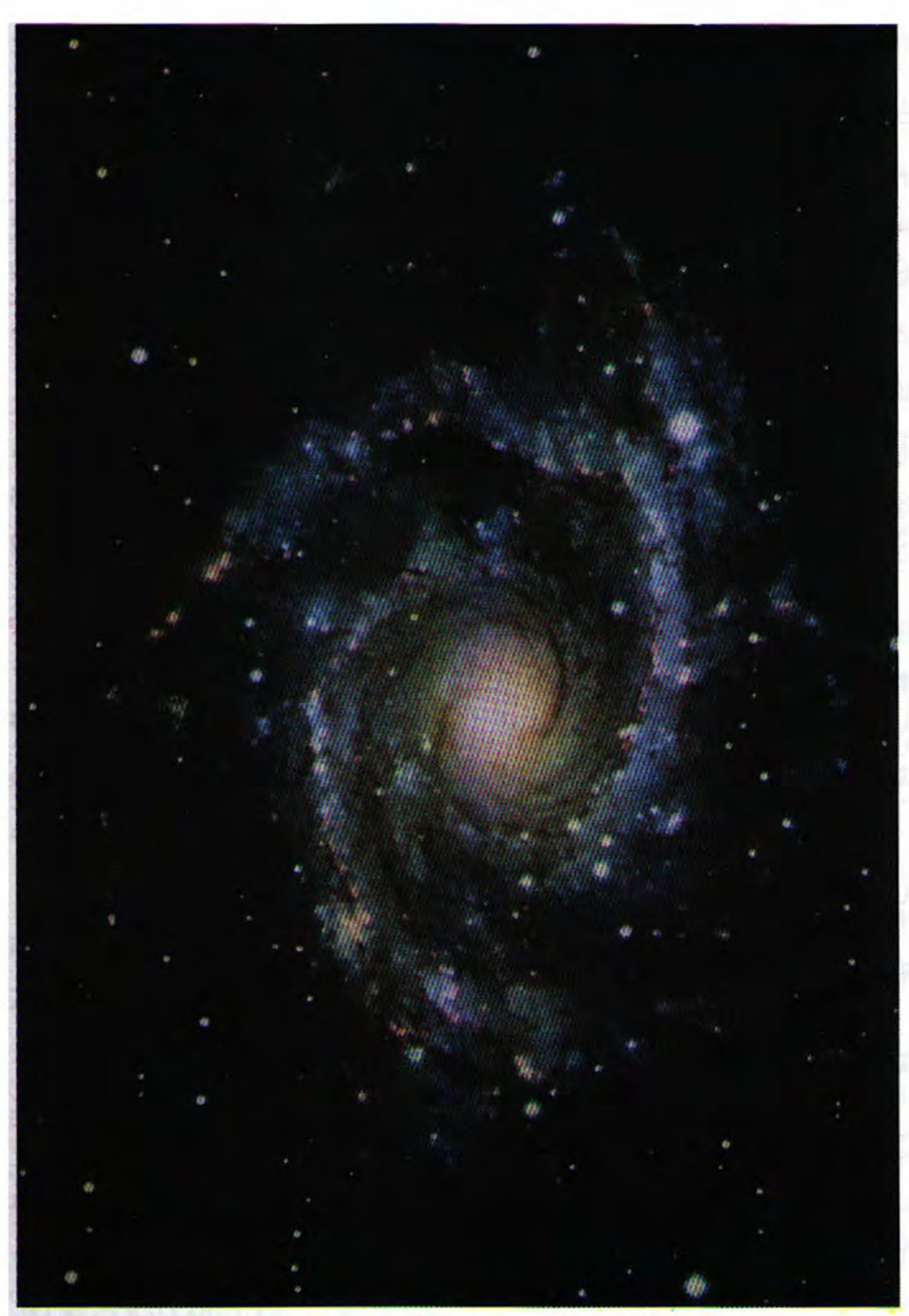
حيث قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَإِسحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَعَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ بْنِ أَبَانَ كُلُّهُمْ عن حُسَيْنٍ – قَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الجعْفِيُّ، عن مُجَمِّعِ بْنِ يَحْيَى عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عنْ أبي بردة، عَنْ أبيهِ قَالَ: صَلَّيْنَا المغْرِب مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ! قَالَ فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا» قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله صَلَّيْنَا مَعَكَ المغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ. قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ – أَوْ أَصَبْتُمْ» قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَكَانَ كَثِيرًا ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ فقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»

والحديث رواه أحمد في مسنده (ج 4) قال:

■ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الله، حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ الجعْفِيُّ، عن مُجَمِّعِ بْنِ يَحْيَى ابنِ زيدِ بْنِ جَارِيَةَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَذْكُرُهُ عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ، عن أَبِي بُرْدَةَ عن أَبِي مُوسَى قَالَ: صَلَّيْنَا المغْرِب مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ انْتَظَرْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ! قَالَ فَانْتَظَرنَا فَخَرَجَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا» قُلْنَا: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله قُلْنَا نُصَلِّي مَعَكَ الْعِشَاءَ. قَالَ: «أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ». ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: – وَكَانَ كَثِيرًا ما يَرْفَعُ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ – فَقَالَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَتْ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ»

والحديث رواه كذلك أبو يعلى – في مسنده – عن سلمة بن الأكوع وحسَّنه السيوطي، وأشار إليه المَناوي في كتابه المعنون بـ: «فيض القدير».



شكل (40) صورة لمجرة حلزونية تشبه في بنيتها مجرتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة) بها بلايين النجوم.

شرح الحديث

وسوف أعلق هنا على الشطر الأول من الحديث فقط والذي يقول فيه ﷺ: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد». وذهاب النجوم انكدارها وطمسها، ثم انفجارها وزوالها بتحولها إلى دخان السماء. وما توعد السماء إذا ذهبت النجوم هو كشفها، وانشقاقها، وانفطارها، وانفراجها، ومورها وتحولها إلى شيء كالمُهل وإتيانها بالدخان.

والنجوم هي أجرام سماوية منتشرة بالسماء الدنيا، كروية الشكل أو شبه كروية، غازية، ملتهبة، مضيئة باستعار عملية الاندماج النووي بداخلها وانطلاق الطاقة الكهرومغناطيسية منها، والنجوم مرتبطة مع بعضها البعض بقوى الجاذبية على الرغم من بنائها الغازي، وهي عظيمة الكتلة والحجم، عالية الحرارة، وتشع كلاً من الضوء غير المرئي والمرئي، بجميع موجاته.

والنجوم تمر في دورة حياتها بمراحل من الميلاد إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة والوفاة بالانفجار والتحول إلى الدخان الكوني، أو تتكدس على ذاتها فتنكدر ثم تطمس، ثم تنفجر بعد ذلك فتعود إلى دخان السماء لتدخل في دورة ميلاد نجم جديد.

ويقضي النجم حوالي 90٪ من عمره في مرحلة النجوم العادية الشبيهة بشمسنا قبل انفجارها أو انكدارها أو طمسها وقد تنتهي المرحلتان الأخيرتان بالانفجار كذلك والتحول إلى دخان السماء.

والنجوم هي أفران ذرية كونية هائلة يتم بداخلها سلاسل من التفاعلات النووية تعرف باسم عملية الاندماج النووي ينتج عن طريقها تخليق معظم العناصر التي تحتاجها كل من الأرض والسماء الدنيا.

وبالإضافة إلى قوى الجاذبية التي تربط نجوم السماء الدنيا ببعضها البعض ربطًا محكمًا، فإن هناك أعدادًا من القوى التي تمسك بالمادة في داخل الأرض وفي داخل كل جرم سماوي، وفي صفحة السماء الدنيا، ونعرف من هذه القوى: القوة النووية الشديدة، والقوة النووية الضعيفة، والقوة الكهربائية/ المغناطيسية

(الكهرومغناطيسية)، وقوى الجاذبية وهذه القوى الأربع هي التي تمسك بالمادة والطاقة في الجزء المدرك من الكون.

ونظرًا لضخامة كتل النجوم فإنها تهيمن بقوى جذبها على كل ما يدور في فلكها من كواكب، وكويكبات، وأقمار، ومذنبات وغير ذلك من صور المادة بين النجوم. والنجوم ترتبط فيما بينها بالجاذبية، وتتجمع في وحدات كونية أكبر فأكبر مرتبطة فيما بينها بالجاذبية أيضًا، فإذا انفرط عقد هذه القوى انهارت النجوم، وانهارت السماء الدنيا بانهيارها وانهار الكون كله بانهيار السماء الدنيا. وهنا تتضح روعة التعبير النبوي الشريف: «النجوم أَمنة للسماء. فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد...».

وهذه الحقائق لم يتوصل الإنسان إلى إدراكها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، ونُطْقُ المصطفى ﷺ بها من قبل ألف وأربعمائة سنة بهذه الدقة العلمية، في زمن كان أهل الأرض غارقين إلى آذانهم في محيط من الجهل، والظلام، والخرافات، والأساطير والأوهام لهو أمر معجز حقًّا، ولا يمكن أن نجد له من تفسير إلا الصلة بالخالق (سبحانه وتعالى) عن طريق الوحي.

وهذا الحديث، وأمثاله من كلام الصادق المصدوق ﷺ هو من الشهادات البينة على صدق نبوته، وصدق رسالته، وصدق قوله، في زمن تحاول الأغلبية الساحقة من كفار ومشركي الأرض إنكار نبوته (صلوات الله وسلامه عليه).

وعلى ذلك فإن توظيف هذا السبق العلمي لأحاديث رسول الله ﷺ في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه. هو من أفضل وسائل الدعوة إلى الدين الخاتم الذي جاء به، وهو زمن قصرت فيه المسافات، وتلاقت الحضارات بكل ما في جعبها من معتقدات، وآراء، وفلسفات وأفكار، وصار لزامًا على المسلمين أن يحسنوا الدعوة إلى دين الله الخاتم باللغة التي يفهمها أهل عصرنا وهي لغة العلم. خاصة وأن الدين بركائزه الأساسية: العقيدة، والعبادات، والأخلاق، والمعاملات لم يعد يحرك ساكنًا في قلوب الكفار والمشركين من أهل الأرض، وما أكثرهم، لأن هذه المعتقدات الأصيلة قد شوهت في أغلب الأديان المنتشرة في الأرض تشويهًا كبيرًا،

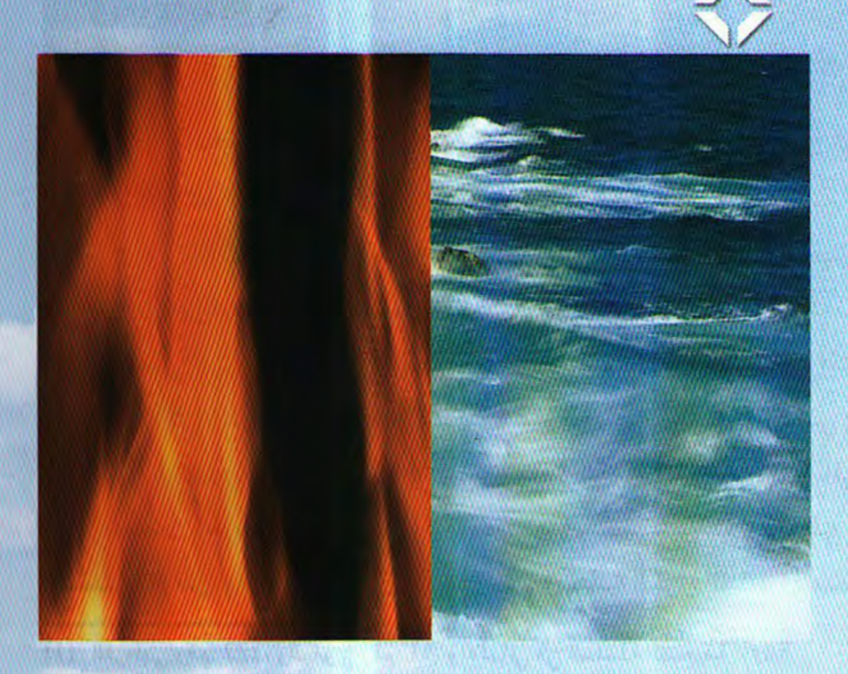
والناس في زماننا قد فتنوا بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، فإذا قدمنا إليهم سبقًا علميًا كالذي جاء في هذا الحديث الشريف، فإن ذلك قد يقنعهم بمزيد من الاطلاع على كتاب الله، وعلى سنة رسوله ﷺ فيجدون فيهما ضالتهم التي ينشدون؛ لأن الأصل في الإنسان الخير، والشرور حالات عارضة، فإذا استطعنا أن نصل إلى الخير في نفوس الناس أنقذناهم من عذاب الدنيا وجحيم الآخرة، وأنقذنا أنفسنا والعالم من شرورهم، وما ذلك على الله بعزيز، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



شكل (41) صورة لنجوم السماء توضح توزيعها المحكم الدقيق
حسب كتلها ومربع المسافة بين كل منها.

الحديث الخامس عشر

«إن اللّه أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»



شكل (42) صورة للماء والنار على سطح الأرض

15 «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»

أخرج الديلمي في الفردوس والسيوطي في جمع الجوامع، وابن كثير في الكافي الشافي في تخريج أحاديث الكشاف، والعجلوني في كشف الخفاء، كما روى القرطبي في تفسيره حديثًا لرسول الله ﷺ يقول فيه: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح»[1].

شرح الحديث

على الرغم من وجود ضعف في إسناد الحديث إلا أن به سبقًا علميًا معجزًا، والذين سمعوا هذا الحديث الشريف فهموا إنزال كل من النار، والماء، والملح من السماء إلى الأرض، ولكنهم لم يستطيعوا - في زمانهم - استيعاب فكرة إنزال الحديد من السماء إلى الأرض، على الرغم من وجود إشارة واضحة إليها في كتاب الله حيث يقول ربنا (عز من قائل):

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: 25].

وعلى ذلك فإن أغلب الذين تعرضوا لشرح كل من هذه الآية القرآنية الكريمة، والحديث النبوي الشريف فسروا (الإنزال) بأنه ليس إنزالاً حقيقيًا ولكنه إنزال مجازي بمعنى خلق وإيجاد عنصر الحديد.

ولكن في العقود المتأخرة من القرن العشرين اتجه علماء الفلك والفيزياء الفلكية إلى دراسة التركيب الكيميائي للجزء المدرك من الكون ففوجئوا بأن العنصر الغالب فيه هو غاز الإيدروجين (أخف العناصر، وأبسطها بناءً) الذي يكوِّن أكثر من 74٪ من مادة الكون المنظور، ويليه في الكثرة غاز الهيليوم (العنصر الثاني في الجدول الدوري للعناصر) والذي يكون 24٪ من مادة الكون المنظور وأن باقي أكثر من مائة عنصر تعرف عليها الإنسان [وقد تعرف حتى يومنا هذا على (105) من عناصر الأرض والسماء] تكوِّن أقل من 2٪ من مادة الكون المنظور. هذه الملاحظة

(1) القرطبي رقم: 222، والبغوي رقم: 41، والألباني في السلسلة الضعيفة 7/54.



أدت إلى الاستنتاج المنطقي المقبول أن جميع العناصر المعروفة لنا قد خلقت من غاز الإيدروجين بتكثفه على ذاته في عدد من الدوامات العنيفة العاتية في داخل النجوم تؤدي إلى اتحاد نوى ذراته مع بعضها البعض بعملية تسمى باسم «عملية الاندماج النووي» وانطلاق الطاقة الهائلة المميزة للنجوم.

وبالنظر في الشمس ثبت أن وقودها هو غاز الإيدروجين الذي تتحد نوى ذراته مع بعضها البعض لتكون نوى ذرات الهيليوم وتنطلق الطاقة الهائلة التي أعطت لب الشمس حرارة تقدر بحوالي 15 مليون درجة مطلقة، ولسطحها ستة آلاف درجة مطلقة. وثبت أيضًا أن عملية الاندماج النووي في قلب الشمس لا تصل أبدًا إلى إنتاج أية عناصر ثقيلة فضلاً عن إنتاج الحديد، فلا يتكون في داخل الشمس بهذه العملية سوى الهيليوم ونسب ضئيلة جدًا من بعض العناصر التي تلي هذا الغاز في الجدول الدوري للعناصر.

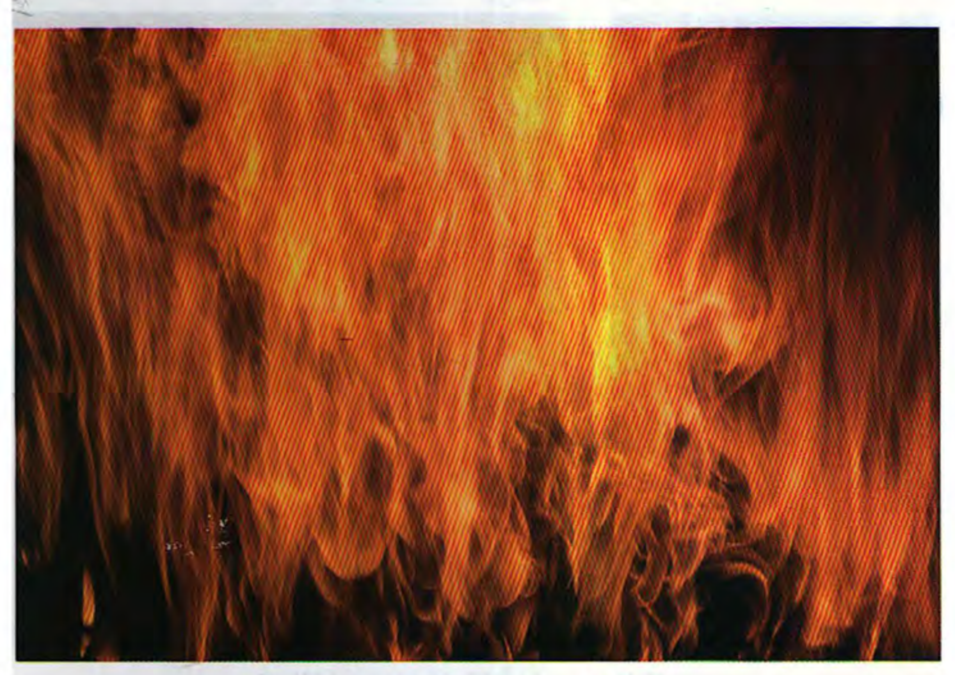


شكل (43) صورة حقيقية للأمواج البحرية العاتية.



وهنا برز التساؤل: من أين جاءت الكمية الهائلة من حديد الأرض والتي تفوق ثلث كتلة الأرض المقدرة بحوالي ستة آلاف مليون مليون مليون طن (أي 6×10^{18} × 35.9٪ = $2,154 \times 10^{18}$ طن من الحديد)؟

بالدراسة الفلكية المستفيضة ثبت أن النجوم تمر بمراحل عدة في تاريخ حياتها من الميلاد إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة والانكدار والطمس والوفاة بالانفجار والانضمام إلى دخان السماء ومن هذه مراحل تتوهج فيها النجوم توهجًا شديدًا فتعرف باسم المستعرات أو المستعرات العظمى (حسب كتلتها)، وأن درجة حرارة لب النجوم في مرحلة المستعر الأعظم تتعدى عشرات البلايين إلى مئات البلايين من الدرجات المطلقة، وأن لب هذه المستعرات العظمى هي الأماكن الوحيدة المعروفة لنا في صفحة الجزء المدرك من الكون التي تتم فيها عملية الاندماج النووي حتى يتحول لب النجم بالكامل إلى حديد، ويتحوله إلى حديد يستهلك طاقة النجم بالكامل فينفجر وتتناثر أشلاؤه في صفحة الكون، وبذلك

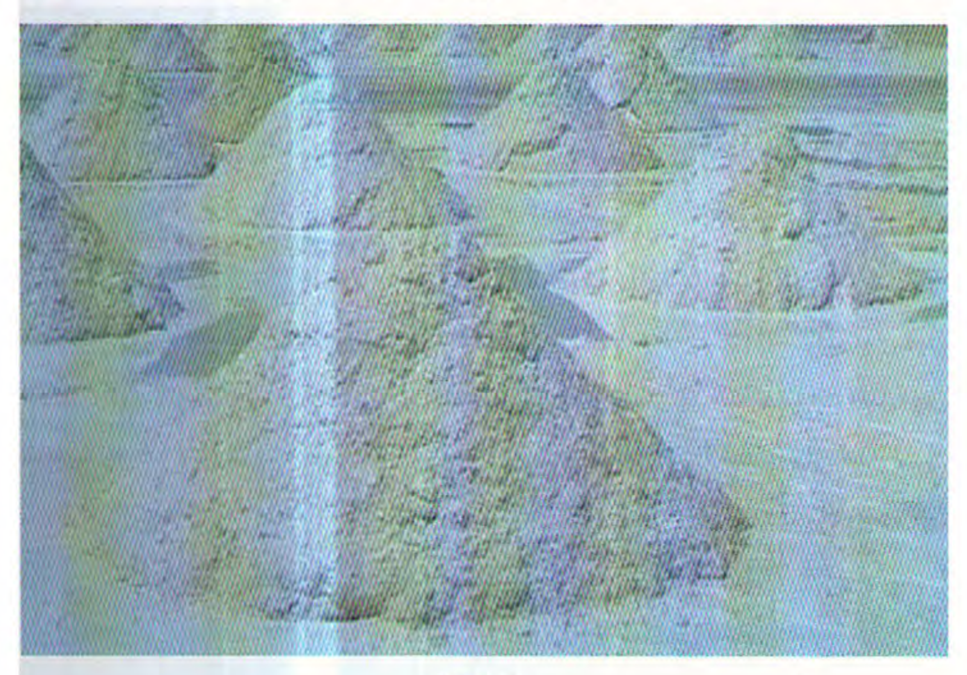


شكل (44) صورة حقيقية للنيران المشتعلة.

يصل الحديد إلى عدد من أجرام السماء من مثل كوكب الأرض، تمامًا كما تصلنا نيازك الحديد اليوم.

هذه الملاحظة قادت إلى التصور الصحيح أن الأرض عند انفصالها عن الشمس (أو عن السحابة الكونية التي نشأت عنها مجموعتنا الشمسية) لم تكن سوى كومة من الرماد ليس فيها عناصر أعلى من الألومنيوم والسيليكون، ثم رجمت بوابل من النيازك الحديدية، والصخرية، والحديدية الصخرية، التي اندفعت بحكم كثافتها الأعلى من كثافة الأرض الابتدائية (كومة الرماد) حتى وصلت إلى مركز تلك الكومة حيث انصهرت بحرارة الاستقرار وصهرت كومة الرماد، ومايزتها إلى سبع أرضين على النحو التالي:

لُبٌّ داخلي صلب (أغلبه الحديد 90٪، والنيكل 9٪، وعناصر أخرى خفيفة 1٪)، ولُبٌّ خارجي سائل (له نفس التركيب الكيميائي)، وثلاثة أوشحة متتالية تتناقص فيها نسبة الحديد من الداخل إلى الخارج، ثم الجزء السفلي من الغلاف الصخري



شكل (45)

للأرض، ويليه إلى الخارج الجزء العلوي من الغلاف الصخري للأرض (قشرة الأرض وبها 5,6٪ حديد).

بهذه الملاحظات ثبت أن كل حديد الأرض قد أنزل إليها إنزالاً حقيقيًا من السماء؛ تصديقًا لما جاء في كتاب الله، وفي هذا الحديث الذي نحن بصدده من أقوال رسول الله ﷺ.

ولولا حديد الأرض ما كان لها هذا المجال المغناطيسي الذي يمسك بغلافيها الغازي والمائي، وبجميع صور الحياة على سطحها، ولو لم ينزل الحديد إلى الأرض من السماء؛ ما كانت الحياة؛ لأن الحديد يشكل جزءًا مهمًّا من المادة الحمراء (الهيموجلوبين) في دم الإنسان، وفي دماء العديد من الحيوانات، ويشكل جزءًا مهمًّا كذلك من المادة الخضراء في النباتات والتي بدونها ما كانت النباتات (وإن كانت ذرة الحديد في جزيء الهيموجلوبين يحل محلها ذرة مغنيسيوم في مادة النبات الخضراء المعروفة باسم «اليخضور»).

وأول نار نزلت إلى الأرض كانت بسبب البرق، أو الشهب والنيازك، وكلها نازلة من السماء. والماء ينزل من السماء بدورته حول الأرض كما أسلفنا، والملح ينزله البرق بأكسدة النيتروجين في الغلاف الغازي للأرض، ويتفاعل أكاسيد النيتروجين مع أملاح الأرض تكونت أملاح النترات.

ويعجب الإنسان من هذه الإشارة العلمية الدقيقة.. إنزال الحديد إلى الأرض من السماء في كل من كتاب الله، وفي هذا الحديث من أحاديث رسول الله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، وهي حقيقة لم يتوصل إليها الإنسان إلا منذ عشرات قليلة من السنين، وهي شهادة حق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، وأن هذا النبي الخاتم ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض.

الحديث السادس عشر

«.. هي على رسلها لا تبـرح ولا تــزول...»



شكل (46) صورة للشمس في وقت الغروب

16 «.. هي على رسلها لا تبرح ولا تزول...»

عَنِ ابنِ عباسٍ رضِيَ الله عنهُما أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئِل: هذهِ المغاربُ، أينَ تغربُ؟ وهذهِ المطالعُ مِن أينَ تطلُعُ؟ فقال ﷺ: «هِيَ على رسلِهَا لا تبرحُ ولا تزولُ، تغرُبُ عن قومٍ وتطلُعُ على قومٍ، وتغربُ عن قومٍ وتطلعُ: فقومٌ يقولونَ: غَرَبتْ، وقومٌ يقولونَ: طَلَعَتْ». (مسند الإمام أبي إسحاق الهمداني).

شرح الحديث

معنى هذا الحديث الشريف أن طلوع الشمس وغروبها يتبادلان على سطح الأرض باستمرار، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا إذا كانت الأرض كرة أو شبه كرة، وكانت تدور حول محورها أمام الشمس باستمرار فيتبادل الليل والنهار على سطحها بطريقة مستمرة إلى أن يرث الله – تعالى – الأرض ومن عليها.

فمن أهم ظواهر كروية الأرض اختلاف المطالع باختلاف الآفاق، فكل من الشمس والقمر، وغيرهما من أجرام السماء تغرب عن قوم على سطح أرضنا وتطلع على قوم، وهي تجري في مدارات محددة على رسلها لا تبرحها ولا تزول عنها، مصداقًا لقوله (تعالى): ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40].

ونُطْق رسول الله ﷺ بهذه الحقائق الكونية بهذه الصياغة العلمية الدقيقة في زمن ساد فيه اعتقاد الناس باستواء الأرض وثباتها هو من إشراقاته النبوية الكريمة التي تشهد له بالنبوة وبالرسالة، فلم يكن لأحد من أهل الجزيرة العربية إدراك في زمن الوحي – ولا لقرون متطاولة من بعده – لحقيقة كروية الأرض، أو دورانها حول محورها أمام الشمس، ولا إلمام بحركات كل من القمر والشمس ولا بحركات غيرهما من أجرام السماء، ولا بأيٍّ من أشكال تلك الحركات الحقيقية والظاهرية، فقد كانت البيئة العربية في زمن الوحي بيئة بدائية بسيطة، لا حظ لها من العلم بصفة عامة، ولا من العلم بالكون ومكوناته بصفة خاصة.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى كل من كروية الأرض، ودورانها حول محورها أمام الشمس، وإلى سبحها في مدارها حول هذا النجم في العديد من آياته وذلك بإشارات ضمنية رقيقة لا تفزع البدو في صحراء الجزيرة العربية، وتحفظ الحقيقة العلمية في نفس الوقت حفظًا كاملاً، ومن ذلك قوله تعالى:

1- ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾. [الزمر: 5].

2- ويؤكد القرآن الكريم في أكثر من آية من آياته «مد الأرض» أي بسطها بغير حافة تنتهي إليها، وهذا لا يمكن أن يحدث إلا إذا كانت الأرض كرة أو شبه كرة، فالمد إلى ما لا نهاية هو قمة التكوير، والشكل الوحيد الذي لا نهاية لبسطه هو الشكل الكروي، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ﴾ [الرعد: 3].

3- ويزيد ذلك تأكيدًا ما أشارت إليه آيات القرآن الكريم من تعبيرات المشرق والمغرب، والمشرقين والمغربين والمشارق والمغارب، مما يعني كروية الأرض، ودورانها على محورها أمام الشمس، وميل محور الدوران على مستوى فلك دورانها حول الشمس.

4- كما تدعمه آيات سبح كل من الليل والنهار، وإغشاء الواحد منهما الآخر، وإيلاج كل منهما في الآخر، واختلافهما، وتقلبهما، وسلخ النهار من الليل، ومرور الجبال مر السحاب.

وقد دفع ذلك كله المسلمين إلى قياس محيط الأرض على زمن الخليفة المأمون قياسًا بالغ الدقة إيمانًا منهم بكروية الأرض، وبدورانها حول محورها أمام الشمس.



شكل (47) يوضح تبادل كل من الليل والنهار على نصفي الكرة الأرضية.

كذلك قام البيروني بتقسيم الكرة الأرضية إلى خطوط الطول والعرض وذلك في كتابه المعنون «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» الذي تمت كتابته في سنة 416هـ (في حدود 1040م).

وكان مصدر ذلك كله تلك الإشراقات النورانية التي جاءت في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ وكلاهما يشهد لهذا النبي الخاتم والرسول الخاتم بالنبوة وبالرسالة، وإلا فمن أين له ﷺ هذا العلم المحكم الدقيق، فضلاً عن الدين الكامل التام لو لم يكن موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض؟ فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (48) صورة حقيقية توضح لحظة غروب الشمس.

الحديث السابع عشر

«صومـــوا لرؤيتــــه وأفطـــروا لرؤيتـــه...»



شكل (49) صورة لهلال الأرض مأخوذة من فوق سطح القمر

17 «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته...»

■ روى الإمام البخاري في صحيحه (كتاب الصوم حديث رقم 1776) بسنده قال:

حَدَّثَنَا آدَمُ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ زِيَادٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَوْ قَالَ: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ فأَكْمِلُوا عدَّة شَعْبَان ثلاثين». (صحيح البخاري، حديث رقم: 1776).

وهذا الحديث رواه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الصيام حديث رقم: 1809) قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحمَنِ بْنُ سَلام الْجُمَحِيُّ حَدَّثَنَا الرَّبِيعُ يَعْنِي ابْنَ مُسْلِمٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ابْنُ زِيَادٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ فأَكْمِلُوا العَدَد».

■ وفي رواية أخرى أوردها الإمام مسلم أيضًا (كتاب الصيام حديث رقم: 1810) قال: وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ مُعَاذٍ حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَال رسولُ اللهِ ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمِّيَ عَلَيْكُمْ الشَّهْرُ فَعُدُّوا ثَلاثِينَ».

■ والحديث أورده كذلك الإمام النسائي في سننه (كتاب الصيام حديث رقم: 2088): أَخْبَرَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ هِشَام عَنْ إسماعيلَ عن شُعْبَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَاد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُم الشَّهْرُ فَعُدُّوا ثَلاثِينَ».

وقد روي الحديث بروايات عدة في أغلب كتب السنة منها ما يلي:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْلَمَةَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ (رَضِي اللهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ رَمَضَانَ فَقَالَ: «لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (صحيح البخاري: حديث رقم: 1773) بسند صحيح.

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى قَالَ: قَرَأْتُ عَلَى مَالِك عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِي ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ رَمَضَانَ فَقَالَ: «لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ أُغْمِيَ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (صحيح مسلم: كتاب الصيام حديث رقم 1795) بسند صحيح.

■ أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَمَةَ وَالْحَارِثُ بْنُ مِسْكِين قِرَاءَةً عَلَيْهِ وَأَنَا أَسْمَعُ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنِ ابْنِ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ عَنْ نَافِعٍ عَن ابْن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذَكَرَ رَمَضَانَ فَقَالَ: « **لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ** » . (سنن النسائي: كتاب الصيام، حديث رقم: 2092).

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ الْبَزَّازُ حَدَّثَنَا جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الحَمِيدِ الضَّبِّيُّ عَنْ مَنْصُورِ بْنِ المُعْتَمِرِ عَنْ رِبْعِيِّ بْنِ حِرَاشٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « **لا تُقَدِّمُوا الشَّهْرَ حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ أَوْ تُكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثُمَّ صُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ**



شكل (50) صورة لهلال القمر عند الميلاد.

أَوْ تُكْمِلُوا الْعِدَّةَ». قالَ أَبُو دَاوُد: وَرَوَاهُ سُفْيَانُ وَغَيْرُهُ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ رِبْعِيٍّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَمْ يُسَمِّ حُذَيْفَةَ (سنن أبي داود؛ كتاب الصوم: حديث رقم: 1981).

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَقَالَ: صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غَبِيَ عَلَيْكُمْ فَعُدُّوا ثَلاثِينَ». قَالَ شُعْبَةُ: وَأَكْثَرُ عِلْمِي أَنَّه قَالَ: «لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ». (مسند أحمد: حديث رقم: 9505).

■ حَدثَنِي يَحْيَى عَنْ مَالك عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذَكَرَ رَمضَانَ فَقَالَ: «لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (موطأ مالك: كتاب الصيام، حديث رقم: 557).

■ حَدَّثَنَا عُبَيْدُ الله بْنُ عَبْدِ المَجِيدِ حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ نَافِعٍ عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ ذَكَرَ رَمضَانَ فَقَالَ: «لا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (سنن الدارمي: كتاب الصوم، حديث رقم: 1622).

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مَسْلَمَةَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، فلا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فأَكْمِلُوا الْعِدَّةَ ثَلاثِينَ». (صحيح البخاري: كتاب الصوم، حديث رقم: 1774).

■ حَدثَنِي زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ نَافِعٍ عَن ابْنِ عُمَرَ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إنما الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، فَلا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (صحيح مسلم: كتاب الصيام، حديث رقم: 1797).

■ حَدثَنِي حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ الْبَاهِلِيُّ حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّلِ حَدَّثَنَا سَلَمَةُ وَهُوَ ابْنُ عَلْقَمَةَ عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ (رَضِي الله عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ فَإِذَا رَأَيْتُم الْهِلالَ فَصُومُوا، وإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (صحيح مسلم: كتاب الصيام، حديث رقم: 1798).

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ يَحْيَى وَيَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَابْنُ حُجْرٍ قَالَ يَحْيَى بْنُ يَحْيَى: أَخْبَرَنَا، وقَالَ الآخَرُونَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ لَيْلَةً، لاَ تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، إلا أَنْ يُغَمَّ عَلَيْكُمْ فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (صحيح مسلم: كتاب الصيام، حديث رقم: 1800).

■ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ الْعَتَكِيُّ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَن نَافِعٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ فَلا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوْهُ، وَلا تُفْطِرُوا حَتَّى تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ ثَلاثِينَ». قَالَ: فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ إِذَا كَانَ شَعْبَانُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ نَظَرَ لَهُ فَإِنْ رُئِي فَذَاكَ، وَإِنْ لَمْ يُرَ وَلَمْ يَحُلْ دُونَ مَنْظَرِه سَحَابٌ ولا قَتَرَةٌ أَصْبَحَ مُفْطِرًا، فَإِنْ حَالَ دُونَ مَنْظَرِهِ سَحَابٌ أَوْ قَتَرَةٌ أَصْبَحَ صَائِمًا، قَالَ: فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُفْطِرُ مَعَ النَّاسِ وَلا يَأْخُذُ بِهَذَا الْحِسَابِ. (سنن أبي داود: حديث رقم: 1976).

■ حَدَّثَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ حَدَّثَنِي أَيُّوبُ قَالَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إلى أَهْلِ الْبَصْرَةِ بَلَغَنَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ: نَحْوَ حَدِيثِ ابْنِ عمَرَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ زَادَ: «وَإِنَّ أَحْسَنَ مَا يُقْدَرُ لَهُ أَنَّا إِذَا رَأَيْنَا هِلال شَعْبَانَ لِكَذَا وَكَذَا فَالصَّوْمُ إِنْ شَاءَ الله لِكَذَا وَكَذَا إِلا أَنْ تَرَوا الْهِلالَ قَبْلَ ذَلِك». (سنن أبي داود: حديث رقم: 1976).

■ حَدثَنِي عَنْ مَالِك عَنْ عَبْدِ الله بْنِ دِينَارٍ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ: قَالَ: «الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ، فَلا تَصُومُوا حَتَّى تَرَوا الْهِلالَ، ولا تُفْطِرُوا حَتَّ تَرَوْهُ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَاقْدُرُوا لَهُ». (موطأ مالك: حديث رقم: 558).

■ حَدَّثَنَا آدَمُ حدَّثنا شعبةُ حَدَّثَنَا الأَسْوَدُ بْنُ قَيْسٍ حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ عَمْرٍو أَنَّهُ سَمِعَ ابْنَ عُمَرَ (رَضِيَ الله عَنْهُمَا) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسِبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا يَعْنِي مَرَّةً تِسْعَةً وَعِشْرِينَ وَمَرَّةً ثَلاثِينَ». (صحيح البخاري: حديث رقم: 1780).

■ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَن الأَسْوَدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ سعِيدِ بْنِ عَمْرو – يَعْنِي ابن سعيد بْنِ الْعَاصِ – عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ

أُمِّيَّةٌ لا نَكْتُبُ وَلا نَحْسبُ، الشَّهْرُ هَكَذَا و هَكَذَا و هَكَذَا»، وَخَنَسَ سُلَيْمَانُ أُصْبُعَهُ فِي الثَّالِثَةِ يَعْنِي تِسْعًا وَعِشْرِينَ وَثلاثينَ. (سنن أبي داود: حديث رقم: 1975).

شرح الحديث

يشترك في تحديد الشهر القمري حركات كل من القمر والأرض والشمس، وأوضاعها النسبية الناتجة عن تلك الحركات، والقمر تابع للأرض لا يفارقها في دورانها حول محورها، ولا في سبحها حول الشمس، وهو يدور حول محوره بنفس سرعة دورانه حول الأرض ولذا يواجهها دائمًا بوجه واحد، وبذلك يدور حول نفسه دورة واحدة في كل شهر عربي تمثل يومه الذي يقتسمه ليل ونهار يطول كل منهما إلى نصف طول الشهر القمري (14,5 إلى 15 يومًا).

وبمجرد خروج القمر من مرحلة المحاق (مرحلة الاقتران أو اجتماع الأرض والقمر والشمس على استقامة واحدة مع وجود القمر بين الأرض والشمس) يولد الهلال الجديد، وبدورانه حول الأرض تزداد مساحة الجزء المنير من سطح القمر بالتدريج حتى يصل إلى التربيع الأول، فالأحدب الأول، فالبدر (مرحلة الاستقبال التي تكون فيها الأرض بين القمر والشمس)، ثم باستمرار دورانه حول الأرض تبدأ مساحة الجزء المنير من القمر كما نراه من فوق سطح الأرض في التناقص بالتدريج حتى يصل إلى الأحدب الثاني ثم التربيع الثاني ثم الهلال الأخير، ثم يختفي في مرحلة المحاق إلى مولد الهلال التالي.

وطول الشهر القمري يتراوح بين (29 يومًا، 5 ساعات) و(29 يومًا، 19 ساعة)، ويبلغ في المتوسط (29,53) يوم، وبذلك يكون الشهر مرة 29 يومًا، ومرة 30 يومًا، وهذا نص حديث رسول الله ﷺ.

ومولد الهلال الجديد يقتضي السبق الظاهري لحركة الشمس في غروبها بالنسبة إلى غروب القمر، وخروج القمر من وضع المحاق حتى يمكن رؤية الهلال بعد غروب الشمس.

والشهر القمري الشرعي يبدأ برؤية الهلال الجديد بعد غروب الشمس، وينتهي برؤية الهلال الوليد للشهر التالي بعد غروب الشمس كذلك، وبذلك تكون الفترة



الزمنية لهذا الشهر أيامًا صحيحة، وهي إما تسعة وعشرون يومًا، وإما ثلاثون يومًا، ولأسباب فلكية عديدة قد يحدث أن تتوالى الأشهر الناقصة أو الأشهر الكاملة مرة أو مرتين، وعليه فإنه يجب أخذ ذلك في الحسبان.

وإذا رُئِيَ الهلال الجديد، رؤية شرعية صحيحة (بعد غروب الشمس) في مكان ما من الأرض، فقد دخل الشهر بالنسبة لجميع الأماكن التي تشترك مع هذا المكان في خط اتحاد المطالع في هذا اليوم، كما أنه يكون أكثر ظهورًا في الأماكن التي تقع إلى الغرب من هذا الخط في جميع أنحاء الأرض، وأما الأماكن التي تقع إلى الشرق من هذا الخط من خطوط اتحاد المطالع فإن الهلال الجديد يُرى فيها في الليلة التالية، ويكون أكبر مساحة وأشد نورًا.

ومعنى حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده: أن علامة ابتداء الشهر القمري هي رؤية الهلال بعد غروب الشمس في الجو الصحو الذي لا يحول فيه حائل دون الرؤية الصحيحة، فإذا حال حائل دون ذلك فإن المسلمين أمامهم من أحاديث رسول الله ﷺ خيار من اثنين هما:

1- «فإن غم عليكم فاقدروا له».

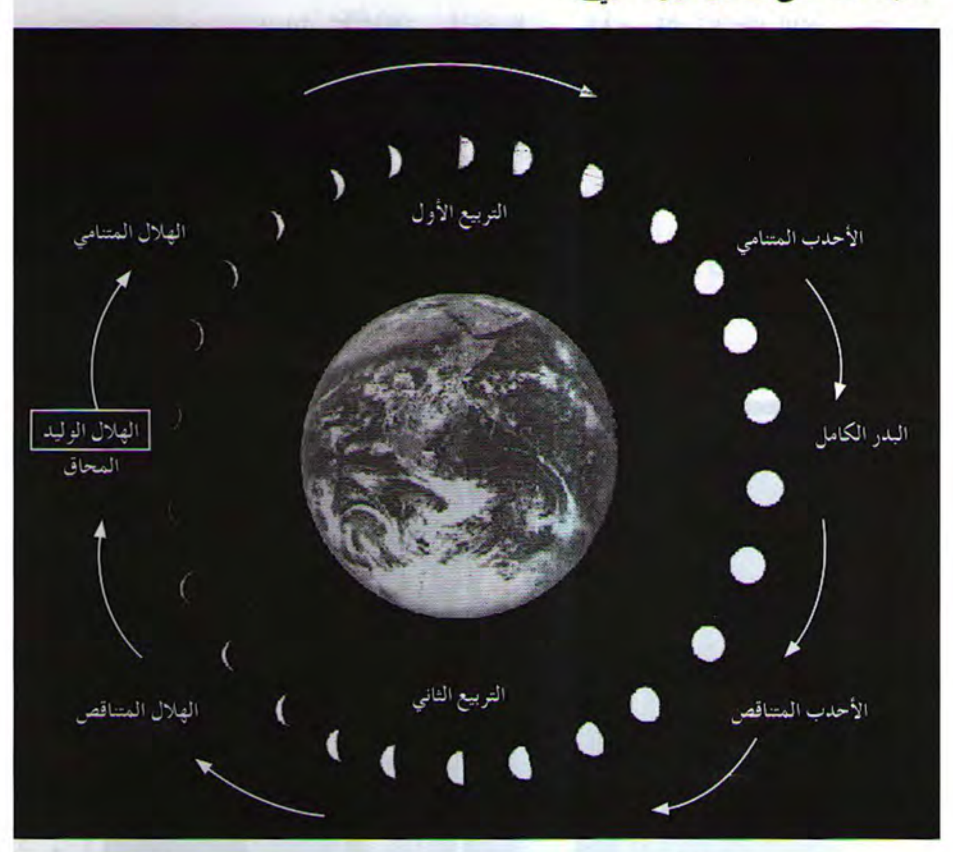
2- «فإن غم عليكم فأكملوا العدة، ولا تستقبلوا الشهر استقبالاً» أي فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا.



شكل (51) يوضح مراحل أشكال القمر على مدار الشهر القمري.

فالتقدير يكون للذين يملكون القدرة على الحساب والتقنيات التي تمكنهم من تحقيق ذلك، بينما يكون إكمال عدة شعبان ثلاثين يومًا للذين لا يملكون شيئًا من ذلك.

فسبحان الذي ألهم خاتم أنبيائه ورسله حقيقة أن الشهر القمري إما أن يكون تسعة وعشرين يومًا أو ثلاثين يومًا، وسبحان الذي علمه أن دخول الشهر الجديد وانتهاءه لا يكون إلا برؤية الهلال بعد غروب الشمس تيسيرًا على الخلق، وهي من الحقائق التي لم يدركها الإنسان إلا في القرنين الماضيين، وورودها على لسان رسول الله ﷺ - وهو النبي الأمي الذي بعث في مجتمع بدائي - هو من أنصع الشهادات على صدق نبوته ﷺ.



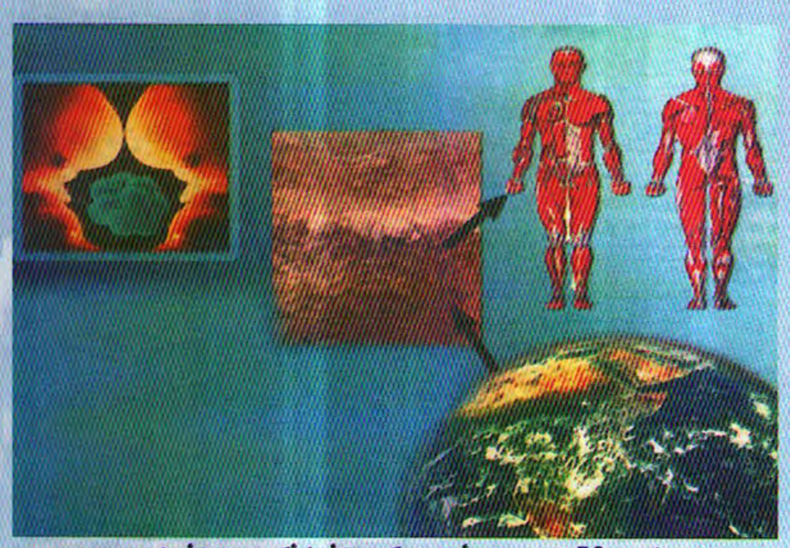
شكل (52) يوضح مراحل شكل القمر في دورته حول الأرض

الفصل الثالث

أحاديث
خَلْق الإنسان

الحديث الثامن عشر

«إن الله - تعالى - خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض...»



شكل (53) «... هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم...».

18 «إن الله - تعالى - خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض...»

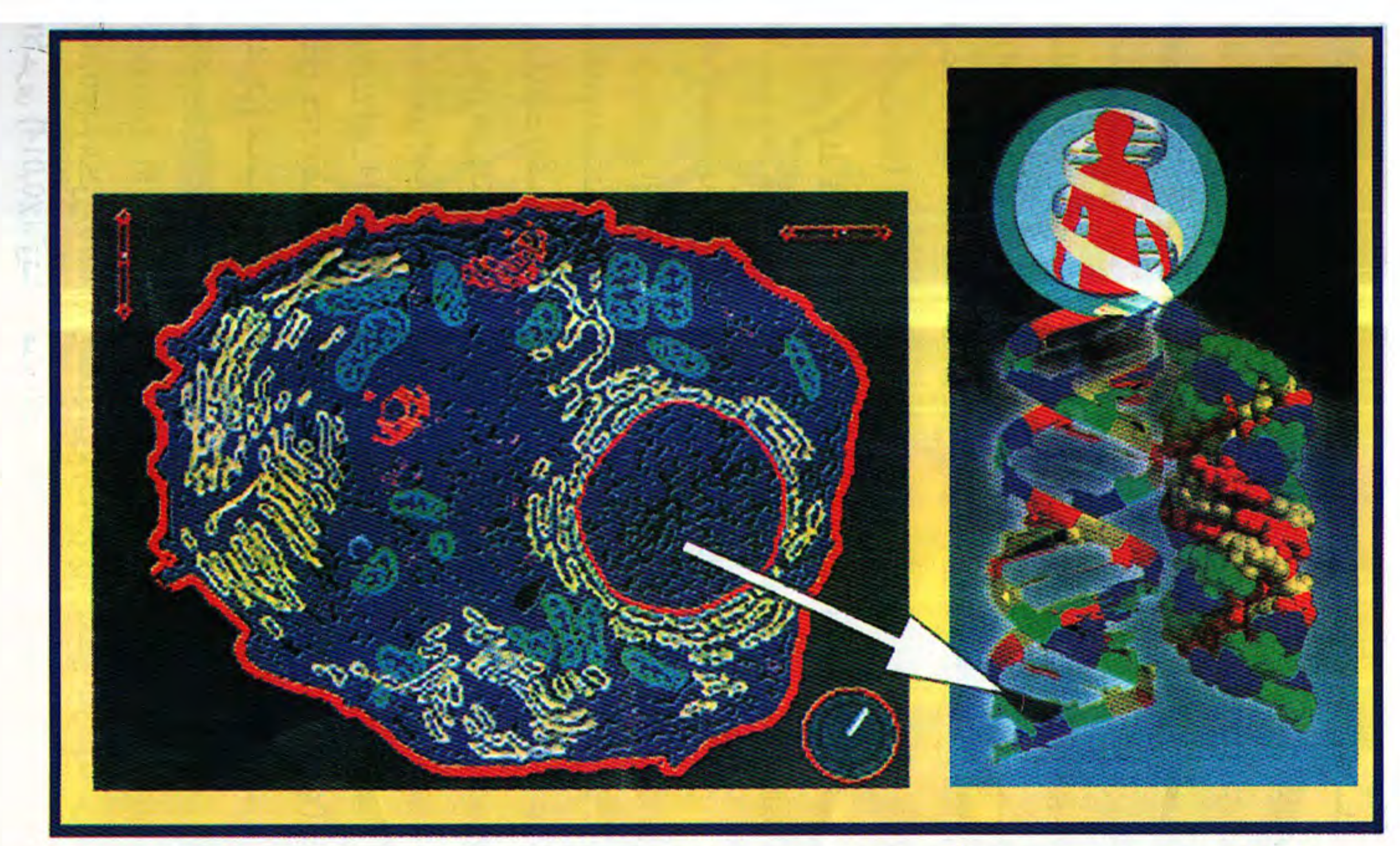
■ أخرج الإمام أحمد (19145) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حديثًا يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال فيه: «إن الله – تعالى – خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، وجاء بنو آدم على قدر الأرض: فجاء منهم الأحمر، والأبيض، والأسود، وبين ذلك، والسهل والحَزْن، والخبيث والطيب».

■ والحديث أخرج مثله كل من الأئمة أبي داود (4693)، والترمذي (2955)، والبزار (3026)، وصححه ابن حبان (6160)، وأورده الحافظ في الفتح، وقال عنه الترمذي: إنه حديث حسن صحيح.

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف يفسر آيتين كريمتين جاءتا في سورة فاطر يقول فيهما ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: 27، 28].

وكل من الآيتين الكريمتين والحديث النبوي الشريف يشير إلى أن تنوع ألوان كل من الناس والدواب والأنعام وثمار النباتات نابع عن اختلاف ألوان تربة الأرض، وهي ناتجة عن تجوية وتعرية صخور الأرض التي تتنوع ألوانها بين الأبيض والأحمر والأسود على اختلاف درجات تلك الألوان. وهذه الألوان الثلاثة تمثل الأقسام الرئيسية للصخور الأولية التي تكونت منها الأرض بمجرد تيبس قشرتها، ومنها الصخور الحامضية وفوق الحامضية التي يغلب عليها من الألوان الأبيض والأحمر، والتي تمثل إحدى نهايات تصنيف الصخور، وتمثل النهاية المقابلة بالصخور القاعدية وفوق القاعدية التي يغلب عليها اللونان الأخضر الغامق والأسود (والعرب تسمى الأخضر الغامق أسود كما تسمى الأسود أخضر). وبين هاتين النهايتين توجد مراحل متوسطة عديدة تتباين ألوانها بين هذين الحدين.



شكل (54) بالتقاء النطفتين الذكرية والأنثوية (وكل منهما يحمل نصف عدد صبغيات الخلية) يتكامل عدد الصبغيات التي تكتب بها الشفرة الوراثية للخلية الحية ومنها الصفات السائدة والمتنحية ونوع الجنس (ذكرًا أو أنثى) بمشيئة الله (تعالى).

وتتكون تربة الأرض بواسطة التحلل الكيميائي والحيوي لصخورها، كما تتكون كذلك بواسطة التفكك الفيزيائي والميكانيكي لتلك الصخور بواسطة مختلف عوامل التعرية، فيتكون في النهاية غطاء رقيق لصخور الأرض من فتات ويسيس تلك الصخور على هيئة حطام مفروط متباين في حجم حبيباته من الجلاميد والحصى إلى الرمال والغرين والصلصال، ويعرف هذا الحطام المفروط باسم «عادم الصخور»، ومنه تراب أو تربة الأرض. وهذه التربة قد تكون ناتجة عن تحلل الصخور التي توجد أسفل منها مباشرة، وقد تكون منقولة إليها بواسطة عوامل النقل المختلفة. وهذه التربة تحمل بصمة التركيب الكيميائي للصخور التي استمدت منها، كما تحمل أطيافًا من ألوانها الأصلية (الأبيض والأحمر والأسود وما بين ذلك).

وعلى ذلك فإن تربة الأرض تتكون من خليط من المعادن المفككة من صخور الأرض، ومن عدد من المركبات العضوية وغير العضوية الناتجة عن التفاعل بين تلك الصخور ونُطُق الأرض الهوائية، والمائية، والحيوية.

ولما كان الإنسان قد خلق أصلاً من تراب الأرض، ولما كان يحيا على ثمار نباتاتها المستمدة أصلاً من تربة الأرض، وعلى المباحات من منتجات حيواناتها من آكلات الأعشاب، والأعشاب مستمدة من عناصر الأرض، كان هناك تشابه كبير بين التركيب الكيميائي لكل من جسم الإنسان وتربة الأرض. فجسم الإنسان يتكون أساسًا من الماء (بنسب تتراوح بين 54٪ وأكثر من 70٪) بالإضافة إلى نسبة من الدهون (من 14٪ إلى 26٪) والبروتينات (من 11٪ إلى 17٪)، والكربوهيدرات (في حدود 1٪)، وعدد من العناصر والمركبات غير العضوية (من 5٪ إلى 6٪). وبرد كل ذلك إلى عناصره الأولية يتضح أن جسم الإنسان يتكون من: الأكسجين (65٪)، والكربون (18٪)، والإيدروجين (10٪)، والنيتروجين (3٪)، والكالسيوم (1.40٪)، والفوسفور (0,70٪)، والكبريت (0,20٪)، والبوتاسيوم (0,18٪)، والصوديوم (0,10٪)، والكلور (0,10٪)، والمغنيسيوم (0,045٪)، وبعض آثار قليلة من العناصر الأخرى (0,014٪)، وتشمل هذه الآثار كلاً من اليود، والفلور، والبروم، والحديد،

شكل (55) يوضح تشققات طين الأرض عند جفافه، وهو الذي خلق منه الإنسان

شكل (55) يوضح تشققات طين الأرض عند جفافه، وهو الذي خلق منه الإنسان



والنحاس، والمنجنيز، والزنك، والكروم، والكوبالت، والنيكل، والموليبدينوم، والقصدير، والفاناديوم، والسيليكون، والألومنيوم، وكلها من عناصر الأرض.

وهذا التركيب الكيميائي لجسم الإنسان يشبه في مجموعه التركيب الكيميائي لتربة الأرض، مع تركيز واضح في كل من الأكسجين والإيدروجين المستمدين من ماء الأرض، والكربون المستمد من ثاني أكسيد الكربون الذي يمتصه النبات الأخضر من الجو أثناء عمليات التمثيل الضوئي، والنيتروجين المستمد أيضًا من كل من الغلاف الغازي للأرض ومن البروتينات التي يأكلها الإنسان، وهي مثل باقي العناصر مستمدة أصلاً من تربة الأرض.

وتراب الأرض من الرواسب الفتاتية الناعمة حيث تقل أطوال أقطار الحبيبات المكونة له عن (1/256مم)، وإن اختلطت بها بعض حبيبات الغرين (1/16 إلى 1/256مم)، وبعض حبيبات الرمل (1/4 إلى 1/16 مم). وهذه الحبيبات تتكون في غالبيتها من المعادن الصلصالية التي تتركب أساسًا من سليكات الألومنيوم المميأة، وتمثل عددًا من المعادن التي تزيد على العشرة، والتي تختلف عن بعضها البعض باختلاف نسب التميؤ، ونسب كل من السيليكون والألومنيوم، ونسب بعض الشوارد مثل المغنيسيوم، والبوتاسيوم، وغيرها.

ويختلط مع المعادن الصلصالية نسب متفاوتة من حبات الرمل (ثاني أكسيد السيليكون) ومعادن الفلسبار والميكا، وأكاسيد الحديد، وبعض دقائق المعادن الثقيلة، بالإضافة إلى شيء من الرماد البركاني، ودقائق كل من الأملاح والكلس) الجير، والكربون، وحبوب اللقاح، والبكتيريا، وغيرها من البقايا الدقيقة للأحياء، وغبار الشهب، وبعض فتات النيازك، وبعض آثار الدخان الكوني.

ونظرًا للطبيعة الصفائحية للمعادن الصلصالية فإنها تحمل على أسطحها، وفي المسام الفاصلة بينها العديد من أيونات العناصر المختلفة بالإضافة إلى كل من قطيرات الماء وفقاعات الهواء؛ مما يجعل من هذا الخليط ما يشبه التركيب الكيميائي لجسم الإنسان. ولذلك ذكر القرآن الكريم خلق الإنسان من تراب في ست آيات كريمة هي على التوالي: [آل عمران: 59]، [الكهف: 37]، [الحج: 5]، [الروم: 20]، [فاطر: 11]، [غافر: 67]، ومن طين: [الأنعام: 2]، [الأعراف: 12]، [الإسراء: 61]، [السجدة: 7]، [ص: 71: 76]،

ومن سلالة من طين: [المؤمنون: 12]، ومن طين لازب: [الصافات: 11]، ومن صلصال من حمأ مسنون: [الحجر: 26، 28، 33]، ومن صلصال كالفخار: [الرحمن: 14]، ومن الأرض: [هود: 61]، [طه: 55]، [النجم: 32]، [نوح: 17، 18].

ونحن نرى نمو جسم الإنسان من عناصر الأرض، فالجنين في بطن أمه يتغذى وينمو على دمها المستمد من الغذاء الذي تأكله الأم، والغذاء مستمد أصلاً من تراب الأرض ومائها.

وبعد الميلاد يتغذى المولود على لبن أمه أو على لبن غيرها من المرضعات، أو حتى على ألبان الحيوانات، وهذا كله مستمد أصلاً من عناصر تربة الأرض، وبعد فطامه يعتمد في غذائه على ثمار نباتات الأرض، وعلى لحوم ومنتجات المباح من حيواناتها، وكل ذلك مستمد أصلاً من تراب الأرض، ومن هنا كانت حكمة الخالق العظيم في خلق النبات قبل خلق الحيوان، وخلق الحيوان قبل خلق الإنسان فالخلق يبدأ من تراب الأرض وينتهي إلى تراب الأرض ليبعث منه في يوم الخروج. والإنسان لم يشهد خلق السماوات والأرض ولا خلق نفسه، ولم يشهد الخلق الأول لأبينا آدم عليه السلام ولا لأمِّنا حواء – عليها رضوان الله – وفي ذلك يقول الحق – تبارك وتعالى –: ﴿ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف: 51]، ولذلك فالفيصل في الأمر – مهما تعددت الشواهد الحسية – هو كلام الخالق – سبحانه وتعالى – الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة والذي منه قوله الحق:

(1) ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: 59].

(2) ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ﴾ [الكهف: 37].

(3) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ... ﴾ [الحج: 5].

(4) ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: 20].

(5) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ﴾ [فاطر: 11].

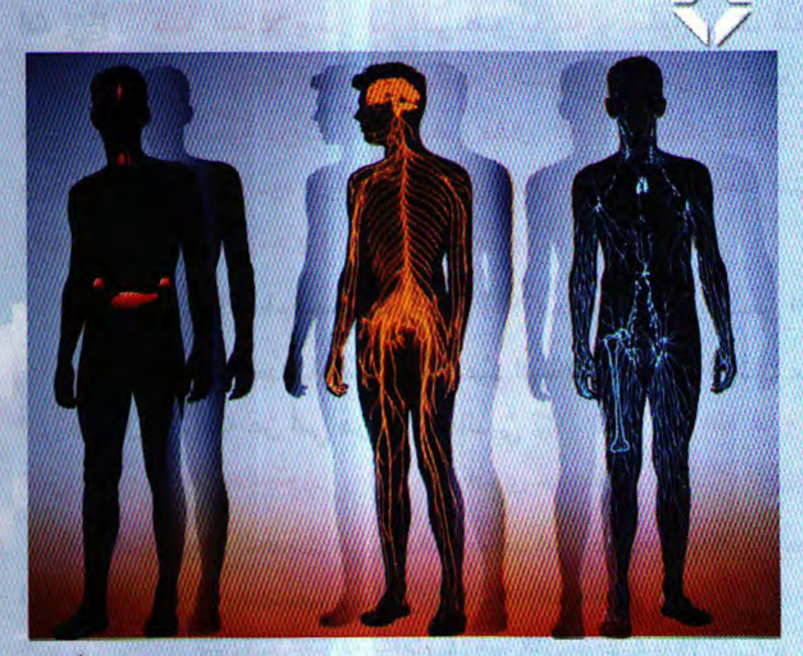
والفيصل في ذلك أيضًا ما أوحاه الله – سبحانه وتعالى – من علم إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فأنطقه بالحق الذي يشهد له بالنبوة وبالرسالة، وبأنه

كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبَلِ خالق السماوات والأرض ومن ذلك قوله الشريف: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحَزْنُ والخبيث والطيب»

■ وهذا الحديث النبوي الشريف يسقط كل محاولات الإنسان لتفسير كيفية خلقه بغير ما وصف الخالق - سبحانه وتعالى - وربط الحديث بين ألوان البشر والألوان الأساسية لصخور الأرض ولأنواع التربة الناتجة عن تحللها يفسر لنا ما جاء في الآيتين القرآنيتين الكريمتين رقم (27)، (28) من سورة فاطر، ويشهد لهذا النبي الخاتم بالنبوة وبالرسالة، ويبقى صورة من صور الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ﷺ لا يمكن أن ينكرها إلا جاحد، لأن مثل هذه الإشارات العلمية المحكمة الشاملة الدقيقة ما عرضت على أحد من المنصفين من أهل العلم إلا وخرَّ لها ساجدًا.

الحديث التاسع عشر

«خلق اللّٰه آدم على صورته طوله ستون ذراعًا...»



شكل (56) «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»

19 «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا...»

■ والحديث أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب الاستئذان حديث رقم: 5759) بسنده قال:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ جَعْفَرٍ حدَّثَنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ هَمَّامٍ عَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَن النَبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَلَقَ الله آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أولَئِكَ النَّفَرِ مِن الملائكةِ جُلوسٌ فَاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَك فَإنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُوا: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله، فَزَادُوهُ وَرَحمَةُ الله فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ. فَلَمْ يَزَلِ الخلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حَتَّى الآنَ».

■ وفي صحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها حديث رقم: 5075) جاء الحديث بالنص التالي:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّام بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا مَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ فَذَكَر أَحَادِيثَ مِنْهَا، وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «خَلَقَ الله عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعا فَلَمَّا خَلَقَهُ قَالَ: اذْهَبْ فَسَلِّمْ على أولَئِكَ النَّفَرِ وَهُمْ نَفَرٌ مِن الملائِكَةِ جُلوسٌ فَاسْتَمِعْ ما يُجِيبُونَكَ فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ قَالَ: فَذَهَبَ فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ فَقَالُو: السَّلامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله، قَالَ: فَزَادُوهُ وَرَحمَةُ الله قَالَ: فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا فَلَمْ يَزَلِ الخلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الآنَ».

■ وفي مسند الإمام أحمد (حديث رقم: 7941) جاء الحديث بالنص التالي:

حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ حَدَّثَنَا المُغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ مُوسَى بْنِ أَبِي عُثْمَانَ عَنْ أَبِيهِ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورتِهِ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا». فَلا أَدْرِي حَدَّثَنَا بِهِ أَمْ لا.

■ وكذلك جاء الحديث في كل من مسند أبي عوانة (188/1)، وصحيفة همام ابن منبه (43/58)، ومصنف عبدالرزاق 384/10/19435.

والحديث به إشارة إلى ثلاث حقائق علمية مبهرة هي على التوالي:

1- أن الله - تعالى - خلق آدم على صورته، أي على صورة آدم عليه السلام.

2- أن طول آدم عليه السلام كان ستين ذراعًا.

3- أن الخلق لم يزل ينقص في الطول حتى الآن.



شكل (57) الهيكل العظمي للإنسان في تناسقه وانتصاب قامته.

■ أخرج الإمامان البخاري ومسلم - كل في صحيحه - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعًا... فلم يزل الخلق ينقص بعده حتى الآن». (البخاري ح 6227، ومسلم ح 2841).

شرح الحديث

■ قال الحافظ في الفتح (6/366): «إن الضمير في (صورته) عائد لآدم. والمعنى أن الله - تعالى - أوجده على الهيئة التي خلقه عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالاً ولا تردد في الأرحام أطوارًا كذريته بل خلقه الله رجلاً كاملاً سويًا من أول ما نفخ فيه الروح».

■ كذلك أخرج كل من الأئمة البخاري ومسلم وأحمد عن رسول الله ﷺ قوله: «إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته»[(1)].

والضمير في لفظة «صورته» هنا أيضًا عائد على الأخ المضروب، ويؤكد هذا الاستنتاج ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه» وفي ذلك من تكريم وجه الإنسان ما فيه! بأمر رسول الله ﷺ.

ويؤكد ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تقولن قبح الله وجهك، ووجه من أشبه وجهك، فإن الله خلق آدم على صورته»[(2)] أي على صورة الرجل الذي قيل له هذا الكلام.

واستنادًا إلى قاعدة أن الضمير يعود إلى أقرب اسم، وأن أقرب اسم إلى الضمير في هذا الحديث الشريف هو اسم أبينا آدم - على نبينا وعليه من الله السلام - فقد قالت طائفة من مفسري الحديث: إن الضمير في لفظه (صورته) يعود إلى آدم، أي إن هذه هي الصورة المكرمة التي خلق الله - تعالى - عليها آدم عليه السلام وجميع بنيه، وهي صورة تستوجب التشريف والتكريم، وهذا مما ينفي ادعاءات التطوريين بالكامل؛ لأن الإنسان خلق خلقًا خاصًا، لا صلة له بالمخلوقات السابقة على وجوده، فلم يكن قردًا ولم يكن شيئًا دون ذلك، وإنما خلقه الله - تعالى - من تراب

(1) البخاري (2560) مختصرًا، ومسلم (2612)، وأحمد (9646).

(2) أخرجه البخاري في الأدب المفرد - كما في فتح الباري 183/5 - وأخرجه الإمام أحمد (7372).

الأرض ثم قال له كن فكان، وهذا من الشهادات الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة؛ ولذلك قال – تعالى – : ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]، وقال – عز سلطانه – : ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: 7]، وقال – تبارك وتعالى –: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[ص:71].

ومن مفسري هذه الأحاديث النبوية الشريفة من قال بأن الضمير في لفظة (صورته) يعود إلى الذات الإلهية، ولكن لما كان الخالق – سبحانه وتعالى – مغايرًا لصفات خلقه، فلا يحده المكان ولا الزمان، ولا تشكله المادة ولا الطاقة، لأن ذلك كله من خلقه، والمخلوق لا يشكل خالقه، ولا يحده أبدًا، ولا يشبهه؛ لذلك وصف ربنا – تبارك وتعالى – ذاته العلية بأنه – سبحانه –:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: 11].

وقال علماؤنا ومشايخنا: «كل ما خطر ببالك فالله مغاير لذلك»، وانطلاقًا من هذا كله فإن إضافة الضمير إلى الذات العلية إذا جازت هنا فالمقصود منها التشريف والتكريم والاختصاص، وهي تؤول على ما يليق بجلال الله، وذلك من مثل قوله – تعالى –: «حبل الله»، «ناقة الله»، «صبغة الله»، وكما يقال للكعبة المشرفة «بيت الله»، وهذه كلها من إضافات التشريف.

وعلى الرغم من ذلك فإن الرأي الراجح عند مفسري هذه الأحاديث الثلاثة هو أن الضمير في تعبير (على صورته) يعود إلى وجه المضروب، بمعنى أن الله تعالى قد كرم بني آدم جميعًا بهذه الخلقة السوية التي لم يهبها إلى أي من خلقه السابقين، وأنه من قبيل تقدير ذلك واحترامه وشكر الله تعالى على هذه النعمة العظيمة كانت وصية رسول الله ﷺ باجتناب الوجه عند الاقتتال أو التعزير أو تطبيق الحدود، فالله – تعالى – لا يشبهه أحد من خلقه، وهو – سبحانه وتعالى – منزه تنزيهًا كاملاً عن جميع صفات خلقه، ولا نعرف عن ذاته العلية إلا ما أثبت لتلك الذات الإلهية من صفات. ويؤيد هذا الاستنتاج ما ذكره سويد بن مقرن أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد لطم وجه غلامه فقال له: «أو ما علمت أن الصورة محترمة؟»[1].

(1) مسلم (1658)، وانظر فتح الباري (5/183).

وربما كان هذا الفهم الخاطئ بأن الله – تعالى علوًا كبيرًا – قد خلق آدم على هيئته، أي على هيئة الذات الإلهية، قد انتقل إلى تفاسير المفسرين عن طريق من أسلموا من اليهود وعندهم في العهد القديم (الإصحاح الأول من سفر التكوين) كلام ترجمته «دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط» على النحو التالي: «.... وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر، وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم....».

وجاء النص مترجمًا إلى اللغة الإنجليزية عن أصول يونانية قديمة (وهي لغة لم يتحدثها السيد المسيح عليه السلام ولا أي من حوارييه) على النحو التالي في سلسلة «فرانك تشارلين ثومبسون» للأناجيل:

"Then God said, "Let us make man in our image, in our likeness, and let them rule over the fish of the sea and the birds of the air, over the livestock, over all the earth, and over all the creatures that move along the ground. So God created man in his own image, in the image of God He created him; male and female He created them." (Genesis: 1)[1].

ولما كان من الثابت تاريخيًا أن ما يعرف اليوم باسم التوراة أو الكتب الخمسة (The Pentateuch) قد كتبت بعد وفاة سيدنا موسى عليه السلام بأكثر من ثمانية قرون كاملة، وأنها كتبت أول ما كتبت بلغات غير لغة الوحي بها، فإن للقارئ الكريم أن يتخيل مدى التحريف الذي أدخله غلاة اليهود على كتاب ربهم المنزل إليهم، ولذلك أوصانا المصطفى ﷺ بقوله الشريف: «إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم»[2]. لأننا إذا صدقناهم فإن ما صدقناهم فيه قد يكون مما حرفوه عن أصوله، وإذا كذبناهم فإن ما كذبناهم فيه قد يكون من بقايا الحق القديم عندهم الذي لم تطله بعد أيدي التحريف والتبديل والتغيير، ولهذا فقد نهينا عن الأخذ عن

(1) ***The Thompson Chain - Reference Bible***
(New International Version), and Co-published by B.B Kirkbride Bible Co. Inc. (Indianapolis, Indiana), Zondervan Bible Publishers (Grand Rapids, Michigan) 3rd Printing, February, 1984.

(2) أحمد (16774)، والحديث عند البخاري (4485) بنحوه.

اليهود نهيًا قاطعًا، خاصة أنهم حين انحرفوا إلى الشرك بالله – تعالى – اهتز عندهم مفهوم الألوهية اهتزازًا كبيرًا، واعتقدوا بأن الله – سبحانه وتعالى – يشبه الإنسان كما شاع في كل الديانات الوثنية القديمة من مثل الديانات الفرعونية، والصينية، واليونانية، والرومانية القديمة، وفي عدد من الديانات المستمرة إلى اليوم من مثل الهندوكية، والبوذية، وغيرها من الديانات التي انحرفت عن مفهوم الألوهية الحقة فانحطت بهذا المفهوم إلى مستوى البشرية أو الحيوانية أو إلى ما دون ذلك، أو أشركت بالله – تعالى – ما لم ينزل به سلطانًا، أما الإسلام العظيم الذي علمه الله – سبحانه وتعالى – لأبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأوحاه من بعد ذلك إلى مائة وعشرين ألف نبي من أنبيائه ليعلموه لأممهم وأقوامهم، وجدده في ثلاثمائة وبضع عشرة رسالة سماوية أنزلها على عدد من أنبيائه المصطفين، وأتمه وأكمله وحفظه في رسالته الخاتمة التي أنزلها على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، ولذلك تعهد بحفظها في القرآن الكريم وفي سنة خاتم الأنبياء والمرسلين – صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين – فحفظها على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وسوف تبقى محفوظة إلى ما شاء الله – تعالى – هذه الرسالة قامت على التوحيد الخالص لله – تعالى – ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: 32]، وعلى تنزيهه – سبحانه وتعالى – عن الشبيه، والشريك، والمنازع، والصاحبة، والولد، وعن كل وصف لا يليق بجلاله. ومن هنا كان التحذير الشديد من نسبة ما لم يثبته الله – تعالى – لذاته العلية من الصفات.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه والذي جاء فيه: «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعًا.. فلم تزل الخلق تنقص بعده حتى الآن» عدد من الحقائق العلمية التي منها:

1- إن آدم عليه السلام خُلِقَ خلقًا خاصًا لا علاقة له بالمخلوقات من قبله مما يدحض دعاوى التطوريين، ودعاوى أشباههم ممن حاولوا نسبة الأب والأم لآدم بدعوى باطلة تقول – دون أدنى حجة لغوية أو علمية أو دينية – بأن البشرية غير الآدمية، وأن البشر كانوا سابقين على خلق الآدميين مما يعارض نصوصًا

قرآنية ونبوية قطعية الثبوت وقطعية الدلالة (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم) وتعارض حقيقة أن الله – تعالى – أدرى بخلقه من جميع خلقه.

2– إن آدم عليه السلام كان طوله ستين ذراعًا.

3– إن أطوال الخلق لم تزل تنقص بعده حتى يرث الله – تعالى – الأرض ومن عليها.

وهناك إشارات علمية عديدة تؤكد ما جاء في هذا الحديث الشريف من حقائق تشهد لقائلها بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وكان انبهار الناس بفكرة «التطور العضوي» قد دفع بالكثيرين إلى محاولة ربط الإنسان بتلك السلسلة الطويلة من الخلق، دون دليل واضح، على الرغم من نقص السجل الأحفوري والثغرات العديدة التي تتخلله، وذلك استنادًا إلى قدم سجل الحياة على الأرض (منذ 3800 مليون سنة مضت)، وإلى تدرج عمارتها بأنماط متعاقبة من الخلق التي ازدادت في العدد وفي تعقيد البناء مع الزمن باستمرار، وقد استخدمت هذه الملاحظة الصحيحة في الوصول إلى عدد من الاستنتاجات الخاطئة التي تحاول نفي الخلق، والتنكر للخالق – سبحانه وتعالى – والقرآن الكريم يؤكد لنا حقيقة أن «**الله خالق كل شيء**».

ويأتي حديث رسول الله ﷺ مؤكدًا حتمية الخلق، ومؤيدًا خلق الإنسان خلقًا خاصًا، وتضاؤل كل من حجمه وعمره مع الزمن، ويأتي العلم الكسبي مؤيدًا ذلك بناءً على الملاحظات التالية:

1– إن لبنة بناء الخلية الحية تتمثل في الجزيء البروتيني، والعلم التجريبي يؤكد استحالة تكونه بمحض المصادفة نظرًا لشدة تعقيد بنائه أولاً، ولأنه ثانيًا لا يمكن تكونه إلا في وسط مغلق، وأنه مادة غير حية بذاته، ولكنه ينشط في داخل الخلية الحية، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأحماض الأمينية التي يتركب منها الجزيء البروتيني.

2- إن الخلية الحية بالغة التعقيد في بنائها، وفي قدرتها على أداء الوظائف المناطة بها مما ينفي إمكانية وجودها دون تخطيط مسبق حكيم، وجسد الإنسان مبني من مئات البلايين من الخلايا الحية التي تتنوع بتنوع وظائفها، ويتجمع كل نوع منها في أنسجة متخصصة، وتتجمع الأنسجة المتخصصة في أعضاء محددة والأعضاء في أجهزة معينة تتعاون في تناغم عجيب على خدمة الجسد الحي، وفي تمكينه من القيام بمختلف أنشطته.

3- والخلية الحية في جسم الإنسان لا يتعدى قطرها 0,03 من المليمتر، وهي تحمل بداخلها نواتها، والنواة تمثل عقل الخلية الحاكم بما تصدر من أوامر بالغة الدقة والإحكام، وكل نواة تحمل عددًا محددًا من الصبغيات «الكروموسومات» ويميز عدد الصبغيات كل نوع من أنواع المخلوقات.

فالإنسان – على سبيل المثال – تحمل كل نواة من نوى خلاياه 46 صبغيًا في ثلاثة وعشرين زوجًا ما عدا الخلايا التناسلية التي تحمل نصف هذا العدد، حتى إذا ما اتحدت؛ تكامل عدد الصبغيات في البويضة المخصبة (النطفة الأمشاج) أما خلايا الدم فلا تحمل صبغيات على الإطلاق.

4- تشغل صبغيات الخلية الإنسانية الواحدة مساحة في داخل النواة لا تزيد على واحد من المليون من المليمتر المكعب، ولكنها إذا بسطت فإن طولها يقارب المترين، ولما كان جسم الإنسان يحوي في المتوسط ألف مليون مليون خلية؛ فإن طول الشفرة الوراثية في جسد فرد واحد من البشر يزيد على المسافة بين الأرض والشمس وهي مقدرة بحوالي 150 مليون كيلو متر.

5- تحمل الشفرة الوراثية المحمولة على صبغيات خلية واحدة من خلايا جسم الإنسان 18,6 بليون جزيء من القواعد النيتروجينية والسكر والفوسفات، موزعة بالتساوي بين هذه المركبات الثلاثة، ومرتبة في 3,1 بليون من النويدات الموزعة في حوالي بليون شفيرة تكتب بها صفات الجسد كله، ولو تعرض هذا البناء في ترتيب لبناته إلى أقل قدر من التغيير فإما أن يشوه أو أن ينهار بالكامل.

6- ومن المبهر في هذه الشيفرة الوراثية التي تحمل أسرار الخلية الحية أن الحمض النووي الذي تكتب به حروفها يتطابق تركيبه الكيميائي بين أي فردين من أفراد البشر بنسبة 99,9 ٪ مهما تباعدت أصولهما، وعلى الرغم من ذلك يبقى لكل فرد - من البلايين التي تحيا اليوم، والتي عاشت وماتت، والتي سوف تأتي من بعدنا إلى يوم الدين - شفرة وراثية مميزة له تفوق في الدقة بصمة إبهامه.

أما عن ضخامة جسم أبينا آدم عليه السلام فإن دراسات علم الوراثة تؤكد أن البشر جميعًا (الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين عاشوا من قبل وماتوا، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة) كانوا في صلب أبينا آدم - عليه السلام - لحظة خلقه، وأنهم نسلوا بالتزاوج عن طريق انقسام الصبغيات، وهذه تضعف بالانقسام، ومن هنا فإنه كلما تقادم عمر جيل من بني آدم تعاظمت أحجامهم، وطالت أعمارهم، ومع تقدم الزمن لا بد وأن تتناقص أحجام البشر وتتقاصر آجالهم بصفة عامة على الرغم من التقدم العلمي والتقني المذهل الذي قد يحققونه.

وهنا تتضح هذه الإشراقات النورانية في حديث رسول الله ﷺ ومنها القضاء على دعاوى التطور العضوي وتأكيد الخلق بصفة عامة، وخلق الإنسان بصفة خاصة، وتضاؤل حجم الإنسان مع الزمن، وهي من الحقائق التي بدأ العلم المكتسب في الوصول إليها، وهنا يبرز التساؤل: من أين جاء رسول الله ﷺ بهذا العلم لو لم يكن موحى به إليه من لدن رب العالمين؟ وهل يمكن أن يكون لهذا العلم من مصدر غير الله الخالق؟! فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الحديث العشرون

آدم (عليه السلام) آخر الخلق



شكل (58)

20 آدم (عليه السلام) آخر الخلق

■ ورد في أقوال رسول الله ﷺ: «خَلق اللهُ آدمَ يومَ الجمعةِ»، وفي رواية أخرى: «في آخر ساعة من يوم الجمعة».

(أخرجه أحمد ح 23267، وأخرج الرواية الثانية مسلم ح 2789، وأحمد ح 8141).

شرح الحديث

وقد أخذ المفسرون من هذا الحديث الشريف أن آدم عليه السلام كان آخر المخلوقات، وفي ذلك يقول ابن جرير الطبري - رحمه الله - في تفسيره (جامع البيان) في شرح قوله - تعالى -: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1] ما نصه: «هو آدم عليه السلام، فقد مضى عليه حين من الدهر قبل أن يكون شيئًا، وقبل أن تنفخ فيه الروح، وروي عن معمر عن قتادة أنه قال: كان آدم عليه السلام آخر ما خلق من الخلق».

أثبتت دراسات علوم الأرض والفضاء أننا نحيا في كون يقدر عمره بأكثر من ثلاثة عشر بليونًا من السنين، وعلى أرض يقدر عمرها بأكثر من أربعة آلاف وستمائة مليون سنة، وأن أقدم أثر للحياة على الأرض يعود إلى ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون سنة مضت، وقد وجد هذا الأثر على هيئة جزيئات لمركبات عضوية متأحفرة تشبه العديد من الخلايا الحية المعاصرة، وقد اكتشفت هذه البقايا في صخور جزيرة جرينلاند في سنة 1978م بواسطة سيرل بونامبروما (Cyril Ponnamperuma) الأستاذ بجامعة ميريلاند الأمريكية.

وقد أدى هذا الكشف إلى اعتبار الفترة من 4,6 بليون سنة مضت إلى 3,8 بليون سنة مضت وقدرها 800 مليون سنة فترة إعداد الأرض لاستقبال الحياة ويطلق عليها اسم «زمان» أو «أبد انعدام الحياة» (The Azoic Eon).

وتلا ذلك اكتشاف أحافير لكائنات وحيدة الخلية تشبه البكتيريا في صخور يرجع عمرها إلى حوالي ثلاثة بلايين ونصف البليون سنة في جنوب غربي أستراليا.

وبالمثل تم اكتشاف عدد من الأحافير لكائنات وحيدة الخلية شبيهة بالطحالب والبكتيريا المعاصرة وذلك في تتابع من الصخور الرسوبية غير المتحولة يعرف باسم متكون شجرة التين (The Fig-tree Formation) وذلك في جنوب إفريقيا.

ثم تم اكتشاف بقايا للطحالب الخضراء المزرقة (Blue-green Algae) في روديسيا في صخور جيرية يرجع عمرها إلى (2.7 بليون) سنة، وتم اكتشاف بقايا مشابهة في منطقة أنتاريو (كندا) في صخور يرجع عمرها إلى (1,9 بليون) سنة.

وبالمثل تم اكتشاف العديد من أحافير الطحالب والبكتيريا والفطريات في صخور من الصوان الكربوني في وسط أستراليا، قدر عمرها بألف مليون سنة مضت.

وهذه الكائنات تصنف تحت أمة واحدة تعرف باسم أمة أوليات الأنوية (Domain Prokaryota) وتحت مملكة واحدة هى مملكة البدائيات (Kingdom Monera) وتشمل البكتيريا والطحالب الخضراء المزرقة، وأفرادها بسيطة التركيب، ويتكون الفرد منها من خلية واحدة، أو من عدد من الخلايا،ولكن هذه الخلايا لا تتمايز إلى أنسجة، ولا إلى أعضاء، مهما تعددت الخلايا، ولكنها قد تتفرع إلى عدة فروع، وهذه الكائنات ليست لها نواة محددة، ولكن تنتشر محتويات النواة في سائل الخلية دون أن تتركز على هيئة الصبغيات.

ووجدت بقايا أول خلية ذات نواة محددة (Domain Eukaryotes) في صخور يرجع عمرها إلى حوالى 1,4 بليون سنة في شرقي ولاية كاليفورنيا الأمريكية.

والكائنات وحيدة الخلية وذات النوى المحددة المحاطة بغشاء نووي يفصلها عن سائل الخلية (السيتوبلازم) تصنف في عدد من الممالك الخاصة منها مملكة الطلائعيات (Kingdom Protista) وتضم العديد من الكائنات البسيطة مثل السوطيات والطحالب، والجرثوميات أو البوغيات (Sporozoa)، والهدبيات (Ciliata) وغيرها. ومنها مملكة الفطريات (Kingdom Fungi).

أما مملكة الحيوانات (Kingdom Animalia) والتى تضم أكثر من عشرين قبيلة فقد وجدت أولى بقاياها في صخور يقدر عمرها المطلق بحوالي (700 مليون) سنة مضت، وبناء على ذلك تعتبر الفترة من (3,8 بليون) سنة مضت إلى (700 مليون)

سنة مضت زمانًا خاصًا يعرف باسم «زمان أو أبد الحياة المستترة» (The Cryprozoic) وقد دام لأكثر من ثلاثة بلايين سنة (3,1 بليون سنة)، واعتبرت الفترة من (700 مليون سنة) إلى اليوم زمانًا آخر يعرف باسم «زمان أو أبد الحياة الظاهرة» (The Phanerozoic Eon) ازداد فيه تنوع وأعداد مختلف صور الحياة النباتية والحيوانية بالتدريج حتى وصلت إلى صورتها الحالية، فتعددت صور النباتات من الطحالب، إلى الحزازيات، إلى ذيل الحصانيات، إلى السراخس، ثم النخيليات، والمخروطيات (الصنوبريات)، إلى النباتات المزهرة، وقد خلقت أولى النباتات الأرضية منذ حوالي (400 مليون) سنة في مطلع العصر السيليوري، وبقيت الحياة في المياه لأغلب تاريخ الأرض.

وتنوعت مجموعات الحياة الحيوانية غير الفقارية لتشمل أكثر من عشرين قبيلة متمايزة، وخلقت طلائع الأسماك، ثم البرمائيات، ثم الزواحف، ثم الطيور، ثم الحيوانات اللبونة (ذات الثدي أو الثدييات) وتنوع خلقها تنوعًا مذهلاً حتى خلقت الثدييات المشيجية (Placental Mammals) وكان منها آكلات الحشرات، والخفاشيات، والحافريات (ذوات الحوافر)، ومنها الخيول، والغزلان، والماشية، وغيرها، والمفترسات (Carnivora) والقوارض (Rodentia)، والخرطوميات من مثل الفيلة، والحيتان والدلافين، والرئيسيات ومنها القردة (القرود العادية، والشمبانزي والغوريلا، وغيرها). بينما لا يتعدى أقدم أثر للإنسان مائة ألف سنة.

من هذا الاستعراض تتضح ومضة الإعجاز العلمي في قول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [الإنسان:1].

وفي قول رسولنا ﷺ: «خلق آدم في آخر ساعة من يوم الجمعة».

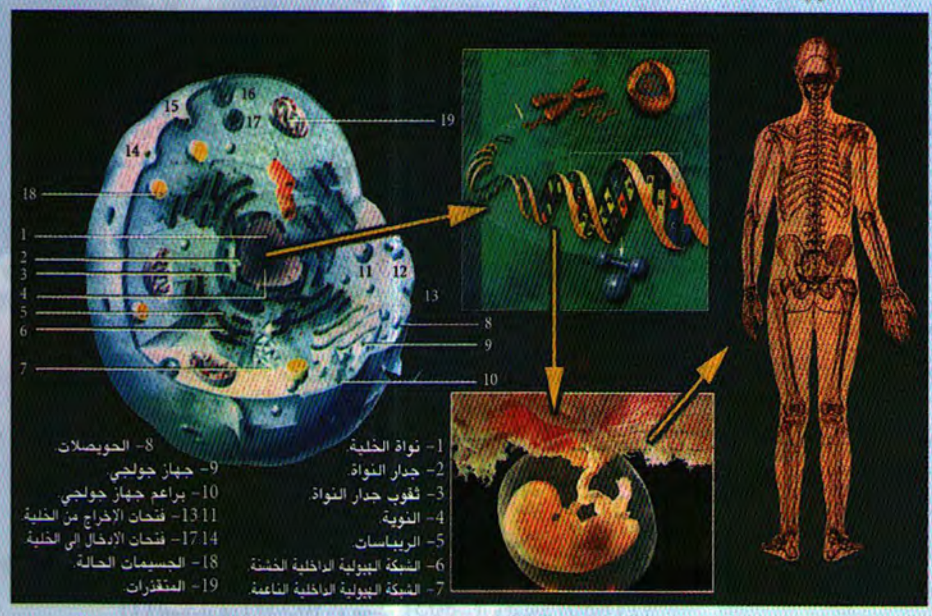
فقد أثبتت العلوم المكتسبة أن عمر الإنسان على الأرض لا يتعدى واحدًا من خمسين ألف من عمرها، وأن خلق الأحياء الأخرى سبق خلق الإنسان بقرابة أربعة ملايين من السنين، وإذا قارنا هذه الحقيقة القرآنية التى أنزلت من قبل ألف وأربعمائة سنة بما ذكره القس الإنجيلي الأيرلندي جيمس أشر (James Ussher) كبير أساقفة أرماغ (Archbishop of Armagh) والذى عاش

فــي الفتــرة (من 1581م إلــى 1656م) والذي أعلــن في سنــة 1625م أن الأرض قد خلقت في تمام الساعة العاشرة من صباح الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 4004 قبل الميلاد بناء على تحليله لتتابع أحداث العهدين القديم والجديد – أدركنا فضل القرآن الكريم على غيره من الكتب الموضوعة، خاصة أن هذا التاريخ قد ظل مثبتًا في هوامش النسخة المحولة من الإنجيل المتداول بين أيدي النصارى حتى نهاية القــرن التاسـع عشر الميــلادي، أي لقرابة ثلاثمائــة سنة، وهى صــورة من الخطأ البشري الذي صححه العلم مؤخرًا.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين الذي ختم الله – تعالى– ببعثته النبوات، وأكمل برسالته الرسالات، ولذلك تعهد بحفظها فحفظت فى نفس لغة وحيها وحفظت حفظًا كاملاً؛ كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية وإلى أن يشاء الله، في الوقت الذي ضاعت فيه أصول الرسالات السابقة كلها، وما بقي منها من ذكريات نقلت شفاهًا لعدة قرون، ثم دونت بأيدي مجهولين، وبلغات غير لغات الوحي فتعرضت لقدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها، فالحمد لله ثم الحمد لله ثم الحمد لله وأشرف الصلاة وأزكى السلام على سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحديث الحادي والعشرون

أخـذ الميثاق على بني آدم وهم في عالـم الذر



شكل (59) صور ورسوم توضح تركيب كل من الخلية الحية والحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية التي تحدد صفات كل من الجنين والإنسان النامي

21 أخذ الميثاق على بني آدم وهم في عالم الذر

أخرج كل من الأئمة أحمد (2451)، والنسائي (11189)، وابن جرير 9/ 111، والحاكم 2/ 593 عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قُبلاً، قال: ألست بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا: إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أفتهلكنا بما فعل المبطلون؟».

وأخرج ابن جرير وغيره - بإسناده - عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «مسح ربك ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة... فأخذ مواثيقهم وأشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم؟) قالوا: (بلى)، والحديث روي مرفوعًا وموقوفًا على ابن عباس، والموقوف أكثر وأثبت كما أشار ابن كثير (رحمه الله).

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف يمثل مذكرة تفسيرية لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف 172، 173].

ويدعم المعنى نفسه ما أخرج كل من الأئمة البخاري ومسلم وأحمد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟» قال: «فيقول» نعم. فيقول الله - عز وجل - قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم ألا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي»[1].

وروى ابن جرير عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أنه قال: قال رسول الله ﷺ في تفسير قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن

(1) البخاري (6557)، ومسلم (2805)، وأحمد (11880).

﴿ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: «أخذ من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، فقال لهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، قالت الملائكة: شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين»[1].

وأخرج كل من الأئمة أبي داود والنسائي والترمذي وابن أبي حاتم وابن حبان عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وقد سئل عن الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، ثم قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، ثم قال: خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل: يا رسول الله: ففيم العمل؟ فقال رسول الله ﷺ: «إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار»[2].

وأخرج كل من ابن جرير، وابن مردويه عن هشام بن حكيم عن رسول الله ﷺ قوله: «إن الله قد أخذ ذرية آدم من ظهره، ثم أشهدهم على أنفسهم، ثم أفاض بهم في كفيه، ثم قال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار»[3].

ويدل هذا الحديث على أن جميع ذرية آدم عليه السلام كانوا في صلبه لحظة خلقه – بلايين الأنفس من الذين عاشوا وماتوا، والأحياء الذين يملئون جنبات الأرض اليوم بأكثر من سبعة مليارات نفس، والمليارات من الأنفس التى لم تولد بعد إلى يوم القيامة، كل هؤلاء كانوا في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، فأخرجهم الله – تعالى – من صلبه، وأشهدهم على حقيقة الربوبية لله الخالق، الواحد الأحد،

(1) تفسير الطبري 9/113.
(2) الترمذي (3075) ، وأبو داود (4703)، والنسائي (11190)، وابن حبان (6166).
(3) تفسير الطبري 9/117.

الفرد الصمد، الذي لا شريك له في ملكه، ولا منازع له في سلطانه، ولا شبيه له من خلقه، ولا حاجة لجلاله إلى الصاحبة أو الولد؛ لأن ذلك من صفات المخلوقين والخالق منزه عن جميع صفات خلقه. وبعد أن أقر جميع بني آدم - وهم في عالم الذر - بحقيقة الربوبية قالت الملائكة: ﴿... شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

والذى يعرف حقيقة الألوهية يعلم أن الله - تعالى - على كل شيء قدير، وأن أمره ﴿... إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82].

والذي لا يعرف لله قدرًا، أو أشرك بالله ظلمًا، والذي انحسر عنده مدلول الألوهية فيما هو دون ذلك، فإنه لا يستطيع أن يدرك من هذا الحديث النبوي الشريف شيئًا.

■ من الدلالات العلمية للحديث الشريف:

من الدلالات العلمية لهذا الحديث الشريف أن الشيفرة الوراثية لأبينا آدم عليه السلام كانت تحتوي على جميع الصفات الوراثية لذريته من لحظة خلقه وحتى قيام الساعة، وأن هذه الصفات الوراثية قد وضع الخالق - سبحانه وتعالى - لانتقالها من الآباء إلى الأبناء عددًا من القوانين الإلهية الحاكمة، وهذه القوانين لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى معرفة شيء عنها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حين استطاع النمساوي مندل (Gregor Johann Mendel) إثبات فكرة توارث الصفات بعدد من التجارب البدائية على نبات البازلاء، وذلك في الفترة من 1865م إلى 1869م. ولخص ذلك بالقول بأن الصفات الوراثية تنتقل من الآباء إلى الأبناء في الكائنات التى تتكاثر بالتزاوج عبر عدد من العوامل المتناهية في ضآلة الحجم، والتى عرفت فيما بعد باسم المورثات (Genes) يتقاسم الوالدان إضافتها إلى جنينهما.

وبقيت المورثات (الجينات) مجرد رموز تستخدم في تفسير عمليات التنوع في الخلق حتى أثبت مورجان (Thomas Hunt Morgan) في أوائل القرن العشرين (1912م - 1926م) أن المورثات هى أجزاء حقيقية من جسيمات خيطية متناهية

في الدقة (حيث تقاس بالأنجستروم) توجد داخل نواة الخلية الحية وتعرف باسم الصبغات أو الأجسام الصبغية (Chromosomes) لقدرتها على اكتساب الصبغة والتلون بها أكثر من باقي أجزاء الخلية. ومن خلال دراسته للصبغيات اكتشف مورجان – الصبغي المختص بالتكاثر – واقترح فكرة التخطيط الوراثي للكائنات الحية.

وباكتشاف دور الصبغي المختص بالتكاثر في تكوين الجنين ثبت للدارسين في علم الأجنة أن خلق كل إنسان مقدر سلفًا في نطفتي كل من أبيه وأمه، وأن هذا التقدير يمتد عبر القرون الغابرة ليتصل بالشيفرات الوراثية للأجداد وآباء الأجداد حتى يصل إلى أبينا آدم عليه السلام الأب الأول للبشر، وهذا يعني أن كل فرد من بني آدم كان موجودًا في الشيفرة الوراثية لأبينا آدم لحظة خلقه، وأن إمكانية استخراج تلك الشيفرة وإشهادها على حقيقة ربوبية الله – تعالى – ووحدانيته المطلقة فوق جميع خلقه أمر لا يعجز الخالق – سبحانه وتعالى – الذي هو على كل شيء قدير. وهذه الشيفرة المبرمجة بدقة فائقة والمطوية في داخل نواة الخلية الحية من خلايا التكاثر (سواء كانت النطفة الذكرية أي الحيمن أو النطفة الأنثوية أى البييضة) – تنفرد بنصف عدد الصبغيات المحدد للنوع حتى يكتمل العدد بالتقائهما فى النطفة الأمشاج (المختلطة)، فيأتي الأبناء على قدر من التشابه والاختلاف مع كل من الأبوين وأسلافهما إلى آدم وحواء عليهما السلام.

وبدراسة الصبغيات ثبت تكونها من تجمعات الحمض النووي الريبي غير المؤكسد (DNA) والبروتينات بنسب متساوية تقريبًا.

ويتكون جزيء الحمض النووي الريبي غير المؤكسد من لفائف متناهية في الدقة ومرتبة على هيئة سلسلتين ملتحمتين في الوسط تتكونان من القواعد النيتروجينية وجزيئات السكر والفوسفات، والسلسلتان تلتفان حول محور وهمي على هيئة حلزونية مطوية طيًا شديدًا، تعرف باسم الرقائق الحلزونية المزدوجة للحمض النووي. (Double Helix DNA Strands).

ويبلغ قطر هذا الحلزون واحدًا من نصف المليون من المليمتر ويبلغ حجمه وهو مكدس على ذاته داخل الجسم الصبغي واحدًا من المليون من المليمتر المكعب، ويبلغ سمك جداره واحدًا من خمسين مليونًا من المليمتر.

هذا الحلزون الذي تكتب به الشيفرة الوراثية لكل منا، أعطاه الله - سبحانه وتعالى - القدرة على الانقسام لتكرار ذاته، لو عدنا بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن؛ فلابد أن تلتقي الشيفرات الوراثية لجميع بني آدم في شيفرة واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وهذا هو المدلول العلمي لهذا الحديث النبوي الشريف الذي سبق علم الأجنة وقوانين الوراثة بأكثر من اثني عشر قرنًا، ولا يمكن لعاقل أن يتصور أن مصدرًا لهذا العلم من قبل أربعة عشر قرنًا غير الله الخالق، مما يؤكد على أن رسول الله ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض، وهو الأمر الذي ينازعنا عليه أهل الكفر والشرك والضلال الذين أنكروا بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، وتنكروا للقرآن الكريم، ومثل هذه الحقائق العلمية في كتاب الله وفي أقوال رسول الله ﷺ من أقوى ما يدحض كل دعاواهم، ويخرس ألسنتهم ويلزمهم الحجة بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، والحديث النبوي الشريف هو كلام خاتم الأنبياء والمرسلين المؤيد بالوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحديث الثاني والعشرون

«ما من كل الماء يكون الولد»



شكل (60) صورة للحيامن (الحيوانات المنوية) تحيط بالبييضة يحاول كل منها اختراق جدارها حتى يفلح واحد منها في ذلك

22 «مــا مــن كــل المــاء يكــون الولــد»

■ «ما من كل الماء يكون الولد ... وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء».
(أخرجه الإمامان مسلم ح 1438، أحمد ح 11369)

شرح الحديث

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاء حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي من كلٍّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة»[1].

أنواع النطاف: يقال في العربية» (نَطَفَ) (يَنْطُفُ) بضم الطاء وكسرها، (نَطَفَانًا) بمعنى سال، يسيل، سيلانًا، (نَطَفَانُ) الماء سيلانه، و(النطفة) القطرة من الماء الصافي قل أو كثر، والجمع (نطاف) و(نطف)، و(الناطف) السائل من المائعات وهو أيضًا نوع من الحلواء يعرف باسم القُبَّيْطى.

ويكنى عن صفاء اللؤلؤ بـ (النطفة)؛ و(النطفة) أيضًا الدلو وجمعها (نُطَفٌ)، ويقال: فلان (مَنْطِفُ) المعروف و(ينطف) به أي يُنَدِّي به.

ويغلب استخدام لفظة (نطفة) للقليل من الماء الذي يعدل قطرة، يقال: (نطفت) آذان الماشية و(تنطفت) إذا ابتلت بالماء فقطرت.

وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ، فقال: «يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه[2].

وفي علم الأجنة يطلق مصطلح (النطفة) على كل من الخلايا التناسلية الذكرية (الحيوان المنوي أو «الحيمن») والأنثوية (البويضة أو «البييضة»)، وباتحادهما

---

(1) أحمد (4424).
(2) أحمد (12286).



تنتج النطفة المختلطة (النطفة الأمشاج كما سماها القرآن الكريم)، وعلى ذلك فهناك نطفة ذكرية (Sperm)، ونطفة أنثوية (Ovum)، ونطفة أمشاج أو لاقحة (Zygote)، وينتهي طور النطفة بانغراس اللاقحة في جدار الرحم وتحولها إلى طور العلقة.

الماء الدافق (ماء الخلق أو ماء التكاثر): يعتبر ماء الخلق (ماء التكاثر) من أكثر مخلوقات الله إبهارًا لتناهي مكوناته في الصغر، وتعاظمها في دقة البناء، وحسن الأداء مما يشهد للخالق (سبحانه وتعالى) بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة وإحكام الخلق.

فماء التكاثر عند الرجل هو سائل أبيض، لزج، مليء بالنطاف الذكرية التي يتراوح عددها في المتوسط بين مائتي مليون وثلاثمائة مليون نطفة في الدفقة الواحدة التي يتراوح حجمها بين الثلاثين والستين من الملليمترات المكعبة، وهذه النطاف المقدرة بمئات الملايين تسبح في محاليل من المواد المذابة التي تشكل الغذاء لتلك النطاف، والمركبات المعادلة للوسط الحامضي في الرحم حماية للنطاف الواصلة إليه، والوسائط المساعدة على إتمام عملية الإخصاب من مثل مركبات «البروستاجلاندين» (Prostaglandin) التي تلعب دورًا هامًا في إحداث تقلصات الرحم التي تساعد على نقل النطاف المذكرة إلى مواقع الإخصاب في قناة الرحم.

والنطفة الذكرية (الحيمن) كائن متناهٍ في ضآلة الحجم يتكون من رأس مدبب صغير يتراوح طوله بين 0,003 من الملليمتر، 0,005 من الملليمتر، وعنق دقيق لا يكاد يدرك، وذيل في حدود 0.001 من الملليمتر في الطول على هيئة السوط يتحرك بواسطته بالضرب به يمنة ويسرة كالمجداف في ماء التكاثر.

ويحتوي رأس النطفة الذكرية على نواتها وبها نصف عدد الصبغيات المحددة للفرد من البشر إذ تحتوي على 23 صبغيًا فقط (والعدد المحدد للبشر من الصبغيات هو 46) ويتغطى رأس الحيمن بقلنسوة واقية تحميه من المخاطر التي يمكن أن يمر بها في رحلته إلى قناة الرحم؛ حيث يمكن له الالتقاء بالنطفة المؤنثة (البييضة) وإخصابها بإذن الله – تعالى.

والصبغيات في رأس الحيمن تشغل حيزًا لا يزيد على نصف المليون من المليمتر المكعب، ولكنها إذا فردت فطولها يصل إلى المتر، ويحتوي 9,3 بليون قاعدة كيميائية مرتبة ترتيبًا في غاية الدقة والإحكام ليكون لفائف من حلزونات الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين والمعروف بالـ «د.ن.ا» (DNA) والذي يحمل نصف صفات الجنين.

أما العنق الدقيق للحيمن فيختزن مصادر الطاقة للنطفة الذكرية في عضيات (جسيمات عضوية شديدة الدقة) تعرف باسم المتقدرات (Mitochondria) أعطاها الله - تعالى - القدرة على تحويل السكريات إلى الطاقة التي تحتاجها النطفة في أثناء رحلتها الطويلة، ويبقى الذيل (السوط) بحركاته المختلفة وسيلة توجيه جيدة لها في سباحتها بسرعات تقدر بحوالي المليمترين في الثانية الواحدة عبر بحر من سوائل التكاثر الذكرية والأنثوية المختلطة في الرحم وقناته، حتى يصل إلى النطفة الأنثوية في قناة الرحم إذا قدر له ذلك، فيخترقها إذا قدر له ذلك كذلك، وحينئذ تحدث تغيرات سريعة في غشاء البييضة تمنع دخول حيمن (حيوان منوي) آخر، وبذلك تتكون النطفة الأمشاج (اللاقحة) من جزء من ماء التكاثر الذكرى وجزء من ماء التكاثر الأنثوي، وفى ذلك قال رسول الله ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد».

تطور النطفة الأمشاج: بمجرد تكون النطفة المختلطة (النطفة الأمشاج) يستكمل عدد الصبغيات إلى (46) وهو العدد المحدد للنوع الإنساني وتبدأ النطفة الأمشاج في الانقسام إلى خلايا أصغر فأصغر (إلى خليتين فأربع فثمان) تعرف باسم القسيمات الأرومية (Blastomeres)، وبعد أربعة أيام من الإخصاب تتحول هذه القسيمات الأرومية إلى كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم التويتة («تصغير التوتة» أو Morula) وفي اليوم الخامس تنشطر التويتة إلى نصفين مكونة الكيسة الأرومية (Blastocyst).

وباتحاد الصبغيات القادمة من النطفة الذكرية مع صبغيات البويضة تتحدد الصفات السائدة التي سوف تظهر على الجنين في مستقبل حياته، كما تتحدد الصفات المستترة (المتنحية) التي قد تظهر في الأجيال التالية، ولعل هذا هو

المقصود بالتقدير الذي ذكره الحق - تبارك وتعالى - في محكم كتابه فقال: ﴿ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ * مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: 17 - 19].

ويتضمن هذا التقدير فيما يتضمن تحديد جنس الجنين، فإذا كان الحيمن الذي قدر له إخصاب البويضة يحمل الصبغي (Y) كان الجنين ذكرًا، وإذا كان يحمل الصبغي (X) كان الجنين أنثى، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ * مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ﴾ [النجم: 45، 46].

وفي اليوم السادس من عمر النطفة الأمشاج تنغرس الكيسة الأرومية (Blastocyst) في بطانة الرحم بواسطة خلايا تنشأ منها، تتعلق بها في جدار الرحم وتتحول بعد ذلك إلى المشيمة، وتتحول الكيسة الأرومية إلى طور العلقة، ثم المضغة، ثم العظام، ثم اللحم وهي أطوار مرحلة التخليق وتستمر من الأسبوع الثاني حتى نهاية الأسبوع الثامن، وأهم ما يميز مرحلة التخليق هو التكاثر السريع، والنشاط المتنامي في تكوين أجهزة الجسم المختلفة، وفي الأسبوع السابع يصل الجنين إلى صورة متميزة نتيجة لاستكمال بناء الهيكل العظمي والبدء في كسوته بالعضلات (اللحم) مع بداية الأسبوع الثامن إلى آخر فترة الحمل، ولكن منذ نهاية الأسبوع الثامن تظهر الصفات البشرية على الجنين حيث تكون العظام قد كسيت بالعضلات (اللحم) وتكون العضلات قد كساها الجلد، وتكون جميع أعضاء الجسم قد تمايزت وبدأت في العمل.

وتبدأ مرحلة النشأة في الأسبوع التاسع حيث تتباطأ معدلات النمو حتى بداية الأسبوع الثاني عشر ثم تتسارع حتى نهاية فترة الحمل (في حدود الأسبوع الثامن والثلاثين) وتعتبر نهاية طور كساء العظام باللحم هى الحد الفاصل بين مرحلتي الحميل والجنين.

الماء الدافق من الرجل: يخرج ماء التكاثر الذكري دافقًا من خصيتي الرجل اللتين تفرزان مئات الملايين من الحيوانات المنوية التي تخرج متدفقة ولذلك وصفه القرآن الكريم بأنه ماء دافق، وهذا الوصف القرآني يناسب التدفق للماء المنوي نفسه مما يؤكد ذاتية التدفق فيه، بالإضافة إلى أن ما يحمله من نطف ذكرية هي كائنات حية تجري بتدفق وحيوية أيضًا؛ حتى تكون قادرة على إتمام

عملية الإخصاب. فمن هذه الحيوانات المنوية القوي والضعيف، والطويل والقصير، وما يحمل شارة التذكير (Y) وما يحمل شارة التأنيث (X)، ومنها ما له رأس واحد (وهو الأغلب) وما له رأسان (وهو النادر)، وأغلبها صالح للإخصاب، وأقلها غير صالح لذلك، وأغلبها يهلك قبل الوصول إلى قناة الرحم التي لا يكاد يصلها أكثر من خمسمائة نطفة من مئات الملايين التي تنتج، ولا ينجح في الوصول إلى البويضة، واختراق جدارها السميك إلا واحد فقط من مئات الحيوانات المنوية، وباتحاد الصبغيات الموجودة في كل من الحيوان المنوي والبويضة يكتمل عدد الصبغيات المحدد للنوع البشري (46 صبغيًا) نصفها من الحيوان المنوي والنصف الآخر من البويضة، فتجتمع هذه الصبغيات على هيئة أزواج لتكون نواة النطفة المختلطة (النطفة الأمشاج) أو البويضة الملقحة (اللقيحة) التي تشكل اللبنة الأولى في بناء جسم الكائن الجديد. وبعد إتمام ذلك تحدث تغيرات سريعة في غشاء البويضة (البييضة) تمنع دخول أي من الحيوانات المنوية الأخرى.

وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2]، ويقول المصطفى ﷺ: «يا يهودي من كلٍ يخلق: من نطفة الرجل، ومن نطفة المرأة»[1]. ويقول: «ما من كل الماء يكون الولد».

وقد لوحظ أن النطاف الذكرية يزداد نشاطها عندما تصل إلى الرحم خاصة عند الاقتراب من سطح البييضة السميك نسبيًا، كما لوحظ أن كلاً من البييضة والحيوانات المنوية من حولها تدور سبع دورات قبل التلقيح في حركة معاكسة لاتجاه حركة عقارب الساعة، ومشابهة للطواف حول الكعبة المشرفة، والبييضة تقدم المواد الهيولية (السيتوبلازمية) التي تكون الكتلة الابتدائية للنطفة الأمشاج والغذاء الكافي لها حتى تنشب في جدار الرحم ويتم انغراسها فيه فتتحول إلى طور العلقة التي تتغذى على دم الأم حتى تمام مدة الحمل مرورًا بالأطوار المتتابعة، ومن هنا كانت الحكمة الإلهية في جعل قطر البويضة ضعف طول النطفة الذكرية أربعين مرة.

---

(1) أحمد (4424).

عملية الإخصاب. فمن هذه الحيوانات المنوية القوي والضعيف، والطويل والقصير، وما يحمل شارة التذكير (Y) وما يحمل شارة التأنيث (X)، ومنها ما له رأس واحد (وهو الأغلب) وما له رأسان (وهو النادر)، وأغلبها صالح للإخصاب، وأقلها غير صالح لذلك، وأغلبها يهلك قبل الوصول إلى قناة الرحم التي لا يكاد يصلها أكثر من خمسمائة نطفة من مئات الملايين التي تنتج، ولا ينجح في الوصول إلى البويضة، واختراق جدارها السميك إلا واحد فقط من مئات الحيوانات المنوية، وباتحاد الصبغيات الموجودة في كل من الحيوان المنوي والبويضة يكتمل عدد الصبغيات المحدد للنوع البشري (46 صبغيًا) نصفها من الحيوان المنوي والنصف الآخر من البويضة، فتجتمع هذه الصبغيات على هيئة أزواج لتكون نواة النطفة المختلطة (النطفة الأمشاج) أو البويضة الملقحة (اللقيحة) التي تشكل اللبنة الأولى في بناء جسم الكائن الجديد. وبعد إتمام ذلك تحدث تغيرات سريعة في غشاء البويضة (البييضة) تمنع دخول أي من الحيوانات المنوية الأخرى.

وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2]، ويقول المصطفى ﷺ: «يا يهودي من كل يخلق: من نطفة الرجل، ومن نطفة المرأة»[1]. ويقول: «ما من كل الماء يكون الولد».

وقد لوحظ أن النطاف الذكرية يزداد نشاطها عندما تصل إلى الرحم خاصة عند الاقتراب من سطح البييضة السميك نسبيًا، كما لوحظ أن كلاً من البييضة والحيوانات المنوية من حولها تدور سبع دورات قبل التلقيح في حركة معاكسة لاتجاه حركة عقارب الساعة، ومشابهة للطواف حول الكعبة المشرفة، والبييضة تقدم المواد الهيولية (السيتوبلازمية) التي تكون الكتلة الابتدائية للنطفة الأمشاج والغذاء الكافي لها حتى تنشب في جدار الرحم ويتم انغراسها فيه فتتحول إلى طور العلقة التي تتغذى على دم الأم حتى تمام مدة الحمل مرورًا بالأطوار المتتابعة، ومن هنا كانت الحكمة الإلهية في جعل قطر البويضة ضعف طول النطفة الذكرية أربعين مرة.

---

(1) أحمد (4424).

والغدة التناسلية الذكرية بناء في غاية التعقيد ودقة الإحكام من عدد من الأنابيب الدقيقة واللافة على بعضها تعرف باسم الأنابيب الدقيقة الناقلة للنطاف الذكرية (Seminiferous Tubules)، وهذه الأنابيب الدقيقة محاطة بأغشية بينية تفرز أعدادًا من الهرمونات التي من أهمها هرمون أندروجين (Androgen)، وهذه الأنابيب الحاملة للنطاف على الرغم من دقتها الشديدة فإنها تتكون من عدة طبقات متراكبة من أنواع مختلفة من الخلايا أهمها الخلايا المولدة المعروفة باسم الحويصلات المنوية الابتدائية (Primary Spermatocysts) والتى تبطن تلك الأنابيب الدقيقة مكونة طبقتها الداخلية التي أعطاها الله – تعالى – القدرة على إفراز النطاف الذكرية بالانقسام المنَصِّف (Meiosis) لتكون أربع خلايا متساوية الحجم تعرف باسم «أرومة النطاف» (Spermatids)، وهذه تتحول بالتدريج إلى نطاف ذكرية ذات أسواط بعد فقدان معظم الهيولى (السيتوبلازم) الذي كان بداخلها تعرف باسم الخلايا النطفية (Spermatocytes)، وترتحل هذه النطاف الذكرية عبر الأنابيب الدقيقة الحاملة لها حتى تصل إلى منطقة تجمع لها في أعلى الغدة التناسلية (الخصية) تعرف باسم البربخ (Epididymis) وهى قناة لافة على ذاتها يصل طولها إذا فردت إلى ما بين أربعة وستة أمتار فتختزن فيها النطاف الذكرية إلى حين خروجها منها، ومن العجيب أنه بمجرد تكون جيل من النطاف فإن خلايا مولدة جديدة تتكون لتعويضها، وبذلك فإن «عملية الإنطاف» أي إنتاج النطاف (Spermatogenesis) هى عملية مستمرة باستمرار حياة الرجل. وتتم في غدتين تناسليتين تعرفان باسم الخصيتين وتحفظان في كيس خارج عن الجسم يعرف باسم «الصفن» مهمته حفظ هاتين الغدتين في درجة حرارة مناسبة لا تتعدى سبع درجات مئوية على الرغم من أن درجة حرارة جسم الإنسان هي في حدود (37) درجة مئوية، ويتم التبريد بواسطة خلايا إفراز العرق، بالإضافة إلى عدد من العضلات التي تضبط مسافة هذه الغدد التكاثرية من الجسم بما لا يرفع درجة حرارتها على الحد المسموح به.

الماء الدافق من المرأة: يندفع ماء التكاثر في الأنثى من غدتين تناسليتين تعرفان باسم المبيضين تتكون فيهما البويضات على هيئة خلايا بيضية أولية (Primary Oocytes) يحاط كل منها بغلاف يعرف باسم الجريب (Follicle)،

وتقوم هذه الخلايا بالانقسام المنصف الأول لتكوين خليتين مختلفتين في الحجم، الكبيرة منهما تسمى باسم الخلية البيضية الثانوية (Secondary Oocyte)، والصغيرة منهما تعرف باسم الجسم القطبي الأول (The First Polar Body)، ثم تبدأ الخلية البيضية الثانوية بدورها في الانقسام المنصف لتكون خليتين مختلفتين حجمًا كذلك، الكبيرة منهما تسمى الطليعة البيضية (Ootid) والصغيرة منهما تعرف باسم الجسم القطبي الثاني (The Second Polar Body) ويعد ذلك تستمر الطليعة البيضية في النمو حتى تكون البويضة الكاملة (Ovum) التي تختزن معظم السائل الخلوي (السيتوبلازم أو الهيولى) للخلية البيضية الأولية ومحتواها من الصبغيات المحمولة في النواة.

ويصل قطر البويضة إلى (0,2) من المليمتر أى ضعف طول الحيوان المنوي أربعين مرة؛ لأنها هي التي تقدم المواد الهيولية (السيتوبلازمية) التي تكون النطفة الأمشاج، كما تقدم الغذاء الكافي للنواة المختلطة (نواة النطفة الأمشاج) المتكونة بداخلها حتى تنشب في جدار الرحم وتنغرس فيه مكونة طور العلقة التي تتغذى على دم الأم.

ويشمل ماء المرأة – وهو سائل أصفر لزج – بالإضافة إلى البويضة العديد من المركبات والعناصر التي تشارك في إتمام عملية الإخصاب من مثل الأنزيمات التي تفرزها بطانة الرحم وقناته، والتي تعمل على إذابة القلنسوة المغطية لرأس الحيوان المنوي والمكونة من البروتين السكري عند تماسه بالمنطقة الشفافة من البويضة حتى يصبح قادرًا على إخصابها، كما تعمل على إزالة الخلايا المحيطة بالبويضة وكشف غطائها الواقي أمام الحيوان المنوي. وتحتاج هاتان النطفتان لبضع ساعات حتى تتمكنا من إتمام عملية الاتحاد التي يتبعها عدد من التغيرات الحيوية والوظائفية والتشريحية، وباتحاد الصبغيات الموجودة في هاتين النطفتين يكتمل عددها المحدد للنوع البشري (46 صبغيًا) نصفها من الحيوان المنوي والنصف الآخر من البويضة، فتجتمع على هيئة أزواج لتكون نواة النطفة المختلطة (النطفة الأمشاج) أو البويضة الملقحة (اللاقحة Zygote) التي

تشكل البناء الأولي للجنين، ويعد ذلك تحدث تغيرات سريعة في غشاء البويضة (البييضة) لمنع دخول بقية الحيوانات المنوية.

وبينما يستطيع الرجل إفراز ملايين الحيوانات المنوية في كل يوم من عمره البالغ – أي من سن البلوغ إلى سن الشيخوخة المتأخرة – فإن المرأة لا تفرز إلا بويضة واحدة في كل شهر من البلوغ إلى سن اليأس (Menopause) والذي يأتي للمرأة في منتصف عمرها (بين السنة الأربعين والخمسين)، وبذلك يكون مجموع ما تفرزه المرأة من بويضات طوال حياتها لا يكاد يتعدى خمسمائة بويضة، وما ينجح من هذه في الوصول إلى مرحلة الإخصاب لا يكاد يتعدى عدد أصابع اليد الواحدة إلا في بعض الحالات القليلة. وفي مقابل كل بويضة يفرزها جسد المرأة فإن جسد الرجل يفرز أكثر من بليون حيوان منوي يهلك معظمها في رحلة الوصول إلى البويضة وبمجرد تكون البويضة فإن المبيضين يفرزان عددًا من الهرمونات مثل هرمون الأستروجين (Estrogen)، وهرمون البروجيستيرون (Progesterone) والهرمون المهيئ للحمل وهرمونات أخرى مثل هرمون (Hcgt).

■ ونظرًا لقلة ما ينجح من نطف كل من الرجل والمرأة في الوصول إلى مرحلة الإخصاب قال رب العالمين: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾ [السجدة: 8].

والسلالة في اللغة العربية هي كل ما يستل (أي يخرج في رفق من شيء آخر).

■ وقال رسول الله ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد».

■ وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه قال: أقبلت اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم: إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ يعقوب على بنيه، إذ قالوا: الله على ما نقول وكيل، قال ﷺ: «هاتوا»، قالوا: خبرنا كيف تُؤْنِثُ المرأة وكيف تُذْكِر؟ قال: «يلتقي الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل آنثت»[1].

(1) أحمد (2479).

وفي رواية لمسلم قال النبي ﷺ: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فَعَلاَ مني الرجل مني المرأة أذكر بإذن الله، وإن علا مني المرأة مني الرجل آنثا بإذن الله»[1].

وروى البخاري قول النبي ﷺ: «وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها»[2].

وهذه القضايا تقع من علم الأجنة في الصميم، وعَرْضُها بهذه الدقة العلمية الشاملة في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة لمما يجزم بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة والرسالة للنبي الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



شكل (61) صورة للجنين البشري
معلق بالحبل السُّري في جدار الرحم

(1) مسلم (315).
(2) البخاري (3329).



الحديث الثالث والعشرون

«من كلٍّ يُخلق الإنسان: من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة»



شكل (62)

23 «من كلٍّ يخلق الإنسان: من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 4438) حيث قال:

■ حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ الحسَن، حَدَّثَنَا أَبُو كُدَيْنَةَ، عن عَطَاءِ بنِ السَّائِبِ، عن الْقَاسِمِ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ الله قَالَ: مَرَّ يَهُودِيٌّ بِرَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ، فَقَالَتْ قُرَيْشٌ: يَا يَهُودِيُّ، إِنَّ هَذَا يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ. فَقَالَ: لأَسْأَلَنَّهُ عن شَيْءٍ لا يَعْلَمُهُ إلا نَبِيٌّ. قَالَ: فَجَاء حَتَّى جَلَسَ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مِمَّ يُخلَقُ الإِنْسَانُ؟ قَالَ: «يَا يَهُودِيُّ، مِنْ كُلٍّ يُخْلَقُ، مِنْ نُطْفَةِ الرَّجُلِ وَمِنْ نُطْفَةِ المرْأَةِ، فَأَمَّا نُطْفَةُ الرَّجُلِ فَنُطْفَةٌ غَلِيظَةٌ مِنْهَا الْعَظْمُ والْعَصَبُ، وَأَمَّا نُطْفَةُ المرْأَةِ فَنُطْفَةٌ رَقِيقَةٌ مِنْهَا اللَّحْمُ وَالدَّمُ». فَقَامَ اليَهُودِيُّ فَقَالَ: هَكَذَا كَانَ يَقُولُ مَنْ قَبْلَكَ.

وروى الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 3438، كتاب النكاح) ما نصه:

■ حَدَّثَنِي هَارُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي مُعَاوِيَةُ يَعْنِي ابْنَ صَالِحٍ، عن عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، عن أَبِي الْوَدَّاكِ عن أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ سَمِعَهُ يَقُولُ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عن الْعَزْلِ فَقَالَ: «مَا مِنْ كُلِّ الماءِ يَكُونُ الوَلَدُ، وَإِذَا أَرَادَ الله خَلْقَ شَيْءٍ لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ». حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ المُنْذِرِ الْبَصْرِيُّ، حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ حُبَابٍ، حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ، أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ الْهَاشِمِيُّ، عن أَبِي الْوَدَّاكِ عن أَبِي سَعِيدٍ الخدْرِيِّ، عن النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِهِ.

وروى الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 11902) ما نصه:

حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ عُبَيْدٍ، عن أَبِي إِسْحَاقَ، عن أَبِي الْوَدَّاكِ عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عن العَزْلِ فَقَالَ: «لَيْسَ مِنْ كُلِّ الماءِ يَكُونُ الوَلَدُ، إِذَا أَرَادَ الله أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا لَمْ يَمْنَعْهُ شَيْءٌ».

■ وروى الطبري بسنده عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما خلق الله الولد إلا من نطفة الرجل والمرأة جميعًا».

■ أخرج الإمام أحمد في مسنده (ح4424) أن يهوديًا مر برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال لأسألنه

عن شيء لا يعلمه إلاَّ نبي، فقال اليهودي: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي! من كُلٍّ يخلق: من نطفة الرجل ونطفة المرأة».

وقد جاء هذا الرد النبوي الشريف والعلمي الدقيق في زمن سيادة الاعتقاد لدى الأطباء والفلاسفة بأن الجنين الإنساني إنما يتكون من ماء الرجل فقط، وأن دور المرأة لا يتعدى كون رحمها محضنًا لذلك الجنين، أو من دم الحيض فقط دون أن يكون لماء الرجل دور، وقد لخص أرسطو (384 – 322 ق.م) المعارف المتاحة في زمانه عن تخلق الجنين في فكرتين نظريتين على النحو التالي:

1– أن الجنين الجاهز في ماء الرجل ينعقد في رحم المرأة، وينمو كما تنمو البذرة في الأرض باستمداد الغذاء منها.

2– أن الجنين يتخلق من دم الحيض، حيث يقوم المني بعقده وتحويله.

وقد أيد أرسطو الرأى الثاني انطلاقًا من قناعته بنظرية التخلق الذاتي من العفونة والمواد المتحللة.. وهى فكرة خاطئة أسقطها الفرنسي لويس باستير في سنة 1864م.

واستمر الجدل بين أنصار فكرة الجنين الكامل المتقزم الموجود في ماء الرجل فقط، وأنصار فكرة هذا القزم متناهي الضآلة في دم الحيض فقط حتى مطالع القرن العشرين، على الرغم من اكتشاف كل من البييضة (1672م) والحيوان المنوي للإنسان (1677م) بعد تصنيع المجهر، ولم يعرف دورهما معًا في تخلق الجنين إلا في أواخر القرن الثامن عشر (Spallanzani and Wolff) ولم يتم قبول ذلك إلا في أواخر القرن التاسع عشر (**Hertwig, 1875, Van Beneden, 1883**).

ويؤكد هذا الاستعراض أن العلوم المكتسبة لم تصل إلى معرفة دور كل من نطفة الذكر ونطفة الأنثى في تخلق الجنين إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يلق ذلك القبول من الأطباء وعلماء الحياة والمهتمين بعلوم الوراثة إلا في أوائل القرن العشرين، وسبْقُ رسول الله ﷺ بتأكيد هذه الحقيقة في زمن لم يتوافر فيه أي وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير مما يشهد له بالنبوة وبالرسالة.

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف مذكرة تفسيرية لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: 36، 37].

ويؤكد الحديث النبوي الشريف كما تؤكد الآيتان القرآنيتان الكريمتان أن الإنسان لم يخلق عبثًا، بل له رسالة محددة في هذه الحياة لها قصد وغاية، ومن ورائها حكمه بالغة، وأن الحياة الدنيا ما هي إلا فسحة من الزمن يهبها الخالق - سبحانه وتعالى - لكل مخلوق عاقل مكلف ليثبت في نهايتها جدارته بالجنة ونعيمها، أو استحقاقه للنار وجحيمها، والإنسان ليس له بعد حياته الدنيا إلا الموت، ثم حياة البرزخ وحساب القبر، ثم البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبدًا وإما في النار أبدًا.

وتنزل القرآن الكريم بتأكيد أن الإنسان لن يترك سدى، فيه إشارة إلى تلك الرسالة بعد أن كانت الغالبية الساحقة من أهل الأرض قد نسيتها، فغرقت في بحور من دعاوى الكفر والشرك والإلحاد من أمثال الوثنيات المتعددة، والخرافات الموغلة في الخيال، والأساطير المفتراة بغير حساب، والهواجس الظنية البعيدة كل البعد عن الواقع مما دفع بغالبية الناس إلى متاهات من الضلال والفساد، في العلاقات، والسلوك، والاعتقاد.

في هذا الجو الخانق أنزل القرآن الكريم هداية من الله - الخالق - للإنسان في القضايا التى يعلم ربنا - تبارك وتعالى - بعلمه المحيط أن الإنسان لا يمكنه الوصول فيها إلى تصور صحيح أبدًا من مثل قضايا العقيدة والعبادات والأخلاق والمعاملات، وهى تشكل ركائز الدين، كما تحدد للإنسان رسالته في هذه الحياة: عبدًا لله، يعبده - تعالى - بما أمر، ومستخلفًا في الأرض يعمرها ويسعى جاهدًا لإقامة عدل الله فيها، وعلى أساس من نجاحه أو فشله في تحقيق هذه الرسالة سيكون جزاؤه العادل في الآخرة.

ونحن نرى الموت حقيقة قائمة في حياتنا، لا حياد عنها، ولا مهرب منها ..!!، ونرى الأدلة المادية الملموسة على حتمية فناء الكون بكل ما فيه ومن فيه، ظاهرة جلية، كما تشير العلوم المكتسبة إلى إمكانية البعث، والمنطق السوي يدعم حتميته

وضرورته ليكافأ المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، فكم من مسيء يفلت من عقاب الدنيا، وكم من محسن لا يلقى في الدنيا جزاء؛ لذلك قال ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: 36].

■ وفي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: 37].

وفي قول المصطفى ﷺ: «... من كل يخلق: من نطفة الرجل ونطفة المرأة» نرى أن (النطفة) في اللغة العربية هي الماء الصافي، قل أو كثر والجمع (نطاف)؛ و(نطفان) الماء سيلانه، وقد (نطف) (ينطف) بضم الطاء وكسرها: أي: سال يسيل.

ويكنى عن اللؤلؤة بـ (النطفة) و(النَّطَفُ) الدلو؛ وليلة (نطوف) يجيء فيها المطر حتى الصباح، و(الناطف) السائل من المائعات الحلوة. يقال فلان (ينطف) بالمعروف أي يُندَّى به؛ فهو (مَنْطِفُ) المعروف. أما القرآن الكريم فقد أورد لفظة (نطفة) اثنتى عشرة مرة بمعنى الخلية التناسلية (خلية التكاثر التي يتخلق منها الإنسان) على النحو التالي:

■ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل:4].

■ ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: 37].

■ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الحج: 5]

■ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ [المؤمنون: 12 – 14].

■ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [فاطر:11].

■ ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:77].

■ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [غافر:67].

■ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45، 46].

■ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة37].

■ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 2].

■ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَيِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ [عبس: 17 – 19].

وعلى ذلك فإن الغالب في معنى (النطفة) هو الخلية التناسلية (Gamete) سواء كانت من الرجل أو من المرأة، و(النطفة الأمشاج) هي اللقيحة (Zygote) الناتجة عن اندماج نطفتي الرجل والمرأة.

و(المَنْيُ) في اللغة هو التقدير، يقال: (منى) لك (الماني)؛ أي: قَدَّرَ لك المقدر؛ و(المَنِيُّ) هو السائل أو السوائل الحاملة للنطف التي قُدِّرت بها الحياة. وهذه اللفظة جاءت بتصريفاتها المختلفة أربع مرات في كتاب الله على النحو التالي:

■ ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45، 46].

■ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: 58، 59].

■ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾.
[القيامة: 37 – 39].

و(الإمناء) هو إفراغ السوائل الحاملة للخلايا التناسلية في مكانها الصحيح حتى تتم عملية الإخصاب، أو هو الإخصاب ذاته، وهو من تقدير الخالق الحكيم – سبحانه وتعالى – أو هو إنتاج النطف ثم إخصابها، ويتم ذلك بتقدير من الله – تعالى – ليعطي لكل فرد من بني آدم شيفرة وراثية تميزه عن غيره من الخلق، وتُعطى كذلك لكل فرد من نسله إلى قيام الساعة.

ومن (المنيِّ) بمعنى التقدير جاءت لفظة (المَنِيَّة) وهي الأجل المقدر للكائن الحي بالموت، وجمعها (المنايا) و(المنون)؛ يقال: (مُنِيَ) له أي: قُدِّرَ له؛ وذلك لأن الموت مقدر على كل حي.

و(المُنْيَةُ) واحدة (المُنَى)، و(الأُمْنِيةُ) واحدة (الأَماني) وجمعها (أمانٍ) و(أمانِيّ) بالتخفيف والتشديد.

إدراك العلوم المكتسبة لحقيقة النطفة:

مما لا شك فيه أن الإنسان قد شغل بقضية التناسل منذ أن وطئت قدماه الأرض، فمنذ أكثر من ثمانية قرون وجدت بعض الكتابات عن تكون الجنين في الحضارات

القديمة من مثل الحضارة المصرية القديمة، والحضارة الهندية القديمة، ولكنها كانت في مجموعها مشوبة بالتخمين والسحر، وظل الحال كذلك إلى الحضارة اليونانية القديمة حين اقترح أبوقراط (من حوالي 460ق.م إلى حوالي 377ق.م) دراسة الأجنة في بيض الطيور، وتبعه أرسطو (من حوالي 384ق.م إلى حوالي 322ق.م) الذي نادى بتكوين الجنين من اختلاط الحيض مع مني الرجل، وتلاه جالن (من حوالي 130–201م) وتكلم عن تغذية الحميل والأغشية المحيطة به.

وفي الفترة من 610م إلى 632م أنزل الله – تعالى – القرآن الكريم متضمنًا وصفًا دقيقًا لمراحل تخلق الجنين الإنساني في ترتيب محكم غاية الإحكام من النطفة إلى النطفة الأمشاج، إلى العلقة، ثم المضغة (المخلقة وغير المخلقة)، إلى خلق العظام وكسوتها باللحم و(العضلات والجلد)، ثم إنشاء الحميل خلقًا آخر في تشكل متواصل إلى لحظة الميلاد.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل العالم لا يعرف النطفة إلى أواخر القرن السابع عشر الميلادي؛ ففي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي قام قسطنطين الإفريقي (Constantinus Africanus) بترجمة العديد من الأعمال المتعلقة بالأجنة من اللغات اليونانية والرومانية والعربية إلى اللغة اللاتينية، وتأثرًا بالأساطير التي كانت شائعة في زمانه حاول ربط أحوال الجنين أثناء الحمل بالنجوم والكواكب، وهي محاولة لا أساس لها من العلوم الصحيحة.

وفي عصر النهضة حاول دافنشي (Leonardo da Vinci) في القرن الخامس عشر الميلادي قياس أبعاد الحميل في عدد من مراحل نموه المتأخرة، ثم تبعه كل من چيرولامو فابريشيوس (Girolamo Fabricius) ووليام هارفي (William Harvey) في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين اللذين ناديا بأن الجنين يفرزه الرحم، وبعد اختراع المجهر فتحت آفاق جديدة أمام علماء الأجنة على الرغم من بساطة الأجهزة في أول الأمر فوصف الهولندي دي جراف (Regnier de Graff) حويصلة البييضة دون معرفة دورها في تخلق الجنين وذلك في سنة 1672م، وبعد ذلك بثلاث سنوات وصف مالبيجي (**Marcello Malpighi, 1675**) جنين الدجاجة على أنه صورة مصغرة للدجاجة.

ولــم تكتشـف نطفـــة الرجـل (الحيمـن) إلا فـي أواخـــر القـرن السابـع عشـر الميـــلادي حينمـــا استخـدم كل مـن هـــام وزميله ليوڤينهويـك فـي سنة 1677م (Hamm and Leeuwenhoek) مجهـرًا محسنًـــا، دون فهم لـدور هذه النطفة في عمليـة الإخصـاب، حيث تصورا هذا الحيمن حاملًا في رأسه إنسانًا متقزمًا مكتمل النمو في هيئة متناهية الضآلة في الأبعاد ينمو إلى حجم الطفل الكامل النمو في رحـم الأم، وتبعهمـــا في ذلك كل من هـارتسويكـر (Hartsoeker) فى سنة 1694م، ويفون (Buffon) في سنة 1749م.

في سنة 1759 رفض وولف (Caspar Friedrich Wolff) فكرة الخلق الكامل للوليد في رأس نطفة الرجل، ولم تنته هذه الخرافة إلا في سنة 1775م حين أثبت سبالانزاني (Spallanzani) دور كل من نطفتي الرجل والمرأة في تخليق الجنين. وكان كل من القرآن الكريم وأقوال رسول الله ﷺ قد أكدا هذه الحقيقة من قبل ألف سنة؛ فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده أن يهوديًّا مر برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي فقال اليهودي: لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، فقال: يا محمد! مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي! من كل يخلق؛ من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة».

وفي ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: 13].

وفـي سنـة (1817م) اكتشـف بانـــدر (H. C. Pander) تكـون جسـم الجنيـــن مـن ثـلاث طبقـات، وبعـد ذلك بعشـر سنوات وصـف فـون بـاير فـي سنـة 1827م (Von Baer ،1827) الخلية البيضية الناضجة (Oocyte) في رحم أنثى الكلب بعد اكتشاف الحيمن بحوالي مائة وخمسين سنة.

في سنة 1839م قدم كل من الألمانيين شليدن وشفان (Schleiden and Schwann) مفهوم الخلية على أنها وحدة بناء أجساد الكائنات الحية، وحتى بعد هذا الاكتشاف فإن العلوم المكتسبة لم تدرك أن النطف من الخلايا إلا في أواخر القرن التاسع عشر (1859م)، ولم تعرف عملية الإخصاب إلا بعد أن شاهدها كل من هيرتويج (Hertwig)

في سنة 1875م، وڤان بنيدين (Van Beneden) في سنة 1883م، ولم يتم التأكد من ذلك إلا في أوائل القرن العشرين.

هذه الحقائق العلمية التى تقع من علم الأجنة في الصميم والتى لم تُعرف مبادئها الأولية إلا في نهايات القرن الثامن عشر الميلادى، واستغرقت أكثر من قرنين من الزمن حتى تستقر في وجدان علماء الأجنة، تحدث عنها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ بهذه الدقة العلمية، والإحاطة الشمولية منذ مطلع القرن السابع الميلادى، أي قبل أن يصل إليها العلم المكتسب بأكثر من عشرة قرون كاملة!

فحتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي كان الناس يعتقدون أن الإنسان جسمه كامل بأبعاد متناهية في الصغر في دم الحيض، وبعد اكتشاف بويضة الأنثى قالوا إن الإنسان يخلق كاملًا فيها كما يخلق فرخ الدجاج في بيضتها، ولكن بعد اكتشاف الحيوان المنوي نادوا بأن الجنين يخلق كاملًا في رأس ذلك الحيوان على الرغم من ضآلته، ولم ينته الجدل بين أنصار كل من هذه التصورات الخاطئة إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي حين اكتشفت أهمية كل من الحيوان المنوي والبويضة في عملية تكون البويضة الملقحة التي ينشأ عنها الجنين، ولم يتم الاتفاق على ذلك إلا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي القرن العشرين ثبت لعلماء الأجنة أنه من بين ملايين النطف الذكرية (الحيوانات المنوية) التي تنزل في الدقيقة الواحدة لا يصل إلى قناة الرحم إلا خلاصة لا يتعدى عددها الخمسمائة، يتمكن واحد منها فقط من اختراق البويضة (النطفة الأنثوية)، فيتم تلقيحها، وتتكون النطفة «الأمشاج» التي وصفها الحق - تبارك وتعالى - في محكم كتابه، والبويضة هي أيضًا جزء من ماء المرأة، وهنا تتضح لمحة من لمحات الإعجاز العلمي في قول المصطفى ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد».

وهذه الأحاديث النبوية الشريفة مؤيدة بقول الحق (تبارك وتعالى): ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 12 - 14].

وبقوله (عز من قائل): ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا * إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: 1، 2].

وقوله (سبحانه وتعالى): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5].

وانطلاقًا من هذه الحقائق العلمية الناصعة في كل من كتاب الله (تعالى) وسنة رسوله ﷺ فإن علماء المسلمين كانوا على يقين منها في الوقت الذي ظل فيه علماء الغرب يتخبطون في ظلمة من الأساطير والخرافات على مدى عشرة قرون كاملة أو يزيد حتى وصلوا إلى شيء من التصور البدائي لتلك الحقائق، ولم يستكملوا رؤيتها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

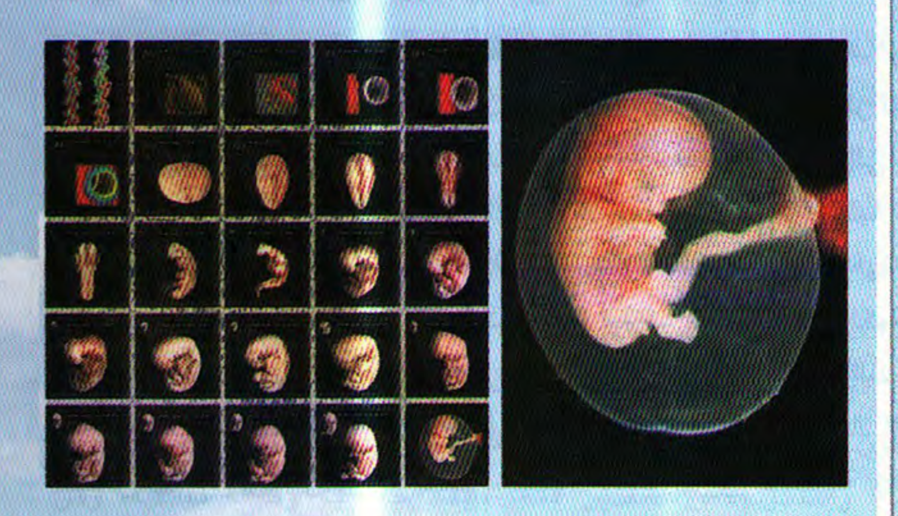
فهذا ابن حجر العسقلاني (رحمه الله) يقول في شرح الحديث الشريف الذي نحن بصدده، وما يرتبط به من أحاديث في نفس الباب ما نصه: «ويزعم كثير من أهل التشريح أن مني الرجل لا أثر له في الولد إلا في عقبه، وأنه إنما يتكون من دم الحيض، وأحاديث الباب تبطل ذلك».

ويؤكد هذا الكلام ابن القيم (يرحمه الله) بقوله في كتابه المعنون «التبيان في علوم القرآن» ما نصه: «ومني الرجل وحده لا يتولد منه الولد ما لم يمازجه مادة أخرى من الأنثى».

هذا السبق بعدد من الحقائق العلمية في كل من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ لكل المعارف المكتسبة بعشرة قرون أو يزيد لا يمكن تفسيره إلا بكون القرآن الكريم كلام الله الخالق، وكون هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم، موصولًا دائمًا ومؤيدًا بوحي السماء، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحديث الرابع والعشرون

النُّطفــة المُخَلَّقَــة وغيــر المُخَلَّقــة



شكل (63)
يوضح مراحل الجنين البشري حتى اكتمال نضج «الجنين» إلى «الحميل»

24 النُّطفــة المُخَلَّقــة وغير المُخَلَّقــة

■ «إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكًا فقال: يا رب مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة. مَجَّتها الأرحام دمًا». (أخرجه ابن جرير 17/117، والترمذي في النوادر 1/267).

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف جاء شرحًا للآية القرآنية التي يقول فيها ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ [الحج:5].

و(النطفة) في اللغة العربية هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة أو بضع قطرات يقال: (نَطَفَ) الرجل (يَنْطِفُ) و(يَنْطُفُ) (نطفًا) و(نطفانًا) بمعنى: تقاطر منه الماء بعد وضوئه أو غسله. ويقال (نطفت) القربة إذا قطرت، من (النَّطْفِ) بمعنى التقاطر للماء قطرة قطرة. و(النطفة) أيضًا هي الماء الصافي القليل من مثل قليل الماء الذي يبقى في الدلو أو القربة، ويعرف باسم (النطافة) وجمعها (نطف) و(نطاف).

ويقال ليلة (نَطُوفٌ) أي باتت تمطر حتى الصباح.

وتسمى صغار اللؤلؤ باسم (النطف) تشبيهًا لها بقطرات الماء. ويستعار (النطف) للكرم وفعل الخير فيقال: فلان (منطف) المعروف أي يتقاطر المعروف منه بمعنى أنه دائم المعروف، و(ينطف) بالخير أي: يُنَدَّى به إشارة إلى ديمومة ذلك منه، واستخدم القرآن الكريم لفظة (النطفة) للتعبير عن خلية التكاثر (Gamete) سواء كانت مؤنثة (Ovum) أو مذكرة (Sperm)، وجمعها (نطف) و(نطاف). وجاءت بهذا المعنى في اثنتي عشرة آية هي: (النحل: 4)، (الكهف: 37)، (الحج: 5)، (المؤمنون: 13، 14)، (فاطر: 11)، (يس: 77)، (غافر: 67)، (النجم: 46)، القيامة: 37)، (الإنسان: 2)، (عبس: 19). كذلك سمى القرآن الكريم اتحاد النطفتين التكاثريتين الأنثوية والذكرية باسم «النطفة الأمشاج» أي المختلطة (Zygote) في الآية الثانية من «سورة الإنسان» وهو أول تعبير علمي دقيق عن تخلق الجنين باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، وفي ذلك يروي رسول الله ﷺ قوله:

«من كل يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة»[1]. وهي حقيقة لم يتوصل العلم المكتسب إلى معرفتها إلا في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي (1775م/1186هـ).

وبالتقاء النطفتين الذكرية والأنثوية تتكون النطفة الأمشاج (Zygote) التي يتكامل فيها عدد الصبغيات المحدد لنوع الإنسان (46 صبغيًا) في 23 زوجًا منها 22 تحمل الصفات الجسدية وزوج يحمل الصفات الجنسية وهما (X + X) في الأنثى، (X+Y) في الذكر.

ويتم إخصاب النطفة المؤنثة (البييضة) – في الغالب – بنطفة ذكرية واحدة (أي بحيوان منوي واحد) وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد»[2]. وبعد إتمام عملية الإخصاب تبدأ النطفة الأمشاج بالانقسام السريع إلى خلايا أصغر فأصغر حتى تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا الأرومية تعرف باسم التويتة (Morula)، ثم تنشطر التويتة مكونة ما يعرف باسم الكيسة الأرومية (Blastocyst) التي تبدأ بالانغراس في جدار الرحم مع اليوم السادس من الإخصاب، وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الغرس أو الحرث (Implantation) وتستغرق أسبوعًا كاملًا حتى يتم انغراس النطفة الأمشاج العديدة الانقسام في جدار الرحم، فتنتقل من طور النطفة إلى طور العلقة، وطول النطفة يتراوح بين 0,1 من المليمتر إلى 0,68 من المليمتر، ووصف كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لهذا الطور الدقيق جدًا في زمن لم يكن متوافرًا فيه أي وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف، وتحديد إنتاج الجنين من إخصاب النطفة المذكرة للنطفة المؤنثة يعتبر سبقًا علميًا لم يتوصل إليه العلم المكتسب إلا بعد اثني عشر قرنًا من تنزل القرآن الكريم في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي (أوائل القرن الهجرى الثاني عشر).

وفي حوالي اليوم الخامس عشر من تاريخ الإخصاب يبدأ الشريط الابتدائي في التكون على ظهر النطفة الأمشاج المنقسمة والمتعلقة بجدار الرحم (الكيسة الأرومية) والمتكونة من طبقتين فقط: طبقة خارجية وطبقة داخلية، ومن

---

(1) أحمد (4424).

(2) مسلم (1438)، وأحمد (11369).

هذا الشريط تتخلق الطبقة الوسطى وهي منشأ كل أجهزة الجسم التي تبدأ في التخلق بالتدريج.

وفي خلال أسبوعين تتم عملية التعلق بجدار الرحم بواسطة المشيمة البدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السُّري، وباطراد النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكون الأجهزة وفي مقدمتها الجهاز العصبي ممثلًا بالحبل الظهري والجهاز الدوري، يستطيل الجنين في بدء الأسبوع الثالث في اليوم الحادي والعشرين إلى الخامس والعشرين من عمره ليأخذ شكل دودة العلق في هيأتها، وفي تعلقها بجدار الرحم (تمامًا كما تتعلق الدودة بجسم العائل الذي تتطفل عليه)، وفي تغذيته على دم الأم (تمامًا كما تتغذى دودة العلق على دم الحيوان الذي تتعلق به في مياه البرك حيث تعيش) ولذلك فإن الوصف القرآني لهذا الطور بكلمة (العلق) في زمن لم يكن متوافرًا فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف لطور يتراوح طوله بين 0,7 من المليمتر، 3,5 من المليمتر يعتبر أمرًا معجزًا حقًا، ومن المعجز أيضًا استخدام القرآن الكريم لحرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب مع التراخي؛ وذلك للتعبير عن الفترة الزمنية المنقضية ما بين طور النطفة الأمشاج وطور العلقة (من اليوم السادس إلى الخامس عشر في طول النطفة الأمشاج وحتى الخامس والعشرين في طور العلقة).

من معاني «مخلقة وغير مخلقة»: في منتصف الأسبوع الرابع (في اليوم 24 – 26 من بدء عملية الإخصاب) تبدأ العلقة في التحول إلى طور جديد سماه القرآن باسم (المضغة)، وذلك ببدء ظهور الفلقات المعروف باسم «الكتل البدنية» (Somites) والتى تبدأ بفلقة واحدة ثم تتزايد إلى ما بين 40، 45 فلقة وذلك مع تمام الأسبوع الرابع إلى بداية الأسبوع السادس من بدء الإخصاب (في اليوم 26 – 42 من عمر الجنين) ونظرًا إلى تعدد تلك الكتل البدنية فإن الجنين يبدو كأنه قطعة لحم ممضوغة بقيت عليها طبعات الأسنان واضحة كما تبقى على قطعة من العلك الممضوغ، ومع استمرار نمو الجنين تبدو هذه الفلقات في تغير مستمر مثلما تتغير طبعات الأسنان في المادة الممضوغة باستمرار مضغها، ويصحب ذلك شيء من الانتفاخ والتغضن والتثني في الجنين الذي لا يكاد يتعدى طوله 1,3 سم في نهاية

مرحلة المضغة تمامًا كما يحدث في قطعة العلك الممضوغة، ومن هنا كان الإعجاز القرآني في تسمية هذا الطور باسم (المضغة)؛ لأن المضغة لغة هي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ، أو التي مضغت ولاكتها الأسنان تاركة طبعاتها عليها.

ومن الملاحظ أن جميع أجهزة الجسم تتخلق على هيئة براعم في طور المضغة، لذلك قال ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ [الحج: 5].

والمقصود (بالمخلقة) التي بدأت الأعضاء تتخلق فيها، وبـ (غير مخلقة) السقط أو الجنين الذي يعاني شيئًا من التشوه الخلقي كما قال بعض المفسرين وبعض الأطباء المعاصرين، وإن فسر البعض الآخر تعبير (غير المخلقة) بالخلايا الخارجية المحيطة بالجنين والمعروف باسم «الأرومة المغذية» وهو مجموعة من الأنسجة تتحدد وظيفتها في التعلق بجدار الرحم وتغذية الجنين. وفسرت مجموعة ثالثة بما يعرف باسم (الحمل اللاجنيني) الذي توجد فيه حويصلة الحمل بعيدًا عن الجنين فتضمر المضغة وتنكمش حتى تموت، وتصنف هذه الحالة ضمن حالات السقط أو الإجهاض، وفسر آخرون تعبير (غير المخلقة) بغير ذلك، ولكن استنادًا لقول ابن مسعود رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «النطفة إذا استقرت في الرحم أخذها ملك الأرحام بكفه فقال: يا رب مخلقة أم غير مخلقة؟ فإن قيل غير مخلقة لم تكن نسمة، وقذفها الرحم دمًا، وإن قيل مخلقة: قال: يارب ذكر أم أنثى؟ شقي أم سعيد؟ وما الأجل؟ وما الأثر؟ وما الرزق؟وبأي أرض تموت؟». والمقصود بالنطفة هنا: النطفة الأمشاج، وما ينطبق على النطفة الأمشاج ينطبق على المضغة وما بعدها.

وعمر طور المضغة يتراوح بين 26 يومًا و42 يومًا، ويتراوح طول الجنين في هذا الطور بين 3 مم، 13مم.

ومن أروع صور الإعجاز العلمي في أحاديث رسول الله ﷺ ما أخرجه الإمام مسلم رحمه الله عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة؛ بعث الله إليها ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وعظامها ولحمها وجلدها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك»[1]. وما أخرجه كذلك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن

(1) مسلم (2645).

رسول الله ﷺ قـال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد»[1].

وتثبت دراسات الأجنة البشرية أن وجه الجنين لا تبدو عليه الملامح الإنسانية إلا في اليوم الثاني والأربعين من عمره، وأن الخطوات الرئيسية التى تعطي المضغة بدايات الشكل الإنساني تكتمل بين الأيام الأربعين والخامس والأربعين من عمر الجنين حين يتم تكون الأعضاء وانتشار الهيكل العظمي بصورة واضحة مع استمرار النمو بالانقسام الخلوي والتمايز الدقيق للأعضاء والأجهزة. فبعد اكتمال طور المضغة يبدأ طور إنشاء الهيكل العظمي، ويتم ذلك بين اليومين الثالث والأربعين والتاسع والأربعين، ويكون طول الجنين بين 14مم، 20 مم، ثم يبدأ طور كساء الهيكل العظمي باللحم (العضلات)، ويتم ذلك بين اليوم الخمسين والسادس والخمسين، ويكون طول الجنين بين 22مم، 31مم.

وتمثل الفترة من اليوم الأربعين إلى السادس والخمسين من عمر الجنين مرحلة التصوير بالهيئة الإنسانية ومرحلة التسوية. وتتمايز فيها كل أعضاء وأجهزة الجسم ما عدا غدد التكاثر التي يتم تكوينها من بداية الأسبوع التاسع إلى آخر فترة الحمل (266 يومًا)، ويتراوح فيها طول الجنين بين 58مم، و 500مم، وقد سماها القرآن الكريم باسم (مرحلة النشأة)، ويبدأ فيها الجنين النمو ببطء حتى بداية الأسبوع الثاني عشر، ثم يتسارع معدل النمو والتغير في الهيئة حتى نهاية الأسبوع الثاني والعشرين، وفي ذلك تقول الآية الخامسة من «سورة الحج»:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [الحج: 5].

(1) مسلم (2643).

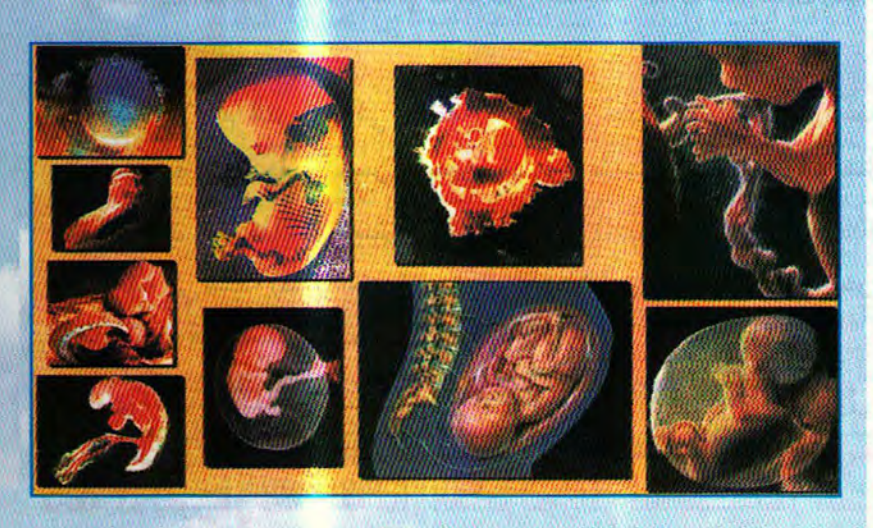
وهذه الحقائق لم تدرك إلا مع نهايات القرن الثامن عشر الميلادي، ولم تستكمل إلا مع نهايات القرن العشرين، وسبق كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بها، وبهذه الدقة العلمية المتناهية في زمن لم تتوفر فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف مما يقطع بربانية القرآن الكريم وبنبوة الرسول الخاتم الذي تلقاه، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (64) صورة حقيقية للجنين بعد ثلاثة شهور من العمر في ظلماته الثلاث.

الحديث الخامس والعشرون

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك..»



شكل (65)
صور حقيقية لعدد من مراحل الجنين البشري

25 «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك..»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب بدء الخلق حديث رقم: 2969) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وأخرجه أيضًا في (كتاب أحاديث الأنبياء حديث رقم:3085) بلفظ عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يُجمَعُ في بطن أمِّه أربعين يومًا، ثم يكونُ علقةً مثل ذلك، ثم يكون مضغةً مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلماتٍ، فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ فيسبقُ عليه الكتاب فيعملُ بعمل أهل النار فيدخل النارَ».

وبنفس اللفظ أخرجه في (كتاب القدر حديث رقم: 6105).

وكذلك في (كتاب التوحيد حديث رقم:6900).

والحديث أخرجه أيضًا الإمام مسلم في صحيحه (كتاب القدر حديث رقم: 4781) عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وذكره الإمام الترمذي في سننه (كتاب القدر حديث رقم: 2063) عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقال حديث حسن صحيح وقد روى شعبة والثورى عن الأعمش نحوه.

والحديث جاء كذلك في سنن الإمام أبي داود (كتاب السنة حديث رقم: 4085) وأورده ابن ماجه في سننه (كتاب المقدمة حديث رقم:73) عن ابن مسعود بلفظه. وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم:3441، 3738).

روى الإمام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: «إن أحدكم يُجمعُ خَلقُه في بطنِ أمِّه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه المَلَكُ فينفخ فيه الروحَ، ويؤمر بأربعِ كلماتٍ، بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيٌّ أو سعيدٌ....» . (مسلم، كتاب القدر، حديث رقم:4781).

ومعنى هذا الحديث الشريف أن المراحل الثلاث الأولى من خلق الإنسان وهي: النطفة، والعلقة، والمضغة، تكتمل خلال الأربعين يومًا الأولى من بدء عملية الإخصاب، والملاحظات العلمية الدقيقة التي تجمعت لدى العاملين في حقل علم الأجنة البشرية تؤكد ذلك.

وشكل المضغة لا صلة له بشكل الإنسان من قريب أو بعيد، ولكن تبدأ المضغة في اكتساب الشكل الإنساني بالتدريج في الأيام الخمسة التالية لتخلق المضغة (أي في الفترة من اليوم الأربعين إلى الخامس والأربعين من بعد عملية الإخصاب).

وفي اليوم الخامس والأربعين يتم تكون الأعضاء، والهيكل العظمي بصورة ظاهرة، وتستمر عملية الانقسام الخلوي والتمايز الدقيق في الخلق بعد ذلك.

وتعبير النطفة معناه العام: القليل من الماء الذي يعدل قطرة، ويقصد به في علم الأجنة أيٌّ من الخليتين التناسليتين للذكر والأنثى، ويقصد به في هذا الحديث الشريف البويضة الملقحة الناتجة عن اتحاد نطفتي الأب والأم والتي يسميها القرآن الكريم النطفة الأمشاج (أي المختلطة)، وكلمة النطفة مفردة، ولكنها تأتي في معنى الجمع أيضًا، ولذلك جاءت الصفة (أمشاج) بصيغة الجمع.

وتواصل النطفة الأمشاج نموها بالانقسام السريع إلى عدد من الخلايا الأصغر فالأصغر حتى تتكون كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم التويتة (Morula) بعد أربعة أيام من عملية الإخصاب، وفي اليوم الخامس تنشطر مكونة ما يعرف باسم الحوصلة أو الكيسة الأرومية (أو كيس الأرومة) (Blastocyst).

وفي اليوم السادس من تاريخ الإخصاب تتحرك النطفة الأمشاج المنقسمة والمتكيسة على هيئة الحوصلة الأرومية لتنغرس في جدار الرحم وطولها في حدود نصف المليمتر (أو إلى 0,68 مم) لتبدأ مرحلة التعلق بجدار الرحم وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الغرس أو الحرث (Implantation)وتستغرق أسبوعًا كاملًا حتى يتم انغراس النطفة الأمشاج عديدة الانقسامات في جدار الرحم فتنتقل من طور النطفة إلى طور العلقة.



شكل (66)
صور حقيقية توضح التشابه الشديد لمرحلة العلقة مع دودة العلق

في اليوم الخامس عشر من عمر الجنين يظهر الشريط الأولي على جانب العلقة التي بمجرد انغراسها في جدار الرحم تأخذ شكل دودة العلق تمامًا، وتسلك في طريقة تغذيتها نفس السلوك، والعلق هو الالتصاق والتعلق بشيء ما، ودودة العلق هي دودة مائية تعيش في البرك، وتعلق بغيرها من الحيوانات متغذية بامتصاص دمائها، وهو ما يفعله طور العلقة باكتمال انغراس النطفة الأمشاج النامية (المعروفة باسم الحوصلة الجرثومية) في جدار رحم الأم وذلك في الفترة من اليوم السادس إلى اليوم الرابع عشر من عمر الجنين وهي مرحلة الانغراس (التي يسميها القرآن الكريم باسم الحرث) حتى تنزرع تمامًا في جدار الرحم وتبدأ في التغذي من دم الأم كما تتغذى دودة العلق على دماء الحيوانات التي تعلق بها وتتطفل عليها.

وتستغرق هذه العملية قرابة الأسبوع حتى تلتصق الحوصلة الجرثومية تمامًا بجدار رحم الأم على هيئة مشيمة بدائية بواسطة ساق موصلة تصبح فيما بعد الحبل السري، ويكون عمر الجنين قرابة الأسبوعين، ويتراوح طول العلقة (بين 1,5مم، 3مم) ويستغرق نمو الحبل الظهري حوالي عشرة أيام (من اليوم السادس بعد الإخصاب إلى اليوم السادس عشر)، ويأخذ الجنين مظهر العلقة الكامل في

خلال الأسبوع الثالث من بدء الإخصاب (في الفترة من الخامس عشر إلى الخامس والعشرين). وتتميز العلقة بظهور شق عصبي عميق، وببداية وضوح منبت الرأس.

واستخدام حرف العطف (ثم) في الحديث النبوي الشريف يدل على انقضاء فترة زمنية بين كل من مرحلتي النطفة والعلقة، وبالفعل يصل الجنين إلى نهاية مرحلة العلقة في حوالى اليوم الرابع والعشرين إلى الخامس والعشرين من بدء عملية الإخصاب وبعد ذلك بيومين (أي في حدود اليوم السادس والعشرين من بدء الإخصاب) تتحول العلقة إلى مرحلة المضغة وذلك ببدء ظهور الفلقات الجسدية أو الكتل البدنية (Somites) التي تبدأ بفلقة واحدة ثم تتزايد إلى ما بين 40، 45 فلقة وذلك مع تمام الأسبوع الرابع إلى بداية الأسبوع السادس من بدء الإخصاب (من اليوم 26 إلى 42 من عمر الجنين). وهذه الفلقات هي التي تعطي هذا التطور شكل المضغة (أي قطع اللحم الصغيرة التي لاكتها ومضغتها الأسنان) ويستمر طور المضغة إلى نهاية الأسبوع السادس تقريبًا من بدء الحمل، ويصل طول الجنين في نهاية هذه المرحلة إلى حوالي السنتيمتر الواحد (من 3,2مم إلى 13مم).



شكل (67)

يوضح التشابه الشديد بين طور العلقة ودودة العلق وطور المضغة وقطعة اللحم الممضوغة

ومع بداية الأسبوع السابع من بدء الحمل (في حدود اليوم 43 – 49 من عمر الجنين) تبدأ مرحلة تكون العظام حين يبدأ انتشار الهيكل العظمي في الجنين وذلك بعملية التكلس التدريجي للغضاريف التي تم تكونها في مرحلة المضغة حول عدد من المنابت العضوية ومع تكون العظام يبدأ الجنين الذي يتراوح طوله بين 14مم، 20مم في تحقيق استقامة جسده، وبروز أطراف أصابعه وبروز حويصلات مخه.

ومع بداية الأسبوع الثامن تبدأ مرحلة تكون العضلات وكسوة العظام باللحم، وعندها يتراوح طول الجنين بين 2، 3 سنتيمتر (22 ملليمترًا إلى 31 ملليمترًا).

وبعد ذلك تبدأ مرحلة النشأة الآخرة من بداية الأسبوع التاسع إلى الأسبوع الثامن والثلاثين من حياة الجنين، وفي خلالها تبدأ الخواص البشرية بالظهور على الجنين بالتدريج فتتم كسوة العظام بالعضلات، وتتم تغطية العضلات بالجلد، وتبدأ كل أجزاء الجسم في التمايز بشكل واضح وتكون معدلات النمو بطيئة في أول الأمر حتى بداية الأسبوع الثاني عشر، حين يأخذ معدل نمو الجنين في التسارع الواضح حتى لحظة الميلاد ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

ومن معاني حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده أن المراحل الثلاث من النطفة إلى المضغة تستغرق حوالي ستة أسابيع أو أربعين يومًا وهو ما أكدته أحدث الدراسات في مجال علم الأجنة البشرية، وكان بعض علماء الحديث قد فهموا تلك المدة على أنها ثلاثة أضعاف ذلك (أي مائة وعشرين يومًا) لأنهم فهموا التعبير بـ (مثل ذلك) في نص الحديث على أنها تشير إلى الفترة الزمنية المحددة بأربعين يومًا لكل مرحلة من المراحل الثلاث: النطفة، العلقة، المضغة، وينفي ذلك الفهم حديث آخر لرسول الله ﷺ قال فيه: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكًا فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها». (مسلم، كتاب القدر، حديث رقم 4783، فتح الباري، حديث رقم:6105، والمعجم الكبير للطبراني، حديث رقم: 3044).



شكل (68)

صور حقيقية لمراحل الجنين البشري توضح التنامي التدريجي في حجمه

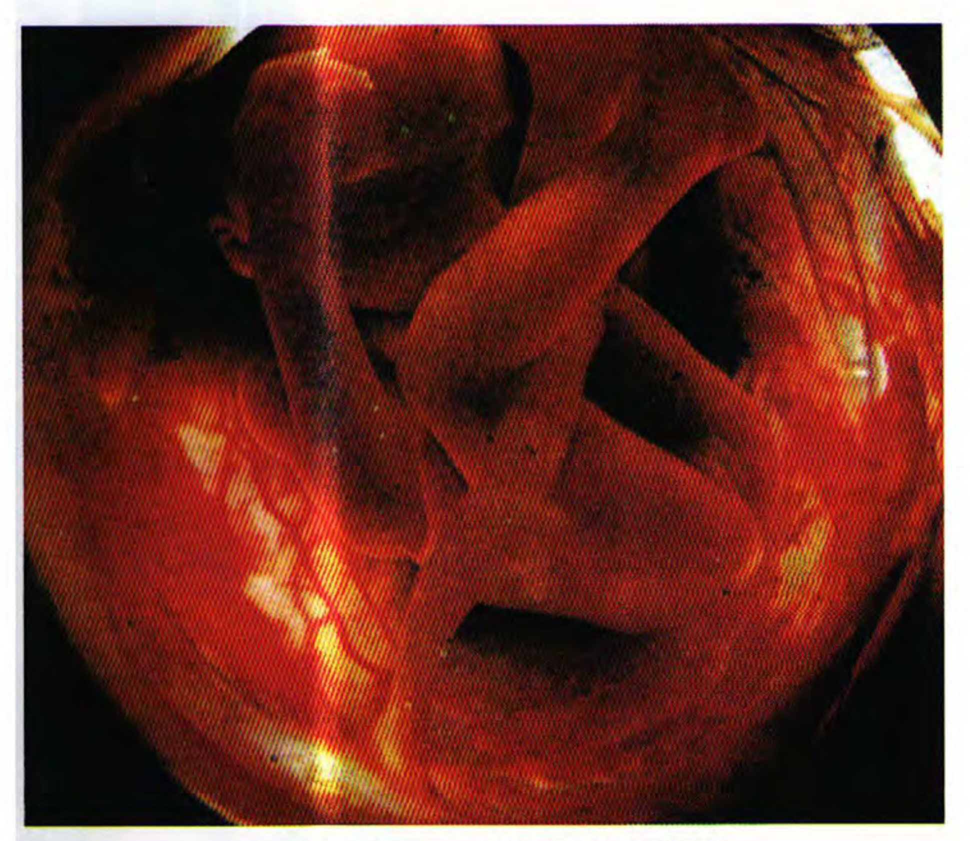
وقد ثبت بالدراسات المستفيضة في مجال علم الأجنة البشرية أن هذه المراحل لا تبدأ إلا مع نهاية مرحلة المضغة، أي مع نهاية الأسبوع السادس من بدء الحمل (أي بعد ثنتين وأربعين ليلة) وبذلك يثبت صدق إخبار رسول الله ﷺ في الحديثين المذكورين هنا، وفي كل حديث قاله.

ويبدو أن السبب في التباس الأمر على بعض شراح الحديث الأول هو سقوط التعبير بـ (في ذلك) قبل كل من لفظ علقة ومضغة عند بعض رواة الحديث، وقد جاءت الرواية كاملة عند الإمام مسلم، لتؤكد أن معنى التعبير (مثل ذلك) في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لا يمكن أن يكون مثليه في الزمن أي في أربعينيات الأيام، بل في جمع الخلق.

والسؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: مَن غير الله الخالق يمكن أن يكون قد أخبر سيدنا محمدًا ﷺ بهذه المراحل المتناهية الدقة من مراحل الجنين في الإنسان والتي تتراوح أبعادها بين الجزء من عشرة آلاف جزء من المليمتر حتى تصل إلى حوالي عشرة ملليمترات فقط، وهي أبعاد لم يكن ميسرًا للإنسان أن يقيسها في زمن لم تتوافر له أية وسيلة من وسائل التكبير أو التصوير في داخل الرحم.

وهذه المراحل الجنينية حتى لو نزلت مع السقط وهي غارقة في الدماء ما كان ممكنًا للإنسان أن يدركها، فضلًا عن رؤيتها، ووصفها، وتسميتها بأسمائها الصحيحة. ومن هنا كانت تعبيرات وصف مراحل جنين الإنسان كما جاءت فى كتاب الله، وفى سنة رسوله ﷺ من أوضح جوانب الإعجاز العلمي في هذين المصدرين الكريمين من مصادر الإسلام، ومن أعظم الشهادات على أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ وحفظه بعهده الكريم في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية إلى أن يرث الله – تعالى – الأرض ومن عليها حتى يبقى القرآن الكريم حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، ويبقى

وصف مراحل الجنين للإنسان في أحاديث رسول الله ﷺ شاهدًا أيضًا على أن الرسول الخاتم، والنبي الخاتم ﷺ الذي تلقَّى هذا القرآن العظيم (ومثله معه) كان دومًا موصولًا بالوحي، ومُعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض؛ فصلاة الله وسلامة عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (69) يوضح الجنين البشري في شهره الخامس.

الحديث السادس والعشرون

موعد نفخ الروح في الجنين



شكل (70)

26 موعد نفخ الروح في الجنين

■ «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد».

(أخرجه الأئمة: مسلم والبخاري، وأبو داود، والترمذي ، وابن ماجه، وأحمد، وعبد الرزاق، وأبو نعيم).

شرح الحديث

هذا الحديث النبوي الشريف جاء تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: 12-14].

أولاً: في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾.

بسبب استطالة الزمن بين الخلق من سلالة من طين، والخلق من نطفة في قرار مكين استخدم القرآن الكريم حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي.

و(النطفة) في اللغة هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة أو بضع قطرات وجمعها (نطف) و(نطاف)، وقد استخدمها القرآن الكريم للتعبير عن خلية التكاثر (Gemete) سواء كانت مؤنثة (Ovum) أو مذكرة (Sperm) وذلك في اثنتي عشرة آية قرآنية كريمة هي: (النحل: 4)؛ (الكهف: 37)؛ (الحج: 5) (المؤمنون: 13، 14) ؛ (فاطر: 11) ؛ (يس: 77) ؛ (غافر: 67) ؛ (النجم: 46)؛ (القيامة: 37)؛ (الإنسان: 2)؛ (عبس: 19).

وقد سمى القرآن الكريم اتحاد النطفتين التكاثريتين الذكرية والأنثوية باسم «النطفة الأمشاج» أي المختلطة (Zygote) في الآية الثانية من «سورة الإنسان» وهو أول تعبير علمي دقيق عن تخلق الجنين باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، وانطلاقًا من ذلك جاء قول رسول الله ﷺ حين سئل: مم يخلق الإنسان؟

فأجاب: «من كلٍّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة»[1]. وهي حقيقة لم يتوصل العلم المكتسب إلى معرفتها إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي (1775م/ 1186هـ).

وبالتقاء النطفتين الذكرية والأنثوية تتكون النطفة الأمشاج (Zygote) التي يتكامل فيها عدد الصبغيات المحدد للنوع البشري (46 صبغيًا في 23 زوجًا، منها 22 تحمل الصفات الجسدية، وزوج يحمل الصفات الجنسية وهما (X+X) في الأنثى، (X+Y) في الذكر.

ويتم إخصاب النطفة المؤنثة (البييضة) – في الغالب – بنطفة ذكرية واحدة (أي بحيوان منوي واحد) وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد»[2].

وبعد إتمام عملية الإخصاب تبدأ النطفة الأمشاج بالانقسام السريع إلى خلايا أصغر فأصغر، حتى تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا الأرومية تعرف باسم «التويتة» (Morula)، ثم تتمايز إلى طبقتين: خارجية وداخلية مكونة مايعرف باسم الكيسة الأرومية (Blastocyst) التي تبدأ في الانغراس بجدار الرحم مع اليوم السادس من تاريخ الإخصاب وحتى اليوم الرابع عشر، وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الغرس أو الحرث (Implantation) وتستغرق أسبوعًا كاملًا حتى يتم انغراس النطفة الأمشاج عديدة الانقسامات في جدار الرحم فتنقل من طور النطفة إلى طور العلقة.

وطول النطفة يتراوح بين 0,1مم إلى 0,68مم، ووصفُ كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لهذا الطور الدقيق جدًّا في زمن لم يكن متوافرًا فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف، ووصفه بأنه ناتج عن إخصاب النطفتين المذكرة والمؤنثة يعتبر سبقًا علميًا لم يتوصل إليه العلم المكتسب إلا في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي أي بعد تنزل القرآن الكريم بأكثر من أحد عشر قرنًا.

وبما أن الآيات الثلاث (12–14) من سورة «المؤمنون» التي نحن بصددها تتحدث عن الأطوار المتتالية في تكون الجنين الإنساني؛ فمن المنطقي أن يكون

(1) أحمد (4424).
(2) مسلم (1438)، وأحمد (11369).

التعبير (نطفة في قرار مكين) يقصد به النطفة الأمشاج في داخل الرحم الذي جعله الله ـ تعالى ـ مستقرًا لها يؤويها ويغذيها على الرغم من أن طبيعة جسم الإنسان أن يطرد أي جسم غريب يزرع فيه ، وجعله مكينًا بوضعه في وسط جسم الأنثى، وفي مركز من الحوض العظمي، وبإحاطته بالعضلات والأربطة والأغشية التي تثبته بقوة في جسم المرأة، وتثبت الجنين به على مدى تسعة شهور كاملة أو حول ذلك، وقد وهب الله ـ تعالى ـ الرحم القدرة على الاستجابة لنمو الجنين بالتمدد المستمر مع زيادة الجنين في الحجم، وأحاط هذا المخلوق الناشئ بكل من السائل الأمينوسي، والغشاء الأمينوسي المندمج بالمشيمة، وعضلات الرحم السميكة ثم جدار البطن؛ وبذلك جعله ربنا – تبارك وتعالى – قرارًا مكينًا للنطفة الأمشاج حتى تنمو إلى الجنين الكامل. وهذا إجماع المفسرين والأطباء المختصين إلى عصرنا الراهن استنادًا إلى قول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: 5].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: 20-23].

وقد اقترح الأستاذ الدكتور كريم حسنين في كتابه المعنون «دورة حياة الإنسان بين العلم والقرآن» أن يكون المقصود بالقرار المكين هو غدتي التناسل في الإنسان (Gonads) ولا أرى خلافًا يستدعي الجدل في ذلك؛ لأنه إذا كان المقصود بالنطفة في هذه الآية الكريمة النطفة الأمشاج – كما يدل على ذلك سياق الآيات – فقرارها المكين هو الرحم بلا جدال، وإذا كان المقصود هو النطفة المجردة بمعنى خلية التكاثر الذكرية أو الأنثوية فقرارها المكين هو غدد التناسل في كل من الذكر والأنثى.

ويبقى وصف القرآن الكريم للمكانين بالقرار المكين سبقًا علميًا لم يصل إليه العلم المكتسب إلا بعد أكثر من عشرة قرون كاملة.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ...﴾:

لطول الفترة الزمنية من لحظة الإخصاب إلى تمام تعلق الكيسة الأرومية (النطفة الأمشاج المنقسمة إلى أقسام كثيرة) والتي تصل إلى الأسبوعين (من اليوم الأول

إلى الرابع عشر) استخدم القرآن الكريم حرف العطف (ثم) الذي يدل على الترتيب مع التراخي.

ففي خلال أسبوعين من بدء الإخصاب تتم عملية تعلق الكيسة الأرومية بجدار الرحم بواسطة المشيمة البدائية التي تتحول فيما بعد إلى الحبل السري. وباطراد النمو، وتعدد الخلايا، وبدء تكون الأجهزة (وفي مقدمتها الجهاز العصبي ممثلاً بالحبل الظهري، والجهاز الدوري الابتدائي ممثلًا بأنابيب القلب وحزمة من الأوردة والشرايين) يستطيل الجنين في مطلع الأسبوع الثالث (من اليوم الحادي والعشرين إلى اليوم الخامس والعشرين من عمره) ليأخذ شكل دودة العلق (Leech) في هيئتها، وفي تعلقها بجدار الرحم (تمامًا كما تتعلق الدودة بجسم العائل الذي تتطفل عليه)، وفي تغذيته على دم الأم (تمامًا كما تتغذى دودة العلق على دم الحيوان العائل الذي تعلق به في مياه البرك حيث تعيش). وعلى ذلك فإن الوصف القرآني لهذا الطور من أطوار جنين الإنسان بتعبير (العلقة) في زمن لم يكن متوافرًا فيه أية وسيلة من وسائل التكبير أو الكشف لطور يتراوح طوله بين 0,7مم و 3,5مم يعتبر أمرًا معجزًا حقًا.

ثالثًا: في قوله تعالى: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ...﴾ [المؤمنون: 14].

هذه مراحل ثلاث في تطور الجنين البشري ، ميزها القرآن الكريم وربطها مع بعضها البعض بحرف العطف (ف) الذي يدل على الترتيب مع العقيب والاشتراك؛ وذلك لتتابعها المرحلة تلو الأخرى في تعاقب سريع على النحو التالي:

1- **تحول العلقة إلى مضغة:** يستمر طور العلقة من نهاية الأسبوع الثاني إلى ما قبل نهاية الأسبوع الرابع من عمر الجنين (أي من اليوم الخامس عشر إلى الخامس والعشرين) وفي منتصف الأسبوع الرابع من عمر الجنين (أي في حدود اليوم الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين من بدء الإخصاب) تنتقل العلقة إلى طور جديد سماه القرآن الكريم باسم «المضغة» وذلك ببدء ظهور عدد من الفلقات عليها تعرف باسم الكتل البدنية (Somites) والتي تبدأ بفلقة واحدة ثم تتزايد في العدد حتى تصل إلى مابين 40، 45 فلقة ، وذلك مع تمام الأسبوع الرابع وبدايات

الأسبوع الخامس من عمر الجنين (أي في اليوم الثامن والعشرين إلى الثلاثين من الإخصاب).

ونظرًا إلى تعدد تلك الكتل البدنية فإن الجنين يبدو كأنه قطعة صغيرة من اللحم الممضوغ بقيت عليها طبعات أسنان الماضغ واضحة كما تبقى مطبوعة على قطعة من العلك الممضوغ، ومع استمرار نمو المضغة تبدو فلقاتها في تغير مستمر في أشكالها وأحجامها ومواضعها ، ويصحب ذلك التغير شيء من الانتفاخ والتغضن والتثني تمامًا كما يحدث مع قطعة العلك الممضوغة مع تكرار مضغها. ومن هنا كان الإعجاز القرآني في تسمية تلك المرحلة الدقيقة (والتي لا يتعدى طولها 1سم في نهاية تلك المرحلة) باسم «المضغة»، والمضغة - لغة - هي القطعة من اللحم قدر ما يمضغ، أو التي مضغت ولاكتها الأسنان تاركة طبعاتها عليها.

2- **تحول المضغة إلى العظام**: يستمر طور المضغة من نهاية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين (أي من حوالي اليوم السادس والعشرين إلى اليوم الثاني والأربعين من تاريخ الإخصاب) ثم ينتقل إلى طور آخر سماه القرآن الكريم باسم طور «العظام» ويتم في خلال الأسبوع السابع من عمر الجنين (في حدود الأيام 43 إلى 49 من تاريخ الإخصاب)، وفي هذه الفترة يبدأ انتشار الهيكل العظمي للجنين وذلك بالتكلس التدريجي للغضاريف التي تم تكونها في مرحلة المضغة حول عدد من المنابت العضوية ، وبتكون العظام يبدأ الجنين (الذي يتراوح طوله بين 14مم ، 20مم) في تحقيق استقامة جذعه، وبروز أطراف أصابعه، وظهور حويصلات مخه، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ : «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة: بعث الله إليها ملكا فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وعظامها ، ولحمها ، وجلدها»[1].

3- **كسوة العظام باللحم**: بعد اكتمال تحول المضغة إلى عظام في نهاية الأسبوع السابع من عمر الجنين تبدأ عملية كسوة العظام باللحم (العضلات والجلد) في خلال الأسبوع الثامن (من اليوم الخمسين إلى السادس والخمسين بعد الإخصاب) ، ويكون طول الجنين في هذه المرحلة بين 22مم ، و31مم. وتنشأ خلايا

---

(1) مسلم (2645) .



العضلات عادة من الطبقة المتوسطة للمضغة وتخرج من بين فلقاتها ؛ ولذلك فإنها تنشأ مجزأة ، وتنتقل بعيدًا عن منطقة الفلقات ثم تنمو وتتصل مع بعضها البعض مكونة أعدادًا من الخيوط والألياف والأنابيب العضلية التي تنتظم بالتدريج في حزم مميزة تتصل بغشاء العظام مكونة النسيج العضلي الذي يكسوها، والذي يتميز إلى كل من الجهاز العضلي للظهر، والجهاز العضلي للبطن والصدر والرأس والأطراف ويزود كلاً منها بفرع من العصب الشوكي.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14].

بدءًا من الأسبوع التاسع من عمر الجنين تأخذ صفاته الجسدية والشخصية في التمايز بتمايز كل أعضاء وأجهزة الجسم التي تنشط للعمل مع بعضها البعض في تناسق عجيب، وقد كسيت العظام باللحم (العضلات) والجلد، ويطلق القرآن الكريم على هذه المرحلة اسم مرحلة «النشأة» وتمتد من اليوم السابع والخمسين إلى نهاية فترة الحمل في الأسبوع الثامن والثلاثين حول اليوم السادس والستين بعد المائتين، ويتراوح طول الجنين فيها بين 33مم و500مم .

وفي هذه المرحلة يبدأ النمو بطيئًا ويستمر بهذا البطء حتى بداية الأسبوع الثاني عشر، ثم تتسارع معدلات النمو في الحجم والتغير في الشكل فتتحرك العينان إلى مقدمة الوجه، وتنتقل الأذنان من الرقبة إلى الرأس، ويستطيل الطرفان السفليان بشكل ملحوظ، ولتطاول المدة بين كسوة العظام باللحم وبين إنشاء الجنين (خلقًا آخر) استخدم القرآن الكريم حرف العطف (ثم) الذي يفيد الترتيب مع التراخي.

هذه المراحل المتتالية في خلق جنين الإنسان لا يعرف علم الأجنة في قمة من قممه اليوم لأي منها اسمًا محددًا، ولا وصفًا محددًا، ولا يميزها إلا بأيام العمر. وسبق كل من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف بوصفها وتسميتها، في مراحلها المتتالية بهذه الدقة العلمية المذهلة، وبهذا الشمول والكمال، في زمن لم يكن متوافرًا فيه أي من وسائل التكبير أو الكشف المتوافرة لنا اليوم لمما يقطع بأن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية. وتعهد – سبحانه وتعالى – بذلك

إلى أن يرث الأرض ومن عليها؛ حتى يكون حجة على الناس كافة إلى يوم الدين، كما يشهد ذلك للنبي الخاتم والرسول الخاتم الذي تلقى القرآن الكريم بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان دومًا موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قبل خالق السماوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



﴿... فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ...﴾

شكل (71)

صور حقيقية للجنين البشري في آخر مراحل تكونه (مرحلة الحميل)

الحديث السابع والعشرون

تحديد صفات الجنين وجنسه بأمر من الله تعالى



شكل (72)
صورة حقيقية للجنين البشري (الحميل) في مراحله المتأخرة

27 تحديد صفات الجنين وجنسه بأمر من الله تعالى

■ «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة: بعث الله ملكًا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال: يارب ذكر أو أنثى؟ فيقضي ربك ماشاء ويكتب الملك». (أخرجه مسلم ح 2645).

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف يفسر قوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

[الشورى: 49، 50]

ولا يدرك كثير من الناس العمليات المعقدة التي تمر بها عملية الإنجاب والمخاطر العديدة التي تمر بها تلك العملية التي لولا رحمة الله - تعالى - ورعايته ما أمكنها أن تتم أبدًا. ومن هنا يصفها هذا النص القرآني الكريم بأنها هبة من الله – سبحانه وتعالى – ومن هنا أيضًا كان واجب كل والدين أن يسجدا لله شكرًا على خروج مولودهما سليمًا معافى من هذه الرحلة الطويلة الشاقة، والمحفوفة بالمخاطر والتي تبدأ بتخلق النطف.

1- تخلق النطف (Gametogenesis):

تتخلق النطف بعملية انقسام خاصة للخلايا تعرف باسم عملية الانقسام الانتصافي (Meiosis) تتم في داخل الغدد التناسلية لكل من الرجل والمرأة.

وتتخلق النطف الذكرية (Spermatogenesis) في داخل الغدتين التناسليتين للرجل، والتي تتكون كل واحدة منهما من حوالي أربعمائة من الفصوص، يحوي كل واحد منها ثلاثة من الأنابيب المنوية الدقيقة، يبلغ طول كل واحدة منها حوالي نصف متر، وهذه الأنابيب متعرجة وملتفة حول ذاتها بطول يتعدى نصف كيلو متر في المتوسط (400 فص × 3 أنابيب × ½متر = 600 متر).

وهذه الأنابيب في حيز لا يزيد على بضعة سنتيمترات مكعبة لتكون مايعرف باسم البربخ (Epididymis) الذي يقع في أعلى الخصية من الخلف، والذي تختزن فيه النطف الذكرية بمئات الملايين حتى تمام النضج.

وقبل البلوغ تمتلئ الأنابيب المنوية بالخلايا العادية (كاملة عدد الصبغيات) والمعروفة باسم الخلايا الضعفانية (Diploid Cells) والتي تنقسم بنظام الانقسام الفتيلي (Mitosis) لتعطي أمثالها.

وعند البلوغ (من عمر 11 – 13سنة) تبدأ هذه الخلايا في التخصص فتأخذ في الانقسام انقسامًا انتصافيًّا (Meiosis) لتعطي خلايا فردانية (Haploid Cells) بها نصف عدد الصبغيات المميزة للخلية العادية (الخلية الجسدية) وذلك من أجل تخليق خلايا النطف الذكرية الأولية (The Primary Spermatocytes) والتي تنقسم بدورها لتكون خلايا النطف الذكرية الثانوية (The Secondary Spermatocytes) والتي تنقسم ثانية لتكون أربعًا من أرومات النطف الذكرية الناضجة (Spermatids) التي تفقد جزءًا من محتواها من السائل الخلوي (السيتوبلازم) لتكون ذيلاً طويلاً يساعدها على الحركة لتتحول إلى النطف الذكرية (Sperms) ونظرًا لقلة محتواها الغذائي فإن هذه النطف الذكرية لا تستطيع العيش لأكثر من (72) ساعة، إلا إذا تم تجميدها فيمكن الاحتفاظ بها خارج الجسم لعدة سنوات.ولابد للرجل من إخراج مائة مليون إلى ثلاثمائة مليون نطفة (حيوان منوي أو حيمن) في الدفقة الواحدة لكي يتمكن من إتمام عملية الإخصاب. وإنتاج النطف الذكرية يستمر طيلة حياة الرجل، والنطف إذا لم تنطلق إلى خارج الجسم فإنها تموت وتتحلل وتمتص بواسطة الأنسجة المحيطة. وعلى الرغم من ذلك فإن أي توقف في هذه العملية المعقدة يُوقف عملية الإنجاب.

أما نطف الأنثى فتتخلق كلها (Oogenesis) وهي في بطن أمها، ويبلغ عددها قرابة مليوني نطفة، ويتناقص هذا العدد عند البلوغ إلى مابين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف وتختزن في كل من المبيضين تحت غطاء خاص.

وتبدأ الخلايا البييضية الأولية (The Primary Oocytes) عند البلوغ بالانقسام الانتصافي الأول ولكن عند الطور الانتهائي الأول تنقسم الخلية إلى نصفين غير متساويين، يعرف الجزء الأصغر منهما باسم الجسم القطبي الأولي (The Primary Polar Body)، ويعرف الجزء الأكبر باسم الخلية البييضية الثانوية (The Secondary Oocyte).

وتعاود الخلية البييضية الثانوية الانقسام الانتصافي ، وفي هذه المرحلة التي تعرف باسم الانقسام الانتصافي الثاني (Meiosis II) تنقسم الخلية مرة أخرى إلى جسم قطبي ثانوي صغير وإلى أرومة البييضة (Ootid)، وتتلاشى جميع الأجسام القطبية تمامًا.

وتبدأ عملية إنتاج البييضات الناضجة أو عملية التبويض (Ovulation) بتحرك الأرومة البييضية إلى سطح المبيض وهي محاطة بجراب غشائي دقيق (Follicle)، ثم ينفجر هذا الغشاء، وتنطلق منه هذه الخلية إلى قناة المبيض (Oviduct) متحركة في اتجاه الرحم. ويتوقف إطلاق خلايا بييضية أخرى بإفراز أعداد من الهرمونات حتى تخصب هذه البييضة وتستمر في تكوين الجنين أو تطرد إلى خارج الجسم في بحر من الدم أثناء الدورة الشهرية للأنثى. وتنتج الأنثى في حياتها (300 – 500)بييضة تصل آحاد منها إلى مرحلة الإخصاب، ويصل الأقل من ذلك إلى مرحلة الإنجاب، وأي خلل في طريق هذه الرحلة الطويلة قد يعيق عملية الإنجاب.

2- تزاوج النطف أو عملية الإخصاب والحمل (Fertilization and Pregnancy):

سبق أن أشرنا إلى أن أقل عدد من النطف الذكرية قادر على إخصاب البييضة الواحدة هو مائة مليون حيمن في الدفقة الواحدة. وهذه الحيامن لابد وأن تكون صحيحة وسليمة ونشطة حتى يتمكن أحدها من الوصول إلى البييضة وإخصابها. وهذه البييضة لابد وأن تكون ناضجة وسليمة وصحيحة حتى يمكن إخصابها؛ وذلك لأن بعض النساء غير قادرات على الحمل لتعذر عملية الإباضة (Ovulation) لديهن، أو لعدم انتظام تلك العملية أو عدم إتمامها في الوقت المناسب، وفي هذه الحالات يلجأ بعض الأطباء إلى النصح بتناول عدد من الهرمونات الخاصة كأدوية للإخصاب تعين على استحثاث عملية الإباضة وتنظيمها. ولكن استخدام هذه الهرمونات قد يؤدي إلى انغراس أكثر من جنين في جدار الرحم مما يعيق تمام نمو أي منها.

كذلك قد تستخدم هرمونات أخرى مضادة في عملية تنظيم النسل، وهذه أيضًا قد يكون لها من الأضرار مايعيق الحمل في المستقبل.

وعادة ماتفرز المرأة بييضة واحدة في منتصف دورتها الشهرية، وإن كانت هذه الدورة غير منتظمة عند عدد من النساء لسبب أو آخر. ولكن عندما تفرز البييضة فإنها تدفع إلى قناة المبيض متحركة في اتجاه الرحم، فإذا تواجدت الحيامن في هذه اللحظة فإن أحدها فقط قد يتمكن من اختراق جدار البييضة في محاولة لإخصابها. وبنجاح هذه العملية تتكون النطفة الأمشاج أي المختلطة والتي تعرف باسم اللقيحة (Zygote) والتي يتكامل فيها عدد الصبغيات إلى العدد المحدد لنوع الإنسان (46 صبغيًا).

وبتحرك النطفة الأمشاج عبر قناة المبيض في اتجاه الرحم فإنها تأخذ في الانقسام الفتيلي (Mitosis Division) إلى خلايا أصغر فأصغر بعملية تسمى عملية الانفلاق (Cleavage) حتى تتحول إلى كرة مكدسة بالخلايا الصغيرة تشبه حبة التوت الصغيرة ولذلك تعرف باسم التويتة (Morula)، ثم تتجوف التويتة لتكون الأريمة (Blastula) التي تنزرع في بطانة جدار الرحم مكونة مرحلة تعرف باسم مرحلة المعيدة أي: المعدة الصغيرة (Gastrula Stage)، ويسميها القرآن الكريم باسم مرحلة العلقة (Leech-Like Stage) وهي تسمية أدق، ثم تنمو العلقة (من 15 إلى 25 يومًا) إلى المضغة التي تبقى (من 26 إلى 42 يومًا)، ثم مرحلة تخلق العظام وكسوتها باللحم (العضلات والجلد) (من 43 إلى 56 يومًا)، ثم إنشاء الجنين خلقًا آخر (من 57 إلى 266يومًا) ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

وخلال هذه المراحل جميعًا يكون الجنين محاطًا بغشاء مليء بالسوائل المائية يعرف باسم غشاء السلي (Amnion) الذي يحفظه من الصدمات ويبقيه رطبًا، وهناك غشاءان آخران يحيطان بغشاء السليِّ هما: الغشاء المشيمي (Chorion)، ثم الغشاء الساقط (Allantois)، وهذان الغشاءان الأخيران يلتحمان مع بطانة جدار الرحم ليكونا المشيمة (Placenta) التي تمد الجنين بحاجاته الأيضية، وتفرز أعدادًا من الهرمونات التي توقف عملية الإباضة طوال فترة الحمل، كما توقف نزيف الدورة الشهرية، ولكي يتم نمو الجنين لابد له من التغذية المستمرة والتي تزوده بها أمه عن طريق المشيمة ذلك الجهاز العجيب الذي ينظم تبادل التغذية

والدم والأكسجين، وكلٍّ من ثاني أكسيد الكربون وغيره من المخرجات بين الجنين وأمه عن طريق دورتها الدموية.

ومع تغذية الجنين يتم نمو وانقسام خلاياه وتخصصها إلى مختلف الخلايا المكونة لأنسجته المتخصصة (الخلايا العصبية ، والعضلية ، والعظمية، والجلدية، وخلايا الدم واللمف وغيرها).

وأي خلل في هذه الرحلة الطويلة قد يعيق الإنجاب أو يشوهه.

3- جنس الجنين:

على الرغم من أن الخلايا التناسلية متناهية في ضآلة الحجم فإنها تمثل ينبوع الحياة، ومصدر تنوعها الذي يستمر بها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد: من أبوينا آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ إلى أن يرث الله ـ تعالى ـ الأرض ومن عليها.

وفي الإنسان تحتوي الخلية الجسدية على (46) صبغيًا مرتبة في (23) زوجًا تتشابه في الشكل وتختلف في التركيب، وفيما يحمله كل صبغي من الموروثات. وهذا العدد ثابت في خلايا كل من الذكر والأنثى، وإن اختلفا في الصبغيات المحددة للجنس، فالخلية الجسدية للذكر تحمل (44) صبغيًا جسديًا بالإضافة إلى صبغيين لتحديد الجنس غير متشابهين؛ لأن أحدهما يحمل شارة التذكير (Y) والآخر يحمل شارة التأنيث (X)، وأثناء عملية الانقسام الانتصافي من أجل تكوين النطف ينتج حيمن يحمل شارة الذكورة وآخر يحمل شارة الأنوثة.

وعلى العكس من ذلك فإن الصبغيين المحددين للجنس في الخلية الجسدية للأنثى متشابهان، وكلاهما يحمل شارة الأنوثة (X) فإذا انقسمت الخلية الجسدية للأنثى انقسامًا انتصافيًا لتكوين البييضات فإنها تكون متشابهة في إشارتها الجنسية (X)، (X).

وعلى ذلك فإذا كان الحيمن الذي يخصب البييضة حاملاً للشارة المذكرة (Y) جاء الجنين ذكرًا بإذن الله الخالق – سبحانه وتعالى – وإذا كان حاملاً للشارة المؤنثة (X) جاء الجنين أنثى بإذن الله تعالى.

ولذلك يقول علماء الوراثة بأن جنس الجنين (ذكرًا أو أنثى) يتحدد في اللحظة الأولى التي يلتقي فيها الحيمن بالبييضة في النطفة الأمشاج، ولكن خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ يقول في حديثه الصحيح الذي رواه حذيفة بن أسيد: «إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة، بعث الله ملكًا فصورها، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها، ثم قال يارب، ذكر أو أنثى؟ فيقضي ربك ما يشاء، ويكتب الملك». وكلام علماء الوراثة ينطبق على مرحلة الصبغيات، وهي مرحلة غير مشاهدة ؛ لأن الشيفرة الوراثية للإنسان المحمولة على الصبغيات أمر شديد الضآلة، وبالغ التعقيد، فهي تشغل حيزًا في نواة الخلية لا يزيد على واحد من نصف مليون من المليمتر المكعب، ولكنها إذا فردت يزيد طولها على المترين، وهذان المتران يضمان 18,6 بليون قاعدة كيميائية من السكر والفوسفور والقواعد النيتروجينية التي لو اختل وضع ذرة واحدة في إحدى هذه القواعد عن مكانها المحدد لها فإمَّا أن يشوه هذا المخلوق أو لا يكون. أما على مستوى الأنسجة فإنه لا يمكن تمييز جنس الجنين قبل بداية الأسبوع السابع من عمره حين تبدأ غدده التناسلية في التمايز، كما حدد المصطفى ﷺ تمامًا، ولو نزل سقطًا وتم تشريحه تشريحًا كاملاً؛ وذلك لأن الأعضاء التناسلية الظاهرة وإن بدأت في التخلق مع نهاية الأسبوع السادس من عمر الجنين ـ إلا أنه يصعب التمييز بين الذكر والأنثى إلا مع بداية الشهر الرابع من بدء عملية الإخصاب. وقد لا يتطابق التكوين الظاهري للأعضاء التناسلية مع حقيقة الغدد التناسلية، هذا بالإضافة إلى أن الأعضاء التناسلية الخارجية عن الجسم إنما تنشأ من نتوءات جلدية، ولا يتم تخلق الجلد إلا بين الأسبوعين الثامن والثاني عشر من عمر الجنين والغدد التناسلية تنمو من الحدبة التناسلية بين العمود الفقري والأضلاع (أي: بين الصلب والترائب) ثم تنزل تدريجيًّا إلى الحوض ابتداءً من الأسبوع العاشر إلى الشهر السابع من عمر الجنين، ولا تصل الخصيتان إلى كيس الصفن خارج الجسم إلا في الشهر التاسع.

وعلى الرغم من ذلك يمكن معرفة جنس الجنين بتحليل عينة من السائل الأمينوسي (الرهل) المحيط به والذي تتناثر فيه بعض خلاياه بفحص الصبغيات في تلك الخلايا وذلك ابتداءً من الأسبوع الخامس عشر من عمره كما يمكن معرفة ذلك من الموجات فوق الصوتية بعد الشهر الرابع من عمره. من ذلك كله يتضح

أن الذي يهب الإناث لمن يشاء ويهب الذكور لمن يشاء هو الله – الخالق، البارئ، المصور – ولا أحد سواه.

وأجمع المفسرون على تفسير قوله تعالى : ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ﴾ بمعنى: أو يعطي لمن يشاء الزوجين: الذكر والأنثى، على اعتبار أن معنى يزوجهم يجعلهم، ولكن ما المانع من اعتبار يزوجهم ذكرانًا وإناثًا بمعنى يزوج الإناث منهم ذكرانا ويزوج الذكران منهم إناثًا؟ وذلك انطلاقًا من حديث رسول الله ﷺ الذي يقول فيه: «ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة». (أخرجه أئمة الحديث الستة).

ومعنى هذا الحديث الشريف أن الله ـ تعالى ـ الذي أحصى نفوس بني آدم من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة مدون عنده كل فرد بشفرته الوراثية وأبويه فهو – تعالى – الذي يزوج النفوس، ويعلم أيًّا من هذه النفوس يتزوج من، وفي أي زمان ومكان، وماذا سيكون نسلهم أو لا يكون أصلاً.

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ أن الله – تعالى – يجعل من يشاء بلا ولد؛ ذكرًا كان أو أنثى. يقال: رجل عقيم ، وجمعه عقماء وعقام، وامرأة عقيم وجمعها عقائم وعُقْمٌ.

ويقول ربنا – تبارك وتعالى–: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

وإذا كان الأمر كذلك لماذا جعل الله – تعالى – بعض خلقه عقماء وعقم؟ وللإجابة على ذلك أقول: حتى تستبين فضل نعمة الذرية على من لا ذرية له، فيحمد صاحب الذرية ذلك لله، ويصبر من لا ذرية له فينال بذلك أجري الدنيا والآخرة.

ويحمد صاحب الذرية المعافاة الصحيحة السليمة الصالحة إذا رأى عند غيره ذرية مخالفة، كما يحمد من لا ذرية له. فمن المعروف أن تفاعل الشيفرتين الوراثيتين لكل من الأب والأم قد ينتج عنه العديد من الطفرات الوراثية المسببة للعديد من الأمراض الخلقية الناتجة عن التلف في مادة الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية، أو في حيود عدد الصبغيات بالزيادة أو بالنقصان مما يؤدي إلى أمراض مستعصية مثل الأورام السرطانية،

والتخلف العقلي، والخرف والعته، والشيخوخة المبكرة والتشوهات الخلقية والعصبية ، ولذلك أكدت الآيتان الكريمتان اللتان نحن بصددهما حقيقة عدل الله - تعالى - بتمييز عباده إلى أربعة أقسام: منهم من يعطيه الإناث فقط، ومنهم من يهبه الذكور فقط، ومنهم من يعطيه الذكور والإناث معًا، أو يزوج كلاً منهم بما يناسبه، ومنهم من يجعله عقيمًا؛ لأنه - تعالى - عليم بما يناسب كل فرد من عباده، قدير على تحقيق هذا التفاوت بين بني آدم، بعلمه وحكمته وإرادته والذين يؤمنون بالله - تعالى - منهم يدركون أن قدر الله هو الخير كله، وهو العدل كله، ولو اطلع الواحد منهم على الغيب ما اختار غير ما قدر له الله العليم القدير.

هذه الحقائق لم تكن معروفة لأحد من الناس في زمن الوحي، ولم يكن ممكنًا لأحد من الخلق أن يصل إلى ذلك العلم بوسائط العلوم المكتسبة أبدًا، ولذلك فإن سبق القرآن الكريم بذكرها بهذا الوضوح والجلاء لمما يقطع لكل ذي بصيرة بأن هذا الكتاب المجيد لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية - ولم يقطعه لرسالة أخرى أبدًا - حفظه في نفس لغة وحيه - اللغة العربية - وحفظه كلمة كلمة وحرفًا حرفًا على مدى زاد على الأربعة عشر قرنًا، وتعهد ربنا - تبارك وتعالى - بهذا الحفظ تعهدًا مطلقًا إلى ما شاء من الزمن حتى يبقى القرآن الكريم حجة على جميع الناس إلى قيام الساعة، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خير الأنام سيدنا وسيد الأولين والآخرين، خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحديث الثامن والعشرون

تحديد جنس الوليد بإذن من اللّه تعالى



شكل (73) باختلاط الصبغيات بين الحيمن والبييضة يتم تحديد جنس الجنين بتقدير من اللّه - تعالى -

28 تحديـد جنـس الوليـد بإذن من الله- تعالى -

■ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ماء الرجل أبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا، فعلا مني الرجل مني المرأة أَذْكَرَا بإذن الله، وإذا علا مني المرأة مني الرجل آنَثَا بإذن الله». (أخرجه الإمام مسلم ح 315).

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف يفسر قول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45، 46].

وفي كل من الآيتين الكريمتين والحديث النبوي الشريف سبق علمي بالإشارة إلى خلايا التكاثر قبل أن تصل إليها العلوم المكتسبة بأكثر من ثلاثة عشر قرنًا.

■ إثبات حقيقة خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى.

■ التأكيد على حتمية البعث، وعلى حقيقة أن الله – تعالى – قد تعهد بالنشأة الأخرى.

وكل قضية من هذه القضايا تحتاج إلى معالجة خاصة بها، ولذلك فسوف أقصر الحديث هنا على النقطة السابقة والتي يقول فيها ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾.

من الدلالات العلمية للآيتين الكريمتين:

أولاً: سبق كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى خلايا التكاثر:

في الوقت الذي ساد الاعتقاد بأن الجنين يتولد من دم الحيض، وأنه يخلق خلقًا كاملاً من هذا الدم دفعة واحدة على هيئة متناهية الضآلة في الحجم ثم يزداد في الحجم بالتدريج حتى يصل إلى الحجم الكامل للجنين كما نادى بذلك أرسطو ومدرسته ومن تبعهم من أبناء الحضارات التالية لهم ... في هذا الوقت نزل القرآن الكريم مؤكدًا على حقيقة الخلايا التناسلية، وعلى دورها في عملية التكاثر، وفي تشكيل جنس الجنين بقدرة الله ومشيئته، ومؤكدًا كذلك على أن خلق الإنسان يتم في عدد من الأطوار المتتابعة، وفي ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

■ ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: 45، 46].

■ ويقول – عز من قائل –: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾. [القيامة: 36–39]

■ ويقول – تبارك اسمه – : ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. [الإنسان: 2].

■ ويقول – وقوله الحق –: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾. [عبس: 17 – 22].

■ ويقول – جل شأنه –: ﴿... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾. [الزمر: 6].

■ ويقول – عز سلطانه –: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾. [نوح: 13، 14].

النطفة في اللغة العربية وفي العلم:

النطفة في اللغة العربية: هي القليل من الماء الذي يعدل قطرة ، وسميت صغار اللؤلؤ بـ (النطف) تشبيها لها بقطرات الماء ، ويقال : (نَطَفَ) الرجل (يَنْطِف) (نطفا) و(نطفانا) بمعنى تقاطر منه الماء بعد وضوئه أو غسله.

و(النطفة) أيضًا وهي الماء الصافي قل أو كثر، و(نطفان) الماء تقاطره وسيلانه ، ويقال ليلة (نطوف) أي باتت تمطر حتى الصباح.

و(الناطف) السائل المائع وهو نوع من الحلوى يعرف باسم (القبيط) أو (القبيطي)؛ لأنه يتنطف قبل استضرابه أي يقطر قبل خثورته.

و(النَّطَفُ) الدلو ، والواحدة منه (نطفة).

ويقال : فلان (مَنْطِفُ) المعروف أي دائمه، وفلان (يَنْطِفُ) بخير أي يُنَدَّى به.

وقد استعير هذا المصطلح للتعبير عن خلية التكاثر (Gamete) التي تندفق مع كل من ماء الرجل وماء المرأة، أي سواء كانت النطفة مذكرة أو مؤنثة، وجمع النطفة (نِطَافٌ).

ولفظة (نطفة) جاءت بمعنى خلية التكاثر في اثنتى عشرة آية من آيات القرآن الكريم هي (النحل: 4)، (الكهف: 37) ،(الحج: 5)، (المؤمنون: 13، 14)، (فاطر: 11)، (يس: 77)؛ (غافر: 67)، (النجم: 46)، (القيامة: 37)؛ (الإنسان: 2)، و(عبس: 19).

وقد سمى القرآن الكريم اتحاد الخليتين التكاثريتين الذكرية والأنثوية باسم (النطفة الأمشاج) أي المختلطة، وهو أول تعبير علمي دقيق عن عملية تخلق الجنين باتحاد نطفتي الرجل والمرأة. وتأكيدًا لهذا المعنى أخرج الإمام أحمد عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مر يهودي برسول الله ﷺ وهو يحدث أصحابه، فقالت قريش: يا يهودي إن هذا يزعم أنه نبي، فقال لأسألنه عن شيء لا يعلمه إلا نبي، قال: فجاء اليهودي حتى جلس ثم قال: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا يهودي من كلٍّ يخلق، من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة»[1].

ولم يصل العلم المكتسب إلى كشف هذه الحقيقة إلا بعد أكثر من أحد عشر قرنًا (في حوالي سنة 1186هـ/1775م) حين ثبت دور كل من البييضة والحيوان المنوي في عملية تكون الجنين البشري.

ولم تكتشف بييضة الثدييات إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي كما أن نظرية الخلية بمعنى أن الجسد مكون من مجموعات من الخلايا ومنتجاتها لم تتبلور إلا في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (1839م)، مما أدى إلى الفهم الصحيح بأن الجنين نما من خلية واحدة هي النطفة الأمشاج (Zygote) أي المختلطة، وفي سنة 1858م أعلن فيرشاو (Virchow) أن كل الخلايا تنشأ من خلايا سابقة عليها، وفي سنة 1865م وُضِع مبدأ الوراثة على يد جريجور مندل (Gregor Mendel)، وبعد ذلك بثلاث وعشرين سنة (أي في سنة 1878م) اكتشف فلمنج (Flemming) الصبغيات، واقترح إمكانية أن يكون لها دور في عملية الإخصاب.

وفي سنة 1883م لاحظ فون بنيدن (Von Beneden) أن خلايا التكاثر الناضجة تحمل عددًا من الصبغيات أقل مما تحمله الخلايا الجسدية، ووصف جانبًا من عملية الانقسام الانتصافي للخلية (Meiosis) التي يتناقص بها عدد الصبغيات في الخلية التناسلية إلى النصف.

(1) أحمد (4424).



في سنة 1902م أعلن كل من ساتون (Sutton) وبوفيري (Boveri) (مستقلاً عن الآخر) أن سلوك الصبغيات أثناء تكون خلايا التكاثر وإخصابها يتفق تمامًا مع مبادئ علم الوراثة التي سبق لمندل (Mendel) اكتشافها في عالم النبات (سنة 1865م).

وكانت أولى الملاحظات المهمة على الصبغيات البشرية ما قام به وينيوارتر (Winiwarter) في سنة 1912م الذي أشار إلى أن عدد الصبغيات في الخلية الجسدية للإنسان هو (47)، وصححه بينتر (Painter) إلى (48)، وظل هذا الرقم مقبولاً على نطاق واسع حتى سنة 1956م حين أثبت كل من تيو (Tjio) وليفان (Levan) أن الرقم الصحيح لعدد الصبغيات في الخلية الجسدية لجنين الإنسان هو (46).

وفي سنة 1959 أثبت لوجين وأعوانه (Lejeune et al, **1959**) أن الخلايا الجسدية عند الأطفال المصابين بمرض المغولية (Mongolism) تحتوي على (47) صبغيًا، وثبت من ذلك أن الحيود عن العدد الثابت للصبغيات في الخلايا الجسدية هو تعبير عن عدد من الأمراض الموروثة عند الأطفال حديثي الولادة والتي قد تتسبب في موت الجنين قبل ولادته. كما ثبت أن 8٪ من فشل عملية الإخصاب هو ناتج عن بعض الحيود في عدد الصبغيات.

وسبق كل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة بالإشارة إلى كل من خلايا التكاثر الأنثوية والذكرية وإلى تكون الجنين باتحادهما مما يشهد لهذا الكتاب العزيز بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة.

ثانيا: في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾:

تشير هذه الآية الكريمة إلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في جعل الزوجية سنة من سنن الحياة الدنيا ليبقى ربنا – تبارك وتعالى – متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه (بغير شريك ، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة، ولا ولد) ولتبقى الزوجية في كل من الإنسان، والحيوان، والنبات، والجماد، ومختلف صور

الطاقة وسيلة من وسائل استمرار الخلق وتجدده وتنوعه إلى ما شاء الله – تعالى – وشاهدًا على وحدة الأصل في الخلق الأول الذي يشير إلى وحدانية الخالق – سبحانه وتعالى – وينطق بحقيقة الخلق.

والنموذج الجلي لخلق الزوجين الذكر والأنثى يتضح في الأحياء من الإنسان إلى الحيوان والنبات، حيث تملك الأنثى في كل مجموعة من هذه المجموعات الحية أجهزة تناسلية يعرف الواحد منها باسم المبيض (Ovary) وهذه الأجهزة وهبها الله – تعالى – قدرة فائقة على إفراز خلايا التكاثر الأنثوية المعروفة باسم البييضة (أي البيضة الصغيرة) أو (Egg = Ovum) وفي المقابل يملك الذكر أجهزة تناسلية مناظرة، تعرف الواحدة منها باسم الخصية (Testis) أعطاها الله – سبحانه وتعالى – قدرة خارقة على إنتاج خلايا التكاثر الذكرية المعروفة باسم الحيوانات المنوية أو «الحيامن» (Sperms) مفردها حيمن (Sperm)، وتجمع كل من الخلايا التناسلية الأنثوية والذكرية تحت مسمى النطاف جمع نطفة(Gamete) وباتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية تتكون النطفة الأمشاج أو المختلطة (Zygote).

ومبيض الزهرة في النباتات المزهرة يعرف باسم المتاع (Gynoecium) كما يعرف مجموع الخلايا الذكرية باسم الطلع (Androecium) ويتركب من عدد من الأسدية (Stamina) تتركب كل سداة منها من خيط (Filament) يحمل في نهايته المتك (Anther) الذي يحمل حبوب اللقاح.

والخلايا التناسلية في كل من الإنسان والحيوان والنبات تمثل – على تناهيها في ضآلة الحجم – ينبوع الحياة ومصدر تنوعها الذي يستمر بها من الآباء إلى الأبناء والأحفاد عبر الحياة الدنيا كلها حتى يرث الله (تعالى) الأرض ومن عليها. ولذلك قال ربنا – وهو أحكم القائلين – ممتنًا على خلقه أجمعين: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: 45].

وحتى الكائنات الدقيقة التي ما كان الإنسان يعتقد أنها تتمتع بتمايز الجنسين: الذكر والأنثى ، بدأت الأبحاث المتقدمة في زماننا في إثبات ذلك

في مجموعات متتالية من الصور البسيطة للحياة، وتأكيد القرآن الكريم على الزوجية في كل شيء سبق علمي لم يصل إليه علم الإنسان إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين.

ثالثًا: في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾:

والمقصود بالنطفة هنا خلية التكاثر الأنثوية (البييضة)، وبقوله – تعالى –: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي إذا أخصبها الحيوان المنوي، ويحدث إخصاب البيضة بحيوان منوي واحد فينتج عن ذلك النطفة الأمشاج (Zygote) التي تبدأ في الانقسام إلى خلايا أصغر فأصغر، تعرف باسم القسيمات الأرومية (Blastomeres)، ثم تتحول إلى كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم التويتة (Morula) ثم تنشطر التويتة مكونة الكيسة الأرومية (Blastocyst) التي تنغرس في جدار الرحم لتكون المراحل التالية من العلقة، والمضغة، وخلق العظام، ثم كسوتها لحمًا وجلدًا ثم النشأة الأخرى حتى الجنين الكامل.

وبسبب انفراد حيوان منوي واحد بإخصاب البيضة قال المصطفى ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد»[1].

ولما كانت كل خلية من الخلايا التناسلية تحمل نصف عدد الصبغيات في الخلية الجسدية والمحدد لنوعها، كان في سنة التزاوج آية من آيات الخالق – سبحانه وتعالى – في إبداعه لخلقه، وذلك لأنه باتحاد الخليتين التناسليتين الذكرية والأنثوية لتكوين النطفة الأمشاج يكتمل عدد الصبغيات المحدد للنوع، ويحدث التنوع في الصفات بين الوالدين والأبناء الذي يثري الحياة ويجعلها أكثر بهجة، ويشهد للخالق بطلاقة القدرة التي أتقنت ما يتم في داخل تلك النطفة الأمشاج حتى يخرج الإنسان أو الحيوان أو النبات إلى الحياة خلقًا جديدًا مشابهًا لأسلافه في بعض الصفات، ومختلفًا في البعض الآخر.

وفي الإنسان تحتوي الخلية الجسدية على (46) صبغيًا مرتبة في (23) زوجًا كل منها متماثل في الشكل، ويختلف في التركيب، وهذا العدد ثابت في خلايا كل

(1) مسلم (1428)، وأحمد (11369).

من الذكر والأنثى، وإن اختلفا في الصبغيات المحددة للجنس، فالخلية الجسدية الذكرية تحمل (44) صبغيًا جسديًا بالإضافة إلى صبغين جنسيين غير متشابهين أحدهما مذكر (Y) والآخر مؤنث (X).

وبنفس التركيب تحمل الخلية الجسدية الأنثوية (44) صبغيًا جسديًا بالإضافة إلى صبغيين جنسيين ولكنهما في هذه الحالة متشابهان ومؤنثان هما (X) (X).

وفي انقسام الخلايا الجسدية لتكرار ذاتها فإنها تنقسم انقسامًا فتيليًا (Mitosis) بمعنى أن ينقسم كل صبغي انقسامًا فتيليًا بالطول ليكرر ذاته، وذلك من أجل المحافظة على نفس العدد المحدد للنوع من الصبغيات في كل خلية جسدية، ولكن في حالة الانقسام لتكوين خلايا التكاثر فإن الخلية الجسدية تنقسم انقسامًا انتصافيًا (Meiosis) يعطي لكل خلية تناسلية نصف عدد الصبغيات في الخلية الجسدية، وذلك لكي يتكامل عدد الصبغيات باتحاد النطفتين الذكرية والأنثوية، فيتواصل الناس ويتعارفوا ويتقاربوا بالتزاوج، ويتحقق هذا التنوع العجيب في صفات الخلق بازدياد دائرة التناسل حتى يرث الله - تعالى - الأرض ومن عليها، ويثبت للناس وحدة الأصل مع هذا التنوع العريض فيتآخوا ولا يتنافروا، ويتحابوا ولا يتقاتلوا، ولذلك يمن علينا ربنا - تبارك وتعالى - بهذه الحقيقة الكونية فيقول:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ * مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: 45، 46].

وتحتوي النطفة الذكرية في الإنسان (الحيمن البشري) على (23) صبغيًا من نوعين هما:

(أ) (22) صبغيًا جسديًا + الصبغي المذكر (Y).

أو (ب) (22) صبغيًا جسديًا + الصبغي المؤنث (X).

أما النطفة الأنثوية (البييضة) فهي على شكل واحد يحمل دائمًا (22) صبغيًا جسديًا + الصبغي المؤنث (X).

فإذا قام حيوان منوي مما يجعل الصفة المذكرة (Y) بإخصاب البييضة جاء الجنين ذكرًا بإذن الله تعالى.

بينما إذا تم إخصاب البييضة بحيوان منوي يحمل الصفة المؤنثة (X) جاء الجنين أنثى بإذن الله.

وهذه الأزواج الثلاثة والعشرون من الصبغيات يتشابه اثنان وعشرون منها في الشكل، وهي الصبغيات الحاملة للصفات الجسدية، ويختلف عنها الزوج الحامل للصفات الجنسية؛ فهو إما أن يكون (X،X) في خلية الأنثى أو (X،Y) في خلية الذكر. ونصف هذه الصفات مستمد من الأب وأسلافه، والنصف الآخر مستمد من الأم وأسلافها حتى يتحقق هذا التنوع العجيب في الخلق الذي نشأ من أصل واحد، والذي يعرف في علوم الوراثة باسم التصالب (Cross Over = Chismata).

وبهذه العملية يصبح لكل صفة من صفات الإنسان زوج من حاملات الوراثة، أحدهما مستمد من الأب وأسلافه، والآخر مستمد من الأم وأسلافها والحامل الوراثي الأقوى هو الذي يسود وتعرف صفته باسم الصفة السائدة (The Dominant Character)، بينما يستتر الحامل الوراثي الأضعف ويتنحى مرحليًّا ليظهر في أجيال تالية؛ ولذلك تعرف الصفة التي يحملها باسم الصفة المستترة أو المتنحية (Recessive Character)، وبهذا التفاعل المحكم الدقيق تتنوع صفات الأبناء بعضهم عن البعض وعن والديهم وأسلافهم تنوعًا عظيمًا.

عملية الانقسام الانتصافي للخلايا:

والذي يتتبع عملية الانقسام الانتصافي (Meiosis) في داخل الخلية الحية الجسدية من أجل تكوين خلايا التكاثر يدرك مدى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق، ورعاية الخالق العليم القدير لخلقه، وفي ذلك تتجهز الخلية الحية للانقسام الانتصافي الأول (Meiosis) بتكدس المادة الصبغية (Chromatin) في داخل النواة، والتفافها على ذاتها، وانقسامها إلى الصبغيات، وحينئذ تختفي النويات (Nucleoli) داخل النواة؛ ويتحلل جدار النواة، وتبدأ الصبغيات المتشابهة في التقارب بعضها من البعض حتى تتشابك (Synapsis) وتبدأ في

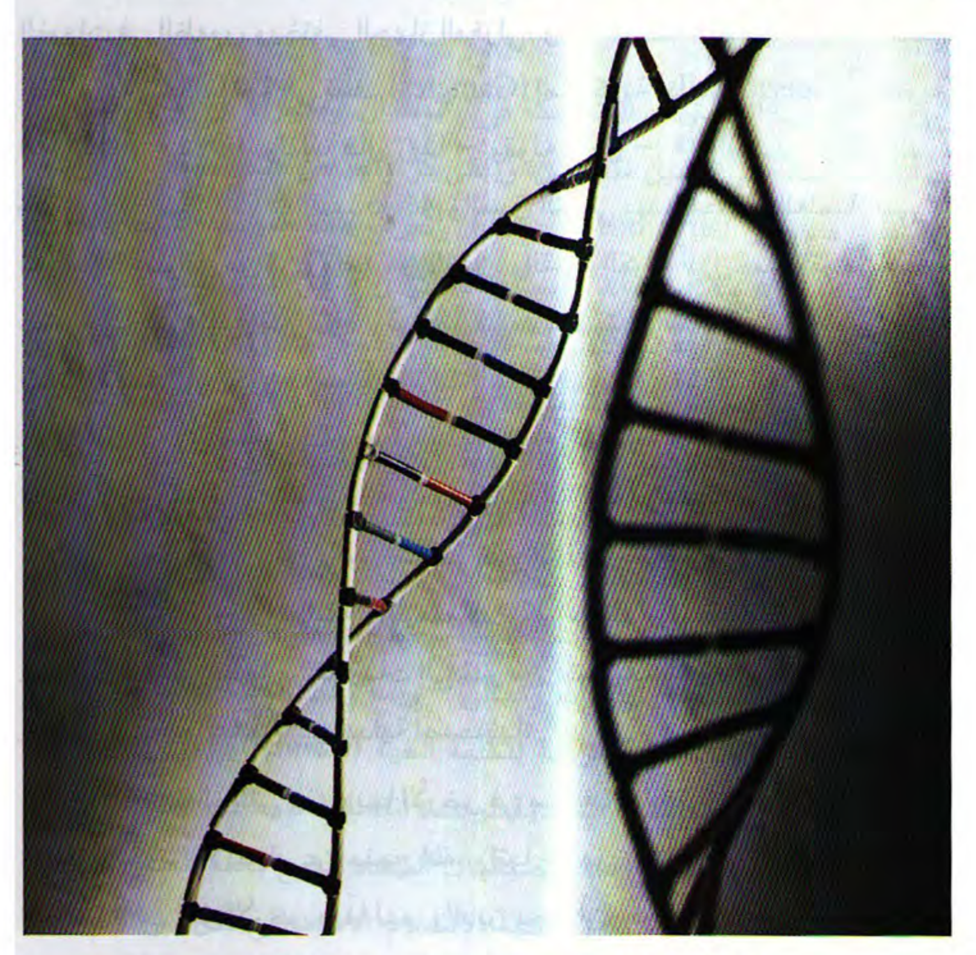
تبادل وحدات من الحمض النووي الريبي المنقوص الأكسجين (DNA) الذي تكتب به الصفات الوراثية على الصبغيات، وتعرف هذه المرحلة باسم الطور التمهيدي الأول (Prophase-I) وفي المرحلة التالية تتحرك الصبغيات المتشابكة إلى قطبي الخلية، حيث يظهر جهاز من خيوط مغزلية الشكل حول محور الخلية، وتعرف هذه المرحلة باسم الطور البعدي الأول (Metaphase-I) أو باسم الطور الاستوائي.

ويعد ذلك تبدأ الصبغيات المتشابكة في الانفصال، ويتحرك كل زوج منها إلى أحد أطراف الخلية في قطبين متقابلين، ويبقى كل واحد من هذه الصبغيات مكونًا من شقين صبغيين (Two Chromatids)، وتُعرَف هذه المرحلة باسم التمايز أو العزل (Segregation)، وبذلك ينفصل شقًا كل زوج من الصبغيات المتشابهة في عملية تسمى باسم «إعادة التصنيف المستقل للصبغيات» وتعرف هذه المرحلة باسم مرحلة الانفصال أو طور الصعود الأول (Anaphase-I) وفي المرحلة التالية تبدأ الصبغيات في فك الارتباط والالتفاف حول ذواتها، وتتحول إلى خيوط دقيقة في مجموعتين منفصلتين على هيئة قطبين متقابلين، ويبدأ الغشاء النووي في التكون حول كل تجمع للصبغيات عند قطبي الخلية، وتبدأ النويات (Nucleoli) في الظهور، وينفصل كل تجمع صبغي مع ما يحيطه من سوائل الخلية وعضياتها، وذلك بتقدير من الخالق - سبحانه وتعالى - وبما وهب الخلية الحية من طاقة حركية تعرف باسم الطاقة الحركية للخلية الحية (Cytokinesis) ويسمى هذا الطور الذي انقسمت فيه الخلية الجسدية الواحدة انقسامًا انتصافيًا لتكون خليتين تناسليتين بكل منهما نصف عدد الصبغيات المحدد للنوع باسم الطور النهائي الأول (Telophase-I) ثم تتكرر عملية الانقسام الانتصافي لكل من الخليتين الناتجتين في مرحلة ثانية (Meiosis-II) لها طور ابتدائي يعرف باسم الطور الابتدائي الثاني (Prophase-II)، وطور بعدي ثانٍ (Metaphase-II) تتشابك فيه الصبغيات بقسماتها المركزية (Centromeres) إلى الجهاز المغزلي، ويتحرك كل شق صبغي من كل واحد من الصبغيات كوحدة مستقلة إلى أحد قطبي الخلية في

طور الانفصال الثاني (Anaphase-II)، وذلك بانفصال القسيمة الوسطى لكل واحد من الصبغيات، فينقسم إلى شقين يتحرك كل شق صبغي منهما (Chromatia) إلى أحد قطبي الخلية الحية. وفي الطور النهائي الثاني (Telophase-II) تصل الخلية إلى مرحلة التوقف عن الانقسام، بينما تبدأ الطاقة الحركية للخلية في التزايد، وتبدأ أغشية نووية جديدة في التكون، وتبدأ الصبغيات في الانفراد، كما تبدأ النويات في الظهور، ويختفي الجهاز المغزلي، وتبدأ مرحلة التماين، ومرحلة نضج الخلايا الأربع الناتجة إلى نطف (Gametes) إما ذكرية (Sperm Cells) أو أنثوية (Ova = Eggcells)، ولذلك قال ربنا - وقوله الحق -: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: 45، 46] والسبق القرآني بهذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف إلا منذ أقل من قرن واحد من الزمن، والقرآن الكريم أنزل منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا على نبي أمي ﷺ وفي أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، هذا السبق لا يمكن أن يكون له مصدر إلا الله الخالق الذي أنزل القرآن الكريم بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية ولم يقطعه لرسالة أخرى أبدًا، وحفظه في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه حفظًا كاملاً: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا حتى يكون شاهدًا على الخلق أجمعين إلى يوم الدين؛ وذلك لأن الكتب السماوية السابقة جميعها قد وكل حفظها إلى أصحابها فضيعوها، وعرضوا ما بقى منها من ذكريات إلى قدر من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها.

وليست المظالم التي تضج بها الأرض في مختلف جنباتها اليوم إلا نتاج الجهل بالدين الحق، والابتعاد عن منهج الله، واتباع الهوى والمعتقدات المنحرفة التي اتخذها أغلب أهل الأرض دينًا لهم، والدين يجب أن يكون صناعة ربانية خالصة لا يداخلها أدنى قدر من التصورات البشرية، والدين الوحيد الذي تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ وحيه هو الدين الخاتم الذي بعث به النبي الخاتم ﷺ والذي حفظ في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة؛ فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعث النبي الخاتم والرسول الخاتم، عليه أفضل

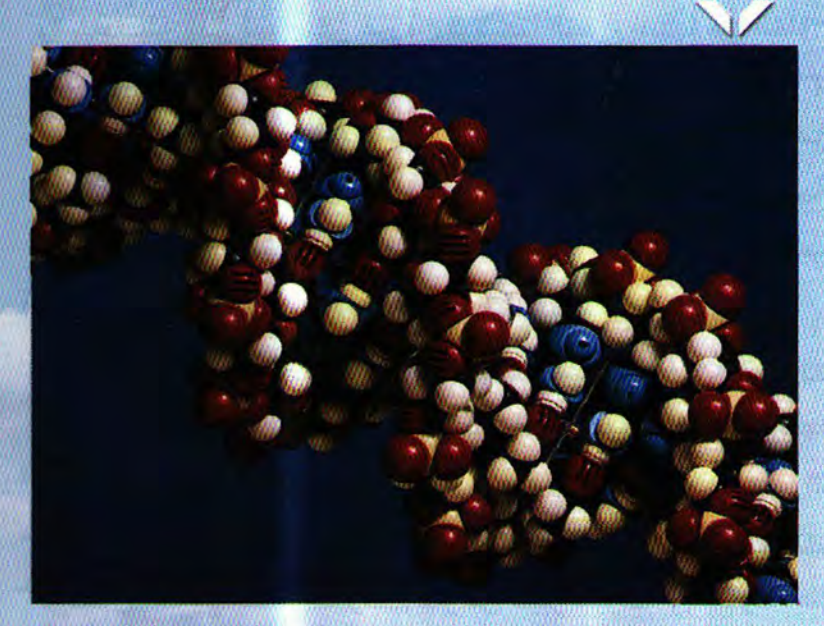
الصلاة وأزكى السلام بهذه الهداية الربانية الكاملة والتامة والناسخة لما قبلها من الرسالات، والحمد لله على حفظ القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة في نفس لغة الوحي (اللغة العربية) بصفاتهما الربانية، وإشراقاتهما النورانية وما فيهما من حق، بدأت العلوم المكتسبة في التعرف عليه، والوصول إليه. والحمد لله كثيرًا في كل وقت وفي كل حين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (74) تركيب الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين
الذي تكتب به الشيفرة الوراثية للإنسان.

الحديث التاسع والعشرون

تحديد شَبَهِ الوليد



شكل (75) يوضح التركيب الكيميائي لجزيء الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية التي تحدد صفات الجنين

29 تحـديـد شبـه الوليـد

■ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**».

(أخرجه البخاري ح 3329).

شرح الحديث

يبدأ تخلق الإنسان من اندماج نطفتي الزوج والزوجة اندماجًا ناجحًا ينتج عنه الإخصاب الذي يتمثل في النطفة الأمشاج (أي المختلطة)، والتي اختلطت فيها الشيفرة الوراثية في نطفة الزوج مع الشيفرة الوراثية لنطفة الزوجة؛ فيأتي الجنين على قدر من التشابه والاختلاف مع الوالدين وأسلافهما إلى أبوينا آدم وحواء - عليهما السلام - ولذلك جاء هذا الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري.

والحكمة الظاهرة لنا من ذلك هي التنوع البديع في الخلق الذي يعطي لكل فرد من بني آدم شيفرة وراثية خاصة به ترسم ملامحه الشخصية، وتحدد صفاته وملكاته واستعداداته التي تميزه عن غيره، ولولا هذا التنوع البديع في الخلق لكان الناس كلهم جميعًا على هيئة واحدة متكررة يملها الجميع، وتضيع معها بهجة الحياة، وهذا التنوع الذي أودعه الله - تعالى - في الشيفرة الوراثية لكل إنسان، وترابطها مع شيفرة زوجه بالاقتران من أعظم الأدلة على طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في الخلق؛ ولذلك قال ربنا - وهو أصدق القائلين: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾[الروم: 22].

ولتحقيق ذلك شاءت إرادة الخالق - سبحانه وتعالى - أن تنقسم الخلايا الناسلة انقسامًا انتصافيًا (Meiosis) يعطي لكل واحدة منها نصف عدد الصبغيات المحدد للنوع حتى يتكامل العدد بالتزاوج.

وفي 2000/6/26م تم الإعلان عن إتمام قراءة المسودة الأولية للشيفرة الوراثية للإنسان بعد مجاهدة استمرت لأكثر من عشر سنوات، وبمشاركة عشرات المئات من العلماء، وبكلفة فاقت ثلاثة بلايين من الدولارات الأمريكية.

وبتاريخ 2003/4/14م أعلنت منظمة الشراكة الدولية لدراسة ترتيب بناء الشيفرة الوراثية للإنسان The International Human Genome Sequencing Consortium، إكمال مشروع قراءة الشيفرة الوراثية للإنسان بنجاح وقد اعتبرت عملية قراءة ثلاثة بلايين ومائة مليون حرف من حروف الحمض النووي الريبي غير المؤكسد (DNA) والذي تكتب به هذه الشيفرة إنجازًا علميًا لا يقل عن النجاح في تحقيق شطر الذرة أو وصول الإنسان إلى القمر، وقد تمت هذه القراءة بخطأ تجريبي لا يتعدى واحدًا من كل عشرة آلاف حرف من حروف ذلك الحمض النووي؛ وبذلك تمت تغطية حوالي 99٪ من المناطق الحاوية على المورثات في «الجينوم» البشري.

ولكل خلية حية – ما عدا بعض الأنواع القليلة مثل خلايا الدم الحمراء – جسم مركزي يسمى «نواة الخلية»، يمثل العقل المفكر لها الذي ينظم جميع أنشطتها من مثل عمليات النمو والانقسام، وغيرها. وإذا ماتت نواة الخلية ماتت الخلية.

وتحتوي نواة الخلية على شيفرتها الوراثية المحمولة على عدد محدد من الصبغيات، وهي جسيمات غاية في تناهي الدقة مكونة من تجمعات للأحماض النووية، ومن لفائف مزدوجة الجانب من الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين، وهذه لافة حول محور وهمي على هيئة حلزونية متناهية الدقة، يقدر سمك جدارها بجزء من خمسين مليون جزء من المليمتر.

ويتكون الجسم الصبغي من شريط من هذه اللفائف المرتبطة بعدد من البروتينات، ويبلغ قطر لفيفة الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين جزأين من مليون جزء من المليمتر، ويبلغ طوله إذا فرد قرابة المترين.

والجسيم الصبغي يحوي – بالإضافة إلى المعلومات اللازمة لبقاء الخلية حية – عددًا من الهرمونات، وجزيئات الاستقبال، والبروتين الناقل، والمضادات الحيوية وغيرها.

ويقسم كل جسم صبغي على طوله بعدد من العلامات المميزة إلى وحدات طولية تعرف باسم المورثات (حاملات الصفات الوراثية)، ويتحكم كل مورث في عدد من الصفات الطبيعية والكيميائية والحيوية، وينقسم كل مورث إلى عدد من العقد المتناهية في الصغر، تعرف باسم «النويدات»، يتكون كل منها من زوج من القواعد

النيتروجينية، تستند كل قاعدة منهما إلى زوجين من جزيئات السكر والفوسفور، وتكون تلك الجزيئات جداري جزيء الحمض النووي (DNA).

وتنتشر القواعد النيتروجينية بينهما بهيئة مماثلة لدرجات السلم الخشبي المتوازي الساقين، في ترتيب دقيق محكم، وتتابعات محددة، وعلاقات تبادلية منضبطة بالنسبة لبعضها البعض، وعلى طول جزيء الحمض النووي. ومن الغريب أن هذه القواعد النيتروجينية هي أربع قواعد فقط تعطي علاقاتها التبادلية لكل فرد من البشر – الذين عاشوا وماتوا، والذين يملأون جنبات الأرض اليوم، والذين سوف يأتون من بعدنا إلى قيام الساعة – شيفرة وراثية خاصة به وتميزه عن غيره من البشر.

ويكون كل ثلاث من القواعد النيتروجينية شيفرة مصغرة (شفيرة)، وكل واحدة من هذه الشيفرات مسئولة عن إصدار التعليمات لتحضير حمض أميني معين في داخل الخلية الحية. وهذه الأحماض الأمينية التي تقع في عشرين نوعًا هي لبنات بناء الجزيئات البروتينية التي تنبني منها أجساد كل من الإنسان والحيوان.

وقد وهب الله – تعالى – كل خلية من خلايا جسم الإنسان الحاملة للشيفرة الوراثية القدرة على إنتاج أكثر من مائتي الف نوع مختلف من البروتينات والقواعد النيتروجينية في جزيء الحمض النووي مرتبة في أزواج يبلغ عددها أكثر من ثلاثة بلايين زوج (3,1 بليون زوج) تتوزع في أكثر من بليون شيفرة، تحمل ما بين (30,000، 35,000) مورث.

ويتكون الحرف المتوسط من حروف جزيء الحمض النووي من طول يغطي أكثر من 27 مليونًا من القواعد النيتروجينية في غاية الدقة من الترتيب والتنسيق وترابط العلاقات، ولا يمكن لعاقل أن يتصور عشوائية ذلك أبدًا.

والأحماض النووية عبارة عن مركبات فوسفورية معقدة قابلة للتكسر كيميائيًا إلى حمض الفوسفوريك والسكريات. وتتم التفاعلات الكيميائية في جسم الإنسان – وفي أجسام غيره من المخلوقات بمساعدة الأنزيمات التي تعين على تحويل المواد الأولية الواصلة للخلية إلى البروتينات وغيرها من المركبات المعقدة

التي يحتاجها جسم الإنسان، وذلك في جزء من ألف جزء من الثانية إلى أقل من جزء من مليون جزء من الثانية.

وكل تتابع للنويدات في المورث هو الذي يحدد تتابع الأحماض الأمينية المكونة للجزيء البروتيني وترابطها مع بعضها البعض. وبذلك تنتج البروتينات التي يحتاجها الجسم بتوجيه من المورثات. ومن العجيب حقًّا أن تكون لبنات بناء أجساد الكائنات الحية كلها واحدة وهي عشرون نوعًا من الأحماض الأمينية تتركب بتوجيه من المورثات في أكثر من مائتي ألف نوع مختلف من البروتينات، وأن تترتب ذرات الأحماض الأمينية ترتيبًا يساريًّا في جميع أجساد الكائنات الحية، وتترتب ترتيبًا يساريًّا كذلك في الجزيئات البروتينية، وأن ترتبط فيه برباط كيميائي محدد هو الرباط الپيپتيدي.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: من الذي وضع كل هذه الأسرار في نطفة الزوج التي لا يتعدى طولها (0,005مم) ونطفة الزوجة التي لا يتعدى قطرها (0,2 مم) غير الله الخالق؟

ومن الذي هدى النطفة الأمشاج إلى الانقسام الدقيق المبرمج لإنتاج هذا القدر الهائل من الخلايا؟

ومن الذي هدى الخلايا المتشابهة في التعرف على بعضها البعض لتكوين الأنسجة المتخصصة؟

ومن الذي جمع تلك الأجهزة في أعضاء ونظم، تعمل بتوافق عجيب مع بعضها البعض، وبسرعات واستجابات فائقة من أجل صالح الجسد الحي؟

ويعجب العلماء من كيفيات عمل جهاز المناعة في جسم الإنسان، ومن كيفية إدراك هذا الجسد لأي جسم غريب يدخل إليه، ومن كيفيات تفاعله معه بالرفض أو القبول، ومن كيفية تحول الطاقة الكيميائية إلى طاقة حركية، ومن كيفية تحكم الهرمونات في تنشيط عمليات النمو أو تثبيطها، ومن غير ذلك من الأنشطة الحيوية العديدة التي أودع الخالق - سبحانه وتعالى - قدرات التحكم فيها في الشيفرات الوراثية التي تحملها نطف الزوج، التي تندفع بمئات الملايين في الدفقة الواحدة، ونطف الزوجة التي تخلق فيها بالملايين وهي في رحم أمها، ثم

يتناقص هذا العدد إلى ما بين ثلاثمائة ألف وأربعمائة ألف عند البلوغ، ينتج منها ما بين 300، 500 بييضة لا يصل منها إلى مرحلة الإخصاب إلا بضع بييضات، وإلى مرحلة الإنجاب إلا آحاد منها، ولذلك جاء هذا السؤال التقريري، التوبيخي الاستنكاري لموقف الكفار والمشركين الذي يقول فيه ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[الواقعة: 58، 59].

وكان هذا الرد النبوي الشريف الذي قال فيه المصطفى ﷺ: «يا يهودي: من كُلٍّ يخلق: من نطفة الرجل ونطفة المرأة»[1]. وكان قوله ﷺ: «وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها».

ولما كانت علوم الوراثة من أحدث المعارف الإنسانية كانت هذه الإشارة القرآنية الكريمة، وهذا الحديث النبوي الشريف إليها سبقًا يشهد بأن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق، ويشهد للرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(1) أحمد (4424).

الحديث الثلاثون

نسبة كل مولود إلى أبينا آدم (عليه السلام)



شكل (76) يوضح تركيب الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية والذي ينقسم ليكرر ذاته أثناء النمو أو التكاثر

30 نسبة كل مولود إلى أبينا آدم (عليه السلام)

■ أخرج كل من الإمامين ابن جرير وابن أبي حاتم قول رسول الله ﷺ:
«إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم».
(ابن جرير 30/87)

شرح الحديث

يشير هذا الحديث الشريف إلى حقيقة علمية لم تدرك العلوم المكتسبة شيئًا عنها إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، ألا وهي حقيقة توارث الصفات من الوالدين وأسلافهما إلى الأب الأول آدم عليه السلام.

وقد سبق أن أشرنا إلى أنه في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي (1865 – 1866م) استطاع النمساوي مندل (Gregor Johann Mendel) أن يثبت علميًا – بعدد من التجارب البسيطة على نبات البازلاء – الفكرة القديمة عن توارث الأبناء صفاتهم عن الآباء، فاكتشف بذلك قوانين الوراثة، وأرسى قواعد علم جديد من علوم الحياة هو علم الوراثة (Genetics).

وكانت دراسة مندل مركزة على لون الزهور في نبات البازلاء، وطول النبتة ونسيج غلاف البذور، ونشر تلك الدراسة لأول مرة في سنة (1866م)، ثم نسيت نتائجها حتى مطلع القرن العشرين.

وقد أشار مندل إلى أن الصفات تنتقل من جيل إلى آخر عبر عوامل متناهية الضآلة في الحجم عرفت فيما بعد باسم المورثات أو الچينات (Genes).

وبقيت هذه المورثات (Genes) مجرد رموز تستخدم في تفسير عمليات التنوع في الخلق، حتى أثبت عالم الأحياء الأمريكي توماس هنت مورجان (Thomas Hunt Morgan) في أوائل القرن العشرين أنها أجزاء فعلية من جسيمات خيطية متناهية في الصغر توجد داخل نواة الخلية الحية وتعرف باسم الصبغيات أو الجسيمات الصبغية (Chromosomes) وذلك لقدرتها الفائقة على اكتساب الصبغات المختلفة والتلون بها (أي بالأصباغ التي تضاف إلى مكونات الخلية الحية لإظهار تفاصيلها)، أكثر من أية أجزاء أخرى للخلية.

ونشر مورجان أبحاثه لأول مرة سنة 1912م، وفصل ذلك في كتابه المعنون بـ«نظرية المورثات» (The Theory of the Genes) والذي نشر في سنة 1926م. ومنح جائزة نوبل في سنة 1933م لإثبات حقيقة الصبغيات ودورها في عالم الوراثة والتي اكتشفها في دراسته على ذبابة الفاكهة المعروفة باسمها اللاتيني دروسوفيلا (Drosophila).

وفي هذه الدراسة اكتشف «مورجان» الجسيم الصبغي المختص بالتكاثر (The Reproductive Chromosome)، واقترح فكرة التخطيط الوراثي للكائنات الحية.

في سنة (1955م) تمكن كل من الأمريكي جيمس ديوي واطسون (James Dewey Watson) وزميليه البريطانيين فرانسيس هاري كومبتون كريك، (Francis Harry Compton Crick) وموريس هيوفريدريك ويلكنز (Maurice Hugh Frederick Wilkins) مِنَ التعرف على التركيب الجزيئي للحمض النووي الريبي غير المؤكسد (Deoxyribonucleic Acid = DNA) ومنح الثلاثة جائزة نوبل في سنة (1962م) على هذا الاكتشاف الهام.

وهذا الحمض النووي الموجود في نوى الخلايا الحية هو مركب فوسفوري شديد التعقيد، وقابل للتكسير كيميائيًّا ليعطي حمض الفوسفوريك، وعددًا من جزيئات السكر، والقواعد النيتروجينية، وبجميعها تكتب الشيفرة الوراثية لجميع الكائنات الحية.

وبعد ذلك اكتشف واطسون بمفرده الحمض النووي الريبي المراسل (The Messenger Ribonucleic Acid = RNA) الذي يُحَلِّل رموز وأوامر الحمض النووي الريبي (DNA) إلى أجزاء الخلية التي تقوم بإنتاج البروتينات (أكثر من مائتي ألف نوع مختلف من البروتينات).

وظلت دراسات الوراثة تتكامل في تسارع مبهر حتى تم الإعلان في 2000/6/26م (الموافق 1421/3/24هـ) عن الانتهاء من القراءة المبدئية للشيفرة

الوراثية للإنسان، وذلك بتحديد 97٪ من مكونات تلك الشيفرة، وقد تمت قراءة الجزء الباقي (3٪) بنهاية سنة 2003م.

وقد اشترك في قراءة الشيفرة الوراثية للإنسان آلاف من العلماء الذين ينتمون إلى عشرات من الدول المتقدمة علميًا وتقنيًا، واستمر العمل في المشروع لأكثر من خمس عشرة سنة بتواصل لم ينقطع، ووظفت في الدراسة أسرع الحواسيب العملاقة، وأفضل التقنيات المتاحة، وتكلف المشروع عدة مليارات من الدولارات، واعتبر إتمامه من أهم الإنجازات العلمية التي تمت في تاريخ البشرية.

وقد أثبتت دراسات كل من علم الخلية (Cell Biology) وعلم الوراثة (Genetics) أن جسد الإنسان يحتوي على مئات البلايين من الخلايا التي تتنوع بتنوع وظائفها، وأغلب هذه الخلايا على قدر من الضآلة بحيث لا يتعدى قطر الواحدة منها ثلاثة من مائة من المليمتر (0,03مم) في المتوسط.

والخلية الحية بناء في غاية الإحكام والتعقيد إلى درجة يعجز العقل البشري عن تصورها، ويراها كل ذي بصيرة شاهدة لخالقها بطلاقة القدرة، وببديع الصنعة، وبإحكام الخلق، ويراها نافية نفيًا قاطعًا للعشوائية أو المصادفة.

وقد اتضح من دراسة الخلية الحية أن لها جسمًا مركزيًّا يسمى نواة الخلية (ماعدا بعض الأنواع القليلة من الخلايا من مثل خلايا الدم الحمراء). وأن نواة الخلية تمثل العقل المفكر لها، ومركز التحكم فيها الذي يحمل كل الصفات الوراثية لها وللجسد المنطوية فيه. وتحكم كل تصرفاتها وأنشطتها بدقة فائقة وتنظيم عجيب.

وتُحْمَلُ الصِّفَاتُ الوراثية في نواة الخلية على عدد محدد من الصبغيات (Chromosomes)، وعددها محدد لكل نوع من أنواع الحياة.

وعدد الصبغيات في خلايا جسم الإنسان ستة وأربعون (46)، مرتبة في ثلاثة وعشرين زوجًا (23) في نواة كل خلية من خلايا الجسم ما عدا الخلايا التناسلية أو خلايا التكاثر (Reproductive or Germ Cells) التي يحمل كل منها نصف هذا العدد من الصبغيات (أي 23 صبغيًا فقط) حتى إذا ما اتحد كل من الحيوان المنوي (الحيمن) مع البييضة، تكامل عدد الصبغيات إلى ستة وأربعين، نصفها من الحيمن أو الحيوان المنوي (ويحمل بعض صفات الأب وأسلافه إلى آدم عليه

السلام) والنصف الآخر من البييضة (ويحمل بعض صفات الأم وأسلافها إلى كل من آدم وحواء عليهما السلام). وبذلك يأتي الأبناء على قدر من التشابه والاختلاف مع الوالدين مما يحقق التنوع البديع في الخلق.

وتتكون الصبغيات من تجمعات للحمض النووي (Nucleic Acid) والبروتينات (Proteins) بنسب متساوية تقريبًا. ويتكون جزيء الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين (DNA) من لفائف متناهية الدقة يتكون كل منها من سلسلتين ملتحمتين في الوسط من القواعد النيتروجينية وجزيئات السكر والفوسفات. وهاتان السلسلتان تلفان حول محور وهمي على هيئة حلزونية ومطويتان طيًّا شديدًا وتعرفان باسم الرقائق الحلزونية المزدوجة للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين أو منقوص الأكسچين (Double Helix DNA Strands) ويبلغ سمك جدار كل واحد من هذه الرقائق الحلزونية واحدًا من خمسين مليونًا من المليمتر، ويبلغ قطر الحلزون واحدًا من نصف مليون من المليمتر، ويبلغ حجمه وهو مكدس على ذاته داخل الجسم الصبغي واحدًا من المليون من المليمتر المكعب، وإذا فرد فإن طوله يصل إلى أربعة سنتيمترات، بمعنى أنه إذا تم فرد أشرطة الحمض النووي في صبغيات خلية واحدة من خلايا جسم الإنسان العادية وتم رصها بجوار بعضها البعض؛ فإن طولها يبلغ حوالي المترين، وإذا تم ذلك بالنسبة للصبغيات الموجودة في تريليونات الخلايا المكونة لجسم فرد واحد من بني الإنسان؛ فإن طول شيفرته الوراثية يزيد عدة أضعاف طول المسافة بين الأرض والشمس والمقدرة بحوالي مائة وخمسين مليونًا من الكيلومترات.

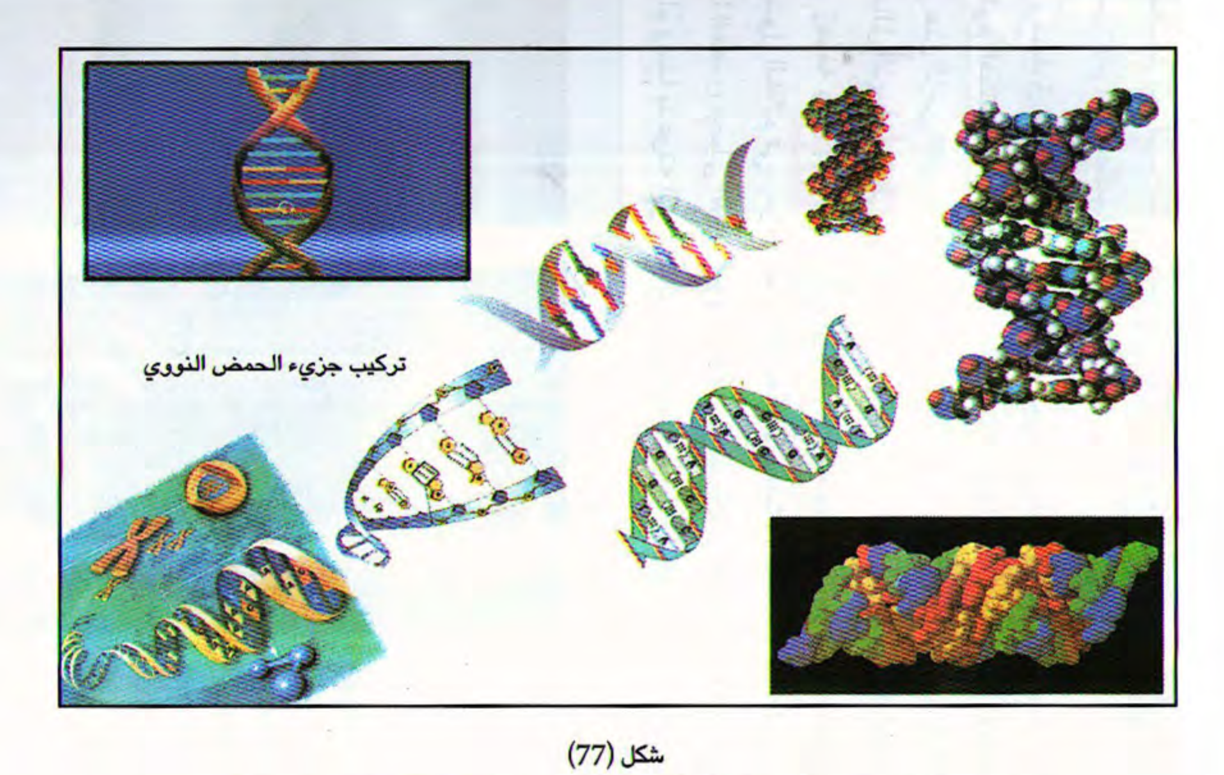
ويقسم كل واحد من الصبغيات على طوله بعدد من العلامات المميزة (Markers) إلى وحدات طولية في كل منها عدد من المورثات أو حاملات الوراثة (Genes)، ويتكون كل مورث من عدد من الشفيرات (Codons)، وتتكون كل شفيرة من ثلاث نويدات (Nucleotides)، بينما تتكون النويدة الواحدة (Nucleotide) من زوج من القواعد النيتروچينية (A Pair of Nitrogenous Bases or Base Pairs) يستند كل منها إلى جزيء من السكر وجزيء من الفوسفات في نظام محكم دقيق تُكَوِّن فيه جزيئات السكر والفوسفات جدارين متقابلين تنتشر بينهما أزواج

القواعد النيتروچينية على هيئة درجات السلم الخشبي في علاقات تبادلية شديدة الانضباط على طول جزيء الحمض النووي الريبي المنزوع الأكسچين (DNA).

ومن العجيب أن هذه القواعد النيتروچينية هي أربع قواعد فقط تكتب بتبادلاتها الشيفرات الوراثية لجميع بني آدم من البلايين التي تملأ جنبات الأرض اليوم، إلى البلايين التي عاشت من قبل وماتت، والبلايين التي سوف تجيء من بعدنا إلى قيام الساعة لتعطي كل فرد صفاته الوراثية المحددة له.

وهذه القواعد الأربع تعتبر حروفًا تكتب بها كلمات وجمل الشيفرة الوراثية لكل إنسان، وهي الأدينين (Adenine = A)، والجوانين (Guanine = G) والسيتوسين (Cytosine = C)، والثيامين (Thyamine = T). ويتطابق تركيب الحمض النووي بين أي فردين من بني آدم إلى 99,9٪ وهي من الحقائق التي وضعت حدًّا لكل دعاوى التمييز العرقي والعنصري البغيض بين الناس، وأكدت طلاقة القدرة الإلهية التي استطاعت بفارق 0,1-٪ أن تعطي لكل فرد من بني الإنسان بصمة وراثية خاصة به.

وتتركب الشيفرة الوراثية للإنسان من أكثر من ثمانية عشر بليونا (18,6 بليون) من جزيئات القواعد النيتروچينية والسكر والفوسفات موزعة بالتساوي (6,2 بليون) جزيء لكل منها، على هيئة 6,2 بليون قاعدة نيتروچينية مرتبة على هيئة 3,1 بليون درجة من درجات السلم الخشبي، في كل درجة قاعدتان من تلك القواعد النيتروچينية وتستند كل قاعدة منها على جدار من جزيئات السكر والفوسفات. والقواعد النيتروچينية تستند كل قاعدة منها على جدار مكون من 6,2 مليون جزيء من جزيئات السكر، 6,2 بليون جزيء من جزيئات الفوسفات. والقواعد النيتروچينية مرتبطة مع بعضها البعض بروابط دقيقة ورقيقة، مما يسهل انفصال هذه الرقائق الحلزونية المزدوجة الجدار للحمض النووي من منتصف كل واحد منها إلى نصفين متماثلين، ثم نمو كل نصف إلى حلزون مزدوج الجدار من حلزونات الحمض النووي، وذلك بتكرار ذاته. وإذا عدنا بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن، فإن جميع الشيفرات الوراثية في أجساد كل بني آدم ممن عاشوا وماتوا، ومن الذين يملأون جنبات الأرض اليوم، وممن سوف يأتون من بعدنا إلى قيام

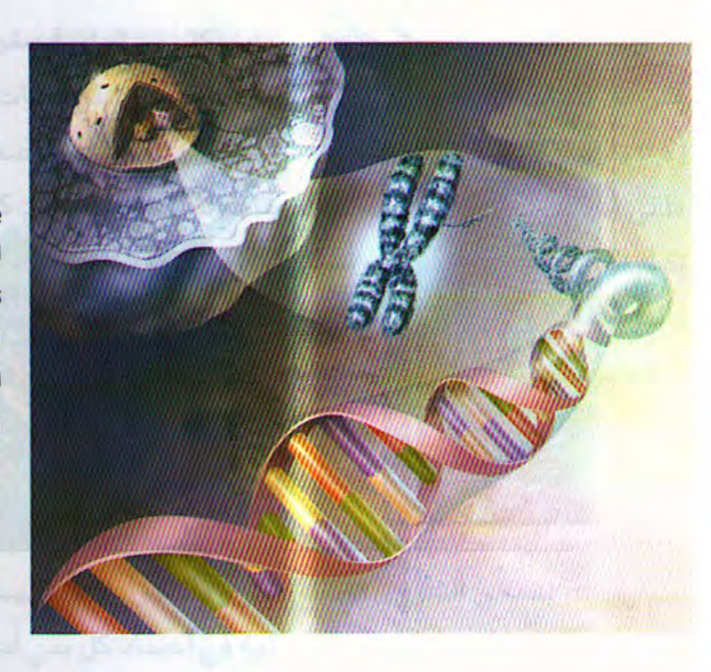


شكل (77)

يوضح أننا إذا عدنا بعملية انقسام الشيفرات الوراثية في أجساد كل البشر إلى الوراء مع الزمن فإنها تلتقي جميعًا في شيفرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم (عليه السلام)..

الساعـة سوف تلتقي كلها في شيفرة واحـدة كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظـة خلقه. وهـذا هو مدلول الحديث الشريـف: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرهـا الله تعالى كل نسب بينهـا وبين آدم»، وذلـك لأنه حتمًـا يصيبها من الصفـات الوراثيـة التي كانت مكدسة في شيفرة أبينـا آدم عليه السلام قدر محدد، حسب علم الله وحكمته وقدرته وهدايته.

ومنطوق الحديث يؤكد حقيقة قوانين الوراثة من قبل أن يصل إليها أي من العلوم المكتسبة بأكثر من اثني عشر قرنًا (1256 سنة)، ولا يمكن لعاقل أن يتصور في هذا الزمن القديم، وفي تلك البيئة البدائية مصدرًا لهذا العلم الدقيق غير الله الخالق الذي أوحى إلى خاتم أنبيائه ورسله بمثل هذه الحقائق العلمية هداية للناس في زمانه ومن بعد زمانه إلى يوم الدين، وشهادة بالنبوة وبالرسالة لهذا النبي الرسول الخاتم في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه باللغة العلمية التي يفهمها أهل هذا العصر، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

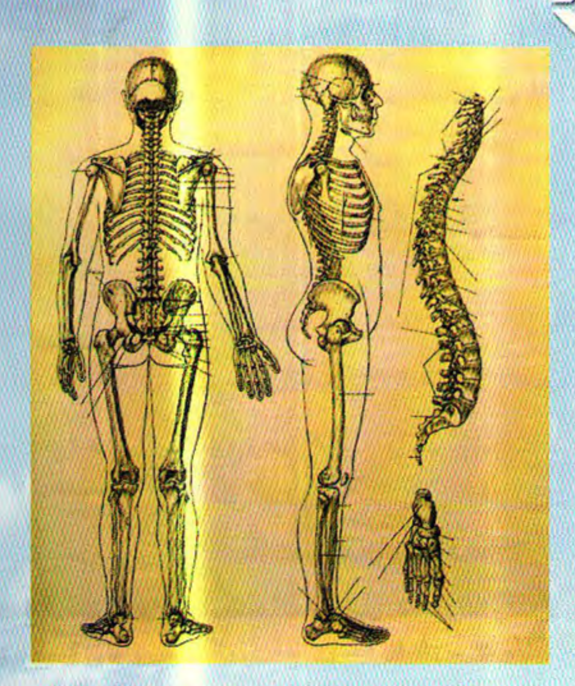


شكل (78)

يوضح جزيء الحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين الذي تكتب به الشيفرة الوراثية على الصبغيات والتي تنقسم أثناء النمو أو التكاثر وإذا عدنا بهذا الانقسام إلى الوراء مع الزمن ينتهي البشر جميعًا إلى أب واحد وأم واحدة.

الحديث الحادي والثلاثون

«إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل...»



شكل (79) يوضح مفاصل الهيكل العظمي للإنسان

31 «إنـه خلق كل إنسـان مـن بني آدم على ستيـن وثلاثمائـة مفصل...»

أخرَج الإمام مسلمٌ في صحيحِه عن أمِّ المؤمنينَ السيدةِ عائشةَ (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال: «إنه خُلِق كلُّ إنسانٍ مِن بني آدمَ على ستينَ وثلاثِمائةِ مَفْصِل؛ فمَن كبَّرَ الله، وحَمِدَ الله، وهلل الله وسبح الله، واستغفَرَ الله، وعزَل حجرًا من طريقِ الناسِ، أو شوكةً أو عظمًا عن طريقِ الناسِ وأمَرَ بمعروفٍ، ونهَى عن منكرٍ، عددَ تلك الستينَ والثلاثِمائةِ السُّلامَى فإنه يمشي يومَئذٍ وقد زَحْزَحَ نفسَه عن النارِ». (صحيح مسلم، كتاب الزكاة، حديث رقم: 1675).

■ وفي رواية أخرى للحديث: أخرج الإمام البخاري عن أبي هريره رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كُلُّ سُلامَى من النَّاس عليه صدقةٌ، كلَّ يومٍ تطلع فيه الشمسُ يعدل بين الاثنين صدقةٌ، ويعين الرجلَ على دابته فَيحمل عليها أو يرفعُ عليها متاعَهُ صدقةٌ، والكلمةُ الطيبةُ صدقة، وكلُّ خُطوةٍ يخطوهَا إلى الصلاةِ صدقةٌ، ويميط الأذى عن الطريقِ صدقةٌ». (البخاري، كتاب الجهاد والسير، حديث رقم: 2767).

وروَى الأئمةُ الكرامُ مسلمٌ، وأبو داودَ، وأحمدُ وغيرُهم عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أنه قالَ: سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول: «في الإنسانِ ستونَ وثلاثُمائةِ مَفْصِلٍ، فعليه أن يتصدقَ عن كلِّ مَفصل منها صدقةً».

كما روَوا عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يصبحُ على كُلِّ سُلامَى من أحدِكم صدقةٌ؛ فكلُّ تسبيحةٍ صدقةٌ، وكلُّ تحميدة صدقةٌ، وكلُّ تهليلةٍ صدقةٌ وكُل تكبيرةٍ صدقةٌ، وأمرٌ بالمعروف صدقةٌ ونهيٌ عن المنكرِ صدقةٌ، ويجزئُ من ذلك ركعتان يركعُهما من الضُّحَى». (رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، حديث رقم 1181).

و(السلامى) هي المفصل، وهي اسم للواحد وللجمع معًا؛ وقيل إن (السلامى) و(السُّلاميات) هي في الأصل عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعملت للتعبير عن جميع عظام البدن ومفاصل تلك العظام، والمفاصل هي مواضع التقاء العظام بعضها مع بعض، وأغلب هذه المفاصل متحرك ولكن بعضها ثابت كمفاصل الجمجمة.

والحديث أخرجه الإمام أبو داود في سننه (كتاب الأدب، حديث رقم 4563) بلفظ عن بريدة: «في الإنسان ثلاثمائةٍ وستونَ مَفْصِلاً، فعليه أن يتصدقَ عن كلِّ مَفصلٍ منه بصدقةٍ». قالوا: ومن يطيقُ ذلك يا نبيَّ الله؟ قال: «النخاعةُ في المسجدِ تدفنُها والشيءُ تنحيه عن الطريقِ، فإذا لم تجدْ فركعتا الضُّحَى تُجزِئُكَ».

وبنفس اللفظ أخرجه الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 20501).



شكل (80) يوضح عظام كل من أسفل العمود الفقري والحوض وأعلى الساقين.

شرح الحديث

واضح من حديث رسول الله ﷺ أن المقصود بالسلامى هو المفاصل التي يمكن للعظام أن تتحرك عبرها، ومن معاني الحديث الشريف أن على المسلم أن يقدم الشكر لله (تعالى) على ما وهبه من هيكل عظمي منتصب القامة مستقيم، ميزه الله (تعالى) به عن جميع الخلائق، وكونه من عدد هائل من العظام الكبيرة والدقيقة والغضاريف، وجعل بين كل عظمتين منها مفصلاً يتيح لهذا العدد الهائل من العظام حماية الأجزاء اللينة من جسم الإنسان ودعمها، وأعطاه في نفس الوقت قدرًا من مرونة الحركة تسمح للإنسان بالوقوف ، والجلوس، والاضطجاع، والانحناء، والتثني ، والبسط والقبض وغير ذلك من الحركات التي مكنت الإنسان من العديد من المهارات، ومن قبيل الشكر لله (تعالى) الخالق البارئ المصور فإن على كل مسلم عابد لله وشاكر لأنعمه أن يقدم عن كل مفصل من تلك المفاصل صدقة في كل يوم يصبح فيه، تقديرًا لهذه النعمة الكبرى، وتعبيرًا عن شكر الله (سبحانه وتعالى) عليها، والتي بدونها ما كان من الممكن للإنسان أن يستمتع بوجوده في هذه الحياة، وتعظيمًا لروعة الخلق في تصميم تلك العظام ومفاصلها بهذه الدقة الفائقة التي تشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

والأمر المعجز في هذا الحديث أن يذكر فيه المصطفى ﷺ عدد مفاصل جسم الإنسان بهذا التحديد الدقيق (ثلاثمائة وستون مفصلاً) في زمن لم يكن متوافرًا فيه للإنسان أدنى علم بتشريح جسم الإنسان، أو أدنى معرفة بعدد عظام هيكله، وعدد المفاصل فيه، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي بيئة بدوية لا تعرف العلم ولا التحقيق ولا التدوين..!! حدث هذا في أوائل القرن السابع الميلادي، ونحن الآن في أوائل القرن الحادي والعشرين، والغالبية الساحقة من الناس لا تعرف عدد المفاصل في جسد كل منهم، بل إن عددًا كبيرًا من أساتذة طب وجراحة العظام في مطلع القرن الحادي والعشرين لا يعرف بالضبط عدد العظام أو عدد المفاصل في

جسم الإنسان، وقد سألت عددًا منهم فتراوحت إجاباتهم بين المائتين والثلاثمائة عظمة، وبين المائة والثلاثمائة مفصل.

كذلك فإن عددًا كبيرًا من دوائر المعارف العالمية إما يهرب بوضوح من تحديد عدد العظام والفواصل في الهيكل العظمي للإنسان ويضعها في مجموعات كبيرة كما فعلت دائرة المعارف البريطانية التي جمعت عظام وفواصل هيكل الإنسان في مجموعات ثلاث دون تحديد، هي:

(1) الهيكل المحوري ويشمل العمود الفقري ومعظم الجمجمة.

(2) والهيكل الأحشائي ويشمل القفص الصدري والفك السفلي، وبعض أجزاء الفك العلوي.

(3) والهيكل الطرفي: ويشمل عظام الحوض وأحزمة الأكتاف وعظام وغضاريف الأطراف.

وذكرت دائرة معارف «هتشنسون» (The Hatchinson Encyclopedia) المنشورة في سنة 1995م أن مجموع عدد العظام في الهيكل العظمي للإنسان هو (206) فقط.

ولكن الدكتور حامد أحمد حامد ذكر في كتابه المعنون بالعنوان الجميل: «رحلة الإيمان في جسم الإنسان» أن عدد المجموع الكلي للمفاصل في جسم الإنسان هو بالضبط ثلاثمائة وستون مفصلاً كما قرره رسول الله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، وأوضح الدكتور حامد تفصيل هذا العدد على النحو التالي:

أولاً: بالعمود الفقري 147 مفصلاً كما يلي:

25 مفصلاً بين الفقرات.

72 مفصلاً بين الفقرات والأضلاع.

50 مفصلاً بين الفقرات عن طريق اللقيمات الجانبية.

ثانيًا: بالصدر 24 مفصلاً كما يلي:

مفصلان بين عظمتي القص والقفص الصدري.

18 مفصلاً بين القص والضلوع.

مفصلان بين الترقوة ولوحي الكتف.

مفصلان بين لوحي الكتف والصدر.

ثالثًا: بالطرف العلوي 86 مفصلاً كما يلي:

مفصلان بين عظام الكتفين.

6 مفاصل بين عظام الكوعين.

8 مفاصل بين عظام الرسغين.

70 مفصلاً بين عظام اليدين.

رابعًا: بالطرف السفلي 92 مفصلاً كما يلي:

مفصلان للفخذين.

6 مفاصل بين عظام الركبتين.

6 مفاصل بين عظام الكاحلين.

74 مفصلاً بين عظام القدمين.

4 مفاصل بين عظام الركبة.

خامسًا: بالحوض 11 مفصلاً كما يلي:

4 مفاصل بين فقرات العصعص.

6 مفاصل بين عظام الحُقِّ.

1 مفصل الارتفاق العاني.

المجموع: 147 + 24 + 86 + 92 + 11 = 360 مفصلاً.

وهذه المفاصل المتحركة في جسم الإنسان والتي تعطي لهيكله العظمي، ومن ثم للجسم كله، القدرة على الحركة بمرونة عالية هي المقصودة بتعبير السلامى، أما

الفواصل الثابتة كتلك الموجودة بين عظام الجمجمة فلا تدخل في عداد السلامى التي هي المفاصل التي تتم عبرها حركة حرة للعظام.

وتعرف السلامى أيضًا باسم «المفاصل الزليلية» لاحتوائها على سائل يعين على انزلاق العظام دون ارتطامها بعضها بالبعض، يعرف باسم «السائل الزليلي». ومن أوضح أمثلة المفاصل الزليلية مفصل الورك، وهو مفصل كروي يتكون من نهاية عظمية كروية تملأ تجويفًا في الحوض يشبه القلنسوة تتحرك فيه عظمة الفخذ بسهولة ويسر مما يسهل حركة كل واحد من الساقين في حركة تراوحية مرنة في عدة اتجاهات لم تكن ميسرة بغير ذلك البناء العجيب الذي أوجده الخالق (سبحانه وتعالى)، كذلك يعمل مفصل الركبة عمل البكرة مما يمُكِّن الإنسان من ثني ساقه في سهولة ويسر.

أما مفاصل المعصمين فهي مفاصل انزلاقية، السطوح المتلامسة فيها مسطحة بحيث تمكن العظام المتلاقية عندها من الحركات الجانبية، كما تتحرك من الأمام إلى الخلف.

والمفصل بين الفقرتين العلويتين له بناء خاص يمكن الإنسان من إدارة رأسه من جنب إلى آخر بسهولة ويسر وذلك بدوران النهاية الكروية لإحدى الفقرتين داخل تجويف كروي في الفقرة الأخرى.

والهيكل العظمي للإنسان يشمل مجموعة العظام التي تدعم جسمه وتعطيه شكله وتحمي أجهزته والأجزاء اللينة والحساسة فيه، كما يوفر سطوحًا صلبة تنبني عليها العضلات.

ولولا الفواصل التي هيأها ربنا – تبارك وتعالى – لتتحرك غالبية عظام الهيكل الصلب للإنسان عبرها؛ ما استطاع الإنسان مجرد الحركة، ولو تعطل مفصل واحد لعانى الإنسان من عطله آلامًا عديدة وواجه مشاكل ومصاعب جمة.

من هنا كانت وصية رسول الله ﷺ للإنسان بضرورة شكر الله تعالى في كل يوم تطلع فيه الشمس عليه بعدد هذه السلامى في جسده، على الأقل إن لم يكن أكثر من ذلك، فمهما قدم الإنسان من ذكر وشكر وصدقات فإنه لا يمكن أن

شكل (81) يوضح الهيكل العظمي للإنسان.

يوفي شكر الله (تعالى) ولو على سلامى واحدة من الثلاثمائة والستين سلامى التي خلقها ربنا - تبارك وتعالى - في جسده.

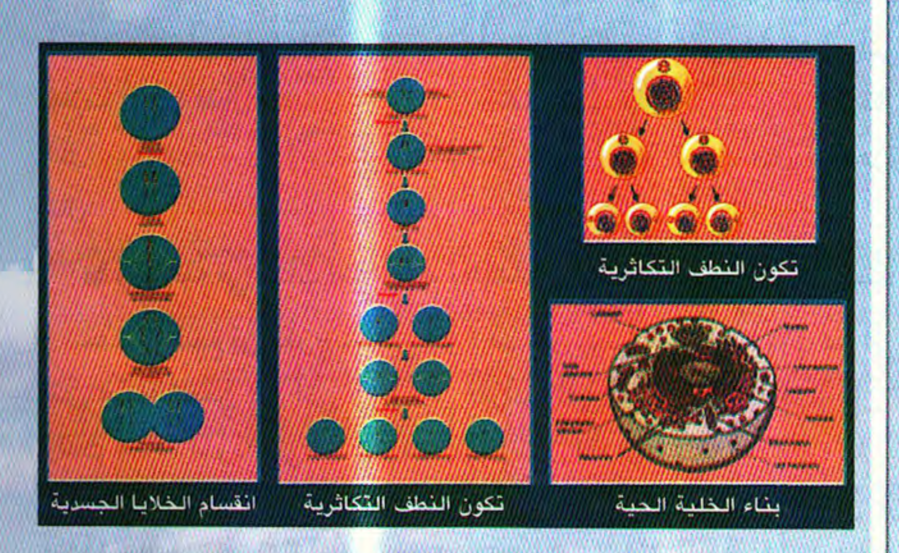
والسؤال الذي يفرض نفسه: من غير الله الخالق يمكن أن يكون قد علم سيدنا محمدًا ﷺ أن كل إنسان قد خلق على ستين وثلاثمائة مفصل؟ ومن الذي كان يمكن أن يضطره للخوض في أمر غيبي كهذا؟ لو لا أن الله (تعالى) قد أيده بعلم من عنده سابق لعلوم كل البشر، ليبقى هذا العلم الذي أنزله ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه، أو ألهمه خاتم أنبيائه ورسله ﷺ فذكره في حديث صحيح منسوب إليه كهذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده شاهدًا له بالنبوة والرسالة إلى يوم الدين، فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين.



شكل (82) يوضح دقة بناء عظام اليدين.

الحديث الثاني والثلاثون

«لعل نزعه عرق»



شكل (83)

يوضح بناء الخلية الحية في جسم الإنسان وانقسام كل من الخلايا الجسدية والخلايا التناسلية

32 «لعل نزعه عرق»

أخرَج الإمامُ البخاريُّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله وُلِد لي غلامٌ أسودُ. فقال: «هلْ لكَ من إبلٍ؟». قال نعم. قال: «ما ألوانُها؟»، قال: حُمْرٌ. قال: «هَل فِيها من أوْرَقَ؟». قال: نعم. قال: «فأنّى ذلكَ؟». قال: لعَلَّ نزعه عِرْقٌ. قال: «فلعَلَّ ابنَك هذا نزعَه عِرْقٌ».

■ والحديث أخرجه البخاري في (كتاب الطلاق، حديث رقم: 4893) بسنده، قال:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ قَزَعَةَ حَدَّثَنَا مَالِكٌ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بنِ المسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُول الله وُلِدَ لي غُلَامٌ أَسْوَدُ. فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبلٍ؟». قَالَ نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟». قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: «هل فيها من أورق؟». قال: نعم. قال: «فأنَّى ذلك؟». قال: لعله نزعه عرق. قال: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرقٌ».

■ وأخرج الإمام البخاري هذا الحديث بسنده في كتاب الحدود (حديث رقم: 6341) فقال:

حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ حَدَّثَنِي مَالِكٌ عَن ابْنِ شِهَابٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسَيَّبِ عَنْ أَبي هُرَيْرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إن امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَا! فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبلٍ؟»، قَالَ نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟»، قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟»، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ؟»، قَالَ: أُرَاهُ عِرقٌ نَزَعَهُ قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرقٌ».

■ وأخرجه في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة (حديث رقم: 6770) بسنده قال:

حَدَّثَنَا أَصْبَغُ بْنُ الْفَرَجِ حَدَّثَنِي ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ عَن ابْنِ شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ وَإِنِّي أَنْكَرْتُهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبلٍ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا أَلْوَانُها؟»، قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟»، قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: «فَأَنَّى تُرى ذَلِكَ جَاءهَا؟»، قَالَ: يَا رَسُولَ الله عِرْقٌ نَزَعَهَا، قَالَ: «ولَعَلَّ هَذَا عِرقٌ نَزَعَهُ». وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ فِي الانْتِفَاءِ مِنْهُ.

■ والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب اللعان، حديث رقم: 2756) بسنده قال: حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَأَبُو بكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَمْرٌو النَّاقِدُ وَزُهَيْرُ بْنُ حرْبٍ وَاللَّفْظُ لِقُتَيْبَةَ قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدتْ غُلامًا أَسْوَدَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟»، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا أَلْوَانُها؟»، قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟»، قَالَ: إِنَّ فِيهَا لَوُرْقًا، قَالَ: «فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟»، قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ، قَالَ: «وَهذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعهُ عِرْقٌ».

وحَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَمُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ وعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالَ ابنُ رَافِعٍ: حَدَّثَنَا، وقَالَ الآخَرَانِ: أَخبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، وحَدَّثَنِي ابنُ رَافِعٍ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي فُدَيْكٍ أَخبرَنَا ابْنُ أَبِي ذئْبٍ جَميعًا عَنِ الزُّهْرِيِّ بهَذا الإِسْنَادِ نَحْوَ حَدِيثِ ابْنِ عُيَيْنَة، غَيْرَ أَنَّ في حدَيثِ مَعْمَرٍ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله وَلَدَت امْرَأتِي غُلامًا أَسْوَدَ. وَهُوَ حِينَئِذٍ يُعَرِّضُ بِأَنْ يَنْفيَهُ، وَزَادَ في آخِرِ الحديثِ: وَلَمْ يُرَخِّصْ لَهُ في الانْتِفَاءِ مِنْهُ.

■ وأخرج الإمام أبو داود في سننه (كتاب الطلاق حديث رقم: 1927) بسنده قال:

حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي خَلَفٍ، حدثنا سُفْيَانُ عَن الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ، فَقَالَ: إِنَّ امْرَأَتِي جَاءَتْ بِوَلَدٍ أَسْوَدَ! فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟»، قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَلْوَانُها؟»، قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: «فَهَلْ فِيها مِنْ أَوْرَقَ؟»، قَالَ: إِنَّ فِيها لَوُرْقًا، قَالَ: «فَأَنَّى تُراهُ؟»، قَالَ: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ. قَالَ: «وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكونَ نَزَعَهُ عِرقٌ».

■ وقال: حَدَّثَنَا الحسَنُ بْنُ عَلِيٍّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَن الزُّهْرِيِّ بِإِسْنَادِهِ ومَعْنَاهُ وَهُوَ حِينَئِذٍ يُعَرِضُ بِأَنْ يَنْفيَهُ.

■ وأضاف قائلاً: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أخبرَني يُونُسُ عَن ابن شِهَابٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ أَعْرابيًّا أَتَى النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ امرْأَتِي ولَدَتْ غُلاَمًا أَسْوَدَ! وَإِنِّي أُنْكِرهُ. فَذَكر مَعْنَاهُ.

■ والحديث أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه أيضًا (كتاب النكاح، حديث رقم: 1992) بسنده، قال:

حدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ قَالا حَدَّثَنَا سُفيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْن المسَيَّبِ عَنْ أبِي هُرَيْرَة قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ إلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُول الله إنَّ امْرَأتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَلْ لَكَ مِنْ إبلٍ؟». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا ألْوَانُها؟». قَالَ حُمْرٌ. قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أوْرَقَ؟». قَالَ إنَّ فِيهَا لَوُرْقًا. قَالَ: «فَأنَّى أتَاهَا ذلكَ؟». قَالَ عَسَى عِرْقٌ نَزَعَهَا. قَالَ: «وَهَذَا لَعَلَّ عِرْقًا نَزَعهُ». واللَّفْظُ لابْنِ الصَّبَّاحِ.

■ والحديث أخرجه كذلك الإمام النسائي في سننه (كتاب الطلاق، حديث رقم: 3424) بسنده، قال:

أَخْبَرَنَا إسْحَقُ بْنُ إبْرَاهِيمَ قَالَ: أَنْبَأنَا سُفْيَانُ عَن الزُّهْريِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي فَزارةَ أَتَى رَسُولَ الله ﷺ فقَالَ: إنَّ امْرَأتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ! فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: «هَلْ لكَ مِنْ إبلٍ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَال: «فما ألوانها؟». قال: حُمْرٌ. قال: «فهل فيها من أورقَ؟». قال: إن فيها لورقًا. قال: «فَأنَّى تُرى أتى ذَلِكَ؟». قال: عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرقٌ. فَقَال رَسُولُ الله ﷺ: «وَهذا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ».

■ وأخرج هذا الحديث أيضًا الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم 6892) بسنده قال:

حَدَّثَنَا عَبدُ الأَعْلَى عَنْ مَعْمَرٍ عَن الزُّهْريِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ المسَيَّب عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ رَجُلاً مِنْ بَنِي فَزَارَةَ أَتَى النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ الله إنَّ امْرأتي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ! وَكَأَنَّهُ يُعَرِّضُ أنْ يَنْتَفِي مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «أَلَكَ إبلٌ؟» قَالَ نَعَمْ. قَالَ: «مَا أَلْوانُهَا؟». قَالَ: حُمْرٌ. قَالَ: «فِيهَا ذَوْدٌ أَوْرَقُ؟». قَالَ: نَعَمْ فِيهَا ذَوْدٌ أَوْرَق. قَالَ: «ومِمَّ ذَاكَ؟». قَالَ: لَعَلَّهُ نَزَعهُ عِرقٌ. قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وَهَذَا لَعَلَّهُ يَكُونُ نَزَعَهُ عِرْقٌ».

■ وفي رواية أخرى قال: حَدَّثَنَا يَزِيدُ أَخْبَرَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْب عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ سَعِيدِ ابْنِ المسَيَّبِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَة أَنَّ أعْرَابِيًّا مِنْ بَنِي فَزَارَةَ صَاحَ بِالنَّبيِّ ﷺ، فَقَالَ: إنَّ امْرَأتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ! فَذَكَرَ مَعْنَاهُ.

وقد ذكر الحديث الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم 2757) وكل من الأئمة أبي داود (حديث رقم 1927)، وابن ماجه (حديث رقم 1993)، والترمذي (تحفة الأحوذي

بشرح جامع الترمذي، حديث رقم: 2054)، والبيهقي في السنن الكبرى (حديث رقم: 1514)، والنسائي في سننه (حديث رقم: 3426)، وأحمد (حديث رقم 7433)، وعبد الرزاق في مصنفه (حديث رقم: 12371).

شرح الحديث

الحديث قاعدة في علم الوارثة لم يسبق إليها أحد، لأن العرق هنا يقصد به الأصل من النسب تشبيهًا بعرق الثمرة، وكون الجنين يكتسب صفاته ميراثًا عن أبويه اللذين يتقاسمان إعطاءه تلك الصفات بنسب متباينة حقيقة مشاهدة، إلا أن امتداد هذا الميراث إلى أصوله القديمة لم يعرف إلا بعد فهم آلية هذا التوارث في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (1865م– 1869م) حين تمكن النمساوي مندل (Mendel) من وضع تصور مبدئي لقانون الوراثة من خلال عدد من الملاحظات والتجارب التي أجراها على «نبات البازلاء» استخلص منها أن عملية انتقال الصفات من جيل إلى آخر تتم عبر عدد من العوامل المتناهية في الصغر، عرفت فيما بعد باسم حاملات الوارثة أو المورثات أو الجينات (Genes).

وبقيت المورثات إلى أوائل القرن العشرين مجرد رموز تستخدم في تفسير عمليات التنوع في الخلق حتى استطاع مورجان (Morgan) الذي عاش في الفترة من 1866م إلى 1945م إثبات أن الصفات الوراثية في ذبابة الفاكهة تحملها جسيمات خيطية متناهية في الصغر توجد داخل نواة الخلية الحية، وأن هذه الجسيمات لها قابلية عالية لاكتساب الصبغات والتلون بألوانها، ولذا عرفت باسم «الصبغيات» أو «الكروموسومات» (Chromosomes)، وقد تعرف مورجان على الجسيم الصبغي المختص بالتكاثر (Reproduction Chromosome)، واقترح فكرة رسم خرائط تفصيلية للصبغيات تحت مسمى التخطيط الوراثي.

وفي سنة 1955 م تمكن كل من چيمس واطسون (James Watson) وفرانسيس كريك (Francis Crick) من التعرف على التركيب الجزيئي للحمض النووي الريبي منزوع الأكسجين أو الـ (د. ن. أ) (Deoxyribonucleic Acid= DNA) الذي تتكون منه الصبغيات التي توجد في نوى الخلايا الحية، والتي تكتب الشيفرة الوراثية

بمكوناتها، وهو مركب فوسفوري شديد التعقيد، وقابل للتكسير كيميائيًا ليعطي حمض الفوسفوريك، وعددًا من السكريات ، والقواعد النيتروجينية.

وظلت الدراسات في مجال علم الوارثة تتطور في تسارع مبهر حتى تم الإعلان في 26/ 6/ 2000م (الموافق 24/3/1421هـ) عن الانتهاء من القراءة المبدئية للشفيرة الوراثية للإنسان؛ وذلك بالتعرف على 97٪ من مكونات تلك الشفيرة وظل العمل مستمرًا حتى تمت قراءة الجزء الباقي منها (3 ٪ من مكونات الشفيرة) بتاريخ 14/ 4/ 2003م.

وقد اتضح من هذه الدراسة أن الشفيرة البشرية تتكون من 18.6 بليون جزيء من المركبات الكيميائية موزعة بالتساوي على ثلاثة مكونات أساسية هي القواعد النيتروجينية والفسفور والسكر، الممثل كل منها بحوالي ست بلايين جزيء (6,2 بليون جزيء) مرتبة في 3,1 بليون وحدة، تعرف باسم النويد (Nucleotide) يتكون كل منها من زوج من القواعد النيتروجينية مرتبطين ببعضهما البعض وتستند كل قاعدة منهما على جزيء من السكر وجزيء من الفوسفات، وتكون جزيئات السكر والفوسفات جذرين تتوزع بينهما أزواج القواعد النيتروجينية على هيئة درجات السلم الخشبي متوازي الساقين.

وتتوزع النويدات في أكثر قليلاً من بليون شفيرة (Codon) تتكون كل منها من ثلاث نويدات، وتتوزع الشفيرات في حوالي أربعين ألف مورث (Gene)، وتنتشر المورثات على طول 46 من الأجساد الصبغية (Chromosomes) التي توجد في نواة كل خلية من خلايا جسم الإنسان، فيما عدا الخلايا التكاثرية (خلايا التناسل) أو النطف (البييضة والحيمن) اللذين يحتوي كل منهما على نصف هذا العدد من الصبغيات (أي على 23 جسيمًا صبغيًا فقط) حتى يكتمل العدد إلى 46 صبغيًا بالتزاوج فيتم هذا التكامل في البيضة المخصبة (أو النطفة الأمشاج)، وكذلك هناك بعض الخلايا القليلة التي لا تحمل نواة مثل خلايا الدم الحمراء وبالتالي لا تحمل شيفرة وراثية.

وأغلب خلايا جسد الإنسان على قدر من الضآلة، بحيث لا يتعدى قطر الخلية الواحدة منها (00,03) من الملليمتر، وهي على الرغم من ذلك بناء معجز للغاية يحوي هذا الكم الهائل من المورثات (حوالي أربعين ألفًا في كل واحد من بلايين الخلايا المكونة لجسم الإنسان) وهذه المورثات كلها مستمدة من مجموع المورثات التي أودعها الله – تعالى – صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وعليه فقد ينال الوليد منها صفات لم تظهر في أي من أبويه وإخوانه، ومن هنا تتضح لمحة الإعجاز العلمي في قوله ﷺ للرجل الذي جاء يشكو إليه أن امرأته ولدت غلامًا أسود، فرد عليه قائلاً: «عسى أن يكون نزعه عرق»، ونحن نفهم ذلك اليوم في إطار علوم الوراثة بأن اختلاف لون بشرة المولود عن لون بشرة كل من أبيه وأمه يرجع إلى أن كلاً منهما وأيًا من أسلافهما يحمل صفة سواد البشرة كصفة متنحية لم تظهر في أي منهما، ولكنها قد تجتمع في أحد أولادهما أو أحفادهما كصفة سائدة فتظهر عليه.

وبما أن كل خلية من خلايا التكاثر (النطف) تحتوي على 23 من الجسيمات الصبغية، 22 منها للصفات الجسدية، وواحد لصفات الذكورة أو الأنوثة، ونطفة الرجل (الحيمن) إما أن تحمل صفة الذكورة (Y) أو صفة الأنوثة (X) بينما نطفة المرأة (البييضة) دومًا تحمل صفة الأنوثة (X)، فإذا أخصبت البييضة بحيمن يحمل شارة الذكورة (Y) أتى الجنين ذكرًا بإذن الله، وإذا أخصبت بحيمن يحمل شارة الأنوثة (X) أتى الجنين أنثى بإذن الله – هذا في حدود المعارف المتاحة لنا إلى اليوم – وعندما تتم عملية الإخصاب يكتمل عدد الصبغيات إلى (46) وهو العدد المحدد للنوع البشري، ويحمل كل صبغي من هذه الصبغيات العديد من المورثات (حوالي عشرة آلاف مورث)، ويسمى موقع المورث (الناسلة = Gene) على طول الصبغي باسم الموقع (Locus) وبما أن الصبغيات توجد في أزواج فإن الموقع المقابل لأي مورث على أحد هذين الصبغيين على الصبغي المقابل يعرف باسم أليل (Allele) والصفتان إحداهما مأخوذة من الأب، والأخرى من الأم تبعًا للصبغيين الحاملين لهما، فإذا كانت الصفتان متشابهتين (Homozygous) تركزتا وسادت الصفة أو المرض الذي كان متنحيًا (Recessive) وأما إذا كانت الصفتان مختلفتين (Heterozygous) فإن الصفة الأقوى تسود، والأضعف تستتر.

من أجل ذلك نصح رسول الله ﷺ بالزواج من الأكفاء، ونهى عن خضراء الدمن وهي المرأة الحسناء في منبت السوء، ومن أجل ذلك أيضًا طلب أنبياء الله والصالحون من عباده الذرية الصالحة من ربهم.

ومن هنا أيضًا كانت لمحة الإعجاز في قول رسولنا ﷺ: «عسى أن يكون نزعه عرق».

ويدل هذا الحديث النبوي الشريف على سعة علم رسول الله ﷺ ذلك العلم الوهبي الذي أفاء الله – تعالى– عليه به، كما دل على قدرته ﷺ على الحوار والإقناع بالأسلوب الذي فهمه السائل، واقتنع به وهو قادم إلى رسول الله ﷺ والأمر يشغل باله ويحيره، والشيطان يُسَوِّل له من الشر الكثير، ونفسه تتمزق بين الشك واليقين، فلما سأله رسول الله ﷺ عن ألوان إبله أرجعه إلى صوابه، وأقام عليه الحجة والدليل العقلي الذي أزال ما قد ران على قلبه من ظلال الريبة والشك في زوجته التي لم يكن لها في الأمر ذنب أو خطيئة.

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر لتسلسل الصفات الجسدية من لدن أبينا آدم وأمنا حواء عليهما السلام إلى أن يولد الفرد من بني الإنسان، وبعض هذه الصفات قد يكون ظاهرًا (الصفات السائدة) وبعضها قد يكون مستترًا (الصفات المتنحية)، فإذا اتفق وكان كل من الأب والأم أو أي من أسلافهما يحمل نفس الصفة المتنحية (من مثل سواد البشرة) فإن عددًا من ذريتهما سوف يحمل نفس الصفة المتنحية، ومن هنا فإن أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه نهى عن زواج الأقارب من الدرجة الأولى كي لا يضعف النسل، وذلك بقوله: «اغتربوا لا تضووا» أي تزوجوا الأغراب حتى لا يضعف نسلكم.

ومن الثابت علميًّا أن الأقارب من الدرجة الثانية (أبناء العمومة والخئولة) يشتركون في نسبة من مورثاتهم، فإذا تم التزاوج بينهم ازدادت نسبة ظهور الصفات المتنحية، وقد يكون بعضها من مسببات عدد من الأمراض التي تضعف النسل أو تشوهه.

ومن الأمراض الوراثية التي تحملها صفات متنحية والتي تظهر بتزاوج الأقارب من الدرجة الأولى خاصة إذا تم ذلك لعدة أجيال متتابعة مرض الثلاسيمية بأنواعه



المتعددة (الكبرى والصغرى وألفا وبيتا Thalassemia Major Minor. A.B) وهو مرض يؤدى إلى فقر الدم الانحلالي وينتشر في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة خاصة، ومرض آخر يناظره باسم (المنجلية) يتسبب في فقر الدم الانحلالي، وينتشر كذلك في الدول الإفريقية الفقيرة، وفي غيرها من المناطق الموبوءة بالملاريا.

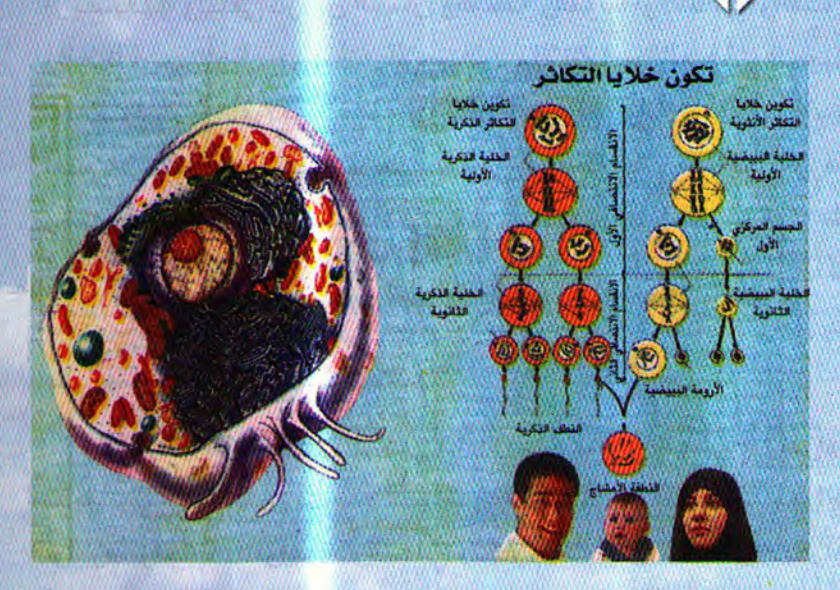
والحديث النبوي الشريف الذي نحن بصدده صورة من صور الإعجاز العلمي في أقوال رسول الله ﷺ وذلك لأنه على الرغم من أن الناس قد عرفوا منذ الأزل حقيقة توارث صفات الوليد عن والديه في الإنسان وفي غيره من الكائنات التي تتكاثر بالتزاوج إلا أن آلية ذلك لم تفهم إلا في خلال القرن العشرين.

ومن هذا الفهم أننا إذا عدنا لعملية انقسام كل جسيم صبغي في الخلية الحية إلى الوراء مع الزمن تنتهي الشفيرات الوراثية لبلايين البشر الذين تمتلئ بهم جنبات الأرض اليوم، وللبلايين الذي عاشوا وماتوا من قبل وللبلايين الذي سيأتون من بعدنا إلى قيام الساعة، ينتهي ذلك كله إلى شفيرة وراثية واحدة كانت في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وأن التنوع في صفات تلك الشفيرة بالتوارث هو الذي أعطى البشرية ذلك التنوع الهائل في صفاتها التشريحية وفي عدد من صفاتها السلوكية والنفسية.

فكل ما في الفرد من سمات وميول، وذوق ومزاج، ولون، وطول قامة، وزمرة دم، وغير ذلك من ضوابط.. موروث عن سلسلة أجداده من ناحيتي الأب والأم، وبعض هذه الصفات مستتر، وبعضها سائد، وقد تظهر هذه الصفات المستترة في جيل من الأجيال، ومن هنا تتضح روعة التعبير النبوي الشريف: «عسى أن يكون نزعه عرق». وهي حقيقة علمية لم تتضح أبعادها إلا في العقود الأولى من القرن العشرين، ولم تتبلور إلا في أواخره، ونُطْقُ رسول الله ﷺ بها بهذا الوضوح القاطع مما يشهد له بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث الثالث والثلاثون

«إن العِـــرق دَسَّـــاس»



شكل (84)

يوضح تركيب الخلية الحية، وتَكوُّن خلايا التكاثر في الإنسان

33 «إن العــــرق دســـاس»

■ أخرج كل من الإمامين ابن ماجه والديلمي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «انظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس»[1].

شرح الحديث

ينصح رسول الله ﷺ بهذا الحديث الشريف كل مقدم على الزواج أن يحسن اختيار زوجه؛ لأن العرق دساس، وذلك حرصًا على سلامة كل من الأسرة، والنسل الناتج عنها، والأسرة هي اللبنة التي يتكون من مجموعها بناء الأمة، وعلى ذلك فإن الأسرة إذا صلحت؛ صلح النسل وشاع الصلاح في المجتمع، والمجتمعات الإنسانية فيها الخبيث والطيب، والبر والفاجر، وحُكْمُ المجتمع بحكم الاتجاه الغالب فيه فإن كانت غالبيته من الصالحين شاع فيه الصلاح، وإن كانت غالبيته من الخبثاء الفاجرين شاع فيه الخبث والفجور (ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).

والأسرة هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الطفل تكوينه الشخصي، والديني، والفكري، وفي جوها يتربى على القيم الأخلاقية أو يفقدها، ويتعلم ضوابط السلوك أو يضيعها، ويتلقى دروس الحنان والمحبة والمودة أو الأنانية والقسوة والكراهية والغلظة، ويتأصل في ذاته الإحساس بالانتماء، والعرفان للجميل، والشعور بالمسئولية، أو الفردية القاتلة، وإنكار المعروف، واللا مبالاة والاستهتار؛ لذلك اهتم الإسلام ببناء الأسرة على أسس صحيحة حتى تستقر أمورها، ويستقيم وضعها، وتكون لبنة صالحة في بناء المجتمع المسلم، ومحضنًا طيبًا لأجيال المستقبل يُعدهم إعدادًا صحيحًا لحمل رسالتهم في هذه الحياة: عبادًا لله- تعالى- يعبدونه بما أمر، ويحسنون القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض بحسن القيام على عمارتها وإقامة عدل الله فيها.

والأسرة إن قامت على أساس من الإيمان بالله - تعالى- وتقواه، وعلى فهم دقيق لرسالة الإنسان في هذه الحياة، وعلى الارتقاء المستمر في معراج الله بالتزام أوامره، واجتناب نواهيه، والتحلي بمكارم الأخلاق، والاعتزاز بكرامة الإنسان؛

(1) تذكرة الموضوعات 905/1، وقال عنه الألباني موضوع.

فإن الأمة تسود بأبنائها الصالحين، وإن قامت الأسرة على التحلل من الضوابط الأخلاقية والسلوكية، وعلى الانفلات من أوامر الله والوقوع في محارمه فإن الأمة تذل وتهون وتصبح لقمة سائغة في أفواه أعدائها.

ومن أسس إصلاح الأسرة حسن اختيار الزوجة، واعتبار الزواج عملية تعبدية لله- تعالى- قبل أن يكون حاجة فردية أو اجتماعية؛ لأنه السبيل الوحيد المشروع للعلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة، والوسيلة الوحيدة المشروعة لبناء الأسرة الصالحة، ومن ثم بناء المجتمع الفاضل القادر على القيام بواجبات الاستخلاف في الأرض.

والزواج أمر فطري في الإنسان، ومن ضرورات الدين ولذا حث الإسلامُ عليه. ورَغَّب فيه، ووضع له الضوابط الصحيحة، ومن أولها حسن اختيار الزوجة؛ ولذلك قال المصطفى ﷺ: «انظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس»[(1)]، وقال: «تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وأنكحوا إليهم»[(2)]، وقال: «الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[(3)]، وقال: «تنكح المرأة لأربع: لجمالها، ولمالها ولنسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[(4)].

ومعنى هذا الحديث الأخير أن يسأل عن التزام المرأة المقصودة للزواج بواجباتها الدينية، وعن برها بوالديها، وعن عفافها وحيائها وخلقها قبل السؤال عن جمالها، ومالها، وحسبها، ونسبها.

أما الحديث الذي نحن بصدده فيوصي بالسؤال عن النسب أولاً وقبل كل شيء؛ لأن العرق دساس، وحسن الاختيار لا يقتصر فيه كل من الزوجين على صاحبه، بل ينبغي أن يتعداهما إلى أهليهما؛ لأن قوانين الوراثة تعطي للجنين جزءًا من صفات الأب وأسلافه، وجزءًا من صفات الأم وأسلافها.

---

(1) مسند الشهاب 370/1، والفردوس بمأثور الخطاب 72/2.

(2) الحاكم 176/2، وابن ماجه (1968).

(3) مسلم (1467)، والنسائي (3232).

(4) البخاري (5090)، ومسلم (1466).

والصفات الوراثية محمولة في داخل نواة الخلية على جسيمات دقيقة تعرف باسم الصبغيات أو الأجسام الصبغية (Chromosomes)وذلك لقدرتها على اكتساب الأصباغ والتلون بها أكثر من أجزاء الخلية الأخرى. وعدد الصبغيات في نواة الخلية الحية هو عدد مُحَدَّدٌ لكل نوع من أنواع الحياة، فعددها في الخلية البشرية ستة وأربعون (46)، مرتبة في ثلاثة وعشرين (23) زوجًا في نواة كل خلية من خلايا جسم الإنسان ما عدا الخلايا التناسلية (Reproductive or Germ Cells) من مثل النطفة الذكرية أو الحيمن والنطفة الأنثوية أو البييضة والتي يحمل كل منها نصف هذا العدد (أي 23 صبغيًّا فقط) فإذا التقيا وتمت عملية الإخصاب فإن عدد الصبغيات المحدد للنوع البشري يكتمل في النطفة الأمشاج (المختلطة) الناتجة عن عملية الإخصاب والتي تمثل المرحلة الأولى في حياة الجنين والمعروفة باسم اللقيحة (Zygote) وفيها تختلط صفات الأب وأسلافه مع صفات الأم وأسلافها، فيأتي الجنين على قدر من التشابه مع أبويه وأسلافهما، وعلى قدر من التباين مع كل منهم فإذا كان في أسلاف أي من الأبوين بعض الصفات السيئة أو الأمراض الخبيثة؛ فإن انتقال تلك الصفات أو الأمراض إلى الجنين محتملة، ولذلك قال المصطفى ﷺ: «انظر في أي نصاب تضع ولدك فإن العرق دساس».

وكما أن الرجل مطالب بحسن اختيار شريكة حياته وأم أولاده، فإنه من الواجب على ولي المرأة أن يحسن اختيار الرجل المناسب ليكون زوجًا لها، ولذلك قال خاتم الأنبياء والمرسلين (صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين): «إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1].

وفي ذلك كتب الإمام أبو حامد الغزالي (رحمه الله) تحت عنوان (آداب المرأة إذا خطبها رجل) فيقول: «تأمر من تأمن به من أهلها إن كان صدوقًا أن يسأل عن دينه واعتقاده، ومروءته في نفسه، وصدقه في وعده، وينظر مَنْ قرناؤه؟ ومَنْ يغشاه في بيته؟ وعن مواظبته على صلواته، وجماعته، ونصيحته في تجارته أو صنعته، وتكون رغبتها في دينه دون ماله...».

---

(1) الترمذي (1085)، وابن ماجه (1967).

وكما سبق أن أسلفنا فإن حسن اختيار الرجل لزوجته، أو المرأة لزوجها لا يجوز الاقتصار فيه على شخصيهما، بل ينبغي أن تتعداهما عملية الاختيار إلى أهليهما وذويهما؛ لأن قوانين الوراثة قد تصل إلى الجنين من أبعد الأجداد نسبًا، ولأن المحضن الذي تربى فيه الإنسان يلعب دورًا أساسيًّا في تكوين أخلاقه، وضبط سلوكياته؛ ولذلك يعتبر الإسلام العظيم أن الزوجة الصالحة هي حسنة الدنيا، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله (عز وجل) خيرًا له من زوجة صالحة: إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله»[1].

وسَبْقُ حديث رسول الله ﷺ لكل المعارف المكتسبة في مجالات علوم الطب والحياة- التي وصلت إلى قوانين الوراثة بصورة بدائية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، (مندل 1865م - 1869م) ولم تتمكن من بلورتها علميًّا إلا في القرن العشرين (مورجان 1912م- 1926م) وذلك بأكثر من اثني عشر قرنًا من الزمان - لا يمكن أن يكون له من تفسير إلا الاعتراف بصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وبأنه (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) كان موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض. فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد والحمد لله رب العالمين.

---

(1) ابن ماجه (1857).

الحديث الرابع والثلاثون

الله خالق كل نفس



شكل (85)
يوضح طلاقة القدرة الإلهية في خلق ألوان وأشكال البشر المختلفة كلها من أصل واحد

34 اللــه خالــق كــل نفـــس

■ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا عليكم ألا تعزلوا، إنه ما من نفس منفوسة إلا أن الله خالقها». (أخرجه ابن رجب الحنبلي).

شرح الحديث

هذا الحديث النبوي الشريف جاء تفسيرًا لقول ربنا - تبارك وتعالى -: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6]، ولقوله عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعرف: 172].

فمن الثابت علميًا أنه لم يخلق فردان من بني الإنسان (أو من غيرهم من مختلف صور الأحياء الحيوانية والنباتية) وصفاتهما الحيوية متشابهة تشابهًا كاملاً إلا في حالات التوائم الصحيحة - وهي حالات نادرة - وحتى في هذه الحالات يبقى التوءمان مختلفين في الطبائع الشخصية، والصفات الذاتية، والنوازع النفسية، والميول والرغبات، والقدرات العقلية، والمهارات اليدوية وإن تشابها من الناحية الشكلية.

واحتمال التشابه الحيوي بين فردين من بني البشر غير التوائم الصحيحة هو أمر يكاد يكون مستحيلاً من الناحية الإحصائية، وعلى ذلك فإن عملية تخلق كل فرد في مراحله الجنينية هي عملية تصوير خاصة به لا يقدر عليها إلا رب العالمين، وذلك لأن المخزون الوراثي للبشر أجمعين كان في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم أعطيت أمنا حواء شطرًا من هذا المخزون الوراثي، الذي انفرد وتعدد بالتزاوج بين الذكور والإناث مع الزمن بالتدريج ليعطي البلايين من البشر من زمن أبوينا الأولين آدم وحواء عليهما السلام إلى اليوم، وسيظل يعطي كل نفس منفوسة؛ أي قدَّر الله- تعالى لها الوجود إلى قيام الساعة.

فالبلايين السبعة من البشر الذين يملئون جنبات الأرض اليوم، والبلايين التي عاشت من قبل وماتت، والبلايين التي سوف تأتي من بعدنا إلى قيام الساعة

كانت كلها في عالم الذر في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، وقد أشهدهم الله - تعالى- جميعًا على حقيقة الربوبية فقال- عز من قائل-: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: 172].

وأخرج كل من الإمامين البخاري ومسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديًا به؟ فيقول: نعم... فيقول الله - تعالى- أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر آدم ألاَّ تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي**»[1].

فكل إنسان مقدر له أن يحيا على سطح هذه الأرض ولو للحظة واحدة معروفة بصفاته المحددة عند خالقه، وكان موجودًا في عالم الذر في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، ثم تقاسمت أمنا حواء معه هذا المخزون الوراثي، وبالتزاوج الذي جعله ربنا- تبارك وتعالى- سنة من سننه لإعمار الأرض بالحياة بدأ هذا المخزون الوراثي الذي وهبه الله - تعالى- لأبوينا آدم وحواء عليهما السلام في الانفراد والانبساط مع الزمن ليعطي بلايين البلايين من بني آدم الذين تناقصت أحجامهم وأعمارهم باستمرار مع الزمن، وقد خص الله (تعالى) كل فرد منهم بصفات وراثية محددة يقررها نصيبه المفروض له من المخزون الوراثي للإنسان (The Human Genetic Pool) والذي قسمه لنا الخالق- سبحانه وتعالى- منذ الأزل، يعرف هذا التسلسل في علم الوراثة باسم التنوع من الأصل الواحد أو ما يعرف في اللغة الإنجليزية بالتعبير: (Diversity in Unity)، ولولا هذا التنوع لكان أفراد الجنس البشري على نمط واحد من الخلقة، ولأدى ذلك إلى التنافر بين الناس، ولاستحالت الحياة أو أصبحت ثقيلة كريهة لا تطيقها النفس الإنسانية؛ لذلك قال الله - تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: 1].

(1) البخاري (6557)، ومسلم (2805).

ولذلك أيضًا خص الخالق البارئ المصور– سبحانه وتعالى– كل نوع من أنواع الحياة بعدد محدد من الصبغيات، وخص الإنسان بستة وأربعين صبغيًا في نواة خلاياه الجسدية، وخص خلايا التكاثر بنصف هذا العدد (ثلاثة وعشرين صبغيًا فقط) حتى إذا التقت النطفتان من الزوج والزوجة بمشيئة الله – تعالى– واتحدتا لتكوين النطفة الأمشاج (المختلطة) بمشيئته – سبحانه– تكامل عدد الصبغيات، وجاء نصفها من الأب وأسلافه، والنصف الآخر من الأم وأسلافها ويأتي الجنين على قدر من التشابه والاختلاف مع الوالدين، ولذلك روي عن رسول الله ﷺ قوله الشريف: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم»[1].

فإذا علمنا هذه الحقيقة، وأضفنا إليها أن الدفقة الواحدة من مني الرجل تحمل ما بين مائتي مليون، وألف مليون نطفة (حيمن أو حيوان منوي)، وأن الحد الأدنى للإخصاب يحتاج إلى كثافة لا تقل عن عشرين مليون نطفة في كل ملليمتر من المني الذي يتكون من تلك النطف ومن سائل يشترك في إفرازه كل من الغدتين التناسليتين وعدد من الغدد الأخرى. وإذا علمنا أن من بين تلك البلايين من نطف الرجل التي تتحرك في اتجاه البييضة من أجل إخصابها لا يصل أكثر من خمسمائة نطفة، وأن هذه النطف يتحلل أغلبها من أجل المساعدة على ترقيق جزء من جدار البييضة لتمكين نطفة واحدة منها مختارة منها من أجل إخصابها وتكوين النطفة الأمشاج (المختلطة).

وإذا علمنا أن الرجل يمكن أن يبقى نشطًا جنسيًا من لحظة بلوغه إلى لحظة مماته، وأن هذه الفترة تمتد لأكثر من خمسين سنة في المتوسط فإن عدد النطف المنتجة من رجل واحد طيلة حياته اليافعة (من البلوغ إلى الممات) تقدر بملايين الملايين لا ينجح منها في إتمام عملية الإخصاب إلا آحاد قليلة، وقد لا يفلح أي منها في ذلك أبدًا ولذلك قال تعالى–: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: 49، 50].

---

(1) ابن جرير 87/30 .

وقال المصطفى ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء»[1]. وبالإضافة إلى هذه القيود العديدة، التي هي كلها من صنع الخالق العظيم وبين إصبعين من أصابعه فإن هناك قيودًا أشد في الجانب الآخر، فبينما للأنثى وهي جنين في بطن أمها ما بين أربعمائة ألف وستة ملايين بييضة في مراحل تكونها الأولى، فإنها إذا وصلت إلى مرحلة البلوغ لا يبقى في غدتيها التناسليتين سوى بضعة آلاف قليلة إلى ثلاثين ألف بييضة، تنمو بها بييضة واحدة كل شهر طوال فترة خصوبة المرأة المقدرة بحوالي عشرين إلى ثلاث وثلاثين سنة في المتوسط، وعلى ذلك فإن مجموع البييضات التي يفرزها جسم المرأة البالغة طوال مدة خصوبتها لا يزيد على الأربعمائة، يهلك جزء كبير منها قبل الزواج، وفي غير فترات الحمل بعد الزواج. فإذا أراد الله - سبحانه وتعالى - لجنين أن يخلق حسب برنامج خلق بني آدم والذي وضع في صلب أبينا آدم عليه السلام لحظة خلقه، اختارت يد القدرة الإلهية بييضة محددة من البييضات الناضجة ومكنتها من الخروج من خدرها في الزمان والمكان المحددين، لملاقاة نطفة محددة من رجل معين كان الله - تعالى - قد اختاره لها، وذلك من أجل إخصابها وتَخَلُّق جنين محدد منهما بصفات وراثية محددة في علم الخالق العظيم، سواء قدرت له الحياة أو لم تقدر.

فإذا لم يكن الله - تعالى - قد أراد لهذا الجنين أن يخلق، فإن البييضة لا توفق إلى لقاء النطفة فتموت؛ لأن عمرها محدد بأربع وعشرين ساعة فقط، وخصوبتها محددة بنصف عمرها أي باثنتي عشرة ساعة فقط.

وتذكر الدرسات الطبية أنه في مقابل كل نطفة أنثوية (بييضة) تفرزها الزوجة، فإن الزوج يفرز بليون نطفة ذكرية (حيمن) على الأقل، وتصطفي القدرة الإلهية المبدعة من هذا الكم الهائل من النطف نطفة ذكرية محددة لنطفة مؤنثة محددة، بصفات وراثية معينة لتلتقي نطفة مذكرة محددة بصفات وراثية خاصة في مكان وزمان محددين ليتخلق في رحم الأم جنين معين بصفات وراثية معينة قدر الله - تعالى - له أن يكون منذ الأزل. ومن الثابت أن البييضة قد تلقح ولا تخصب،

(1) مسلم (1438)، وأحمد (11369).

ولكن لسبب ما لا تستمر إلى مراحل التخلق التالية، فليس كل بييضة مخصبة مؤهلة للوصول إلى طور الجنين الكامل، خاصة أن الإحصاءات الطبية تشير إلى أن 78٪ من كل حمل يجهض ويتم إسقاطه، وأن حوالي 50٪ من حالات الحمل يفشل ويسقط قبل أن تدرك الأم أنها حملت بالفعل. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيء لم يمنعه شيء»، وقال صلوات ربي وسلامه عليه: «إذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكًا فقال يا رب: مخلقة أو غير مخلقة؟ فإن قال: غير مخلقة. مجتها الأرحام دمًا»(1).

ومن صور الاصطفاء الإلهي للجنين تحديد جنسه، فإن كانت النطفة المحددة التي اختارها الله - تعالى- لإخصاب البييضة محددة تحمل شارة التذكير (Y) جاء الجنين ذكرًا بإذن الله، وإن كانت تحمل شارة التأنيث (X) جاء الجنين أنثى بإذن الله؛ ولذلك قال - تعالى-: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ * مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ [النجم: 45/ 46].

ويأتي بعد تحديد الصفات والجنس تحديد كل من الأجل، والرزق، والعمل، والشقاء أو السعادة، بأمر من الخالق - سبحانه وتعالى- وكله في علمه المحيط الذي لا يحده مكان ولا زمان.

ومن أروع صور الاصطفاء للجنين البشري وهو في بطن أمه هو ذلك الاصطفاء من مخزون الصفات الوراثية لكل من الأب وأسلافه، والأم وأسلافها، حتى يأتي الجنين حسب تقدير الله- تعالى- والجنين في عالم الذر في صلب أبينا آدم عليه السلام؛ وذلك لأن عدد المورثات البنائية في الشفيرة الوراثية للإنسان يتراوح بين ثلاثين ألفًا وخمسة وثلاثين ألف مورث، وقد عرف من هذه المورثات ما يتحكم في تشكيل الجنين؛ ولذلك سميت باسم «مورثات التكوين والبناء» (Formation and Structure Genes)، ومنها ما يتحكم في تسوية أعضاء الجنين حتى يصل إلى شكله الكامل؛ ولذلك سميت باسم «مورثات التنظيم والتسوية» (Regulation and Fashioning)، ومنها ما يتحكم في الشكل والصورة (Form and Image Gene) وما يتحكم في لون كل من

(1) ابن جرير 17/ 117، والترمذي في نوادر الأصول 1/ 267.

البشرة والشعر والعينين، وفي طول القامة وقصرها، وفي غير ذلك من الصفات، وهذه المورثات وغيرها وهي من خلق واختيار الله - تعالى - هي التي تتحكم في تحديد كل صفات الجنين التي تميزه عن غيره من المخلوقين بما في ذلك الشكل والصورة؛ ولذلك قال - تعالى-: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 6].

وبالإضافة إلى هذه العمليات التصورية لأجنة الإنسان في أرحام أمهاتهم فإن هذه الآية الكريمة تشير كذلك إلى طلاقة القدرة الإلهية المبدعة في أن النطفة الأمشاج (البييضة المخصبة) وهي كيان لا يتعدى قطره خمس المليمتر (200 ميكرون) تتحول إلى الحمل الكامل في فترة تتراوح بين (180) يومًا (وهي أقل مدة للحمل) و(266) يومًا (وهي أطول مدة للحمل) ليصل طوله إلى نصف متر تقريبًا، وليحوي جسده ملايين الخلايا المتخصصة التي تنتظمها أنسجة متخصصة، في أعضاء وأجهزة محددة تعمل في توافق تام من أجل هذا المخلوق الجديد، وذلك عبر مراحل محددة وصفها القرآن الكريم في عشرات الآيات: من العلقة إلى المضغة (المخلقة وغير المخلقة) إلى خلق العظام، ثم كسوتها باللحم (العضلات والجلد)، ثم إنشائه خلقًا آخر.

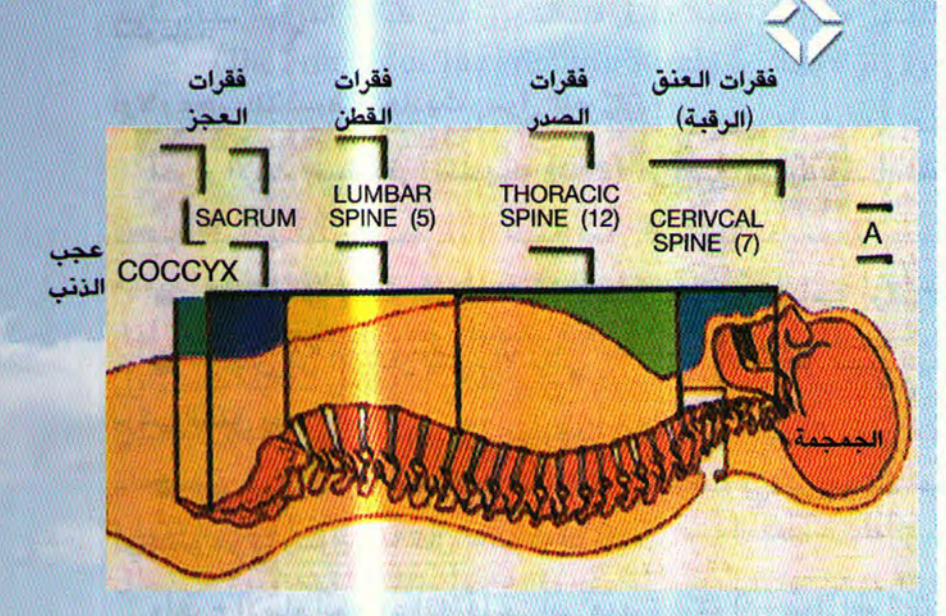
فسبحان الله الخالق البارئ المصور الذي أنزل في محكم كتابه من قبل ألف وأربعمائة سنة حقيقة أنه - تعالى- هو الذي يصور الخلق في الأرحام كيف يشاء، وأوحى إلى خاتم أنبيائه ورسله- صلوات الله وسلامه عليه - قوله الشريف مخاطبًا سائليه: «لا عليكم ألا تعزلوا، إنه ما من نفس منفوسة إلا أن الله خالقها» (أخرجه ابن رجب الحنبلي).

وهذه حقيقة لم تدركها العلوم المكتسبة إلا بعد تطور علوم الوراثة، وقراءة الشفيرة الوراثية للإنسان، وإدراك الضوابط العديدة التي تتحكم في تخلق الأجنة في أرحام الأمهات مما يشير إلى أنها لا يمكن أن تتخلق بعَفْويَّة أو مصادفة، بل لابد لها من خالق عليم حكيم يصورها في الأرحام كيف يشاء، وله من صفات الألوهية والربوبية والوحدانية ما يمكنه من تحقيق ذلك.

وسبق كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بتأكيد هذه الحقائق العلمية الدقيقة، وبوصف تلك المراحل الجنينية للإنسان وصفًا يفوق ما حققته العلوم المكتسبة دقة وشمولاً وكمالاً – في عصر تفجر المعرفة العلمية الذي نعيشه مِمَّا يقطع بأن هذا الكتاب الخالد لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية، وتعهد بهذا الحفظ الكامل لكتابه الخاتم ولسنة خاتم أنبيائه ورسله إلى أن يرث الأرض ومن عليها، حتى يبقى هذان المصدران الرئيسيان لوحي السماء شاهدين على الناس كافة إلى يوم الدين، وذلك لضياع أصل الرسالات السماوية السابقة كلها، وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى التحريف تلو التحريف وإلى التغيير والتبديل والتزييف مما أخرجها عن إطارها الرباني، وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها، فالحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحديث الخامس والثلاثون

خلق الإنسان من عجب الذنب



شكل (86)
يوضح أجزاء العمود الفقري للإنسان

35 خلق الإنسان من عجب الذنب

■ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كل ابنِ آدمَ يأكلُه الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خلِقَ وفيه يُركَّبُ». (أخرجه مسلم ح 2955).

شرح الحديث

هذا الحديث النبوي الشريف جاء مذكرة تفسيرية لقوله تعالى -: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ [ق: 4].

ومن دلالات كل من الحديث النبوي الشريف والآية الكريمة أن أجساد الأموات بعد تحللها في قبورهـا إلى مكوناتها الأساسية من الماء وتراب الأرض، يبقى منها شيء مهم؛ ولذلك عبرت الآية الكريمة عن الماء والتراب بتعبير (ما تنقص الأرض منهم) كأن الأصل منهم ما يتبقى بعد فقدان ذلك ، وقد أوضحت أحاديث رسول الله ﷺ ما يتبقى من الميت بعد تحلل جسده، وهى عظمة مثل حبة الخردل منها خلق، وفيها يركب يوم البعث مما يوحى بأنها أهم ما في جسد الإنسان من مكونات.

أولا: عجب الذنب في أحاديث رسول الله ﷺ:

أخرج الإمام مسلم في صحيحه (2955) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

■ «كلُّ ابنِ آدمَ يأكلُهُ الترابُ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منهُ خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ».

■ «وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا هو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

■ «إن في الإنسان عظما لا تأكله الأرض أبدا، فيه يركب يوم القيامة». قالوا أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «عَجْبُ الذَّنَبِ».

وأخرج الإمام أبو داود (4743) عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال:

■ «كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عَجْبَ الذَّنَبَ منه خلق وفيه يركب».

وأخرج الإمام ابن حبان (3140) عن أبي سعيد الخدري – رضي الله تعالى عنه – أن رسول الله ﷺ قال:

■ «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشأ».

وأخرج الإمام البخاري في صحيحه (4935) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا، وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

ثانيا: عَجْبُ الذَّنَبِ في الحيوان:

في محاولة لدراسة التطور الجنيني للبرمائيات لاحظ الألماني (هانز سپيمان) «Hans Spemann» ومجموعته البحثية في مطلع الثلاثينيات من القرن الميلادي العشرين أنه بمجرد إخصاب النطفة الأنثوية (البييضة) تبدأ النطفة (الأمشاج المختلطة) في الانقسام عدة مرات حتى تتحول إلى قرص مكون من طبقتين من الخلايا: فوقية (Epiplast)، وتحتية (Hypoplast). وهذا القرص لا يظهر عليه أي قدر من التمايز حتى يبدأ خيط دقيق في الظهور على طبقته الفوقية سماه باسم «الخيط الأولي أو الابتدائي» (The Primary or The Primitive Streak).

وهذا الخيط الأولي له عقدة في نهايته سماها باسم «العقدة الأولية أو الابتدائية» (The Primary or The Primitive Knot or Node).

وقد لاحظت المجموعة البحثية أن هذا الخيط الأولي يبدأ في تنظيم عملية إنشاء جميع أعضاء وأجهزة الجنين، وذلك عن طريق تحرك عدد من خلايا الطبقة الفوقية في اتجاه الخيط الأولي الذي تنغرس فيه فتتشكل حسب الوظيفة المحددة لها، ثم توجه إلى موضع كل منها في جسم الجنين الذي لم يكتمل تشكيله بعد، وأول ما يتخلق في هذه العملية هو الخلايا العصبية التي ينبني منها الجهاز العصبي للجنين، وذلك بمرور عدد من خلايا الطبقة الفوقية عبر العقدة الأولية، وبعد تمام تخلق جميع أجهزة جسم الجنين لاحظ سپيمان ومعاونوه أن هذا الشريط الأولي ينسحب ليختزن في نهاية العمود الفقري، وقد ذهل (سپيمان) ومعاونوه من تخلق جميع أجهزة جسم الجنين من خلال دخول الخلايا الأولية عبر الخيط الابتدائي وعقدته اللذين أطلقوا عليهما اسم (المنظم الأول) (The Primary Organizer).

وفي محاولة لدراسة طبيعة ذلك المنظم الأول واستجلاء شيء من أسراره قامت المجموعة الدراسية بقطعه وزرعه في جنين آخر فنما على محور غير محور الجنين المضيف.

وفي سنة 1931م قام (سبيمان) ومعاونوه بمحاولة لسحق هذا الشريط الأولي ثم زرعه في أحد أجنة البرمائيات فنما على محور آخر على هيئة جنين غير الجنين المضيف مما يشير إلى أن الشريط الأولي لم يتأثر بمحاولة سحقه.

وفي سنة 1932م قام (سبيمان) ومعاونوه بغلي هذا المنظم الأول ثم زرعه في جنين آخر فنما نموًّا مستقلاً مما يؤكد عدم تأثره بالغلي.

وفي سنة 1935م منح (سبيمان) جائزة نوبل في العلوم الحياتية تقديرًا لاكتشافه (المنظم الأول) وإثبات دوره في تخليق جميع أنسجة وأعضاء وأجهزة الجنين، وبأنه لا يبلى أبدًا، فأثبت بذلك دقة أحاديث (عجب الذنب) التي نطق بها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قبل أكثر من ثلاثة عشر قرنًا دون علم بها.

وبعد ذلك بأكثر من سبعين عامًا قام الأخ الدكتور عثمان جيلان في رمضان من سنة 1424هـ (2003م) بحرق الفقرتين الأخيرتين من خمسة عصاعص من عصاعص الأغنام بواسطة مسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى تفحمت تفحمًا كاملاً، ثم بفحصها بواسطة عدد من أساتذة علم الأنسجة في جامعة صنعاء ثبت أن خلايا عظمة العصعص لم تتأثر بالإحراق على الإطلاق وإن احترقت جميع العضلات والأنسجة الدهنية المحيطة بها وخلايا النخاع الموجودة بداخلها.

ثالثًا: عجب الذنب في الإنسان:

بتطبيق ملاحظات (سبيمان) ومدرسته في مجال دراسة الجنين البشري اتضح لعلماء الأجنة من أمثال كيث مور ومدرسته ما يلي:

(Keith L.Moore (1983): The Developing Human. 3rd Edition. W.B. Saunders Co)

1- تتكون النطفة الأمشاج (Fertilized Ovum) بمجرد إخصاب النطفة الأنثوية (البييضة) بواسطة النطفة الذكرية.

2- تبدأ النطفة الأمشاج في الانقسام إلى خلايا تعرف باسم القسيمات الأرومية (Blastomeres) فتتحول بعد أربعة أيام إلى كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم التويتة (Morula) على هيئة كرة مجوفة لا يزيد قطرها على ربع المليمتر تعرف باسم الكرة الأرومية (Blatula) وتستغرق هذه المرحلة قرابة الأسبوع الأول من عمر الجنين. وفي الليلة الخامسة تنشطر التويتة إلى نصفين مكونة ما يعرف باسم الكيسة الأرومية (Blastocyst).

3- في حدود الليلة السابعة تبدأ الكيسة الأرومية في الانغراس بجدار الرحم بواسطة عدد من الخلايا الرابطة التي تنشأ منها فتتعلق بواسطتها وبواسطة عدد من الخملات الدقيقة في جدار الرحم متحولة إلى طور العلقة الذي يستمر لمدة الأسبوعين الثاني والثالث من عمر الجنين، على هيئة كتلة ضئيلة جدًّا من اللحم عالقة بجدار الرحم ومحاطة بالدم المتخثر (المتجلط)، ومن هنا فإن الوصف القرآني (علقة) هو أبلغ وصف لهذه المرحلة.

وفي حوالي الليلة الخامسة عشرة من تاريخ الإخصاب تبدأ حزمة من خلايا الطبقة العليا للعلقة في الترتيب على هيئة خط طولي يعرف باسم الشريط الإبتدائي أو الأولي الذي تتضخم نهايته الأمامية على هيئة تعرف باسم العقدة الأولية أو الابتدائية، وفي نفس الوقت يظهر على الشريط الأولي انخفاض ضيق يستمر إلى حفرة في العقدة الابتدائية تعرف باسم الحفرة الابتدائية (The Primitive Pit) وفي الليلة السادسة عشرة تبدأ الطبقة الوسطى من الخلايا في التكون بين الطبقتين العلوية (الخارجية) والسفلية (الداخلية).

4- في حدود الليلة الحادية والعشرين تقريبًا تتكثف الطبقة المتوسطة حول محور الجنين مشكلة الكتل البدنية (Somites) التي يبدأ ظهور أول زوج منها في الجهة العليا من الجنين (أي جهة الرأس) فتتحول العلقة إلى مرحلة المضغة التي لا يكاد طولها يتعدى 2.5 ملليمتر ثم يتوالى ظهور الكتل البدنية في أزواج على جانبي محور الجنين حتى يصل عددها إلى ما بين 42 و 45 زوجًا، فيصبح الجنين على هيئة قطعة اللحم الصغيرة التي مضغتها الأسنان ولاكتها ثم لفظتها، ومن هنا كانت دقة التعبير القرآني (مضغة).

ويستمر طور المضغة إلى نهاية الأسبوع الرابع تقريبًا أي في حدود الليلة الثامنة والعشرين إلى الثلاثين من عمر الجنين.

ويصاحب ظهور الكتل البدنية ظهور الأقواس البلعومية على هيئة خمسة أزواج من الشقوق والميازيب التي تتكون في الطبقة الخارجية من جسم الجنين تحت قمة الرأس مباشرة.

5- في الفترة من الأسبوع الخامس إلى الثامن من عمر الجنين تتكون العظام ثم يكسوها اللحم (العضلات والجلد) وذلك بتحول الكتل البدنية إلى جزءين متمايزين على النحو التالي:

(1) جزء أمامي يعرف باسم كتلة الهيكل العظمي (Sclerotome) ومنها تتكون عظام كل من الفقرات والأضلاع، والأطراف العلوية والسفلية وقاعدة الجمجمة، أما عظام الوجه والفكين وعظام الأذن الوسطى فإنها تتخلق من القوس البلعومي الأول، ويتكون العظم اللامي (Hyoid Bone)من القوس البلعومي الثاني، أما قحفة الجمجمة فتتكون من خلايا الطبقة الوسطى المتكثفة في قمة الرأس، والتي تتحول مباشرة من أغشية إلى عظام دون المرور بمرحلة الغضاريف.

(2) جزء خلفي وظهري يعرف باسم الكتلة العضلية / الجلدية (الأدمية) (Dermomyotome) وينقسم إلى قسمين أكبرهما عضلي يشكل معظم عضلات الجسم، والآخر جلدي (أدمي) يشكل الجلد وما تحته من أنسجة.

وفي خلال هذه المرحلة تتم كل من عمليات التصوير والتسوية والتعديل، وهي عمليات تستمر حتى الميلاد، ومن بعد الميلاد حتى الوفاة، وتنفخ الروح في الجنين بنهاية الأسبوع السادس كما أخبر المصطفى ﷺ ومن التسوية والتعديل نمو الأعضاء والأطراف، والأطراف تبدأ على هيئة براعم صغيرة جدًا تتكون من تكثف خلايا الطبقة المتوسطة للجنين، وتتغطى بالجلد من الطبقة الخارجية.

كذلك تتكون الأحشاء من القلب وملحقاته والجهاز العصبي بأكمله والجهاز الهضمي، والجهاز البولي/ التناسلي، وغيرها في مراحل متتابعة محكمة، دقيقة، من التسوية والتعديل.

ولا يمكن أن تتم عمليات التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس، وأسس تخلق جميع أعضاء الجنين تتكون في الفترة ما بين الأسبوعين الرابع والثامن من عمره، وهي أشد الفترات حساسية وحرجًا في عمره.

وفي المراحل الأولى من عمليات التصوير والتسوية والتعديل يتم اعتدال ملحوظ في تقوس الجسم، وبدء تكون الوجه وتحديد منطقة العنق وظهور الأقواس البلعومية على جانبيها، وتحديد كل من العينين والأذنين والأنف، وبدء ظهور براعم الأطراف العليا ثم السفلى، و تكون الحبل السري من استطالة العنق الواصل بين الجنين وأمه، وظهور الغدد التناسلية، وإن لم تتمايز إلا بنهاية الأسبوع الثامن، حين تكون الأوضاع الداخلية كلها قد اتخذت مواضعها وإن بدت بهيئة أولية، وبنهاية الأسبوع الثامن ينتهي دور الجنين (Embryo) ويبدأ دور الحميل (Fetus) الذي ينتهي بالميلاد.

رابعًا: دور عَجْبِ الذَّنَبِ في عملية التخلق للأعضاء:

تتميز خلايا الطبقة الوسطى للجنين والتي ينتجها الشريط الأولي بالقدرة الفائقة على الانقسام السريع، وعلى التنوع والتخصص، وعلى الهجرة لتكوين مختلف أنواع الخلايا والأنسجة المتخصصة، والأعضاء والأجهزة المحددة، ومن صور تنوع هذه الخلايا تحركها من العقدة الأولية للجنين من أجل تكوين بدايات الحبل الظهري الذي ينشأ عنه الجهاز العصبي بتفرعاته المتعددة.

ويستمر الشريط الابتدائي في تكوين الخلايا الوسطية في جسم الجنين بنشاط واضح حتى نهاية الأسبوع الرابع من تاريخ الإخصاب، ثم يبدأ في التباطؤ التدريجي في إنتاج تلك الخلايا، ثم في الانكماش السريع في الحجم حتى يتضاءل إلى حجم لا يكاد يدرك ، ثم في الانسحاب التدريجي إلى منطقة العجز (العصعص) من الجنين (The Sacrococcygeal Region of the Embryo). ويدرك علماء الأجنة اليوم أن خلايا الشريط الأولي قد وهبها الخالق – سبحانه وتعالى – قدرات فائقة على عملية تخليق الخلايا المتخصصة ولذلك تعرف باسم «خلايا الشريط الأولي ذات القدرات المتعددة» (Pleuropotent Primitive Streak Cells).

ويتضح تميز هذه الخلايا وحساسيتها الفائقة من نموها السريع على هيئة أعداد من الأورام المسخية (Teratoma) المحتوية على أنسجة أو حتى أعضاء مختلفة إذا تعرضت لبعض المؤثرات مثل الإشعاع، ويشير ذلك إلى قدرة خلايا عجب الذنب على تكوين جميع أنسجة وأعضاء الجسم أثناء عملية تخلقه، وإلى قدرتها على الإنبات بإذن الله – تعالى – يوم البعث بإنزال ماء خاص من السماء كما جاء في حديث المصطفى ﷺ الذي قال فيه: «... ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا وهو عجب الذنب ومنه يركب الخلق يوم القيامة»

وقد ثبت أنه لا يبلى، كما ثبت أن الخلق يركب منه في مرحلة الجنين، من هذا الاستعراض يتضح بجلاء أن أهم ما يبقى من الميت بعد صعود روحه إلى بارئها هو عجب ذنبه الذي لا يبلى أبدًا، بينما يتحلل الجسد إلى عناصره الأولى: الماء وتراب الأرض، وتبقى هذه الفضلة العجيبة «عجب الذنب» لينبت منها كل مخلوق كما تنبت البقلة من حبتها، ولذلك قال – تعالى –: ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق: 4].

وقال ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»، بمعنى أن سر الإنسان كله في عجب ذنبه، وما زاد على ذلك من نماء جسدي باستخدام ماء الأرض وعناصرها يعود إلى حيث أتى، ويبقى الجوهر الماديُّ في الإنسان هو هذه العظمة المتناهية الضآلة في الحجم حتى لكأنها حبة خردل، ولكنها لا تبلى أبدًا والتي سماها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة باسم «عجب الذنب» ولم تعرفها العلوم المكتسبة إلا في نهاية الثلث الأول من القرن العشرين، وأخبر عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم بأن الإنسان يتركب منها ثم يعاد بعثه منها، وهي حقائق لا يعرفها إلا نبي موصول بالوحي، ومعلَّم من قبل خالق السماوات والأرض.

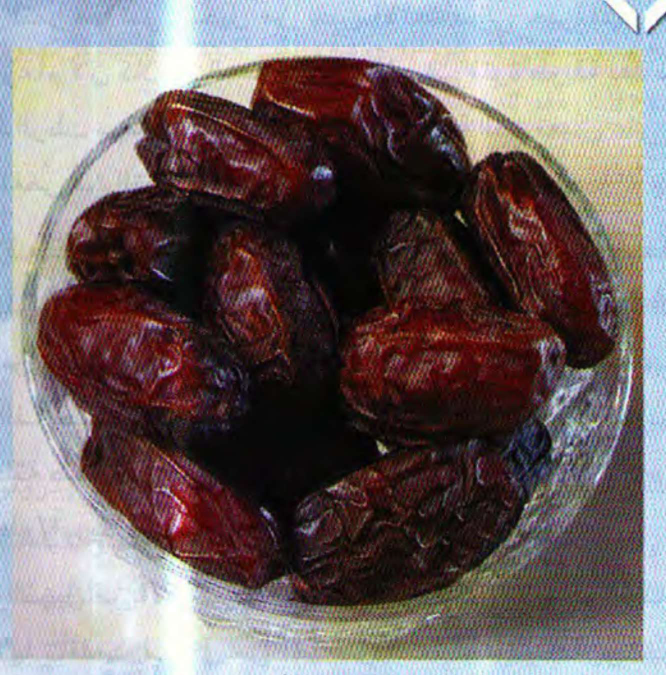
فالحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم والحمد لله على بعثة إمام الأنبياء والمرسلين وسيد الخلق أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الرابع

من أحاديث المفضل من الطعام

الحديث السادس والثلاثون

«لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»



شكل (87) يصور بعض أنواع رطب التمر

36 «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2046، باب في إدخال التمر ونحوه من الأقوات للعيال) حيث قال:

■ حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانٍ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلالٍ، عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عن أَبِيهِ، عن عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لا يَجُوعُ أَهْلُ بَيْتٍ عِنْدَهُمُ التَّمْرُ».

وفي رواية أخرى (صحيح مسلم، حديث رقم: 2046) قاله بلفظ آخر:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قعنب، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ مُحَمَّدِ ابْنِ طَحْلاَءَ، عن أَبِي الرِّجَالِ مُحَمَّدِ بْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عن أُمِّهِ، عن عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لا تَمْرَ فِيهِ جِيَاع أَهْلُهُ يَا عَائِشَةُ بَيْتٌ لا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ». قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا.

شرح الحديث

والتمر هو تمر النخيل من حين الانعقاد إلى حين الإدراك، ثم النضج، وهو تعبيرعام لأن كلاً من البسر والرطب لا يبقى فترة طويلة بعد موسم الإثمار إلا إذا حفظ الرطب مجمدًا، والتمر هو الثمرة المجففة التي تعيش على مدار السنة، والبسر هو الغضّ من التمر.

وقد ذكر النخل والنخيل في القرآن الكريم في عشرين موضعًا، ويتبع نخيل التمر فصيلة (النخيليات) التي تضم عددًا من الرتب أهمها نخيل التمر، ونخيل الزيت وجنس نخيل التمر يضم حوالي خمسة عشر نوعًا ويضم نوع نخيل التمر أكثر من ألف صنف منها حوالي أربعمائة صنف في الجزيرة العربية وحدها، وحوالي ستمائة صنف في العراق، الذي ندعو الله – تعالى – أن يطهره من دنس الاحتلال الأنجلو/أمريكي البغيض.

والنخيل من الأشجار الدائمة الخضرة، التي تنمو في المناطق الحارة أساسًا، ولكنها تأقلمت مع كل من المناطق المعتدلة والجافة، وشجرة النخيل هي من

أكثر النباتات احتمالاً لكل من الجفاف والملوحة، ولذا تنجح زراعتها حتى في المناطق القاحلة.

ومنتجات النخيل تعتبر من أهم المصادر النباتية التى اعتمد عليها الإنسان منذ القدم، خاصة في المناطق الصحراوية من مثل الحزام الصحراوي الكبير الممتد حاليًّا من موريتانيا غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا.

وينتمي النخيل إلى النباتات ذوات الفلقة الواحدة، وتتمايز أشجاره إلى ذكر وأنثى، يبدأ كل منهما في الإزهار في السنة الخامسة من عمره، ويستمر في الإنتاج الجيد إلى عمر يتراوح بين الثلاثين والأربعين سنة.

ونخيل التمر بالذات قد أعطاه الله – تعالى – القدرة على مقاومة التباين الشديد في درجات الحرارة والتي قد تصل إلى خمسين درجة مئويةفي الظل صيفًا، وإلى ما دون الصفر في ليل الشتاء، كما أعطاه الله القدرة علىتحمل كل من الجفاف الشديد والملوحة العالية، فالطول الباسق لجذوع النخل وسمكها وخشونتها، وتغطيتها بقواعد الأوراق القديمة يعينها على تخزين الماء بكميات كبيرة وعدم فقده بسهولة، والأوراق الرمحية السميكة ذات القمة الشوكية، والموجودة في قمة الشجرة بأعداد قليلة لا تزيد على 20 إلى 40 ورقة والتي تتجدد باستمرار تعين على تقليل النتح، ومن ثم تقليل فقد الماء.

التركيب الكيميائي للتمور:

التمر وهو من ثمرات النخيل، يعد غذاءً شبه كامل وذلك لاحتوائه على أغلب العناصر التي يحتاجها جسم الإنسان، ولذا يصفه الحق – تبارك وتعالى – بقوله العزيز: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: 67].

فالتمر يحتوي على مواد كربوهيدراتية ومنها السكريات والألياف، وبروتينية، ومنها الدهون وعلى عدد من مركبات العناصر المعدنية المهمة، والفيتامينات الضرورية لحياة الإنسان، وقد أثبتت التحاليل الكيميائية أن التمر الجاف يحتوي على 70,6٪ من الكربوهيدرات (وأغلبها السكريات المتعددة، والنشا

والمواد السيليولوزية و2,5٪ من البروتينات (ومنها الأحماض الأمينية والزيوت والدهون)، و1,32٪ من الأملاح المعدنية التي تشمل مركبات كل من الكالسيوم، والحديد، والفسفور، والمغنسيوم، والبوتاسيوم، والنحاس، والمنجنيز، والكوبلت، والزنك وغيرها، كما يحتوي على 10٪ من الألياف، بالإضافة إلى فيتامينات تشمل فيتامين أ، ب1، ب2، ج، وبعض مضادات الأكسدة، ونسب متفاوتة من غير ذلك من المركبات الكيميائية الهامة.

والتمر يحتفظ بجميع خواصه الغذائية لمدة عام أو أكثر دون أن يفسد حتى يأتي المحصول الجديد ومن هنا كانت روعة اللفتة العلمية في حديث رسول الله ﷺ حين قال: «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»، وذلك لقيمته الغذائية العالية ولاحتوائه على مواد حافظة من كل الطفيليات والجراثيم.

ونوى التمر يحتوى على حوالي 8٪ من وزنه زيوتًا نباتية، وما يتبقى عن عصر الزيت منه يمثل غذاءً جيدًا للحيوانات وذلك لاحتوائه على قدر من البروتينات والكربوهيدرات والأملاح.

من الفوائد الطبية للتمور:

للتمر فوائد طبية كثيرة فهو غذاء مهم للخلايا العصبية، وطارد للسموم، ومفيد في حالات الفشل الكلوي، والمرارة، وارتفاع ضغط الدم، والبواسير، والنقرس، وهو ملين طبيعي، ومقو للسمع والبصر، ومنبه لحركة الرحم، ومقو لعضلاته مما ييسر عملية الولادة الطبيعية، وذلك لاحتوائه على عدد من الهرمونات التي تعين على ذلك، ومن هنا كانت الإشارة القرآنية الكريمة إلى السيدة مريم البتول وهى تضع وليدها عيسى عليه السلام بقول الحق – تبارك وتعالى – لها:

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا * فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم: 25، 26] ومن هنا أيضًا كانت وصية رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «أَطْعِمُوا نِسَاءَكُمْ في نِفَاسِهِنَّ التَّمْرَ، فَإِنَّهُ مَنْ كَانَ طَعَامَهَا فِي نِفَاسِهَا التَّمْرُ خَرَجَ وَلِيدُهَا حَلِيمًا، فَإِنهُ كَانَ طَعَامَ مَرْيمَ حَيْثُ وَلَدَتْ، وَلَوْ عَلِمَ طَعَامًا خَيْرًا مِنَ التَّمْرِ لأَطْعَمَهَا إِيَّاهُ»[1].

---

(1) رواه الترمذي في سننه، كتاب الزكاة.

وروى الترمذي كذلك حديثًا آخر في التمر جاء فيه:

حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عن عَاصِمِ الأَحْوَلِ عن حَفْصَةَ بِنْتِ سِيرِينَ، عن الرَّبَابِ، عن عَمِّهَا سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيُفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ»[1].

ويعجب كل قارئ لهذه الأحاديث الشريفة لما تحتويه من علم صحيح لم تصل إليه مدارك الإنسان إلا منذ سنوات قليلة، ونطق به المصطفى ﷺ من قبل ألف وأربعمائة من السنين مما يؤكد صدق نبوته، وصدق رسالته، وصدق اتصاله بوحي السماء الذي وصفه بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3، 4].



شكل (88) يوضح قمة نخلة باسقة.

(1) سنن الترمذي، حديث رقم 658.

الحديث السابع والثلاثون

«الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»



شكل (89) يوضح بعض أنواع الكمأة وهي من المن

37 «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»

هذا الحديث النبوي الشريف رواه البخاري في صحيحه (حديث رقم: 4208، باب قوله - تعالى -: ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾، كتاب تفسير القرآن) حيث قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن عَبْدِ الْمَلِكِ، عن عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ، عن سَعِيدِ ابْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْكَمْأَةُ مِنَ الْمَنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ».

وروى البخاري الحديث أيضًا في (حديث رقم: 5381، باب المن شفاء للعين، كتاب الطب) بلفظ:

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ المثَنَّى، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عن عَبْدِ المَلكِ سَمِعْتُ عَمْرو بْنَ حُرَيْثٍ قَالَ: سَمِعْتُ سَعِيدَ بْنَ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الْكَمْأَةُ مِنَ المنِّ وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ». قَالَ شُعْبَةُ وَأَخْبَرَنِي الحكَمُ بْنُ عُتَيْبَةَ، عن الحسَنِ الْعُرَنِيِّ، عن عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ، عن سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ. قَالَ شُعْبَةُ: لمَّا حَدَّثَنِي بِهِ الحكَمُ لَمْ أُنْكِرْهُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الملِكِ.

والحديث رواه أيضًا مسلم في صحيحه عن سعيد بن زيد رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين». وجاء الحديث بنفس النص في رواية للترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

شرح الحديث

(والكمأة) واحدها (كمء) وهى درنة من الفطريات الجذرية التي تنمو تحت الأرض بالتكافل مع جذور نباتات معينة إلى عمق حوالي ثلاثين سنتيمترًا تحت سطح التربة، وتنمو في جماعات من عشر إلى عشرين درنة في المكان الواحد من التربة، وهذه الدرنات كروية أو شبه كروية، لحماية الملمس، رخوة، ويتدرج لونها من الأبيض إلى الرمادي والبني والأسود، ولها رائحة نفاذة، والكمأة تنمو في صحارى العالم الإسلامي من موريتانيا غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا، في بيئات تتراوح بين الرمال العميقة، والحصى الضحل، والحجر، ويزدهر نموها بعد مواسم العواصف الرعدية ومن هنا أطلق عليها العرب اسم «نبات الرعد».

وللكمأة أنواع عديدة، ودرناتها مختلفة الأشكال والألوان، وتنمو في الطبقة السطحية من التربة وتدرك عن طريق تشققات التربة في اتجاهين عموديين وقت نضجها، وإذا لم تجمع الدرنات فإنها سرعانٍ ما يتكون بداخلها أبواغ (والبوغ واحد الأبواغ، ويطلق عليه أيضًا اسم البوغاء، وهو التراب الناعم جدًّا، والذي يطير من دقته إذا مس)، وبانفجار كيس الأبواغ تنتثر محتوياته في التربة، فإذا جاء موسم المطر في أواخر شهر أكتوبر التالي وهو شهر يتميز بالأمطار الرعدية، فإن محتوى الأبواغ ينبت ليعطي خيوطًا فطرية دقيقة تنفذ بقدرة الله – تعالى – إلى داخل نسيج جذور نباتات نامية في نفس المنطقة وتتطفل عليها حتى يكتمل نموها على هيئة الدرنات الكاملة.

والكمأة مصدر مهم للبروتينات بين نباتات الصحراء، وتتكون درناتها من 77٪ ماء، 23٪ مواد مختلفة منها 60٪ هيدرات الكربون (كربوهيدرات)، 7٪ دهونًا، 4٪ أليافًا، 18٪ مواد بروتينية، 11٪ تبقى على هيئة رماد بعد الحرق، وقد تم التعرف على سبعة عشر حمضا من الأحماض الأمينية في بروتينات الكمأة.

وفي وصف رسول الله ﷺ للكمأة بأنها من المن تعبير عن أنها تنبت بفضل من الله ومنة؛ لأنها لا تزرع ولا تستزرع، فهي منة من الله – تعالى – لا تحتاج إلى مئونة بذر أو سقي، ولا تحتاج إلى تعب أو نصب من الإنسان إلا في جمعها، ومن هنا كان وصفها بالمن.

وأما عن وصف رسول الله ﷺ لها بأن «ماءها شفاء للعين» فقد ذكر ابن سينا أنه انطلاقًا من هذا الحديث النبوي الشريف فإن المسلمين كانوا يغلون ماءها ثم يبردونه، ويكتحلون به (يتقطرون به)، وقد قام أحد أطباء العيون المصريين (وهو الدكتور المعتز المرزوقي) بمحاولة تحقيق هذا الحديث الشريف عمليًّا فوصل إلى عدد من النتائج المهمة التي منها أن ماء الكمأة يمنع حدوث التليف في حالات أمراض العيون المعروفة باسم (الحثر) أو (التراكوما) وذلك عن طريق التدخل للحد من تكوين الخلايا المكونة للألياف في مكان الإصابة، فقد أثبتت تجاربه أن استعمال ماء الكمأة في علاج حالات الرمد الحبيبي أو التراكوما (وهو التهاب

مزمن، معدٍ، يقاسي منه معظم سكان العالم العربي خاصة في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط) قد أدى إلى نقص شديد في تكون الخلايا الليمفاوية الناتجة عن هذا الالتهاب، التي تسبب العتامة القرنية والتي بمضاعفاتها يمكن أن تؤدي إلى فقدان البصر بالكامل، فقد ثبت أن الرمد الحبيبي بمضاعفاته المختلفة مسئول مسئولية كاملة عن أكثر من ربع حالات فقد البصر في مناطق انتشار المرض، وفي أحيان كثيرة يصاحب الرمد الحبيبيَّ بالرمد الربيعي، فيتضاعف التليف في مكان الإصابة، وقد أثبتت التجارب التي أجراها الدكتور المعتز المرزوقي أن ماء الكمأة يقلل من حدوث هذا التليف في قرنية العين بدرجة ملحوظة، وذلك بوقف نمو الخلايا المكونة للألياف، وبمعادلة التأثير الكيميائي لسموم التراكوما، ويمنع النمو غير الطبيعي للخلايا الطلائية للملتحمة في العين؛ لأن معظم مضاعفات الرمد الحبيبي تنتج عن تليف قرنية العين، وماء الكمأة يشفيه.

وهنا يبرز التساؤل المنطقي: من غير الله – تعالى – يمكن أنى يكون قد عَلَّم المصطفى ﷺ هذه الحقائق العلمية: «الكمأة من المنِّ، وماؤها شفاء للعين» فينطق بها من قبل ألف وأربعمائة سنة؟

وهنا تتضح قيمة هذه الإشارات العلمية في كل من كتاب الله وسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ في الدعوة إلى دين الله الخاتم في زمن قصرت فيه المسافات، وتلاقت مختلف الحضارات، والمعتقدات والثقافات، وفتن الناس بالعلم ومعطياته فتنة كبيرة، ولم يعد يقنعهم منطق سواه، بعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم!

وهنا أيضًا يتضح منهج من أعظم المناهج في الدفاع عن هويتنا الإسلامية في ظل محاولة الغرب فرض قيمه الساقطة على دول العالم الثالث، وفي زمرتها الدول الإسلامية، باسم النظام العالمي الجديد وما يسمى زورًا باسم الشرعية الدولية وهما يبعدان عن كل من النظام والشرعية بعد المشرقين!

وخلاصنا الوحيد من هذه الهجمة المادية الشرسة هو في الإيمان بفضل القرآن الكريم على غيره من الكتب وبفضل الإسلام العظيم على غيره من الأديان، وبصدق نبوة النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ الذي تعهد ربنا – تبارك وتعالى – بحفظ

رسالته إلى يوم الدين في الوقت الذي تعرضت فيه كل صور الوحي السابقة للضياع، وتعرض ما بقي منها من ذكريات إلى قدر هائل من التحريف الذي أخرجها عن إطارها الرباني وجعلها عاجزة عن هداية أصحابها فتحولوا إلى وحوش ضارية تعيث في الأرض فسادًا وإفسادًا ولا رادع لها إلا الإسلام، وفي قدرتنا على التمسك بهذا الدين العظيم والالتزام به ،و على إقناع غيرنا بصدقه وما ذلك على الله بعزيز و صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا والحمد لله رب العالمين.



شكل (90) يوضح الأحجام المختلفة للكمأة

الحديث الثامن والثلاثون

«كلـوا الزيـت وادَّهنـوا بـه، فإنــه مبـــارك»



شكل (91) يوضح شجرة الزيتون وهي من الأشجار المعمرة دائمة الخضرة

38 «كلوا الزيت وادَّهنوا به، فإنه مبارك»

– هذا الحديث النبوي الشريف رواه الترمذي في سننه (حديث رقم: 1851، باب ما جاء في أكل الزيت، كتاب الأطعمة) حيث قال:

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاق، عن مَعْمَرٍ، عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عن أَبِيه، عن عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ من شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ». قَال أَبُو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ لا نَعْرِفُهُ إلا مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ، عن مَعْمَرٍ وَكَانَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ يَضْطَرِبُ في رِوَايةِ هَذَا الحديثِ فَرُبَّمَا ذَكَرَ فِيهِ عن عُمَرَ عن النَّبيِّ ﷺ. وَرُبَّمَا رَوَاهُ عَلَى الشَّكِّ فَقَالَ: أَحْسَبُهُ عن عُمَرَ، عن النَّبيِّ ﷺ. وَرُبَّمَا قَالَ: عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عن أَبِيهِ عن النَّبيِّ ﷺ مُرْسَلاً. حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ سُلَيْمَانُ بْنُ مَعْبَدٍ حَدَّثَنَاعَبْدُ الرَّزَّاقِ عن مَعْمَرٍ، عن زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عن أَبِيهِ عن النَّبيِّ ﷺ نَحْوَهُ وَلَمْ يذْكُرْ فِيهِ: عن عُمَرَ.

– والحديث رواه الترمذي (حديث رقم: 1852، باب ما جاء في أكل الزيت، كتاب الأطعمة) عن أبي أسيد، حيث قال:

حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلانَ، حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ وَأَبُو نُعَيْم قَالا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن عَبْدِ الله بْنِ عِيسَى، عن رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ عَطَاءٌ. مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، عن أَبِي أَسِيدٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، إِنَّمَا نَعْرِفُهُ مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ عن عَبْدِ الله بْنِ عِيسَى.

– والحديث رواه أيضًا ابن ماجه في سننه (حديث رقم: 3321، باب الزيت، كتاب الأطعمة).

عن أبي هريرة حيث قال:

حَدَّثَنَا عُقبَةُ بْنُ مُكْرَم، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عِيسَى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ سَعِيدٍ، عن جَدِّهِ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مُبَارَكٌ»

- والحديث رواه كذلك أحمد في مسنده (ج3) حيث قَالَ:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن عَبْدِ الله بْنِ عِيسَى قَالَ: حَدَّثَنِي عَطَاءٌ - رَجُلٌ كَانَ يَكُونُ بِالسَّاحِلِ - عن أَبِي أُسَيْدٍ أَوْ أَبِي أَسِيدِ بْنِ ثَابِتٍ - شَكَّ سُفْيَانُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِالزَّيْتِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ».

- ورواه أيضًا الدارمي في سننه (حديث رقم: 2052، باب فضل الزيت، كتاب الأطعمة).

أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيْمٍ، حدثنَا سُفْيَانُ عن عَبْدِ الله بْنِ عِيسَى، عن عَطَاءٍ - وَلَيْسَ بِابْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عن أَبِي أَسِيدِ الأَنْصَارِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُوا الزَّيْتَ وَائْتَدِمُوا بِهِ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ».

شرح الحديث

هذا وقد جاء ذكر الزيتون وزيته في كتاب الله في سبعة مواضع، أقسم ربنا - تبارك وتعالى - في إحداها (بالتِّينِ والزيتونِ) وهو - تعالى - الغني عن القسم، كما أشار القرآن الكريم إلى شجرة الزيتون منكّرة في قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: 20].

و﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ أي تنبت ثمارها ملتبسة بالدهن وهو زيت الزيتون، و﴿وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ أي وإدام للآكلين، سمي صبغًا؛ لأنه إدام يصبغ الخبز إذا لامسه.

كذلك امتدح القرآن الكريم زيت الزيتون في مقام التشبيه وذلك بقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: 35].

وشجرة الزيتون(*) هي شجرة (أو شجيرة) دائمة الخضرة، تتحمل الجفاف بشكل كبير، وهي شجرة مُعَمَّرَة، قد تعيش إلى أكثر من ألف سنة، تنبت أساسًا في حوض البحر الأبيض المتوسط، وإن انتشرت اليوم في كثير من دول العالم، خاصة في كل من آسيا وإفريقيا، وقد عرفت شجرة الزيتون منذ أقدم الحضارات على أنها من أهم نباتات الزيوت.

(*) الزيتون الشملالي (زيتون سيناء).

وقد ثبت أخيرًا أن نسبة الأحماض الدهنية في زيت الزيتون قليلة جدًا، وأن ما به من دهون هي دهون غير مشبعة، ولذلك فلها قيمة صحية عالية؛ لخلوها من المواد المسببة لتصلب الشرايين وتضييقها وانسدادها، وبالاستقراء والمسح الدقيق تبين أن تناول زيت الزيتون بانتظام يسهم إسهامًا فاعلاً في الوقاية من العديد من الأمراض التي منها انسداد شرايين القلب التاجية، وارتفاع نسبة الدهون الضارة في الدم، وارتفاع ضغط الدم، ومرض البول السكري، وبعض الأمراض السرطانية (من مثل سرطانات كل من المعدة، والقولون، والثدي، والرحم، والجلد)، كما يقي من قرحات الجهاز الهضمي.

فمن دهون الجسم الرئيسية (الكوليسترول)، وهو دهن أبيض اللون، يوجد بتركيز كبير في كل من المخ، والحبل الشوكي، والكبد، ويتخلق أساسا في الكبد، والأمعاء، والجلد؛ ليلعب دور الوسيط في كثير من العمليات الحيوية، ومن أهمها تخليق كل من فيتامين هـ (E) والعديد من الهرمونات، ولكن المغالاة في تناول كميات من اللحوم الحيوانية الدسمة يمكن أن يؤدي إلى زيادة كبيرة في نسبة (الكوليسترول) في الجسم، فيفيض جزء منه إلى الدم مما قد يؤدي إلى انسداد الأوعية الدموية، أو تضييقها، كما قد يؤدي إلى تصلب جدرها.

فمن المعروف أن أكسدة (الكوليسترول) من العوامل المساعدة على تصلب الشرايين وتضييقها، وقد تم اكتشاف أن زيت الزيتون يلعب دورًا هامًا في منع حدوث تلك الأكسدة، لاحتوائه على (فيتامين هـ)، وعلى قدر من مركبات عديدة الفينولات (Polyphenolic Compounds) التي تمنع التأكسد الذاتي للزيت، وتحافظ على ثباته، كما تمنع أكسدة (الكوليسترول الضار) المعروف بالرمز (LDL)، وينقي الجسم من أخطار فوق أكاسيد الشحوم (Lipids Peroxides)، وأخطار غيرها من المواد الضارة.

وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بانتظام يؤدي إلى خفض المستوى الكلي (للكوليسترول) في الدم بصفة عامة، وإلى خفض نسبة الأنواع الضارة منه بصفة خاصة. ويعزى انخفاض نسبة الإصابة بأمراض السرطان في دول حوض البحر الأبيض المتوسط إلى تناول سكان تلك الدول كميات كبيرة من الزيتون، وزيته (خاصة الزيت البكر غير المعالج بأية مواد كيميائية، وهو زيت العصرة الأولى) بصفة منتظمة.



شكل (92)
يوضح بعض
أنواع الزيتون

وزيت الزيتون سائل أصفر اللون، غني بالأحماض الزيتية (Oleic Acids)، ويستخدم في الطبخ، وفي الإضافة إلى السلطات، وفي إنتاج العديد من الأدوية والدهانات الطبية، وزيوت الشعر، والصابون، وبه كانت توقد المصابيح لصفاء اللهب الناتج عن اشتعاله، خاصة في المساجد الكبرى كالمسجد الأقصى الذي ندعو الله – تعالى – أن يعيننا على تحريره من دنس اليهود في أقرب وقت ممكن إن شاء الله.

والزيتون – بالإضافة إلى فوائده وفوائد زيته الصحية – هو صبغ للآكلين، وطعام للطاعمين، وهو فاتح للشهية، وثماره قابلة للتخزين بالتمليح مما يزيد من أهميتها الاقتصادية، والسواك المستمد من شجر الزيتون من أفضل أنواع السواك.. فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «نعم السواك الزيتون! من الشجرة المباركة وهي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي».

فسبحان الذي امتدح الزيتون وزيته في محكم كتابه، وأقسم به، وألهم خاتم أنبيائه ورسله النطق بهذه الحقيقة العلمية التي لم تعرف أبعادها الحقيقية إلا منذ أواخر الثمانينيات من القرن العشرين فقال قولته الشريفة:

«كلوا الزيت وادَّهنوا به فإنه مبارك» (أو من شجرة مباركة) وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.



شكل (93) يصور شجرة الزيتون وهي شجرة معمرة ودائمة الخضرة

الحديث التاسع والثلاثون

«نعم الإدام الخل...»



شكل (94) صورة لقارورة خل التفاح
وهو من أفضل أنواع الخل

39 «نعـم الإدام الخـل...»

■ يروى عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال: «نِعْمَ الأُدُمُ – أو الإدَامُ – الخلُّ».

■ روى الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الأشربة حديث رقم: 3823 – 3824) قال:
حَدَّثَنِي عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ أَخْبَرَنَا يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ أَخْبَرَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بلال عَنْ هِشَام بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ السيدة عَائِشَةَ (رضي الله عنها) أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نِعْمَ الأُدُمُ – أو الإدَامُ – الخلُّ».

وأضاف قائلاً: وحَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ قُرَيْشِ بْنِ نَافِعٍ التَّمِيمِيُّ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ صَالِحٍ الْوُحَاظِيُّ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلالٍ بِهَذَا الإِسْنَادِ وَقَالَ: نِعْمَ الأُدُمُ وَلَمْ يَشُكَّ.

■ وروى الإمام الترمذي في سننه (كتاب الأطعمة حديث رقم: 1762، 1763، 1764) ما نصه:
حَدَّثَنَا الحسَنُ بْنُ عَرَفَةَ حَدَّثَنَا مُبَارَكُ بْنُ سَعِيدٍ هُوَ أَخُو سُفْيَانَ بْنِ سَعِيدٍ الثَّوْرِيِّ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «نِعْمَ الإدَامُ الخلُّ».
قَالَ: وَفِي الْبَاب عَنْ عَائِشَةَ وَأُمِّ هَانِئٍ.

■ وأورد الإمام ابن ماجه في سننه (كتاب الأطعمة حديث رقم: 3307، 3309) ما نصه:
حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الحوَارِيِّ حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلال عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نِعْمَ الإدَامُ الخلُّ».

■ حَدَّثَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ عُثْمَانَ الدِّمَشْقِيُّ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ حَدَّثَنَا عَنْبَسَةُ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَاذَانَ أَنَّهُ حَدَّثَهُ قَالَ حَدَّثَتْنِي أُمُّ سَعْدٍ قَالَتْ: دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى عَائِشَةَ وَأَنَا عِنْدَهَا فَقَالَ: هَلْ مِنْ غَدَاء؟ قَالَتْ: عِنْدَنَا خُبْزٌ وَتَمْرٌ وَخَلٌّ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «نِعْمَ الإدَامُ الخلُّ، اللَّهُمَّ بَارِكْ فِي الخلِّ فَإِنَّهُ كَانَ إِدَامَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي وَلَمْ يَفْتَقِرْ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ». أخرجه ابن ماجه في سننه (كتاب الأطعمة حديث رقم: 3318).

■ والحديث رواه الترمذي كذلك في سننه (كتاب الأطعمة حديث رقم: 1765) قال:
حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ العَلاَءِ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ الثُّمَالِيِّ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ أُمِّ هَانِئٍ بِنْتِ أَبِي طَالِبٍ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ:

هَلْ عِنْدكُمْ شَيْءٌ؟ فَقُلْتُ: لا إلا كِسَرٌ يَابِسَةٌ وَخَلٌّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَرِّبِيه فَمَا أَقْفَرَ بَيْتٌ مِنْ أُدْمٍ فِيهِ خَلٌّ». قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُه مِنْ حَدِيثِ أُمِّ هَانِئٍ إلا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ، وَأَبُو حَمْزَةَ الثُّمَالِيُّ اسْمُهُ ثَابِتُ ابْنُ أَبِي صَفِيَّةَ وَأُمُّ هَانِئٍ مَاتَتْ بَعْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِزَمَانٍ وَسَأَلْتُ مُحَمَّدًا عَنْ هَذَا الحدِيثِ قَالَ: لا أَعْرِفُ لِلشَّعْبِيِّ سَمَاعًا مِنْ أُمِّ هَانِئٍ. فَقُلْتُ: أَبُو حَمْزَةَ كَيْف هُوَ عِنْدَكَ؟ فَقَالَ: أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ تَكَلَّمَ فِيهِ وَهُوَ عِنْدِي مُقَارِبُ الحدِيثِ.

■ والحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 14755) قال:

حَدَّثَنَا بَهْزٌ حَدَّثَنَا ابنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا طَلْحَةُ بْنُ نَافِعٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَلمَّا انْتَهَى قَالَ: «مَا مِنْ غَدَاءٍ أَوْ عَشَاءٍ؟». شَكَّ طَلْحَةُ قَالَ: فَأَخْرَجُوا فِلْقًا مِنْ خُبْزٍ قَالَ: «مَا مِنْ أُدْمٍ»؟ قَالُوا: لا إلا شَيْءٌ مِنْ خَلٍّ. قَالَ: «أَدْنيه فَإِنَّ الخلَّ نِعْمَ الأُدْمُ هُوَ». قَالَ جَابِرٌ: مَازِلْتُ أُحِبُّ الخلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ. وَقَالَ طَلْحَةُ: مَا زِلْتُ أُحِبُّ الخلَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنْ جَابِرٍ.

شرح الحديث

قد أثبتت الدراسات العلمية أن الخل مضاد حيوي جيد يمنع تسوس الأسنان، ويطهر الجهاز الهضمي، ويقضي على ما به من جراثيم وطفيليات، وينشط عمليات الهضم والأيض في الجسم، ويعين على محاربة السمنة المفرطة، وفي علاج كل من أمراض الربو والحساسية، وحالات الإسهال الحاد لاحتوائه على عدد من المواد القابضة، كما يعين في علاج آلام المفاصل، وتلطيف آثار لدغات النحل ولدغات غيره من الحشرات والحيوانات البحرية.

ويعجب القارئ لهذه الأحاديث النبوية الشريفة! من وصف رسول الله ﷺ للخل بأنه «إدام»، و«الإدام» هو ما «يؤتدم» به أي ما يتغذى به وما يطيب به الطعام، يقال فلان «أدم» الخبز باللحم أي اتخذه «إدامًا» أي طعامًا، ثم يأتي العلم التجريبي ليثبت لنا أن الخل هو محلول مخفف من حمض الخليك (في حدود 4 – 5٪).

[(Acetic (Ethanoic) Acid (CH_3. COOH)]

وهذا الحمض هو من الأحماض الدهنية البسيطة المكونة للزيوت والدهون، التي هي من المكونات الأساسية للطعام لقيمتها الحرارية العالية، وإن كان الإفراط في تناول الدهون قد يكون ضارًا بالصحة، ومن هنا فإن تركيز حمض الخليك في الخل بنسب تتراوح بين 4 و5٪ يوحي بأنه غذاء مناسب لصحة الإنسان؛ إذ يعطيه الحد الأدنى من الدهون النباتية التي يحتاجها جسده، دون تعريضه لمخاطر التركيز العالي للدهون الحيوانية والتي قد يؤدي تجمعها في جسم الإنسان إلى العديد من الأمراض.

وتناول الدهون باعتدال يعتبر من ضرورات الطعام الذي يتناوله الإنسان لاحتياج جسمه إليها، وذلك لما لها من طاقة حرارية عالية، وقدرة على بناء الخلايا بإذن الله، ودورها في حمل الفيتامينات القابلة للذوبان فيها إلى جميع أجزاء الجسم، بالإضافة إلى حاجة الجسم إلى مختلف أنواع الخل بصفة عامة لتحولها في نهاية هضمها إلى الأحماض الأمينية التي تنبني منها خلايا الجسم بعد تحولها إلى مواد بروتينية؛ وللخل فوائد أخرى عديدة منها تحسينه لمذاق الطعام بصفة خاصة. والخل هو سائل قابض ينتج عن طريق أكسدة الكحولات أثناء عملية التخمر للحبوب مثل الشعير، وللفواكه من مثل التفاح والعنب، ولعسل الدبس الناتج من عصائر كل من الفواكه مثل العنب وقصب السكر.

وخل الشعير بني اللون، وبتقطيره ينتج الخل الأبيض، ويستخدم الخل في عمليات التخليل المختلفة، وفي إعطاء الطعام نكهة خاصة.

ووصْف رسول الله ﷺ الخل بأنه «إدام» وبأنه «نعم الإدام» يعتبر سبقًا علميًّا مبهرًا؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، إدراك قيمة الخل الغذائية. وهذه الومضات العلمية في أحاديث رسول الله الخاتم ﷺ هي من أنصع الشهادات على صدق نبوته وعلى صلته بوحي السماء، وصدق الله العظيم إذ يصفه بقوله «عز من قائل»:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 3-5].

الحديث الأربعون

«لو تعلم أمتي ما في الحلبة لاشتروا ولو بوزنها ذهبًا»



شكل (95) يوضح صورة لنبات الحلبة وهي من المستنبتات فائقة الفائدة للصحة

40 «لو تعلم أمتي ما في الحلبة لاشتروا ولو بوزنها ذهبًا»

أخرج الإمام الهيثمي في مجمع زوائده أن رسول الله ﷺ قال: «لو تعلمُ أُمَّتي ما في الحُلْبَةِ لاشتَروا ولو بوزْنِهَا ذهبًا». (مجمع الزوائد للهيثمي: 5/47).

وقال: رواه الإمام الطبراني، وفيه سليمان بن سلمة الخبايري، وهو متروك.

شرح الحديث

الحلبة من نباتات المحاصيل البذرية المنطوية تحت رتبة ذوات الورد Order Rosales وفوق عائلة الورديات Superfamily Rosaceae وعائلة الخضراوات القرنية أو القرنيات Family Leguminosae وتحت عائلة الفراشيات Subfamily Papilionoidae ، وهي نباتات عشبية أوراقها مركبة أو ريشية أو راحية أو ثلاثية تشبه أوراق البرسيم، وثمارها قرنية، وبذورها عديمة الإندوسبرم، وتشمل العديد من نباتات المحاصيل من مثل الفول، البازلاء، الحمص، الفول السوداني، الحلبة، الفاصوليا، اللوبيا، العدس، الترمس، وفول الصويا.

والحلبة (Fenugreek) اسمها العلمي **Trigonella foenum-graecum**.

وللحلبة فوائد عديدة منها أنها مدرة للحليب عند الأمهات المرضعات، وفاتحة للشهية، ومعاونة جيدة في حالات عسر الهضم، ومضاد للالتهابات، ولذلك تستخدم في علاج آلام المفاصل، وفي علاج الجروح المختلفة.

وللحلبة دور فعال في علاج أمراض البول السكري، فقد ثبت أن جرامين من الحلبة المطحونة يعادلان وحدة واحدة من عقار الأنسولين، وذلك لاحتواء بذور الحلبة على سلاسل الببتيدات المرتبطة بالزنك، والتي يعزى إليها التأثير على نسبة السكر في الدم، هذا بالإضافة إلى ما بها من الأحماض الأمينية والكبريتية التي تساعد على تحويل السلاسل الببتيدية في البنكرياس إلى بنسلين فعال كما أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور عبد الباسط محمد سيد أستاذ الفيزياء الحيوية الجزيئية والطبية بالمركز القومي للبحوث - الدقي - القاهرة، وذلك في كتابه

القيم «التداوي بالأعشاب والطب النبوي» حيث أكد أن مرضى السكر يعانون نقصًا في الرابطة الكبريتية التي تربط بين السلاسل البيتيدية لتعطي جزيء الأنسولين الفعال، ولذلك فإن الكبريت في صورته العضوية في نبات مثل نبات الحلبة يزيد من فاعلية البنكرياس مما يعين في معالجة أمراض البول السكري.

وبذور الحلبة تحتوي على 29٪ من المواد البروتينية، 6٪ من الزيوت الثابتة والطيارة، وعلى نسب عالية من فيتامينات ب1 و ب2، ومادة النياسين، وحمض البانتونين، والتريجونيللين، والكولين، والسابونين، ومادة الديوسجنين والأمينات ثلاثية الميثيل، وهي مواد لها تأثيرها على أعراض الدورة الشهرية عند البالغات، هذا بالإضافة إلى العديد من العناصر من مثل الحديد، والفوسفور، والأنزيمات، والهرمونات، والمواد الصمغية.

وهذه المركبات تتضاعف فوائدها فى حالات استنبات البذور وتكون براعمها حيث تتحول البروتينات المحتوية على أعداد كبيرة من الأحماض الأمينية الأساسية إلى تلك الأحماض المنفصل بعضها عن البعض الآخر، وإلى أعداد من الفيتامينات والهرمونات المستعملة والتي تتكاثر بشكل ملحوظ في الوسط المائي خلال عملية التبرعم. وزيت الحلبة (Fenugreek Seed oil) مفيد في خفض كل من السكر والكوليسترول الضار والدهون الثلاثية في الدم، وفي علاج كل من الحروق والتقرحات الموضعية.

وهذه الحقائق العلمية عن نبات الحلبة لم تتبلور إلا في القرن العشرين، وفي العقود المتأخرة منه على وجه التحديد. والسؤال الذي يفرض نفسه: من الذي علَّم المصطفى ﷺ ذلك حتى ينطق بهذا الحديث المعجز غير الله تعالى؟ ومن الذي كان يضطره إلى الخوض في قضية علمية لم تكن معروفة في زمانه، ولا لقرون كثيرة من بعده، كقضية الفوائد الطبية لنبات الحلبة، لو لم يكن ذلك وحيًا أوحاه الله – تعالى – إليه ليفيد الناس بهذا العلم الذي يبقى إلى قيام الساعة شاهدًا له ﷺ بالنبوة وبالرسالة؟ فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه وعلى كل من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث الحادي والأربعون

«العدس أكله يرقق القلب، ويدمع العينين، ويذهب الكبر»



شكل (96) يوضح حبات العدس بغلافها الخارجي (العدس أبو جبة)

41 «العدس أكله يرقق القلب، ويدمع العينين، ويذهب الكبر»

■ أخرج ابن السني فيما رواه عن أبي هريرة مرفوعًا: «أن نبيًا من الأنبياء اشتكى إلى الله قساوة قومه، فأوحى الله إليه وهو في مصلاه: أن مر قومك يأكلوا العدس، فإنه يرقق القلب ويدمع العينين ويذهب الكبر».

(فيض القدير للمناوي، 4/345).

شرح الحديث

العدس نبات عشبي، حولي، من نباتات المحاصيل البذرية المنطوية تحت رتبة ذوات الورد Order Rosales وفوق عائلة الورديات Superfamily Rosaceae وعائلة الخضراوات Family Leguminosae وتحت عائلة الفراشيات Subfamily papilionoidea، وهي نباتات عشبية من ذوات الأوراق المركبة الريشية، أو الراحية، أو الثلاثية، وثمارها قرنية، وبذورها عديمة الإندوسبرم، وتشمل العديد من نباتات المحاصيل من مثل الفول، العدس، البسلة، الحمص، الفاصوليا، اللوبيا، الترمس، الفول السوداني، فول الصويا والحلبة.

وزهرة العدس بيضاء اللون مشوبة بالبنفسجية، وثمرته من البقول وهي حبة عدسية الشكل، صغيرة ومفلطحة، تحتوي على بذرة واحدة أو على بذرتين، وللبذرة قشرة بنية داكنة تحوي فلقتين بلون برتقالي جميل ضارب للصفرة، والاسم العلمي للعدس هو **Lens Esculenias**.

وتحتوي حبوب العدس على نسبة عالية من البروتين (24٪)، والكربوهيدرات (26٪)، والدهون (1,4٪) بالإضافة إلى نسب متباينة من مركبات كل من الفوسفور، والمغنيسيوم، والكالسيوم، والناتريوم، والبوتاسيوم، والحديد، والمنجنيز، والزنك، والنحاس، ونسب متباينة كذلك من الفيتامينات أ، ب1، ب2، ب6، ب12، ج، د، وأعداد من الهرمونات والأنزيمات المختلفة.

والعدس المستنبت تتعاظم فوائده مرات عديدة حيث تتضاعف فيه نسب كل من الفيتامينات والهرمونات والأنزيمات مع التميؤ المصاحب لعملية التبرعم، وتتحول إلى مركبات أكثر سهولة للاستيعاب بواسطة جسم الإنسان، وإن كانت عملية

استنبات العدس تحتاج إلى مراقبة جيدة؛ لأنها لو تجاوزت الوقت المحدد ظهرت الأوراق، وبظهورها تفقد البذور جزءًا من قيمتها الغذائية ويصبح طعمها مرًّا.

وحبوب العدس المطبوخة لها قيمة غذائية كبيرة، ونابتها يمثل علاجًا لكثير من الأمراض من مثل فقر الدم، وقشرها يعالج الإمساك، ويعمل على إدرار البول، وهو مضاد لكثير من الفطريات، ولذا فإنه يساعد على حفظ الأسنان من التسوس، ولصقات وكمادات معجون العدس المسلوق تفيد في علاج الالتهابات، والجروح، ودماميل مختلف القروح.

والعدس من النباتات المعروفة منذ القدم، فقد عرف في معظم الحضارات البائدة، وعرفه قدماء المصريين، وجاء ذكره مرة واحدة في القرآن الكريم حيث يقول ربنا – تبارك وتعالى – مخاطبًا شراذم العصاة من اليهود:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: 61].

والعدس من الأكلات الشعبية، على الرغم من قيمته الغذائية والطبية العالية، ولذا قال فيه رسول الله ﷺ: «**إن أكله يرقق القلب، ويدمع العين، ويذهب الكبر**».

والعدس لم يكن شائعًا في جزيرة العرب، على عهد رسول الله ﷺ، ولذلك يعتبر وصفه له في هذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده من معجزات هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ الذي وصفه ربنا – تبارك وتعالى – بقوله العزيز:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: 3-5].

فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث الثاني والأربعون

«لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة؛ قلت التين..»



شكل (97) يصور بعض ثمار التين وهي ثمار مركبة ذات فوائد صحية عديدة

42 «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة؛ قلت التين..»

روى أبو الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قـالَ: «لَوْ قُلْتُ: إنَّ فاكهةً نَزَلَتْ من الجنةِ؛ قُلْتُ: التينُ؛ لأن فاكهةَ الجنةِ بلا عَجَمٍ، كُلوا منه فإنه يقطعُ البواسيرَ وينفعُ النِّقْرِسَ». (تفسير القرطبي 20/102).

وفي روايةٍ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه قالَ: أُهدِيَ للنبيِّ ﷺ سَلُّ تينٍ، فقال: «كُلوا». وأكَل مِنْه، ثم قـالَ: «لو قلتُ: إن فاكهةً نزَلت من الجنةِ لقلت: هذه؛ لأنَّ فاكهةَ الجنةِ بلا عَجَمٍ فكُلوها فإنَّها تقطعُ البواسيرَ، وتنفعُ في النِّقْرِسِ..». (جاء في كل من القرطبي 140/20، والذهبي ص 40).

شرح الحديث

وشجرة التين البري (Ficus Carica)تتبع إحدى العائلات النباتية المعروفة باسم العائلة التوتية (Family Maraceae)وهي شجرة متساقطة الأوراق في فصلي الخريف والشتاء، تنمو في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط خاصة في كل من تركيا وبلاد الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) ومصر وباقي دول شمال إفريقيا، وتمتد شرقًا إلى إيران، وتمتاز أشجار التين بقدرتها على تحمل الجفاف، وعلى خزن محتوى عالٍ من الماء، وبوجود مادة لبنية في أنسجتها، تستخدم كمادة ملينة وكمزيل للثآليل (Warts). وثمرة التين ثمرة مركبة تتكون من مئات الثمار البالغة الدقة تجتمع على شحمة طرية حلوة المذاق مليئة بالبذور التي تعتبر كل بذرة منها نواة لثمرة مستقلة.

وأشجار التين التي يزرعها الإنسان من أمثال أشجار (التين الأزميرلي) و(التين السلطاني) هي من سلالات التين البري الذي لا يزال ينمو بريًا في حوض البحر الأبيض المتوسط (الموطن الأصلي لأشجار التين).

ونورة التين البري نورة ذات متاع مبكر النضج بمعنى أن مياسم الأزهار المؤنثة تنضج قبل نضج متوك الأزهار المذكرة الموجودة في نفس النورة، ولذلك فإن عملية التلقيح لا تتم إلا بواسطة الحشرات حتى تتكون البذور ويتم نضج الثمار.

وتقوم حشرة خاصة تسمى باسم «ذات البلعوم المتفجر» (Blasrophaga) بتلقيح أشجار التين من خلال منفعة متبادلة بينهما، تقوم شجرة التين فيها بتهيئة المكان الدافئ الأمين للحشرة تضع فيه بيضها حتى يفقس، ثم تغذي صغارها حتى يكتمل نمو تلك الصغار، وتقوم الحشرة بعملية التلقيح اللازمة لإثمار شجرة التين.

ويتكون على شجرة التين البري ثلاثة أجيال من النورات في كل عام، تحوي نورات الجيل الأول منها أزهارًا مذكرة وأخرى حاضنة للحشرات، أما أزهار الجيل الثاني فتحوي أزهارًا مؤنثة فقط وهي تمثل المحصول الرئيسي للتين حيث تتمكن الحشرات من تلقيح تلك الأزهار المؤنثة بما يعلق في أهدابها من متوك الأزهار المذكرة التي تكونت في الجيل الأول من أزهار شجرة التين، وبعد ذلك يأتي الجيل الثالث من نورات شجرة التين التي تحوي أزهارًا حاضنة للحشرة المتعايشة معها فقط، وفيها تقضي الحشرة فصل الشتاء.

وفي نورة شجرة التين تقضي حشرة «ذات البلعوم المتفجر» أو (البلاستوفاجا)، فترة التزاوج حيث تنتهي حياة الذكر بتلقيح أنثاه، فتخرج الإناث المخصبة من النورة التي تلقحت فيها باحثة عن نورة أخرى تضع فيها بيضها، فيحتك جسمها أثناء خروجها من النورة التي أخصبت فيها بالأزهار المذكرة فتتعفر بحبوب اللقاح التي تحملها إلى مياسم الأزهار المؤنثة في أثناء بحثها عن أزهار تضع فيها بيضها، وبذلك تتم عملية التلقيح اللازمة لنمو البذور ونضج ثمار التين.

ونتيجة لعمليات التهجين الطبيعي (الفطري) في نبات التين البري نشأت عنه عدة سلالات توضع عادة في مجموعتين رئيستين تعرف الأولى منهما باسم سلالة التين الكابري (Ficus Carica Caprifica) تحوي نوراتها أزهارًا مذكرة وأخرى حاضنة، وثمار هذه السلالة لا تصلح للآدميين ولذلك تعطى علفًا للماشية.

وتعرف السلالة الثانية باسم التين الشائع (Common Fig) أو المستأنس (Ficus Carica Domestica) وتحوي نوراتها أزهارًا مؤنثة فقط، وثمارها هي التي تؤكل بواسطة الإنسان، ومنها التين الأزميرلي، والتين السلطاني، والأخير هو الذي يزرع في مصر، وتحمل نوراته أزهارًا عقيمة تنتج بعملية التكاثر الخضري،

ولا تحتاج إلى عملية تلقيح، وعلى ذلك فإن ثماره بكرية، خالية من البذور، رطبة، لا تصلح للتجفيف، وموسمه قصير لا يكاد يتعدى ثلاثة أشهر.

أما «التين الأزميرلي» فتحوي نوراته أزهارًا مؤنثة تثمر بالتلقيح، وتمتاز ثماره باحتوائها على البذور ومن ثم كانت قابليتها للتجفيف والتصدير، ومن شروط نجاح زراعة «التين الأزميرلي» مزاحمته مع أشجار التين الكابري.

وتثمر شجرة التين الأزميرلي مرتين في العام، الأولى منهما في مطلع الصيف، والثانية في أواخر الصيف، وهي شجرة معمرة، يمكن أن تستمر في الإثمار لمدة تزيد على الخمسين عامًا. وارتفاع شجرة التين عادة لا يتجاوز سبعة أمتار، وثمرة التين تجمع بين صفات الزهرة والثمرة؛ لأن حبيبات التين تمثل كل منها زهرة لم تر النور، ومع ذلك فإنها تنضج نضجًا كاملاً دون أن ترى الشمس.



شكل (98) يصور بعض ثمار التين

وتشبه ثمرة التين في كثير من صفاتها ثمرة الجميز، الذي يعتبر نوعًا من أنواع التين يعرف باسم «تين سيكامور» (Sycamore Fig) وينمو بكثرة في كل من مصر وسوريا إلا أن شجرة الجميز أكبر حجمًا من شجرة التين البري، بنوعيه الكابري والمستأنس بشكل واضح، وتنمو إلى أحجام ضخمة للغاية، وهي أيضًا شجرة معمرة.

والتين شجرة مباركة وثمرة مباركة، أقسم بها ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه وهو الغني عن القسم فقال عز من قائل: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: 1-3].

وواضح من الآيات القرآنية أنه التين الشائع الذي نأكله، والزيتون المعروف الذي نأكله ونعصر منه زيته كما قال أغلب المفسرين ومنهم كل من ابن عباس

والحسن ومجاهد رضي الله تبارك وتعالى عنا وعنهم أجمعين، ولكن قلة من المفسرين رأت أن في عطف كل من مكة المشرفة التي فيها أول بيت وضع للناس، وولد وبعث فيها خاتم الأنبياء والمرسلين (صلى الله وسلم وبارك عليه وعليهم أجمعين)، وطور سينين «وسينا، وسيناء» وهو الجبل الذي كلم الله – تعالى – نبيه ورسوله موسى عليه السلام عنده ويعرف باسم جبل المناجاة وهو في وسط شبه جزيرة سيناء، يمكن أن يؤخذ على اعتبار أن اختيار لفظي التين والزيتون هو مجاز عن منابتهما بالأرض المباركة التي هي بلاد الشام بصفة عامة وأرض فلسطين بصفة خاصة، وفيها مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ومسكنه (على نبينا وعلى كل من إبراهيم وعيسى وباقي أنبياء الله ورسله أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، ويصبح القسم في مطلع سورة التين كله ببقاع مباركة عظيمة، ظهر فيها كثير من الخير والبركة بسكنى عدد كبير من أنبياء الله ورسله فيها، وإن كانت غلبة أهل الكفر والشرك والضلال قد أغرقت هذه البلاد المقدسة اليوم في بحر من الدماء والدمار والخراب في ظل هيمنة العصابات الصهيونية المجرمة التي احتلت هذه الأرض بدعم من القوى الكافرة والمشركة في العالم، وفي غفلة من المسلمين، ونسأل الله – تعالى – أن يعيننا على تحريرها من دنس اليهود وأشياعهم في أقرب فرصة إن شاء الله رب العالمين.

وأغلب الأقوال على اعتبار القسم بالتين الذي نأكله وبالزيتون الذي نأكله ونعصر زيته؛ لأنه صريح النص الذي لا يجوز العدول عنه إلى المجاز إلا بدليل، والقسم جاء من الله الخالق، الغني عن القسم لعباده، من أجل تنبيهنا إلى المنة العظمى في هاتين الثمرتين المباركتين وإلى ما فيهما من منافع جمة للخلق؛ فبالإضافة إلى أن ثمرة التين جميلة المنظر، طيبة المذاق، حلوة الطعم ، زكية الرائحة، سهلة الجني والقضم والهضم، تؤكل نية، وجافة، ونقيعًا، وشرابًا، ودبسًا، فإنها تعتبر غذاءً منشطًا ومريحًا للأعصاب، كما يدخل التين وشرابه، ودبسه (Fig syrup) في العديد من المركبات الطبية المهمة.

ومن هنـا كـان هذا القول المعجز لرسول الله ﷺ: «لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة؛ لقلت التين: لأن فاكهة الجنة بلا عجم فكلوها فإنها تقطع البواسير، وتنفع في النقرس..».

وقد ثبت بـالتحليل الكيميائي الدقيق أن ثمرة التين تحوى كمية كبيرة من الألياف (حوالي 18.5٪)، ونسبة عالية من الكربوهيدرات (في حدود 53٪) بما فيها من السكريات الأحادية، والمركبات النشوية ونسبة من البروتينات (في حدود 3.6٪)، وأملاح العديد من العناصر من مثل البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنيسيوم، والفوسفور، والحديد، والنحاس، والزنك، والكبريت، والصوديوم، والكلور، بالإضافة إلى العديد من الفيتامينات، والأنزيمات، والأحماض، والمواد المطهرة، والمواد الهلامية، ونسبة كبيرة من الماء.

وهناك أنزيم خاص للتين يعرف باسم أنزيم التين أو أنزيم فيسين (Ficin) ثبت أن له دورًا مهمًّا في عملية هضم الطعام، وقد تمكن اليابانيون من عزل مادة كيميائية أخرى من ثمرة التين وهي مركب كيميائي من نوع البنزالدهايد (Benzaldehyde) ثبت أن لها قدرة على مقاومة مسببات الأمراض السرطانية، وقد استعملت تلك المادة بالفعل في علاج بعض الحالات المتقدمة من هذا المرض، وقد شفيت بإذن الله شفاءً تامًّا.

وبثمرة التين مجموعة من المركبات النشوية التي ثبت لها دور فعال في حماية الدم من البكتيريا والفيروسات والطفيليات العديدة التي تتسبب في كثير من أمراض الدم مثل فيروس الالتهاب الكبدي، وتعرف هذه المركبات النشوية باسم مجموعة «السورالينز» وهي موجودة بوفرة في ثمار التين وفي دبسه، وعصائره وأنواع المربات المصنوعة منه.

كذلك ثبت للتين فوائد عديدة في علاج حالات البواسير والإمساك المزمن، والنِّقْرس وأمراض الصدر، واضطراب الحيض، وحالات الصرع، وتقرحات الفم، والتهابات اللثة، واللوزتين والحلق، وفي علاج البهاق، وإزالة الثآليل، واندمال الجروح والتقرحات؛ لأن به مواد قاتلة للجراثيم، ومضادة لكل من البكتيريا والفيروسات والديدان، وبه مواد كذلك تساعد على إدرار اللبن.

وكون التين يقطع البواسير كما أشار المصطفى ﷺ راجع غالبًا إلى احتوائه على مكونات مسهلة، وأخرى قابضة، وأما نفعه في حالة مرض النقرس، فراجع إلى ما يملكه التين من قدرة على إذابة أملاح حمض البوليك المترسبة في المفاصل، والناتجة عن الإفراط في أكل اللحوم الحمراء مما يؤدي إلى خلل في تمثيل الأحماض في داخل خلايا الجسم.

وهنا يعجب الإنسان من حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده، والذي حدد فيه بدقة بالغة بركة ثمرة التين، وفوائدها الجمة في علاج مرضى البواسير والنقرس في زمن لم يكن لأحد من الناس حوله إدراك لشيء من ذلك، ولا يمكن لعاقل أن يتصور لهذه المعلومات مصدرًا غير الله الخالق - سبحانه وتعالى - الذي أوحى بها إلى خاتم أنبيائه ورسله نفعًا للخلق وشهادة على نبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



شكل (99) يصور بعض ثمار أنواع خاصة من التين

الحديث الثالث والأربعون

«ما من رمانة إلا وفيها حبة من رمان الجنة»



شكل (100) يصور ثمرتين من ثمار الرمان
إحداهما مشقوقة لتوضح بناءها الداخلي

43 «ما من رمانة إلا وفيها حبة من رمان الجنة»

رُوِيَ عَنْ رسولِ الله ﷺ أنه قالَ: «مَا مِن رُمانةٍ إلا وفيهَا حبةٌ مِن رمانِ الجنةِ».

(الجامع الكبير 719/1).

وعن ابن عباسٍ (رضِيَ الله عنهمَا) أنه كان يأخذُ الحبةَ من الرمانِ فيأكلُها، قيلَ له: يابنَ عباسٍ لِمَ تفعلُ هذا؟ قال: «إنه بلَغني أن ليسَ في الأرضِ رمانةٌ إلا تلقحُ بحبةٍ من حبِّ الجنةِ، فلعلَّها هذهِ».

(رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم: 10466، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح).

وعن ربيعةَ بنتِ عياضٍ الكلابيةِ قالَتْ: «سمعتُ عليًا رضي الله عنه يقولُ: كُلوا الرمانَ بشحمِه فإنه دِباغُ المعدةِ».

(رواه أحمد، حديث رقم: 22153، والهيثمي 48/5، وقال: رجاله ثقات).

شرح الحديث

تعتبر قارة آسيا هي الموطن الأصلي لأشجار الرمان؛ حيث ينتشر في كل من إيران وأفغانستان وباكستان، وفي مناطق جبال الهيمالايا ومن هنالك امتدت زراعته إلى باقي دول العالم تقريبًا.

والرمان (Pomegranate) ثمرة لبية شحمية، ذات بذور عديدة منغرسة في المادة اللبية الموجودة بالثمرة، والغلاف الداخلي للجدار الثمري غشائي لحمي، والثمرة لها غلاف جلدي سميك، ويصل وزنها إلى أكثر من نصف الكيلو جرام، ويصل قطرها إلى حوالي عشرين سنتيمترا، وتحتوي على 400 إلى 500 بذرة.

والاسم العلمي لشجرة الرمان هو (Punica granatum) وهي تنتمي إلى ما يعرف باسم العائلة الرمانية (Family Punicaceae) وهي عائلة نباتية تتميز بأشجارها الصغيرة (أو شجيراتها) التي يتراوح ارتفاعها بين 1,5 متر إلى 5 أمتار، وتضم جنسًا واحدًا هو الرمان (Punica) الذي يمثل بنوعين هما:

(Punica protopunica. Punica granatum). والرمان من ثمار حوض البحر الأبيض المتوسط، وأصله أرض مصر.

وأوراق شجرة الرمان متقابلة، ولا يوجد بها غدد زيتية، وهي تخرج في مجموعات على سيقان قصيرة، وهي عديمة الأذينات، وتنتهي بعض أفرع شجرة الرمان بأشواك مدببة.

وثمرة الرمان اللبية ذات الغلاف الجلدي السميك مقسمة داخليًا إلى ثماني حجرات، وبذور الرمان مضلعة أو بيضاوية، عديمة الإندوسبرم والجزء الذي يؤكل منها هو الطبقة الخارجية التي تحتوي على محلول حلو المذاق.

ويستخرج من كل من قلف شجرة الرمان وغلاف ثمرتها صبغة تحتوي على مركبات القانين والبلليترين، وهي بالإضافة إلى فوائدها الصبغية، فإنها كذلك مواد قلوية قابضة تستخدم في دباغة الجلود، وفي تلوين العجائن التي تستخدم في صناعة الأسنان المستعارة.

ويبلغ وزن المادة الصالحة للأكل من ثمرة الرمان حوالي 56٪ من كتلتها التي تصل نسبة الماء فيها إلى 85٪، ونسبة السكريات (خاصة السكريات الخماسية السهلة الهضم) حوالي 11.6٪، هذا بالإضافة إلى نسب ضئيلة من الدسم، ونسب متفرقة من أملاح البوتاسيوم، والكالسيوم، والمغنسيوم، والفوسفور، والحديد والنحاس، والكبريت، والكلور، بالإضافة إلى عدد من الفيتامينات (خاصة فيتامين جـ)، والأحماض (خاصة حمض الرمان المعروف باسم حمض البوريك).

وقد لاحظ الدارسون أن لكل من ثمرة الرمان وقشرتها خواصَّ تساعد على سهولة هضم الطعام بصفة عامة والدهون بصفة خاصة، كما أن لهما فعلاً قابضًا مضادًّا لكل من الجراثيم والطفيليات ولذلك استُخدِما بكفاءة في معالجة حالات الإسهال، والزحار (الدوسنتاريا)، كما استخدما كمسكنات لآلام المعدة، وكمركبات طاردة للديدان، خاصة نقيع قشرة الرمان بعد غليه وتبريده. ويستخدم زيت بذور الرمان لمعالجة أمراض القلب الوعائية، وهشاشة العظام، وللوقاية من الأورام السرطانية، ومن ترهلات الجلد.

كذلك فإن لب ثمرة الرمان يهدئ من السعال، ويستخدم كمادة صابغة تتميز بالثبات وعدم تغير اللون.

ومن الفوائد المعروفة لكل من قشرة وشحم ثمرة الرمان استخدامهما بعد تجفيفهما في علاج حالات الزيادة في حموضة المعدة، وما قد ينتج عنها من قرح الجهاز الهضمي ويستخدمان كذلك في علاج قروح الاضطجاع التي كثيرًا ما تصيب قعيدي الفراش، وينصح كل من الحوامل والمرضعات بعدم التداوي بنقيع قشر الرمان أو نقيع قلفه.

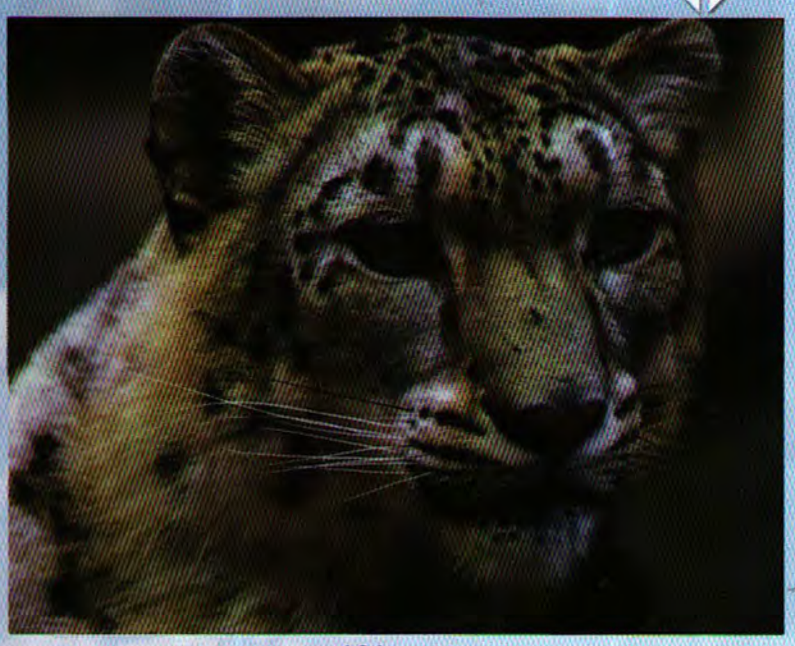
هذه الفوائد العديدة لشجرة الرمان ولثمرتها لخصها رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «ما من رمانة إلا وفيها حبة من رمان الجنة». والمعنى صريح، ولا داعي لتأويله لأن الله - تعالى - قادر على كل شيء، ولكنه يحتمل أيضًا معنى البركة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى في هذه الثمرة فجعل فيها هذه الفوائد الجمة.

الفصل الخامس

من أحاديث المحرمات من الطعام

الحديث الرابع والأربعون

«تحريم أكل كل ذي ناب ومخلب»



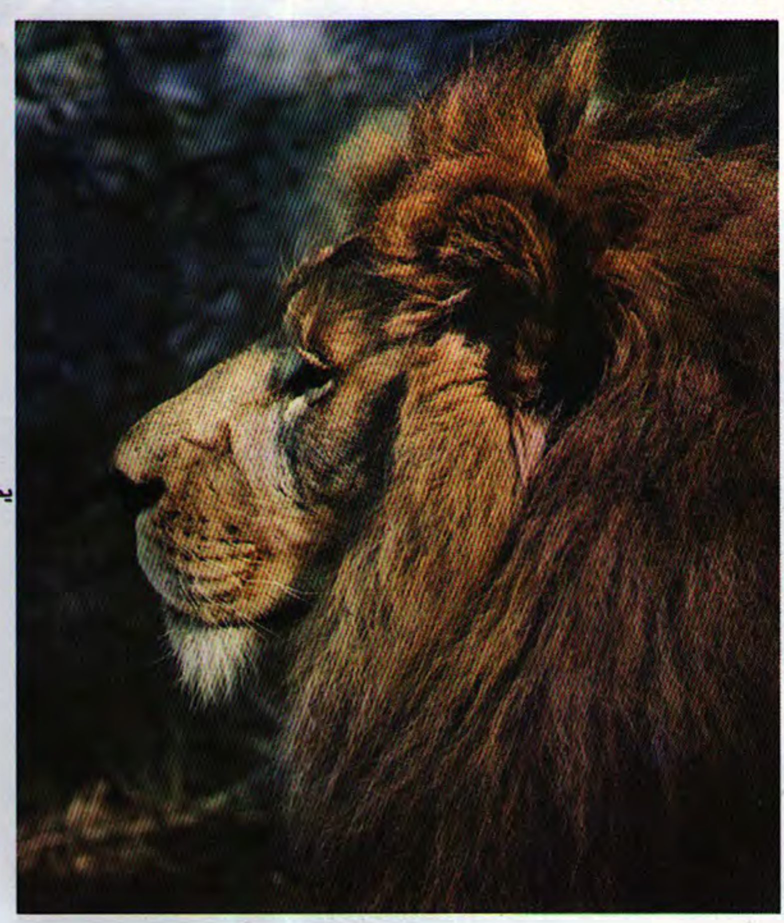
شكل (101)
صورة لرأس نمر من النمور

44 «تحريم أكل كل ذي ناب ومخلب»

■ عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير». (أخرجه مسلم ح 1934، وأبو داود ح 3803).

شرح الحديث

في هذا الحديث الشريف الذي جاء بروايات عديدة ينهى رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، والسباع جمع سبع وهو المفترس من الحيوان، وأصحاب المخالب من الطيور تعرف باسم الطيور الجارحة أو الجوارح من مثل طيور الصيد المختلفة.



شكل (102)
يصور رأس الأسد



شكل (103) صورة لغرابين، وهما من الجوارح

والسباع ذات الأنياب تشمل الحيوانات الثديية المفترسة والتي تجمع في رتبة واحدة تعرف باسم (رتبة الثدييات المفترسة) أو الحيوانات الجارحة أو الجوارح (Order Carnivora) وتضم عشرًا من العائلات التي تملأ جنبات اليابسة وأغوار الماء اليوم ممثلة بحوالي 115 جنسًا، 274 نوعًا، وهي حيوانات متوسطة إلى كبيرة الحجم، وتتميز بتحورات واضحة في كل من مخالبها وبناء أسنانها لتتلاءم مع طبيعتها في الافتراس وأكل لحوم فريستها. وهذه تشمل الأسود، والضباع، والنمور، والثعالب، والذئاب، والفهود، والكلاب، والقطط ، والدببة، وعجول البحر (Seals)، وحيوانات الفظ (Walruses)، وغيرها، وتتميز كلها بالأسنان المتخصصة للافتراس والتقطيع والتمزيق، فلها قواطع أمامية تقطع وأربعة أنياب: اثنان في كل من الفكين العلوي والسفلي مهمتها تمزيق الفريسة، ومخالب قوية للقبض على الفريسة، وهي عادة من الحيوانات سريعة الجري على اليابسة وسريعة السباحة في الماء.

أما ذوات المخلب من الطيور فيقصد بها الطيور الجارحة التي تعدو على فريستها بمخالبها مثل الصقر أو الباز، والشاهين، والعقاب، والنسر والباشق والغراب، والحدأة وغيرها من الجوارح أو الرمامات من الطيور، والتي تجمع في رتبة واحدة تعرف باسم رتبة الصقور أو البازيات(Order Falcon Forms) وتضم طيورًا ضخمة الحجم في العادة، لها قدرات هائلة على الطيران، وآكلة للحوم أو الجيف؛ ولذلك يستخدم بعضها في عمليات القنص الرياضي أو للصيد للطعام.

وتتميز الطيور الجارحة عادة بأجنحتها القوية، ومناقيرها المعقوفة، التي تستخدمها في تمزيق لحم الفريسة التي تمسكها بواسطة القدمين القويتين بشكل غير عادي، والمزودتين بمخالب طويلة قوية، ومعقوفة في أغلب الأحوال، ولها قدرات سمع وبصر فائقة للغاية.

وكل من الحيوانات والطيور المفترسة والتي تجمع تحت مسمى «الجوارح» محرمة عند جمهور العلماء انطلاقًا من أحاديث رسول الله ﷺ التي منها هذا الحديث الشريف الذي نحن بصدده.

شكل (104) الدببة من الحيوانات المحرم أكلها

والحكمة من هذا التحريم تنبع من طريقة الافتراس للحيوانات أو للجيف وغيرهما من أنواع الطعام الذي تحيا عليه هذه الجوارح، وينطبق عليه تحريم كل من الميتة والدم؛ وذلك لأن موت الحيوان قبل تذكيته قد يكون بسبب مرض من الأمراض العضوية أو الفيروسية التي أصابته بالعدوى، أو ألمت به بسبب الشيخوخة وهذا سبب من الأسباب المباشرة لنقل مسببات الأمراض وغيرها من المركبات الكيميائية القاتلة، أضف إلى ذلك أن أكل هذه الجوارح للحوم الفريسة أو الجيفة نيئًا بما فيه من دماء وسموم وفيروسات وبكتيريا وطفيليات وفطريات وغيرها، وكل من الميتة والدم المسفوح، مُحرَّم بنص القرآن الكريم وذلك لاحتوائها على العديد من مسببات الأمراض والسموم المعقدة وغيرهما من المركبات الكيميائية الأخرى الضارة بصحة الإنسان والتي يحملها كل من الدم واللحم غير المذكى والجيف.



شكل (105) الجوارح من المحرمات المنصوص عليها

ولعل من حكمة تحريم أكل لحوم هذه الجوارح أيضًا أن الغذاء ينعكس على شيء من طباع آكله، فأكل لحوم الحيوانات والطيور الجارحة لابد أن ينعكس على أخلاق وطباع آكله بشيء من التوحش والقسوة والشراسة والميل إلى العنف، والرغبة في سفك الدماء، وقد لوحظ ذلك على عدد من التجمعات البدائية للإنسان والتي لا تفرق بين حلال وحرام فيما تأكل فقست قلوبهم إلى حد أكل لحوم الإنسان، مع العلم بأن الفطرة وحدها تأبى ذلك ولا ترضاه.

وتحريم رسول الله ﷺ أكل كل ذي ناب ومخلب سبق علمي لجميع معارف البشر التي لم تدرك شيئًا من أخطار ذلك إلا في القرن العشرين. وانطلاقًا من حرصه - صلوات الله وسلامه عليه - على طهارة مطعم المسلم فقد نهى عن أكل (الجلَّالة) وعن شرب لبنها وعن ركوبها، و(الجلالة) هي التي تأكل العَذِرَةَ أو غيرها من النجاسات من الإبل والبقر والضأن والماعز والطيور، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «نهى رسول الله ﷺ عن شرب لبن (الجلَّالة)»[1].

وفي رواية أخرى: «نهى عن ركوب (الجلَّالة)» (رواه أبو داود ح 3719).

وفي رواية ثالثة: «نهى رسول الله ﷺ عن لحوم الحُمُر الأهليَّة وعن (الجلَّالة): عن ركوبها، وأكل لحومها»[2].

ولكن إذا حبست (الجلَّالة) بعيدة عن النجاسات مُددًا تتناسب مع حجم كل منها، وعلفت طاهرًا حتى يطمئن صاحبها أن جسدها قد طهر مما أصابها حَلَّ أكل لحمها وشرب لبنها؛ لأن علة النهي هي التغيير الذي أصابها برمامة النجاسات؛ فإذا زال عنها ذلك صار لحمها وما يخرج من لبنها حلالاً طيبًا إن شاء الله تعالى.

وهذه الأحاديث النبوية الشريفة تنطلق كلها من قول ربنا - تبارك وتعالى -:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: 157].

---

(1) الترمذي (1825)، والنسائي (4448)، وأبو داود (3786)، وأحمد (2666)، والدارمي (2001).

(2) النسائي (4447)، وأبو داود (3811)، وأحمد (6999).

فالقاعدة العامة التي وضعها ربنا - تبارك وتعالى - في تحليل الطعام والشراب هي طيبه، وفي تحريمه هي خبثه. وهذه قضايا لم تدركها العلوم المكتسبة إلا بعد مجاهدات استغرقت آلافًا من العلماء لمئات من السنين حتى وصلوا إلى فهم شيء منها.

وهذا السبق العلمي في كل من كتاب الله - تعالى - وسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يقطع لكل ذي بصيرة بصدق نبوة هذا الرسول الخاتم، وصدق الوحي الذي تلقاه عن ربه، والذي لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، خاصة إذا أدركنا مستوى المعارف البشرية في زمن الوحي، والعالم كله في حالة من الجهل والكفر أو الشرك وغيرهما من صور الضلال الذي لا يصل إلى شيء من الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ؛ فالحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، والحمد لله على تعهده بحفظ آخر رسالاته لهداية البشرية فحفظت على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية أو يزيد، وحفظت في نفس لغة وحيها - اللغة العربية - وحفظت حفظًا كاملاً في الوقت الذي ضاعت كل أصول الرسالات السابقة وقد فاق عددها الثلاثمائة رسالة (315-317 رسالة) كما جاء في حديث رسول الله ﷺ. والحمد لله على تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظ رسالته الخاتمة إلى أن يشاء حتى تبقى شاهدة على جميع الخلق إلى قيام الساعة، والصلاة والسلام على خاتم أنبياء الله ورسله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الحديث الخامس والأربعون

«النهي عن أكل الجَلّالة وعن شرب ألبانها»



شكل (106)
صورة للنفايات التي تحيا عليها بعض الحيوانات الجَلّالة

45 «النهي عن أكل الجَلَّالة وعن شرب ألبانها»

أخرَج كلٌّ من الإمامَيْن: الترمذيُّ، وأبو داودَ عن عبدِ الله بنِ عمرَ - رضي الله عنهُمَا - أنه قالَ: «نهَى رسول الله ﷺ عن أكلِ لحمِ الجَلَّالةِ وَأَلبانِهَا».

■ فقال الإمام الترمذي في سننه (كتاب الأطعمة، حديث رقم: 1747):

حَدَّثَنَا هَنَّادٌ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَقَ عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَن ابْنِ عمرَ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَكْلِ الجلَّالَةِ وَأَلْبَانِهَا».

■ والحديث أخرجه الإمام أبو داود في سننه (كتاب الأطعمة، حديث رقم: 3291) بسنده قال:

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَقَ عَن ابْنِ أَبِي نجيحٍ عَن مُجَاهِدٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَكْلِ الجلَّالَةِ وأَلْبَانِهَا».

شرح الحديث

الجلالة هي الحيوانات التي دأبت على أكل النجاسات والمستقذرات من مثل مخلفات وإخراجات الحيوانات الأخرى.

وتكملة الحديث: الوصية بضرورة حبس الحيوان الجلال، وعلفه بالغذاء الطاهر لفترة تتناسب مع حجمه حتى تزول ما به من نجاسات، ويعود إلى حالة من النظافة والطهر تطيب نفس الإنسان السوي معها بأكل لحمه وغير اللحم من منتجاته وشرب لبنه إن كان له لبن بلا ضرر أو ضرار.

واختلف الفقهاء في سحب هذا النهي على التحريم أو التنزيه، وواضح الأمر أنه أقرب إلى التحريم إلا في حالات الضرورة القصوى، بل إن بعض الفقهاء قد زاد القول بحرمة ركوب الجلالة خشية أن يتعرض الراكب للتلوث بنجاسة عرقها، وغالب الرأي هو كراهة الركوب تنزهًا من نتن عرقها.

وفي زماننا قام موقف يشابه حديث الجلالة تمامًا أجبر فيه الإنسانُ الحيوانَ على أكل النجاسات والمستقذرات، فأصابه من الأمراض المستعصية ما انتقل إلى الإنسان عن طريق الطعام، وحمل إلى السلالات بالميراث، بل وانتقل إلى أعداد من

الحيوانات الأليفة والبرية إما عن طريق الطعام أو المخالطة، وكان السبب في ذلك هو الشَّرَه الشديد للمكسب السريع، وعدم المبالاة بأخطار مخالفة الفطرة التي فطر الله المخلوقات عليها.

ففي العقود المتأخرة من القرن العشرين تفتقت أذهان بعض الشياطين عن فكرة تغذية كل من الأغنام والماشية والدواجن بفضلات ذبح الحيوانات من الدماء، والشحوم، والأحشاء ومساحيق العظام بالإضافة إلى أعداد من الهرمونات طمعًا في زيادة إنتاجها من اللحوم والألبان والبيض.

وفي نوفمبر 1986 م فوجئت بريطانيا – ومن بعدها العديد من الدول الأوربية – بانتشار عدد من الأمراض المستعصية في تلك الحيوانات التي غذيت بالبروتينات الحيوانية، وقد فطرها الله – تعالى – على أكل الأعشاب والحبوب النباتية.

وكان من أخطر هذه الأمراض ما عرف باسم **«مرض جنون البقر»** (Mad Cow Disease = Bovine Spongiform Encephalopathy or B.S.E)



شكل (107)
صورة لبقرة مصابة بمرض جنون البقر

وهذا المرض يهاجم مخ الحيوان فيدمره تدميرًا بتحويله إلى حالة إسفنجية منخربة ومتآكلة، فيفقد السيطرة على ذاته وحركاته ويهيج هياجًا شديدًا حتى الموت.

وقد ثبت انتقال هذا المرض إلى آكلي لحوم وألبان تلك الحيوانات المصابة وإلى السلالات التي أنتجتها، مما اضطر السلطات في أوربا إلى إصدار القرار بحظر استخدام البروتينات الحيوانية في تغذية كل من الماشية والأغنام والدواجن، وذلك في سنة 1988م، وبإعدام جميع الحيوانات المصابة، مما أدى إلى خسائر مادية فادحة، ففي الفترة من نوفمبر 1986م – حين تم تشخيص مرض «جنون البقر» لأول مرة – إلى إبريل 1991م تم إعدام أكثر من ستة وعشرين ألف رأس من البقر المصاب في بريطانيا وحدها.

ولم يتم التعرف على مسببات هذا المرض الخطير إلى يومنا هذا، وإن كان يظن أنه «فيروس» غير عادي يقاوم كل المضادات الحيوية ودرجات الحرارة العالية، ، ولم يتمكن العلماء من رؤية ذلك الفيروس بعد، ولا حتى تحت المجهر الإلكتروني، ولم يتمكنوا من تتبعه عن طريق الجسيمات المضادة حيث إنه لا يثير أية جسيمات مضادة في الأجسام التي يصيبها.

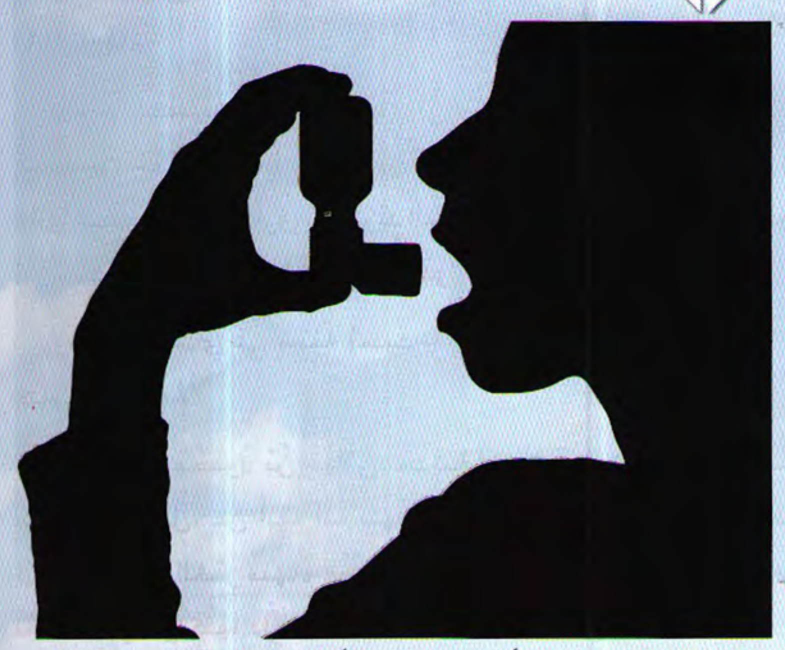
وحديث الجلاَّلة الذي نطق به رسول الله ﷺ من قبل 1400 سنة، في بيئة لم يكن لها حظ من المعرفة العلمية، قد أثبت الإنسان صحته في زماننا مما يشهد له ﷺ بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الفصل السادس

من أحاديث الوقاية والأشفية

الحديث السادس والأربعون

«إن اللّه أنزل الداء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تتداووا بحرام»



شكل (108) يصور مريضًا يستخدم بخاخًا لعلاج أمراض الجهاز التنفسي

46 «إن الله أنزل الداء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تتداووا بحرام»

هذا الحديث النبوي الشريف رواه أبو داود في سننه (حديث رقم: 3873، كتاب الطب) وقال فيه:

■ حَدَّثَنَا مُسْلِمُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عن سِمَاكٍ، عن عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ، عن أَبِيهِ، ذَكَرَ طَارِقَ بْنَ سُوَيْدٍ أَوْ سُوَيْدَ بْنَ طَارِقٍ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عن الخمْرِ فَنَهَاهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَنَهَاهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا نَبِيَّ الله، إِنَّهَا دَوَاءٌ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا وَلَكِنَّهَا دَاءٌ».

ورواه أيضًا في سننه، (حديث رقم: 3874) قائلاً:

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَادَةَ الْوَاسِطِيُّ، حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، أَخْبَرَنَا إِسْمَاعِيلُ ابْنُ عَيَّاشٍ، عن ثَعْلَبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ، عن أَبِي عِمْرَانَ الأَنْصَارِيِّ، عن أُمِّ الدَّرْدَاءِ، عن أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً فَتَدَاوَوْا وَلا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ».

والحديث رواه مسلم في صحيحه (حديث رقم: 1984، باب تحريم التداوي بالخمر، كتاب الأشربة) قائلاً:

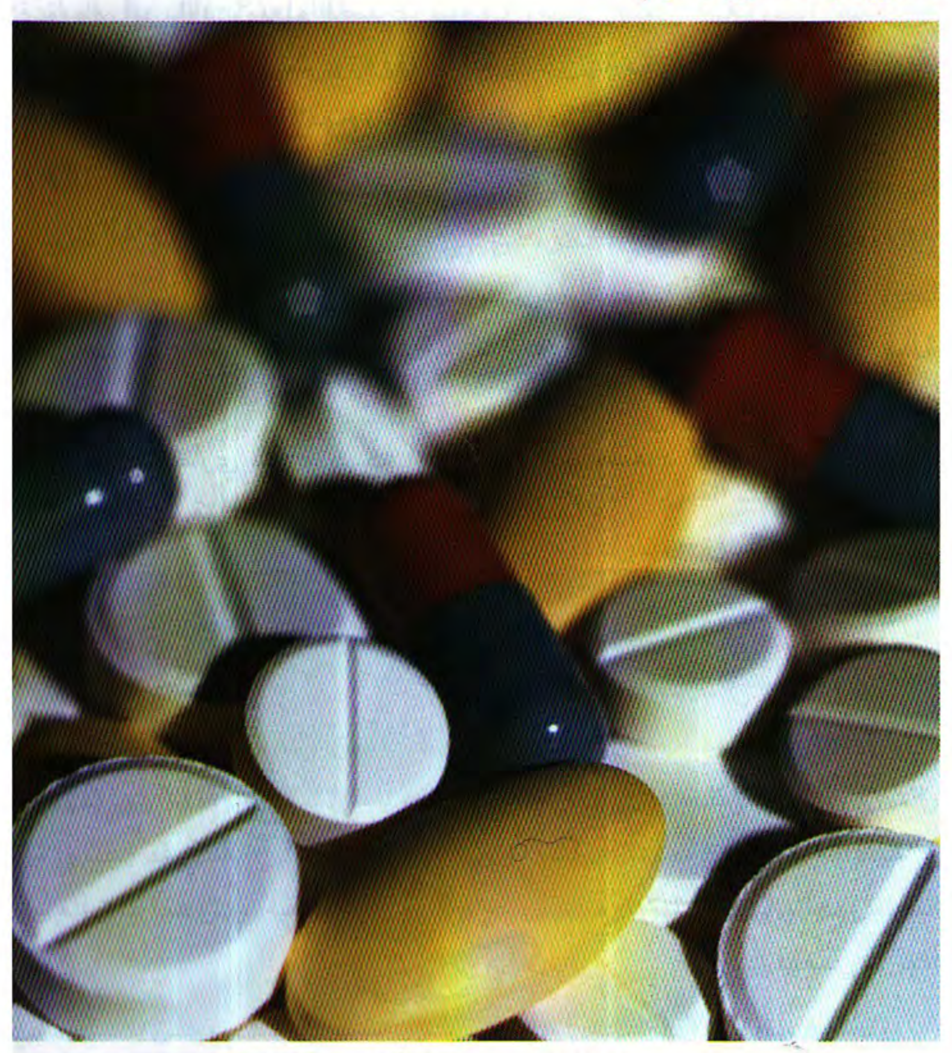
حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَمُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ - وَاللَّفْظُ لابْنِ الْمُثَنَّى - قَالا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عن سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ، عن عَلْقَمَةَ بْنِ وَائِلٍ، عن أَبِيهِ وَائِلٍ الحضْرَمِيِّ أَنَّ طَارِقَ بْنَ سُوَيْدٍ الجُعْفِيَّ سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عن الخمْرِ فَنَهَاهُ أَوْ كَرِهَ أَنْ يَصْنَعَهَا، فَقَالَ: «إِنَّمَا أَصْنَعُهَا لِلدَّوَاءِ». فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهُ دَاءٌ».

ورواه الترمذي في سننه (حديث رقم: 2046، باب ما جاء في كراهية التداوي بالمسكر، كتاب الطب) قائلاً:

■ حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلانَ، حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ، عن شُعْبَةَ، عن سِمَاكٍ أَنَّهُ سَمِعَ عَلْقَمَةَ بْنَ وَائِلٍ، عن أَبِيهِ أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ ﷺ. وَسَأَلَهُ سُوَيْدُ بْنُ طَارِقٍ أَوْ طَارِقُ ابْنُ سُوَيْدٍ عن الخمْرِ فَنَهَاهُ عَنْهُ فَقَالَ: إِنَّا نَتَدَاوَى بِهَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهَا لَيْسَتْ بِدَوَاءٍ وَلَكِنَّهَا دَاءٌ».

حَدَّثَنَا مَحْمُودٌ حَدَّثَنَا النَّضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ وَشَبَابَةُ، عن شُعْبَةَ بِمِثْلِهِ. قَالَ مَحْمُودٌ: قَالَ النَّضْرُ: طَارِقُ بْنُ سُوَيْدٍ. وَقَالَ شَبَابَةُ: سُوَيْدُ بْنُ طَارِقٍ. قَالَ أَبُو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

أخرج كل من علماء الحديث الكبار: أبو داود، وابن السُّني، وأبو نعيم حديث أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**إن الله أنزل الداء، وجعل لكل داء دواءً، فتداووا، ولا تتداووا بحرام**».



شكل (109) يصور بعض أقراص الأدوية

كذلك أخرج كل من مسلم، وأبي داود، والترمذي، وابن ماجه، وأبي نعيم حديث وائل بن حجر الذي ذكر فيه أن طارق بن سويد الجعفي سأل رسول الله ﷺ عن الخمر يُجعَل في الدواء، فقال ﷺ: «إنها داء وليست دواء».

وأخرج كل من مسلم وابن حبان في صحيحيهما من حديث طارق بن سويد أنه قال: قلت: يا رسول الله، إن بأرضنا أعنابًا نَعْصِرُها فنشرب. قال ﷺ: «لا». فراجعته قلت: إنا نستشفي للمريض. قال ﷺ: «إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء».

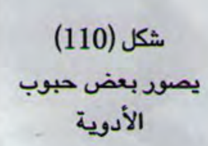
وروى أبو داود أن ديلم الحميري جاء مع وفد من اليمن فسأل رسول الله ﷺ مستفتيًا في أمر شراب يشربونه بقوله: إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديدًا، وإنا نتخذ شرابًا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وبرد بلادنا.

قال رسول الله ﷺ: «هل يسكر؟». قال: نعم. قال رسول الله ﷺ: «فاجتنبوه». قال: إن الناس غير تاركيه. قال ﷺ: «فإن لم يتركوه فقاتلوهم». سنن أبي داود (حديث رقم: 3683).

وأخرج أبو نعيم حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي قال فيه: إن رسول الله ﷺ قال: «من تداوى بالخمر فلا شفاه الله»[1].

وأخرج البخاري في صحيحه (ج5) حديث ابن مسعود رضي الله عنه الذي يروي عن رسول الله ﷺ قوله: «إنه لم يجعل شفاءكم فيما حرم».





شكل (110)
يصور بعض حبوب الأدوية

(1) زاد المعاد 4/141، ابن أبي شيبة 23498.

وأخرج الترمذي في سننه (كتاب تفسير القرآن) قائلاً: حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ، حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَقَ، عن عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ أَبِي مَيْسَرَةَ، عن عُمَرَ بْنِ الخطَّابِ أَنَّهُ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ. فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي الْبَقَرَةِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ الآيَةَ. فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ. فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي النِّسَاءِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾ [النساء: 43]. فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّن لَنَا فِي الخمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ. فَنَزَلَتِ الَّتِي فِي المائِدَةِ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]. فَدُعِيَ عُمَرُ فَقُرِئَتْ عَلَيْهِ فَقَالَ: انْتَهَيْنَا انْتَهَيْنَا. قَالَ أَبُو عِيسَى: وَقَدْ رُوِيَ عن إِسْرَائِيلَ هَذَا الحدِيثُ مرسلاً: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ، عن إِسْرَائِيلَ، عن أَبِي إِسْحَقَ، عن أَبِي مَيْسَرَةَ عَمْرِو بن شُرَحْبِيلَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخطَّابِ قَالَ: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الخمْرِ بَيَانَ شِفَاءٍ، فَذَكَرَ نَحْوَهُ، وَهَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ يُوسُفَ.

شرح الحديث

هذه الأحاديث النبوية الشريفة مجتمعة مع غيرها من أقوال المصطفى ﷺ تنطلق من قول الحق – تبارك وتعالى –:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: 219].

وواضح أن إثمهما الكبير واقع في ضياع الدين والخلق، والمروءة، والعقل، والمال، والوقت، وكلها تمثل الحياة التي سوف يسأل الإنسان عنها بين يدي الله – سبحانه وتعالى –، وأما المنافع فتتمثل في الربح الحرام الذي قد يجتنى من التعامل بهاتين الجريمتين، وهو مال حرام لا يبارك الله فيه، ومن هنا كان إثمهما أكبر من نفعهما.

ويتضح جانب الإعجاز في حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده في تأكيد أن الإنسان في هذه الحياة معرَّض لكثير من الأدواء – وهذا من الطبيعة

الإنسانية – وأن الله – تعالى – ما أنزل داءً إلا وأنزل معه الدواء، فمن عجائب خلق الله في الكون أن كل شيء فيه قد خلق في زوجية باهرة حتى يبقى الله – تعالى – وحده متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، فكل سبب للمرض خلق الله – سبحانه وتعالى – له ضدًا هو دواؤه، كما أن المادة لها أضدادها، والطاقة لها أضدادها، وهكذا.

وجانب آخر من جوانب الإعجاز في هذا الحديث الشريف: الأمر بالتداوي حتى لا يترك الإنسان جسده نهبًا للمرض فيهلك بعد أن يشقى.

والجانب الثالث من جوانب الإعجاز في الحديث أن الحرام لا يمكن أن يكون دواءً لمرض من الأمراض، ومن الحرام الخمر التي وصفها المصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه عنه عبد الله بن عمرو بن العاص، وأخرجه الطبراني في الكبير بقوله: «الخمر أم الفواحش ومن أكبر الكبائر...»؛ ولذلك فقد نهى القرآن الكريم كما نهت أحاديث رسول الله ﷺ عن التداوي بالخمر أو التداول فيها: صناعة، أو نقلاً، أو بيعًا، أو شراءً، أو شربًا، أو تقديمًا، أو لمسًا، أو بأية حجة من الحجج، فإنها داء وليست بدواء، ولا شفاء فيها بل هي سبب للعديد من الأمراض البدنية والنفسية والاجتماعية، فقد أثبت العديد من الدراسات والبيانات الطبية أن تناول الخمر يؤدي إلى تسمم الجسم واضطراب الذهن، وفقدان الذاكرة وإلى العديد من الأمراض العقلية والجسدية، من مثل: الفشل الكلوي، واحتقان البروستاتة، والتهاب مختلف أجزاء الجهاز الهضمي بدءًا من الفم وانتهاءً بـ«المصران الغليظ»، هذه الالتهابات التي تنتهي بالسرطانات العديدة، مرورًا بقرحات في أماكن متفرقة، والتهاب كل من الكبد والبنكرياس وتليفهما، كما تؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم وإلى إضعاف عضلة القلب، وإلى الذبحات الصدرية وهبوط القلب والسكتات الدماغية وحدوث نزيف الدم المتكرر، وإلى ضعف جهاز المناعة مما يضعف مقاومة الجسم للأمراض المختلفة. ويؤدي تناول الخمر إلى التهابات الجهاز التنفسي التي تنتهي بمرض السل الرئوي وسرطانات كل من الرئة والقصبة الهوائية والحنجرة، كما يؤدي تناول الخمر إلى اضطراب نشاط الغدد الصماء بالجسم، وإلى العديد من الاضطرابات العصبية والعقم وغير ذلك من الأمراض التي تصيب متناولي الخمور،

وهي أكثر من أن تحصى في هذه العجالة، وأخطرها جميعًا تشوه الأجنة في بطون الأمهات المدمنات للخمر.

أما في الجوانب الأخرى فقد ثبت أن أغلب الجرائم السلوكية يتم تحت تأثير شرب الخمر مما دفع منظمة الصحة العالمية إلى إصدار بيان لها في سنة 1979م تقرر فيه أن «تعاطي الخمور هو إحدى المشكلات الصحية الكبرى في العالم، وأن الاستمرار في تعاطيها يعيق التقدم الصحي، والاجتماعي، والاقتصادي في معظم المجتمعات، وهي تشكل عائقًا كبيرًا في المجال الصحي، وتعتبر أحد العوامل المؤثرة في تحطيم الصحة العامة، ولا يوجد حل لها».

وهنا يهتف كل منصف: صدقت يا سيدي يا رسول الله حيث قلت: «ولا تتداووا بحرام». وحيث قلت: «إنها داء وليست بدواء».

الحديث السابع والأربعون

«في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السَّام»



شكل (111) يصور بعض بذور الحبة السوداء

47 «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلَّا السَّام»

هذا الحديث النبوي الشريف رواه البخاري في صحيحه (حديث رقم: 5364، باب الحبة السوداء، كتاب الطب) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «في الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السَّام». والرواية نصها كما يلي:

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عن عُقَيْلٍ، عن ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ وَسَعِيدُ بْنُ المسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «في الحبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِن كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ». قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَالسَّامُ: الموْتُ، وَالحبَّةُ السَّوْدَاءُ: الشُّونِيزُ.

وروى مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2215، كتاب السلام) هذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضًا بالنص التالي: «ما من داء إلا وفي الحبة السوداء منه شفاء إلا السام»، وروى خالد بن سعد عن ابن أبي عتيق عن أم المؤمنين عائشة (رضي الله تعالى عنها) أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا من السَّام». قالت: قلت: وما السام؟ قال ﷺ: «السام هو الموت».

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رُمْحِ بْنِ المُهَاجِرِ، أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ، عن عُقَيْلٍ، عن ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَعِيدُ بْنُ المسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الحبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِن كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ، وَالسَّامُ الموْتُ». وَالحبَّةُ السَّوْدَاءُ الشُّونِيزُ. صحيح مسلم (حديث رقم: 2215، باب التداوي بالحبة السوداء).

وحَدَّثَنِيهِ أَبُو الطَّاهِرِ وَحَرْمَلَةُ قَالا: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عن ابْنِ شِهَابٍ، عن سَعِيدِ بْنِ المسَيَّبِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ. وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَمْرو النَّاقِدُ وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَابْنُ أَبِي عُمَرَ قَالُوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ. وحَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ. وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الله ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، أَخْبَرَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، كُلُّهُمْ عن الزُّهْرِي، عن أَبِي سَلَمَةَ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النَّبِيِّ ﷺ بِمِثْلِ حَدِيثِ عُقَيْلٍ. وَفِي حَدِيثِ سُفْيَانَ وَيُونُسَ: «الحبَّةُ السَّوْدَاءُ». وَلَمْ يَقُل الشُّونِيزُ.

وروى مسلم الحديث أيضًا بلفظ ما يلي:

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ وَقُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَابْنُ حُجْرٍ قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ، عن الْعَلاءِ، عن أبيه عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ دَاءٍ إلا فِي الحبَّةِ السَّوْدَاءِ مِنَهُ شِفَاءٌ إلا السَّامَ». صحيح مسلم، (حديث رقم: 2215، باب التداوي بالحبة السوداء).

والحديث رواه الترمذي (حديث رقم: 2041، باب ما جاء في الحبة السوداء، كتاب الطب) – وقال: حديث حسن صحيح – بالرواية التالية:

■ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ وَسَعِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ المخزُومِيُّ قَالا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن الزُّهْرِيِّ، عن أَبِي سَلَمَةَ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْحبَّةِ السَّوْدَاءِ فَإِنَّ فِيهَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ، وَالسَّامُ الموْتُ». قَالَ أَبُو عِيسَى: وَفِي الْبَابِ عن بُرَيْدَةَ وَابْنِ عُمَرَ وَعَائِشَةَ، وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ، وَالحبَّةُ السَّوْدَاءُ هِيَ الشُّونِيزُ.

والحديث ذكره أيضًا ابن ماجه في سننه (حديث رقم: 3447، باب الحبة السوداء، كتاب الطب) بالنص التالي:

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رُمْحٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ الحارِثِ الْمِصْرِيَّانِ قَالا: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ، عن عُقَيْلٍ، عن ابْنِ شِهَابٍ، أَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَسَعِيدُ بْنُ المسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ فِي الحبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ، وَالسَّامُ الموْتُ». وَالحبَّةُ السَّوْدَاءُ الشُّونِيزُ.

ونفس الحديث رواه أحمد في مسنده (حديث رقم: 7548) على النحو التالي:

■ حَدَّثَنَا يَزِيدُ وَيَعْلَى قَالا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو عن أَبِي سَلَمَةَ عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «فِي الْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلا السَّامَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا السَّامُ؟ قال ﷺ: «الموت».

شرح الحديث

الحبة السوداء (Black Seed) ثمرة لنبتة عشبية حولية من الفصيلة الشقيقية، تنمو في حوض البحر الأبيض المتوسط، وتزرع في كثير من دول العالم واسمها

العلمي (Nigella sativa)، وتعرف في مصر باسم «حبة البركة»، وفي بلاد الشام باسم «القزحة»، وفي اليمن باسم «قحطة»، وفي المغرب باسم «سانوج وسينوج» وباسم «زرارة»، وفي فارس باسم «شونيز أو شينين» أو باسم «سياه دانه»، كما تعرف باسم «الكمون الأسود» وباسم «الحبة المباركة»، وهي حبة فلقية، سوداء، حريفة، تستعمل كأحد التوابل التي تضاف إلى الطعام لتحسين مذاقه.

وقد دفعت قراءة هذه الأحاديث النبوية بعدد من علماء المسلمين وأطبائهم في القديم والحديث إلى النظر في إمكانية الاستفادة بهذه الحبة المباركة في علاج بعض الأمراض، باعتبار أن لفظة (شفاء) جاءت في هذه الأحاديث غير معرفة، فقيل إنها لا تعم كل الشفاء، وإن نِسبة الشفاء بها تزيد وتنقص حسب نوع المرض وشدته، ولكنَّ عالمًا مسلمًا من أبناء مصر المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية وهو (الأستاذ الدكتور أحمد أحمد القاضي) نظر في هذه الأحاديث المتعلقة بالحبة السوداء نظرة طبية فاحصة فقال: حبة فيها شفاء من كل داء إلا الموت لابد أن تكون لها علاقة مباشرة بجهاز المناعة في جسم الإنسان الذي سَخَّره ربنا - تبارك وتعالى - للدفاع عن هذا الجسم، وقام بدراسة تلك العلاقة على عدد من المرضى المصابين بنقص المناعة المكتسبة، وأثبت زيادة واضحة في عدد خلايا الدفاع عن الجسم المسماة باسم خلايا ت4 - ت8 (T4–T8–Cells)، مع التناول المنتظم لجرعات مناسبة من الحبة السوداء، وقام بالفعل بتصنيع كبسولات تحوي كلًّا من الحبة السوداء، والثوم، وعسل النحل بكميات محسوبة بدقة شديدة سماها باسم الحروف الأولى من اسمي الحبة السوداء والثوم: (Conigar = Combined **Nigella sativa** and Garlic).

ووافقت الأجهزة الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية على التصريح بإنتاج هذا العقار لثبات أثره الفعال في علاج أمراض نقص المناعة المكتسبة (الخلقية والعارضة)، وهي لا توافق عادة على العلاج بالمواد الطبيعية إلا بصعوبة شديدة، وفي أضيق الحدود الممكنة.

والحبة السوداء قد عرفها كل من قدماء المصريين، والعرب والفرس، وذكروا أن لها فوائد جمة في علاج عدد من الأمراض، من مثل أمراض الجهاز التنفسي كالزكام، والتهاب القصبة والشعب الهوائية، وأمراض الجهاز البولي / التناسلي، وبعض الأمراض الجلدية كالثآليل وتساقط الشعر. وقد ثبت أخيرًا أن لها دورًا فعالاً في علاج عدد آخر من الأمراض، من مثل الربو، وارتفاع ضغط الدم، وأمراض الجهاز الهضمي (كأمراض القولون المزمنة)، وبعض الأمراض الفيروسية كالالتهاب الكبدي الوبائي، وغيرها.

ولكن لم يكن أحد في القديم يتصور أن للحبة السوداء أدنى صلة بالجهاز المناعي في جسم الإنسان كما أوضحت أحاديث رسول الله ﷺ ذلك في قوله الشريف: «إن فيها شفاء من كل داء إلا الموت».

ولذلك فقد عاش الناس قرونًا طويلة يستخدمون الحبة السوداء كمُحَسِّن لطعم المأكولات فقط، فأضافوها إلى مختلف أنواع الفطائر، والمخللات، إلا أن الاتجاه الحديث يميل إلى استخدامها كعلاج ناجع في العديد من الأمراض المستعصية. وثبت أخيرًا أن بذور الحبة السوداء تحتوي على زيوت ثابتة بنسبة 33٪، وعلى زيوت طيارة بنسبة 1.5٪، وقد وجد في زيوتها مادة فعالة في تقوية جهاز المناعة، سميت بالاسم العلمي لحبة البركة (Nigella sativa) ولذلك أطلقوا عليها اسم (نيجيللون = Nigellone)، وثبت بالتجارب العديدة أن لمادة (النيجيللون) دورًا فعالاً في رفع القدرة الدفاعية لجهاز المناعة في جسم الإنسان، وهي حقيقة لم تعرفها العلوم المكتسبة إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وسبق المصطفى ﷺ بالإشارة إليها بهذا الوضوح، وهذه الدقة العلمية لا يمكن أن يكون لها مصدر إلا وحي السماء، مما يؤكد نبوته ورسالته ﷺ، وصلته الدائمة بالوحي، وصدق الله العظيم إذ يقول فيه:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: 3-5].

الحديث الثامن والأربعون

«التلبينة مجمة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن»



شكل (112) يوضح بعض سنابل الشعير

48 «التلبينة مجمة لفؤاد المريض، تذهب ببعض الحزن»

■ هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب الأطعمة، حديث رقم : 4997) بسنده، فقال:

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّها كَانَتْ إِذَا مَاتَ الميِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لذَلِكَ النِّسَاءُ ثُم تفَرَّقْنَ إلاَّ أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصبَّت التَّلْبِينَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «التَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ المرِيضِ، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الحُزْنِ».

■ والحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب السلام، حديث رقم: 4106) بسنده، قال:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الملك بْنُ شُعَيْبِ بْنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ جَدِّي حَدَّثَنِي عُقَيْلُ ابْنُ خَالدٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّها كَانَتْ إِذَا مَاتَ الميِّتُ مِنْ أَهْلِهَا فَاجْتَمَعَ لِذَلكَ النِّسَاءُ ثُمَّ تفَرَّقْنَ إلاَّ أَهْلَهَا وَخَاصَّتَهَا أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ صُنِعَ ثَرِيدٌ فَصبَّت التَّلْبِينَةُ عَلَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ: كُلْنَ مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «التَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ المرِيضِ، تُذْهِبُ بَعْضَ الحزْنِ».

■ والحديث أخرجه كذلك الإمام ابن ماجه فى سننه (كتاب الطب، حديث رقم: 3437) بسنده ولفظه:

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي الْخصِيبِ حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ أَيْمَنَ بْنِ نَابِلٍ عَن امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ يُقَالُ لَهَا كُلْثُمُ عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْبَغِيضِ النَّافِعِ: التَّلْبِينَةِ» يَعْنِي الحِسَاء، قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا اشتكَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ لَمْ تَزَلِ الْبُرْمَةُ عَلَى النَّارِ حَتَّى يَنْتَهِي أَحَدُ طَرَفَيْهِ يَعْنِي يَبْرأُ أَوْ يَمُوتُ.

■ والحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (حديث رقم: 23371) قال:

حَدَّثَنَا هَاشِمٌ قَالَ: حَدَّثَنَا اللَّيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا عُقَيْلٌ عَن ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائشَةَ قَالَتْ: كَانَتْ إِذَا أُصيبَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا فَتَفَرَّقَ نِسَاءُ الجمَاعَةِ عَنْهَا وَبَقِيَ نِسَاءُ أَهْلِ خَاصَّتِهَا أَمَرَتْ بِبُرْمَةٍ مِنْ تَلْبِينَةٍ فَطُبِخَتْ ثُمَّ أَمَرَتْ بِثَرِيدٍ فَيُثْرَدُ وَصَبَّت التَّلْبِينَةَ

عَلَى الثَّرِيدِ ثُمَّ قَالَتْ: كُلُوا مِنْهَا فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ التَّلْبِينَةَ مجمَّةٌ لِفُؤَادِ المريضِ تُذْهِبُ بَعْضَ الحُزْنِ».

■ كذلك أخرج الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 24036) نصًّا آخر للحديث بسنده ولفظه:

حَدَّثَنَا أَبُو أَحْمَدَ الزُّبَيْرِيُّ حَدَّثَنَا أَيْمَنُ بْنُ نَابِلٍ عَنْ أُمِّ كُلْثُوم عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا قِيلَ لَهُ: إِنَّ فُلانًا وَجِعٌ لا يَطْعَمُ الطَّعَامَ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالتَّلْبِينَةِ فَحَسُوهُ إِيَّاهَا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَغْسِلُ بَطْنَ أَحَدِكُمْ كَمَا يَغْسِلُ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ بِالماءِ من الْوَسَخِ».

■ كما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 23360) برواية عن أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قيل له: إن فلانًا وَجِعٌ لا يطعم الطعام، قال: «عَلَيْكُم بالتَّلبينَةِ فَحَسُوه إيَّاهَا، فَوالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، إنَّها لتَغْسِلُ بَطْنَ أحَدكُم كما يَغْسِلُ أحَدُكُم وَجْهَهُ بالماءِ مِنَ الوَسَخِ».

■ وأخرجه الإمام الترمذي في سننه (كتاب الطب، حديث رقم 1962) برواية أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحساء فصنع، ثم أمرهم فحسوا منه، وكان يقول: «إنَّه ليرقِّقُ فؤادَ الحزينِ ويَسْرو عَن فؤادِ السَّقيم كَمَا تسْرو إحْدَاكُنَّ الوسَخَ بالماءِ عَن وَجْهِهَا».

شرح الحديث

التلبينة «أو التلبين» هي الحساء الرقيق في قوام اللبن يصنع من الشعير المطبوخ مطحونًا بنخالته «أي من دقيق الشعير بنخالته»، وسميت بهذا الاسم لشبهها باللبن الحليب بياضًا ورقة، والشعير نبات عشبي حولي.

ولفظة «مجمة» – بفتح الميم والجيم أو بضم الميم وكسر الجيم – مستمدة من «الإجمام» وهو الراحة، بمعنى أنها مريحة لفؤاد المريض.

ومعنى تذهب ببعض الحزن أنها مفرحة بخاصية فيها أو في بعض المركبات الموجودة فيها التي تساعد في إنتاج الخلايا العصبية.

وحساء الشعير قاطع للعطش، مدر للبول، سهل الهضم، نافع لحالات السعال وخشونة الحلق، وصعوبة التنفس، ولجلاء ما في المعدة، ولأمراض الكلى والمثانة، ولإطفاء حرارة الجسم بصفة عامة، ولتقوية الأجسام المضادة.

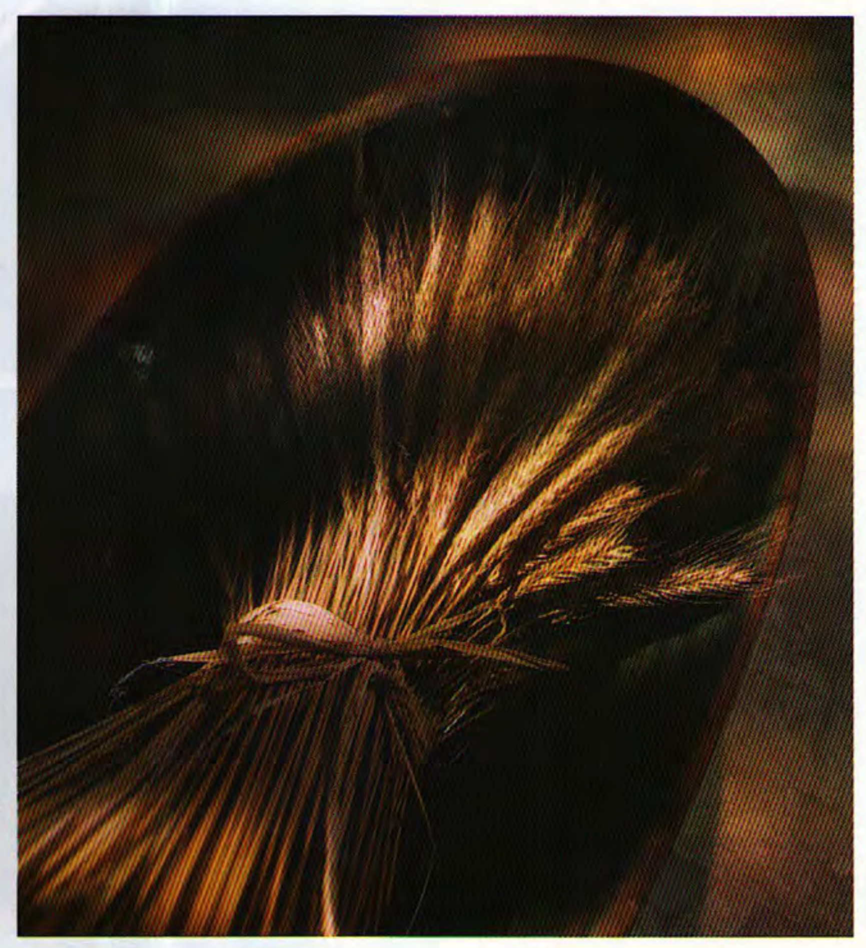
وقد أثبتت الدراسات الحديثة التي قام بها كل من الدكتور ماهر مهران محمد، والمهندسة سحر مصطفى كامل، والمهندس عبد الكريم التاجوري من كل من وزارة الزراعة المصرية، وكلية الزراعة جامعة القاهرة، والسيدة زينيا هاوريش Zenia Hawrysh من جامعة ألبرتا بكندا - أن الشعير يحتوي على عدد من المركبات الكيميائية التي تساعد على خفض نسبة الكوليسترول في الدم، من مثل مادة بيتا جلوكان Bita-Glucan والفيتامينات (أ) و(ب) و(جـ) و(د) وأشباه فيتامين (هـ) (Tocotriends) والمواد الضابطة لضغط الدم والمانعة للاضطراب، من مثل مركبات كل من البوتاسيوم والمغنيسيوم، والكالسيوم والفوسفور، والناتريوم، والحديد، والنحاس، والكوبالت، والزنك، والمضادات للعوامل المؤكسدة في جسم الإنسان، ونقص هذه العناصر والمركبات عن معدلاتها في جسم الإنسان يجعله سريع الغضب وشديد الانفعال، ويملأ قلبه بالاكتئاب والحزن فضلاً عن إصابته بالعديد من الأمراض والعلل. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن لهذه المركبات الكيميائية - منفردة ومجتمعة - تأثيرًا إيجابيًّا على الموصلات بين الخلايا العصبية مما يعين على التخفيف من حالات الاكتئاب، والميل إلى الرضا وانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، والتعبير الطبي (تخفيف حالات الاكتئاب) يكاد يكون مطابقًا لما جاء في حديث رسول الله ﷺ من قوله: «يذهب ببعض الحزن»

وحالات الاكتئاب تشخص اليوم بالخلل الكيميائي في جسم الإنسان وعلاجه أساسًا يكون بالغذاء المعالج لهذا الخلل، من مثل حساء الشعير الغني بالمواد النافعة في مثل تلك الحالات.

وهنا يبدر التساؤل: من الذي علم المصطفى ﷺ هذه الحقائق كلها عن حساء الشعير غير الله الخالق؟ ومن الذي يضطره إلى الخوض في مثل هذه القضايا الغيبية في زمانه ولقرون متطاولة من بعده لولا أن الله - تعالى - قد علمه إياها، وأمره

بإشاعتها بين الناس لينتفعوا بها في أحوال أمراضهم واكتئابهم، ولتبقى أقواله شاهدة له ﷺ بالنبوة وبالرسالة في عصر العلم والتقنية الذي نعيشه، والذي أثبتت فيه الدراسات المكتسبة بعد مجاهدات طويلة فائدة الشعير في علاج العديد من الأمراض البدنية والنفسية؟!

فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



شكل (113) يوضح بعض سنابل الشعير

الحديث التاسع والأربعون

«عليكم بالسَّنا والسَّنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السَّام»



شكل (114) يوضح بعض أوراق السنا

49 «عليكم بالسَّنا والسَّنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السَّام»

جاء في كل من سنن ابن ماجه (كتاب الطب، حديث رقم: 3448)، ومستدرك الحاكم (كتاب الطب، حديث رقم: 7550) أن رسول الله ﷺ قال: «عَليكمْ بالسَّنَا والسَّنُّوتِ، فإنَّ فيهمَا شفاءً من كلِّ داءٍ إلا السَّامَ». قيل: يا رسولَ الله، وما السامُ؟! قال: «الموتُ»

والحديث أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه (كتاب الطب، حديث رقم: 3448) بسنده قال: عن إِبْرَاهيم بْنِ مُحَمَّد بْنِ يُوسُفَ بْنِ سَرْحٍ الْفِرْيَابيِّ قال: حَدَّثَنَا عمْرُو بْنُ بَكْرٍ السَّكْسَكِيُّ حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي عَبْلَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا أُبَيَّ بْنَ أُمِّ حَرَام وَكَانَ قَدْ صَلَّى مَعَ رَسُولِ الله ﷺ الْقِبْلَتَيْنِ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بالسَّنا وَالسَّنُّوتِ فَإنَّ فِيهمَا شِفَاءً مِنْ كُلِّ دَاءٍ إلاَّ السَّامَ». قِيلَ يا رَسُولَ الله: وَمَا السَّامُ؟ قَالَ: «المَوْتُ» قَالَ عَمْرٌو: قَالَ ابْنُ أَبِي عَبْلَةَ: السَّنُّوتُ الشِّبِتُّ، وقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هُوَ الْعَسَلُ الَّذِي يَكُونُ فِي زِقَاقِ السَّمْنِ وَهُوَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

هُـم السَّمْـنُ بِالسَّنُّـوتِ لاَ أَلْـسَ فِيهِـمُ
وَهُـمْ يَمْنَـعُـونَ جَارَهُـمْ أَنْ يُقَـرَّدا

■ والحديث أخرجه الحاكم في «المستدرك» (حديث رقم: 7550).

شرح الحديث

أولاً: السَّنـا:

«السنا» نبات صحراوي، عشبي، معمّر، من الفصيلة البقولية «القرنية»، ينتشر في الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا، ويمكن استزراعه بطريقة حولية، وزهوره مائلة إلى الصفرة، وبذوره مفلطحة، دقيقة، كلوية الشكل تقريبًا، واسمه العلمي (Cassia senna) مستمد من العربية، ومنه أنواع كثيرة، من مثل «السنا الحجازي» (السنا المكي، أو سنا مكة، أو السنا مكي) ويعرف أحيانًا باسم «العِشْرَق» واسمه العلمي (Cassia aschrek) مستمد

أيضًا من الأصل العربي، أوراقه غائرة قليلًا عند قمتها؛ ولذا يعرف أحيانًا باسم (Cassia senna acutifolia)، بينما أوراق «السنا الهندي» حادة القمة؛ ولذا تعرف علميًا باسم: (Cassia senna angustifolia).

ويستخدم كل من أوراق وثمار «السنا» الجافة في علاج العديد من الحالات المرضية، من مثل حالات الإمساك المزمن، وفقدان الشهية، وعسر الهضم، وفقر الدم، والصفراء، والنزلات الشعبية وأمراض الكبد والطحال، وأمراض الجهاز الهضمي بصفة عامة، والصداع، وآلام الظهر.

وطبيخ السنا مع الخل يزيل الكحة، ويعالج البواسير، ويداوي العديد من الأمراض الجلدية، ويعين على التئام الجروح، ويوقف تساقط الشعر، ومخلوطه مع السنوت يزيل الأورام بإذن الله - تعالى -.

ويستخدم حوالي جرامينْ من أوراق وثمار السنا الجافة بعد نقعها في كوب من الماء لمدة 12 ساعة ويشرب هذا النقيع، أو يخلط مسحوق السنا مع عسل النحل، ويُبْلَع.

وتحتوي أوراق نبات السنا وثماره على أعداد من المركبات العضوية المهمة، من مثل الجيلكوسيدات، والهيدروكسيلات، والكيمفيرول، والأيزوهامنتين، وأكسالات الكالسيوم، والعديد من المواد الأستيرولية، والراتنجية والهلامية.

ثانيًا: السَّنوت (الكمون الأبيض):

أما «السنوت» فهو عشب عطري، بري، يتبع الفصيلة الخيمية، أمكن استزراعه حوليًا في أماكن كثيرة من العالم، يتميز بأوراق صغيرة متباعد بعضها عن البعض، وأزهار مرتبة، في نورات خيمية مركبة، وثمار خضراء بنية، ذات رائحة عطرية نفاذة، وطعم حار لاذع.

ويعرف السنوت باسم «الكمون الأبيض» أو «الكمون الأخضر» أو «كمون الحوت» واسمه العلمي هو: (Rnethum graveolens) أو (Cuminum cyminum).

وثمار «السنوت» من التوابل المهمة، ويدخل مسحوقها في صناعة الكاري الهندي، وهي عبارة عن حبوب بيضية مستطيلة (بطول 6 ملليمترات تقريبًا)، عليها زغب قصير، وتنشق إلى نصفين بسهولة، وتحتوى على زيوت طيارة بنسبة

3٪ – 7٪ وعلى العديد من المركبات العضوية وغير العضوية، من مثل «مواد الكافون، والليمونين، والبينين، والداينتين، والفيللاندرين».

وتستخدم «ثمار السنوت» لفتح الشهية، ولعلاج حالات المغص، ولطرد الغازات، ووقف التقلصات المعوية، كما تستخدم في علاج بعض أمراض العيون كالرمد، وفي مداواة بعض حالات أمراض المخ والأعصاب، والأرق، وبعض حالات الأورام الخبيثة.

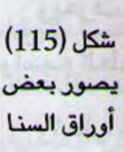
وللأستاذ الدكتور عبد الباسط سيد محمد دراسات في هذا المجال، خاصة في علاج بعض الأورام السرطانية.. وفقه الله.

ثالثًا: خليط السنا والسنوت:

وكل من هاتين النبتتيْن «السنا والسنوت» في حاجة إلى دراسة علمية مستفيضة، كل على حدة، ومخلوطاتهما بنسب متعددة، حتى تستبين لنا الحكمة من جمعهما في حديث واحد من أحاديث رسول الله ﷺ، ووصفهما بأن فيهما شفاء من كل داء إلا الموت.

ويعجب الإنسان من هذا الحديث النبوي الشريف الذي قيل منذ أكثر من 1400 سنة، وما كان هناك من أحد يضطر الرسول الخاتم ﷺ إلى الخوض في أمر غيبي كهذا لولا أن الله – تعالى – قد علمه ذلك الحديث هداية لخلقه، ورحمة بهم، ثم يأتي العلم ليؤكد صحة ما جاء فيه. وإن دَلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على صدق نبوته ﷺ، وعلى صدق رسالته، وصدق صلته بالخالق الأعظم، وصدق الله العظيم إذ يصفه بقوله – عز من قائل –: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾. [النجم: 3–5].

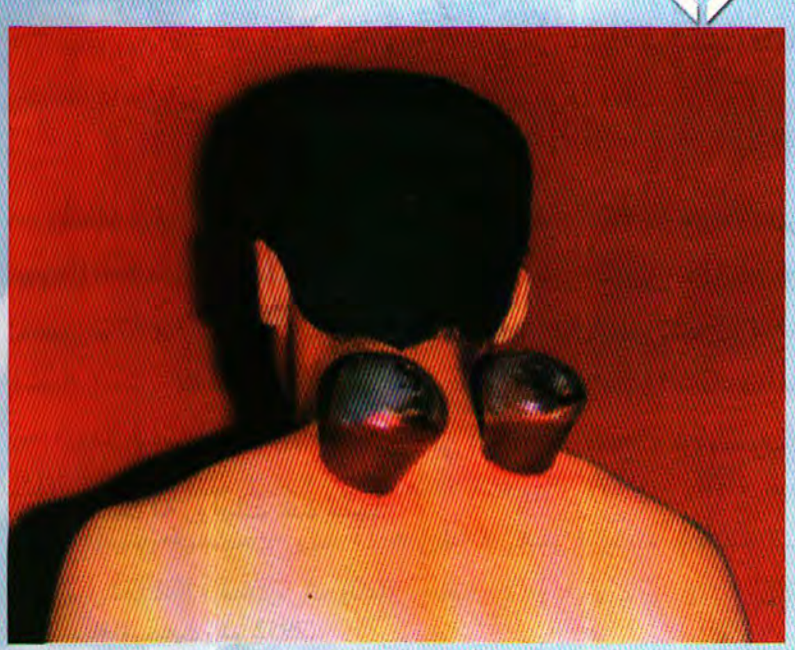




شكل (115)
يصور بعض
أوراق السنا

الحديث الخمسون

«إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ففي شَرْطة مِحْجم أو شربة عسل أو لذعَة بنار وما أحب أن أكتوي»



شكل (116) قال رسول الله ﷺ: «.. هذا الحَجْمُ... خيرُ ما تَدَاوى به الناس».
(رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد)

50 «إن كان في شيء من أدويتكم شفاء ففي شرْطة مِحْجم أو شربة عسل أو لذعَة بنار وما أحب أن أكتوي»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (كتاب الطب حديث رقم: 5269) عن جابر بن عبد الله بلفظه: «إن كانَ في شيءٍ من أدويتِكم شفاءٌ ففي شَرْطةِ مِحْجَمٍ أو شَرْبَةِ عسلٍ أو لَذعةٍ بنارٍ، وما أحبُّ أن أكتويَ».

و(حديث رقم: 5267) عنه أيضًا بلفظ: «إن كانَ في شيءٍ من أدويتكِم خيرٌ ففي شَرْبَةِ عسلٍ أو شَرْطَةِ مِحجَمٍ أو لذعَةٍ من نارٍ، وما أحبُّ أن أكتويَ».

و(حديث رقم: 5251) عنه كذلك بلفظ: «إن كانَ في شيءٍ من أدويتكم - أو يكونُ في شيءٍ من أدويتكم - خيرٌ ففي شَرْطةِ محجمٍ أو شَرْبةِ عسلٍ أو لذعةٍ بنارٍ توافقُ الداءَ، وما أحبُّ أن أكتويَ». و(حديث رقم: 5249) بروايةعن ابن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي ﷺ قال: «الشفاءُ في ثلاثةٍ: في شرطةِ محجمٍ، أو شَرْبةِ عسلٍ، أو كَيَّةٍ بنارٍ، وأنا أنهَى أمتي عَنِ الكيِّ».

والحديث أخرجه أيضًا الإمام مسلم في صحيحه (كتاب السلام حديث رقم: 4086) عن جابر بن عبد الله بلفظه؛ وأورده الإمام ابن ماجه في سننه (كتاب الطب حديث رقم: 3482) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) مرفوعًا قال: «الشفاءُ في ثلاثٍ: شَربةِ عسلٍ، وشَرطةِ مِحجمٍ، وكيَّةٍ بنارٍ، وأنهَى أمتي عن الكيِّ».

وكذلك جاء في مسند الإمام أحمد (حديث رقم: 2098) عن ابن عباس (رضي الله عنهما) بلفظه، ورواه أيضًا في (حديث رقم: 14174) عن جابر بن عبد الله، ورواه أيضًا في (حديث رقم: 16677) عن عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ إن كانَ في شيءٍ شفاءٌ ففي شرطةِ محجمٍ، أو شربةِ عسل، أو كيَّة تُصيبُ ألمًا، وأنا أكرهُ الكيَّ ولا أحبُّه». ورواه أيضًا بلفظه السابق في (حديث رقم: 25995) عن معاوية بن حديج.

والحديث له روايات عدة منها:

1- «إن أفضلَ ما تداوَيتم به الحِجامةُ - أو هو من أمْثَلِ دوائِكم». (أخرجه مسلم، كتاب المساقاة، حديث رقم: 2952).

2- «إن أمثلَ ما تداويتُم به الحجامةُ والقُسْطُ البحريُّ» أي العودُ الهنديُّ. (أخرجه البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: 5263).

3- «خير ما تداويتُم به الحِجامةَ». (أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم: 11603 عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

4- «إن مِن خَير دوائكم الحِجامةَ». (أخرجه أحمد، حديث رقم: 19340).

5- «الحجامةُ تنفعُ من كلِّ داءٍ إلا الهرمَ، فاحتجِمُوا». (أخرجه الديلمي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: 2782، وكذلك الطبراني في المعجم الصغير بنحوه، حديث رقم: 236).

6- «إذا اشتدَّ الحرُ فاستعينوا بالحجامةِ، لا يَتَبَيَّغِ الدمُ بأحدِكم فيقتلَه». (رواه الحاكم، كتاب الطب، حديث رقم: 7590).

7- «نِعْمَ العبدُ الحجامُ، يُذهِبُ الدمَ ويخف الصلبَ ويجلو عن البصر». (أخرجه كل من الترمذي حديث رقم: 1978، وابن ماجه حديث رقم: 3469).

8- «نِعمَ الدواءُ الحجامةُ، تُذهِبُ الدمَ، وتجلو البصرَ، وتخففُ الصلبَ». (رواه الحاكم في المستدرك، حديث رقم: 8258).

9- كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحتجم ثلاثًا؛ واحدة على كاهله واثنتين على الأخدعين. (رواه أحمد في مسنده، حديث رقم: 12531).

شرح الحديث

والمحجم (والمِحجمة) هي ما يحتجم به من مشرط، وأدوات مساعدة، والحجم في اللغة (المص)، والحجام الذي يقوم بعملية الحجامة، والفعل منها حجَم يحجم (بكسر الجيم وضمها).

وتعتمد عملية الحجامة على خلخلة الهواء على الأجزاء المتضررة من الجسم أو فوق نقاط محددة منه، وذلك بواسطة كاسات ذوات فتحتين يشفط الهواء من إحداهما وتوضع الأخرى فوق الموضع المحدد من الجسم فتبرز منطقة الجلد تحتها محتقنة بالدماء فتشرط بمشرط على هيئة جروح سطحية بسيطة بطول لا يتجاوز ثلاثة سنتيمترات وبعمق لا يتجاوز المليمتر ونصف المليمتر، ومنها يفصد الدم بالشفط.

وقد استخدمت الحجامة في عدد من الحضارات القديمة، وعرفها العرب في جاهليتهم، وأقرهم الرسول ﷺ على استخدامها، ثم انتقلت إلى أوربا عبر الوجود الإسلامي في الأندلس، واستمر استخدامها إلى اليوم في علاج الأرق، والصداع، والإدمان، والآلام الجسدية المختلفة؛ لأن لها مفعولاً مسكنًا مهدئًا، كما أن لها تأثيرات فاعلة على جهاز المناعة في الجسم؛ مما يعينه على مقاومة الالتهابات الفيروسية والميكروبية المختلفة، كما تساعد على تنشيط الموصلات العصبية ومراكز الحركة في الجسم.

وقد أوصى رسول الله ﷺ باستخدام الحجامة في حالات أوجاع الرأس الشديدة (الصداع) التي تحمل على ارتفاع ضغط الدم والصداع الوعائي، وحالات الصداع النصفي (المعروف بالشقيقة)، وحالات تهيج الدم نتيجة لارتفاع التوتر الشرياني، وزيادة عدد كريات الدم الحمراء، وفي حالات الالتواء العنيف للمفاصل، وحالات الآلام الشديدة، وقد أكدت البحوث الطبية جدوى الحجامة في كل هذه الحالات.

وتعتبر الحجامة شبيهة بعمل الإبر الصينية، أو التدليك فتؤثر على الجزء المصاب أو الذي يعاني الآلام؛ إذ تنطلق نبضات حسية من مكان الإصابة أو الألم على هيئة استغاثة إلى مراكز الحس والتحكم غير الإرادي بالدماغ؛ فتنبعث في الحال أعداد من المواد الكيميائية والهرمونات من الجزء المصاب أو المريض إلى مناطق مركزية في المخ؛ فيرسل المخ على الفور إلى الأجهزة المتحكمة في عمليات الجسم الحيوية المختلفة أمرًا بإسعاف الجزء المصاب أو المتألم، وإعانته على تجاوز إصابته أو ألمه أو بالوسائل المناسبة، وأفضل العلاج ما يقوم به جسد الإنسان بذاته لمختلف الأجزاء فيه، كما أثبتت البحوث الطبية المختلفة. وقد ثبت بالتجربة أن الحجامة تعيد للجسد حيويته، وتقوي مناعته، وتحفظ توازنه.

تستخدم عند الحاجة، ويمكن أن تكون في كل وقت وتكرر عند الحاجة أيضًا، ولكنَّ الحجامين المسلمين يفضلون عملها في الأيام المفردة من النصف الأخير من الشهر القمري من أمثال السابع عشر والتاسع عشر والحادي والعشرين من الشهر القمري، وهذه الأيام مشهورة في الآثار النبوية الشريفة: حيث احتجم فيها ﷺ واحتجم أصحابه الكرام.

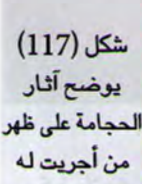
ولذلك قال المصطفى ﷺ: «نعم العبد الحجام، يذهب الدم، ويخف الصلب، ويجلو عن البصر». (رواه الترمذي، حديث رقم: 1978). وفي إقرار رسول الله ﷺ للحجامة كوسيلة من وسائل العلاج الناجع إقرارٌ لضرورة العلاج من الأمراض والأوجاع بكل الوسائل العلمية المتاحة، وهو ﷺ القائل: «لكل داء دواء؛ فإذا أصاب دواء الداء برأ بإذن الله». (رواه مسلم، حديث رقم: 4084). والقائل: «تداووا عباد الله فإن الله سبحانه لم يضع داءً إلا وضع معه شفاء إلا الهرم». (رواه عدد من رواة الحديث، واللفظ هنا لابن ماجه، كتاب الطب، حديث رقم: 3427).

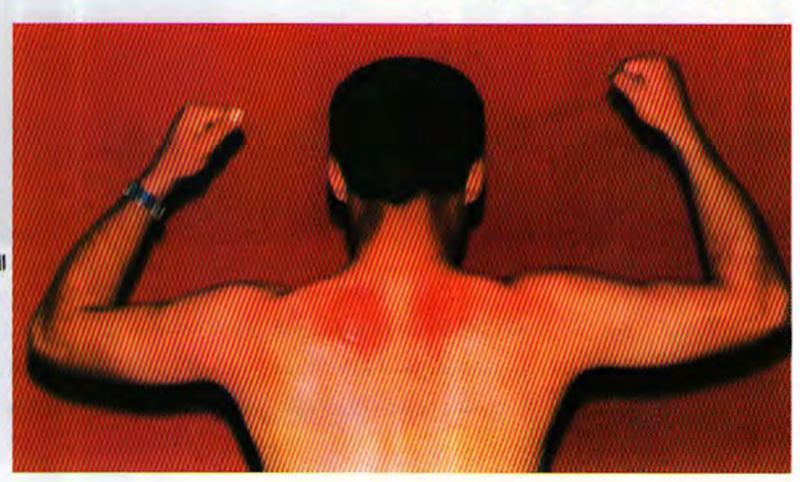
وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ احتجم على وركه من وثء (أي الالتواء العنيف للمفصل) كان به. (رواه أبو داود، كتاب الطب، حديث رقم: 3365).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ احتجم على ظهر القدم وهو محرم من وجع كان به. (رواه أبو داود حديث رقم: 1566، والنسائي، حديث رقم: 2800).

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ احتجم وهو محرم في رأسه من شقيقة كانت به. (رواه البخاري، كتاب الطب، حديث رقم: 5266).

وقد ثبتت جدوى الحجامة في كل الحالات التي وصفت لها في أحاديث رسول الله ﷺ وذلك بالتجارب العلمية الحديثة، وفي إثباتها تأكيد على وصف القرآن الكريم له بقول الحق – تبارك وتعالى – فيه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾. [النجم: 3-5].

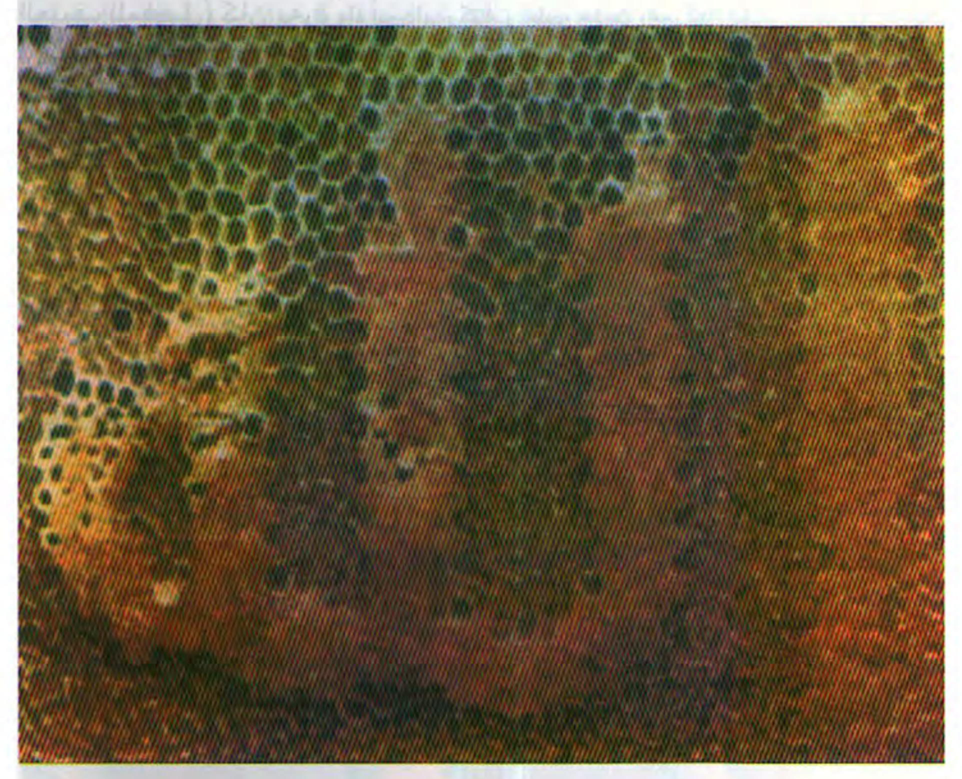




شكل (117) يوضح آثار الحجامة على ظهر من أجريت له

وتأكيده ﷺ على ضرورة العلاج بمختلف الوسائل الصحيحة المتاحة، ومنها الحجامة في زمن ساده الاعتقاد بأن الأمراض من عمل الشياطين والأرواح الشريرة، أو من تأثير تجمعات النجوم وغير ذلك من الخرافات والأساطير، والتي كانت وسائل العلاج الرئيسية فيها الشعوذة والدجل والسحر، وتقرير مناهج العلاج الصحيحة وسط بحور من تلك الخرافات والأساطير، مما يشهد لهذا الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ بالنبوة وبالرسالة.

فصلى **الله** وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد **لله** رب العالمين.



شكل (118)

وكيف لا يكون لهذا الشراب المختلف الألوان الذي يخرجه ربنا (تبارك وتعالى) من بطون الشغالات من إناث النحل هذه القدرة الشفائية الهائلة، وهذه الحشرة المباركة تختم ملء الخلية بالعسل وتغطيها بالشمع بطبع لفظ الجلالة عليها «**الله**»؟!

الحديث الحادي والخمسون

«إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاءً»



شكل (119)

51 «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإن في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاءً»

أخرَج الإمامُ البخاريُّ في صحيحِه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وقَعَ الذبابُ في شرابِ أحدِكم فليغمِسْه ثمَّ لينزِعْهُ، فإن في إحدى جناحَيْهِ داءً والأُخرى شفاءً».

(صحيح البخاري حديث رقم: 3073، 5336).

والحديث أخرجه الإمام النسائي عن أبي سعيد الخدري (حديث رقم: 4189) بلفظ: «إذا وقَعَ الذبابُ في إناء أحدِكم فليمقُلْهُ».

وأخرجه أيضًا الإمام أبو داود في سننه كتاب الأطعمة (حديث رقم: 3346) عن أبي هريرة.

وكذلك جاء الحديث في سنن الإمام ابن ماجه (كتاب الطب، حديث: 3496) عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «في أحدِ جناحَيِ الذبابِ سمٌّ وفي الآخرِ شفاءٌ، فإذا وقَعَ في الطعامِ فامقُلوه فيه: فإنه يقدمُ السمَّ ويؤخرُ الشفاءَ». والمقل هو الغمس من «مقل» الشيء (يمقله) (مقلاً).

وجاء أيضًا في مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة (حديث رقم: 6844).

وفي سنن الدارمي (كتاب الأطعمة حديث رقم: 1951) عن أبي هريرة كذلك بلفظ: «إذا سقَطَ الذبابُ في شرابِ أحدِكم فليغمِسْهُ كلَّه ثم لينزِعْهُ؛ فإن في أحدِ جناحَيْهِ داءً وفي الآخرِ شفاءً». كما جاء الحديث في العديد من غير ذلك من كتب السنة.

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف رواه أيضًا كل من الأئمة أبي داود (حديث رقم: 3346)، والبيهقي (في السنن الكبرى، حديث رقم: 1116)، والنسائي (حديث رقم: 4189)، وأحمد (حديث رقم: 6844)، وابن ماجه (حديث رقم: 3496)، والدارمي (حديث رقم: 1951)، وابن حبان (حديث رقم: 1263)، وابن خزيمة (حديث رقم: 106)، وغيرهم.

وزاد أبو داود في روايته: «وإنه يتقي بجناحه الذي فيه الداء».

ومن معاني الحديث الشريف أن الذبابة تحمل في أحد جناحيها داءً وفي الجناح الآخر شفاء من هذا الداء، فإذا وقعت الذبابة على شراب أو طعام فإنها تدفع بجناحها الذي فيه الداء كنوع من أنواع الدفاع عن ذاتها.

ويذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث أن الذباب يتقي بجناحه الأيسر؛ مما يشير إلى أن جناحه الأيمن هو الذي فيه الشفاء بناءً على ملاحظة أحد الدارسين، فإذا تم غمس الذبابة فيما وقعت عليه فإن عوامل الشفاء تقضي على عوامل الداء بإذن الله.

وقد امتعض بعض الناس من إمكانية غمس الذبابة في شراب أو طعام ثم يتناوله الإنسان، ونسي هؤلاء أن ذلك في حالات الضرورة القصوى، كأن يكون الإنسان في قلب الصحراء ولا يملك إلا هذه الكأس من الماء أو غيره من الشراب، وقد يوشك على الهلاك إذا فقده، فدرءًا للخطرين: خطر الهلاك من الجوع والعطش أو خطر الهلاك مما أنزل الذباب في شرابه من جراثيم وبكتيريا وفيروسات، فإن الحديث الشريف يشير إلى غمس الذبابة في الشراب حتى يتقي بمقومات الشفاء في أحد جناحي الذبابة ما في جناحها الآخر من داء. والذي لا تقبل نفسه ذلك فلا يوجد ما يضطره إليه، أو يجبره عليه، ولا يجوز له أو لغيره أن ينطلق إلى التشكيك في صحة الحديث الشريف لمجرد أن نفسه عافت شرابًا غمس فيه الذباب وهو المعروف بقذارته وحمله للكثير من مسببات الأمراض؛ وذلك لأن الحديث سنده صحيح كما أثبت الإمام البخاري، ومتنه صحيح أيضًا، أولاً بثبوت نسبته إلى خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولثبوت صحته من الناحيتين العلمية والتطبيقية.

فمن الناحية العلمية، ثبت أن الذباب وهو من الحشرات شائعة الانتشار على سطح الأرض (إذ يمثل بحوالي 87000 نوع) يتغذى على النُّفايات وما بها من المواد العضوية المتعفنة، وفي هذه النفايات تنتشر الجراثيم والبكتيريا والفيروسات وغيرها من أنواع الميكروبات.

والبكتيريا هي كائنات حية فائقة الدقة، توجد في مختلف بيئات الأرض وبأعداد تقدر بالبلايين في جرام من التربة الزراعية، وبالملايين في قطرة من

قطرات اللعاب؛ ولذلك فإن أثر البكتيريا في النطاق الحيوي للأرض لا يمكن حصره، ولا يمكن تجاهله، فبدون هذه الأعداد المهولة من البكتيريا لم يكن ممكنًا للتربة الزراعية أن تنبت، وإذا لم تنبت التربة لم يكن ممكنًا لكل من الحيوان أو الإنسان أن يوجد على الأرض. ومعظم البكتيريا حميدة، ولكن بعضها من مسببات الأمراض.

أما الفيروسات فهي في حقيقتها أحماض نووية تفرزها بعض الخلايا الحية، إلا أن الله – تعالى – قد أعطاها القدرة على إحاطة نفسها بغلاف بروتيني لتشكل كائنًا مستقلاً اسمه «الوحدة الفيروسية»، وهذه الوحدة الفيروسية تستطيع اختراق ما يمكن أن تصل إليه من خلايا حية وتحفزها على إنتاج فيروسات جديدة، أو تقتلها، وعلى ذلك فإن الفيروسات مسئولة عن العديد من الأمراض التي تصيب كلاً من النبات والحيوان والإنسان.

وتعرف الفيروسات التي تصيب الخلايا البكتيرية باسم الفيروسات البكتيرية أو «عاثية البكتيريا» (Bacteriophage)، ويسمى القاتل منها باسم الفيروسات البكتيرية القاتلة أو «عاثية البكتيريا القاتلة» (Virulent Bacteriophage)، وتسمى غير القاتلة منها باسم الفيروسات البكتيرية المعتدلة أو «عاثية البكتيريا المعتدلة» (Temperate Bacteriophage).

ومن طلاقة القدرة الإلهية أن الله – تعالى – خلق كل شيء في الكون من زوجية واضحة حتى يبقى الله – سبحانه وتعالى – متفردًا بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه، ويبقى الخلق كله شاهدًا لخالقه بالوحدانية المطلقة – بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع –، فكما خلق الله – سبحانه – اللبنات الأولية للمادة في زوجية واضحة، خلق المادة وأضدادها، وخلق السالب والموجب، وخلق الظلمات والنور، وخلق البكتيريا وعاثية البكتيريا، كما خلق الذكر والأنثى، وجعل كل ذلك شاهدًا له – تعالى – بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه.

وعندما يقع الذباب على النفايات والأوساخ، وما بها من مواد عضوية متعفنة مليئة ببلايين البكتيريا وأضدادها، والفيروسات وأضدادها، وغير ذلك من الجراثيم

وأضدادها، فإن الله – تعالى – قد أعطى لهذه الحشرة الضئيلة القدرة على أن تحمل الجرثومة على جناح، وأضدادها على الجناح الآخر، وإلا لفنيت مجموعة حشرات الذباب فناءً تامًّا، وهي ممثلة اليوم بسبعةٍ وثمانين ألف نوع، وفي بقائها بهذه الأنواع الممثلة ببلايين الأفراد خير دليل على ذلك.

ومن الأمراض الفيروسية التي قد تصيب الإنسان عن طريق حمل الذباب للفيروسات ونقلها إلى طعام الإنسان أو شرابه أو بدنه ما يلي:

الرشح (الإنفلونزا)، الحصبة، أمراض الغدة النكافية، الجديري، نفط الحمى، الثآليل، الجدري، الحمى الصفراء، أمراض الكبد المعدي، بعض حالات الشلل، بعض الأورام الخبيثة، وبعض أمراض الجهاز العصبي المركزي المزمنة، بما فيها مرض التصلب المركب (Multiple Sclerosis).

كذلك تسبب الفيروسات العديد من الأمراض للحيوانات، من مثل الأنعام، والدواب، والطيور الداجنة، وذلك من مثل أمراض التهاب الدماغ، والحمى القلاعية، وطاعون الطيور . وبعض هذه الأمراض يمكن أن ينتقل إلى الإنسان عن طريق الحيوان المصاب.

ومن بين المحاصيل الزراعية التي يمكن أن تدمرها الإصابة بالفيروسات محاصيل البطاطس، والطماطم، والموز، وقصب السكر وغيرها.

والفيروس البكتيري القاتل يقضي على الخلية التي يصيبها قضاءً تامًّا في زمن قياسي، أما الفيروس البكتيري المعتدل فيبقي على الخلايا المصابة به حية وذلك باكتسابها مناعة ضد نفس النوع من الفيروسات أو بإنتاج وحدات فيروسية جديدة من مثله، ولعل هذا يفسر حمل الذباب داءً على أحد أجنحته ودواءً على الجناح الآخر.

ومن الناحية التطبيقية، قامت مجموعات من الباحثين المسلمين في كل من مصر والمملكة العربية السعودية بإجراء عدد من التجارب على مجموعة من الآنية تحمل ماءً، وعسلاً، وعددًا من العصائر المختلفة، في تكرار متوازٍ، وتركت تلك الآنية مكشوفة للذباب؛ كي يقع عليها، وفي بعضها غمس الذباب، وفي مثيلاتها

لم يغمس. وعند الفحص المجهري اتضح أن الشراب الذي لم يغمس فيه الذباب قد أصبح مليئًا بالجراثيم والميكروبات، والذي غمس فيه الذباب خالٍ تقريبًا من ذلك.

وقد جاء في كتاب «الإصابة في صحة حديث الذبابة» لمؤلفه الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر أن مجموعة من علماء الأحياء بجامعتي الملك عبد العزيز والقاهرة قد قاموا بدراسات مختبرية لتحقيق الفرق بين تأثير السقوط والغمس للذبابة المنزلية على تلوث الماء والحليب والأغذية بالميكروبات والجراثيم، وقد ثبت بالتجارب التي كررت لعشرات المرات أن غمس الذباب في السوائل، من مثل الماء والحليب والعصائر وفي غيرها من المطعومات قد أدى إلى انخفاض واضح في كم الميكروبات عنه في مثيلاتها التي تُرك الذباب يسقط عليها ثم يغادرها، أو انتزع منها دون أن يغمس فيها؛ مما يوحي بأن غمس الذباب في السوائل المدروسة قد أدى إلى إبراز عوامل مضادة للميكروبات.

وكانت هذه النتائج أكثر وضوحًا في حالات تربية عينات من السوائل المدروسة على بيئة الآجار المغذي حيث كان الانخفاض في الأعداد الكلية للميكروبات النامية على الآجار في حالات الغمس يقابله تزايد رهيب في الأعداد الكلية للميكروبات المحتضنة على الآجار في حالات النزع أو الابتعاد بالطيران بعد السقوط على السوائل المدروسة؛ مما أشار إلى أن غمس الذبابة المنزلية في مختلف أنواع السوائل المدروسة لا يؤدي فقط إلى تقليل أعداد الميكروبات ولكن يحد أيضًا من نموها.

كذلك أوضحت الدراسة أن التناقص في الأعداد الكلية للميكروبات الملوثة كان أشد في الأوساط الحامضية عنها في الأوساط المتعادلة.

وقد أثبتت هذه الدراسة ما يلي:

1- وجود أعداد كبيرة من الكائنات الحية المجهرية على أجزاء من جسم الذبابة المنزلية منها مسببات للعديد من الأمراض، من مثل الفيروسات والميكروبات، والجراثيم، والفطريات، وبعض الطفيليات الدقيقة، وغيرها.

2- وجود عوامل مثبطة لنمو تلك الكائنات الحية المجهرية على أجزاء أخرى من نفس جسم الذبابة المنزلية تظهر عند غمس الذبابة في السوائل التي تقع عليها، وهذه العوامل المثبطة تقلل من عدد الجراثيم في المشروبات والمطعومات التي يقع عليها الذباب إذا غمس فيها وتحد من تكاثرها ونموها.

3- إن تأثير عملية الغمس على الكائنات الحية الدقيقة المسببة للأمراض هي أعلى منها على المجموع الكلي لتلك الكائنات، ومنها ما هو حميد.

4- إن فاعلية العوامل المثبطة للكائنات المسببة تزداد في الأوساط الحامضية المشابهة لحموضة دم الإنسان عنها في الأوساط المتعادلة.

5- إذا ترك الذباب يقع على المشروبات والمطعومات ثم يطير عنها، أو ينزع منها دون أن يغمس غمسًا كاملاً فيها، يؤدي إلى تلوث تلك المشروبات والمطعومات بأعداد هائلة من الكائنات الحية الدقيقة المسببة للأمراض. ولكن إذا غمست الذبابة في السوائل أو المطعومات المستخدمة في التجربة فإن أعداد تلك الكائنات الحية المجهرية تتناقص تناقصًا ملحوظًا إلى الحد الذي يجعل من شربها أو أكلها نوعًا من المصل أو التطعيم ضد العديد من مسببات الأمراض.

وهذه النتائج تؤكد صدق حديث رسول الله ﷺ الذي قال فيه: «إذا سقط الذباب في شراب أحدكم فليغمسه كله، ثم لينزعه، فإن في أحد جناحيه داء، وفي الآخر شفاء».

والسؤال الذي يطرح نفسه هو: مَنْ غير الله الخالق يمكن أن يكون قد علَّم خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ أن الذباب يحمل في أحد جناحيه داءً، ويحمل في الآخر الدواء، وذلك قبل ألف وأربعمائة سنة، واكتشاف حقيقة الأضداد الحيوية لم تعرف إلا في القرن العشرين، وحقيقة البكتيريا وأضدادها من الفيروسات البكتيرية لم تكتشف إلا منذ عقود قليلة؟!

ولماذا قال رسول الله ﷺ هذا الحديث الشريف الذي أثار جدلاً طويلاً بين المسلمين وغير المسلمين؟ ومن كان يدرك شيئًا من هذا العلم في زمانه أو حتى على مدى قرون متطاولة من بعده؟ ومن كان يمكن أن يضطره إلى الخوض في أمر غيبي كهذا لولا أن الله – تعالى – قد ألهمه إياه، وأنطقه هذا الحديث ليبقى وسيلة من وسائل استنقاذ شراب أو طعام في ساعات الضرورة، ويبقى حجة على أهل عصرنا من المسلمين وغير المسلمين، حجة شاهدة لهذا الرسول الخاتم والنبي الخاتم ﷺ بالنبوة وبالرسالة التي أنكرها كثير من الكفار والمشركين والضالين في زمانه وإلى قيام الساعة رغم وضوح الحجة، وكثرة الأدلة ولكن أكثر الناس لا يعلمون...؟!





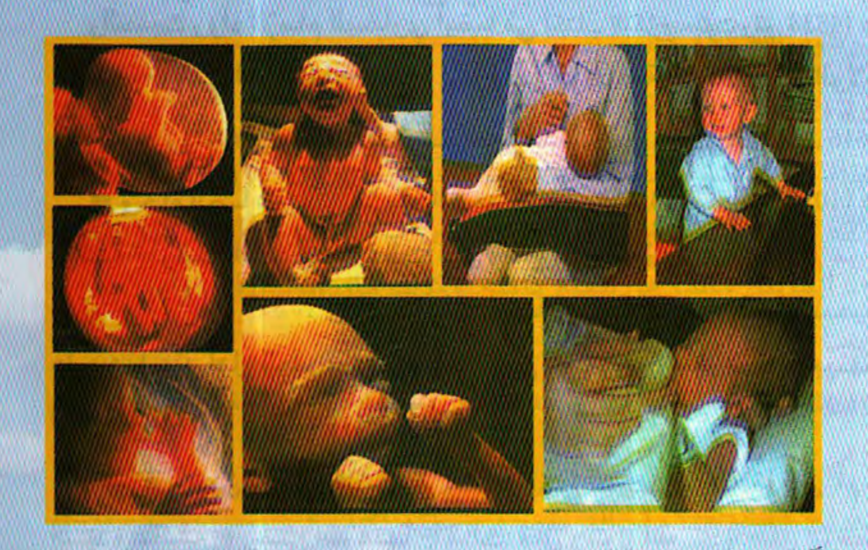
شكل (120) يوضح كيفية وقوع الذباب على النفايات

الفصل السابع

من أحاديث السلوكيات

الحديث الثاني والخمسون

«يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة»



شكل (121)

52 «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة»

■ أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَحرُمُ من الرضاعةِ ما يَحرمُ من الولادةِ». (صحيح مسلم، كتاب الرضاع، حديث رقم: 2616).

■ وفي رواية أخرى: «إنَّ الرَّضاعةَ تحرِّمُ ما تحرِّمُ الولادةُ». (صحيح مسلم: 3568).

■ وفي رواية ثالثة: «يَحرُمُ من الرَّضاعةِ ما يَحرُمُ من النسبِ». (صحيح مسلم، كتاب الرضاع، حديث رقم: 2615).

■ وروى الإمام البخاري أيضًا عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال النبي ﷺ في بنت حمزة: «لا تحلُّ لي.. يَحرُمُ من الرَّضاع ما يَحرُمُ من النسبِ.. هِيَ بِنْتُ أخِي منَ الرَّضَاعَةِ». (كتاب الشهادات، حديث رقم: 2451).

■ ورواه أيضًا عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – بلفظ: قال رسولُ الله ﷺ: «نَعَمْ، إن الرضاعةَ تحرِّمُ ما يَحرُمُ من الولادةِ». (كتاب الشهادات حديث رقم: 2452).

■ ورواية أخرى عن عروة قال فيها: كانت السيدة عائشة – رضي الله عنها – تقول: «حرِّموا من الرضاعةِ ما تُحرِّمون من النسبِ». (كتاب تفسير القرآن، حديث رقم: 4422).

والحديث رواه الإمام البخاري أيضًا في (كتاب النكاح حديث رقم: 4838) عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت: يحرُمُ من الرضاعةِ ما يحرُمُ من الولادةِ.

وكذلك رواه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الرضاع حديث رقم: 2615، 2616، 2624).

■ وجاء أيضًا في سنن الإمام الترمذي (كتاب الرضاع حديث رقم: 1066) عن السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الله حرَّمَ مِنَ الرضاعةِ ما حرَّم من الولادةِ». وقال الإمام الترمذي: هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم، لا نعلم بينهم في ذلك اختلافًا.

■ وفي سنن الإمام النسائي (كتاب النكاح حديث رقم: 3261) عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن الرضاعةَ تحرُمُ ما يحرُمُ من الولادةِ».

■ وفي سنن الإمام أبي داود كتاب النكاح (حديث رقم: 1759) عن عروة عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها وأرضاها – قالت: قال النبي ﷺ: «يحرمُ من الرضاعةِ ما يحرُمُ من الولادةِ».

■ وفي مسند الإمام أحمد (حديث رقم: 1042) عن سعيد بن المسيب قال: قال الإمام علي – كرم الله وجهه –: قلت: يا رسول الله، ألا أدلك على أجمل فتاة في قريش؟ قال: «ومَنْ هِي؟» قلت: ابنة حمزة. قال: «أما عَلِمتَ أنها ابنةُ أخِي من الرضاعةِ، إن الله حرَّم من الرضاعةِ ما حَرم من النسبِ».

وفي لفظ آخر: «إنها ابنةُ أخِي من الرضاعةِ، وإنه يحرُمُ من الرضاعةِ ما يحرُمُ من النسبِ». (مسند الإمام أحمد، حديث رقم: 887).

■ وفي رواية أخرى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ أريد على ابنة حمزة فقال: «إنها ابنةُ أخي من الرضاعةِ، ويحرمُ من الرضاعةِ ما يحرُمُ من الرحمِ». (حديث رقم: 2501).

■ وفي رواية ثالثة عن السيدة عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال: «يحرُمُ من الرضاعةِ ما يحرُمُ من الولادةِ». (حديث رقم: 23235).

■ وفي موطأ الإمام مالك رضي الله عنه كتاب الرضاع (حديث رقم: 1101) ذكر الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الرضاعةَ تحرِّمُ ما تحرِّمُ الولادةُ».

«لا رضاعة إلا ما كان في الحولين..»:

■■ جاء في موطأ الإمام مالك (كتاب الرضاع حديث رقم: 1110) أن سعيد بن المسيب رضي الله عنه قال: كل ما كان في الحولين وإن كانت قطرة واحدة فهو يحرم، ما كان بعد الحولين فإنما هو طعام يأكله. وكذلك قال ابن عباس وابن عمر – رضي الله عنا وعنهم أجمعين –.

■ والحديث رقم: 1115 جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا رضاعةَ إلا ما كانَ في الحَوْلَينِ».

■ والحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه (كتاب الرضاع حديث رقم: 1072) وقال: حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ

وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين فإنه لا يحرم شيئًا.

«لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء من الثدي..»:

هذا الحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه (كتاب الرضاع حديث رقم: 1072) عن أم المؤمنين السيدة أم سلمة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يُحَرِّمُ من الرضاعةِ إلا ما فتقَ الأمعاءَ في الثدي وكانَ قبلَ الفطامِ». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والحديث أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه (كتاب النكاح حديث رقم: 1936) عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا رضاعَ إلا ما فتَقَ الأمعاءَ».

«لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم»:

هذا الحديث أخرجه الإمام أبو داود في سننه (كتاب النكاح حديث رقم: 1763) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا رضاع إلا ما أنشزَ العظمَ وأنبَتَ اللحمَ».

والحديث أخرجه كذلك الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 3905) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرِّمُ من الرضاعِ إلا ما أنبَتَ اللحمَ وأنشَزَ العظمَ».

«لا تحرم المصة أو المصتان..»:

هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الرضاع حديث رقم: 2628) عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها –، وفي رواية أخرى عن أم الفضل – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ قال: «لا تحرِّمُ الرضعةُ أو الرضعتانِ، أو المصةُ أو المَصَّتانِ». (مسلم، كتاب الرضاع، حديث رقم: 2631).

والحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه (كتاب الرضاع حديث رقم: 1069) عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – بلفظه.

■ وفي سنن الإمام النسائي (كتاب النكاح حديث رقم: 3256) جاء الحديث الشريف بلفظ عن السيدة أم الفضل – رضي الله عنها – أن النبي ﷺ سُئل عن الرضاع

فقال: «لا تحرِّمُ الإملاجةُ والإمْلاجَتانِ». وقال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : المصة والمصتان. وروي الحديث أيضًا عن عبد الله بن الزبير – رضي الله عنهما –. (حديث رقم: 3257).

والحديث أخرجه كذلك الإمام النسائي في السنن (كتاب النكاح، حديث رقم: 3257) عن عبد الله بن الزبير . و(حديث رقم: 3258) عن السيدة عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها وأرضاها –.

والحديث جاء في مسند الإمام أحمد (حديث رقم: 15528) عن عبد الله بن الزبير (رضي الله عنهما). ورواه أيضًا عن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها وأرضاها –. (حديث رقم: 23503) وجاء في سنن الدارمي (كتاب النكاح حديث رقم: 2151) عن السيدة عائشة بلفظه.

■ ويروى عن الإمام علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قوله: «تخيَّروا للرضاعِ كما تخيَّروا للنكاحِ؛ فإن الرضاعَ يغلبُ الطباعَ».

شرح الحديث

كان الزواج من الإخوة مسموحًا به زمن أبوينا آدم وحواء – عليهما السلام – فقط لأنهما كانا يمثلان الزوج البشري الوحيد على سطح الأرض. وحتى هذا الزواج الاستثنائي كان مقيدًا بأن يتزوج الأخ الأخت المخالفة له في توقيت الولادة، وكان يحرم زواج الأخوين الذكر والأنثى من نفس البطن والتوقيت. وفي الحديث الشريف الذي نحن بصدده يقول رسول الله ﷺ: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة». وقد حدد المصطفى ﷺ فترة الرضاعة بالحولين الأولين من عمر الرضيع وذلك بقوله الشريف: «لا رضاعة إلا ما كان في الحولين». (موطأ مالك، كتاب الرضاع، حديث رقم: 1115).

وانطلاقًا من هذا الهدي النبوي الشريف ذهب الفقهاء إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فإن ارتفع عمر المولود فوق اثنتين فإن هذه الرضاعة لا تحرم، ويؤكد ذلك قول خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء من الثدي، وكان قبل الطعام». (رواه الترمذي، كتاب الرضاع، حديث رقم: 1072)، والطعام يعطى بعد الفطام الذي يتم بعد حولين كاملين

انطلاقًا من قول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ [البقرة: 233].

وهذا التحديد الدقيق للفترة المثلى للرضاعة الطبيعية.. وتأكيد تأثيرها على الرضيع في العامين الأولين من عمره أشار إليها قول المصطفى ﷺ: «لا رضاع إلا ما أنشز العظم، وأنبت اللحم». (رواه أبو داود، كتاب النكاح، حديث رقم: 1763).

واختلف الفقهاء في قدر الرضاع الذي يثبت به التحريم، فمنهم من قال بأن الرضاع الذي يثبت به التحريم هو مطلق الرضاع الذي لا يتحقق إلا برضعة كاملة، وذلك لقول المصطفى ﷺ: «لا تحرم المصة ولا المصتان». (رواه الجماعة ما عدا البخاري).

ومنهم من قال بأن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر انطلاقًا من قول المصطفى ﷺ: «لا تحرم المصة ولا المصتان»، والظاهر أن الإرضاع الذي يثبت به التحريم هو مطلق الإرضاع الذي لا يتحقق إلا برضعة كاملة، أخذًا بالأحوط، وإيمانًا بأن قليل الرضاع وكثيره سواء في التحريم.

ويحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، واللائي يُحَرَّمْنَ من النسب هن:

الأم، والبنت، والأخت، والعمة، والخالة، وبنات الأخ، وبنات الأخت، تحقيقًا لقوله (تعالى): ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ ﴾ [النساء: 23].

وانطلاقًا من هذا الأمر الإلهي تنزل المرضع منزلة الأم، في كل شيء تقريبًا ما عدا الميراث، ويعتبر الرضيعان منها خمس رضعات مشبعات إخوة في الرضاعة؛ وبذلك تحرم الأم المرضعة على المرضع، هي وكل من ينتمي إليها بنفس الدرجة التي يحرم بها على الابن من أم النسب ومن ينتمي إليها، فتحرم بالرضاع المرأة المرضع وأمها وبناتها وأخواتها، وبنات بنيها، وأم زوجها وبناته وأخواته.

والمرضع التي يثبت التحريم بخصوصها، هي كل امرأة دَرَّ اللبن من ثدييها، سواء أكانت بالغة أم غير بالغة، متزوجة أو مطلقة أو أرملة، حاملاً أو غير حامل، وسواء أكانت يائسة من المحيض أم غير يائسة، مادامت الرضاعة قد تمت في الحولين الأولين من عمر الرضيع، فإن رضع بعد تجاوز الحولين من عمره فإن هذه الرضاعة المتأخرة لا تحرم شيئًا، قلت أم كثرت.

وهذا تحديد دقيق للفترة المثلى التي تتم فيها الرضاعة الطبيعية بالحولين الأولين من عمر الرضيع، وتأكيد على تأثير الرضاعة في تلك الفترة على بناء جسده تأثيرًا يبقى معه إلى آخر عمره، ويبلغ من الحدة أنه يحلل له ويحرم في أمر الزواج.

وعلى الرغم من أن الجنين في رحم أمه يعتبر جسمًا غريبًا عن جسمها لوجود اختلافات بين الجسمين في التركيب الچيني إلا أن جسم الأم لا يطرد جنينها رغم وجود مظاهر لمحاولة ذلك على هيئة القيء المتكرر في أول الحمل، وشيء من التسمم في آخر الحمل. ثم يحدث بين جسد الأم وجسد جنينها شيء من التأقلم المناعي.

وقد أثبتت الدراسات الطبية مؤخرًا وجود علاقة مؤكدة بين الرضاعة في العامين الأولين من عمر الوليد وكفاءة الجهاز المناعي في جسمه، ومن ثم قدرته على مقاومة الأمراض، وذلك لاحتواء لبن الأم المرضع على عدد من الأجسام المضادة المطلوبة لإعطاء المناعة للرضيع من الأمراض في الحولين الأولين من عمره. وبعد ذلك يصبح جسمه قادرًا على تكوين هذه الأجسام المضادة الخاصة به بسبب انتقال بعض العوامل المناعية من حليب المرضع إلى الطفل الرضيع. والرضيع يكتسب هذه المناعة في صورة أجسام مضادة تنتقل إليه عن طريق لبن الأم المرضع، ولا يمكن له أن يكتسبها عن طريق أي لبن صناعي. وبعد العامين من عمر الوليد يصبح جسمه قادرًا على إنتاج هذه الأجسام المضادة الخاصة به بنفسه.

وهذه الحقيقة التي أثبتتها الدراسات الطبية مؤخرًا قد سبق كل من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بالإشارة إليها من قبل ألف وأربعمائة سنة، في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لذلك أو لشيء منه، فقد حرم كل من القرآن والسنة الزواج بين الذين اشتركوا في الرضاع من امرأة واحدة في خلال العامين الأولين من عمر كل منهما، واعتبرهما الشرع إخوة من الرضاعة، كما اعتبر مرضعتهم أمًّا

لهم بالرضاعة تنطبق عليها كل حقوق الأمومة – ما عدا الإرث – ويحرم من هذه الصلة ما تحرمه الأمومة بالنسب.

وعلاقات النسب بالبنوة والأخوة تعني اشتراك أفراد الأسرة الواحدة في التركيب المناعي الوراثي، كما يشتركون في عدد من الصفات الوراثية مع وجود الفروق الفردية المميزة لكل منهما. لذلك حمل لنا التراث الإسلامي مقولات لعدد من الصحابة والتابعين – عليهم رضوان الله أجمعين – تنصح بعدم الاستمرار في الزواج من الأقارب، خاصة أبناء وبنات العمومة والخئولة جيلاً بعد جيل حتى لا يضعف النسل، فقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله لآل السائب: «اغتربوا لا تضووا». (غريب الحديث، حديث رقم: 474)، أي تزوجوا من الغريبات عنكم؛ لئلا يضعف نسلكم وينحف حتى يذوى. وقد أيدت الدراسات الحديثة ذلك بسبب تقارب الصفات الوراثية بين أبناء الأسرة الواحدة. ويعني ذلك تركيز الصفات الوراثية المتنحية المسببة للعديد من الأمراض الوراثية وتنحية العديد من الصفات الوراثية السائدة التي كانت تغطي على تأثير الصفات المتنحية فتظهر الأمراض الموروثة في حالة زواج الأقارب لعدد من الأجيال المتتابعة. ومن أجل ذلك فإنه على الرغم من أن التزاوج بين الأخ وأخته كان مسموحًا به في الجيل الأول من أبناء وبنات نبي الله آدم – على نبينا وعليه من الله السلام – وزوجه أمنا حواء – رضي الله عنها –، لعدم توافر غرباء في زمانهم، فقد شرَّع ربنا – تبارك وتعالى – شيئًا من المخالفة بمعنى ألا يتم التزاوج بين أخ وأخت توأمين ولدا في نفس الوقت ومن نفس البطن، ولكن سمح للأخ من أبناء آدم في الجيل الأول أن يتزوج أختًا مخالفة له في توقيت الولادة.

والحكمة من هذه المخالفة، ومن الوصايا المتعددة بعدم استمرارية الزواج في داخل الأسرة الواحدة لأجيال متعاقبة قد اتضحت من حقيقة أن الكثير من الأمراض الموروثة (الوراثية) ظهرت ولا تزال تظهر في الأسر التي قامت على زواج الأقارب لفترات زمنية طويلة؛ وذلك لأن القرابة في النسب من الناحية العلمية تعني اشتراك أعضاء الأسرة الواحدة في التركيب الجيني المناعي مع وجود بعض الفروق الشخصية. وهذا التقارب في الصفات الوراثية يؤدي إلى شيء من تنحي

بعض الصفات الإيجابية التي كانت سائدة في الشفيرة الوراثية، وسيادة بعض الصفات السلبية التي من طبيعتها أن تكون متنحية فيها. فالشفيرة الوراثية والصفات التي تحملها مخلوقة في زوجية واضحة، وعادة ما تسود الصفات الجيدة وتستتر الصفات الرديئة أو تتنحى إلا في حالات العقاب أو الابتلاء.

ويؤيد ذلك أنه في حالات نقل وزراعة الأعضاء فإن الجسم المتلقي لا يرفض العضو المنقول إليه إذا كان مأخوذًا من أمه بصفة خاصة. ثم إذا كان منقولاً من أبيه، وتقل احتمالات قبول العضو المنقول وعدم رفضه من قبل الجسم المنقول إليه بتباعد درجة القرابة من الوالدين إلى الأشقاء ثم إلى الأخوال والأعمام والأجداد، ثم إلى أبناء الخئولة والعمومة، وهكذا حتى تصل إلى الإخوة في الرضاعة، وذلك لتزايد نسبة التجانس النسيجي في داخل الأسرة الواحدة، وتناقصها بالتباعد عن الوالدين إلى باقي أفراد العائلة، حسب درجة ذلك التباعد، ولتأثير الرضاعة في الحولين الأولين من عمر الوليد على بناء الأنسجة في جسمه.

كذلك أشارت الدراسات الطبية إلى أن نسبة قبول جسم الإنسان للعضو المنقول إليه وعدم رفضه تتزايد بالقيام بعملية نقل الدم من المتبرع بالعضو المنقول إلى متلقيه لثلاث مرات قبل القيام بأداء عملية زراعة العضو المنقول. رغم وجود الاختلاف في التجانس النسيجي بينهما. وقد تم تفسير ذلك بتزايد نسبة الخلايا الليمفاوية من المجموعة (T) التي تقوم بتثبيط عمل خلايا ليمفاوية أخرى من نفس المجموعة مهمتها طرد الأجسام الغريبة وهي نفس العملية التي تجعل جسم الأم الحامل لا يرفض وجود الجنين داخل رحمها، أو يقوم بطرده لكونه جسمًا غريبًا، وذلك بتحقيق قدر من التأقلم المناعي بينهما على الرغم من وجود نسبة من الاختلاف في التجانس النسيجي بين كل من الأم الحامل وجنينها، ويفسر القيء المتكرر في المراحل الأولى من الحمل، وظهور بعض ظواهر التسمم في مراحله المتأخرة بأنه من عمل الخلايا الليمفاوية الطاردة للأجسام الغريبة، وعلى أنه صورة من صور محاولة رفض الجنين كجسم غريب عن جسم الأم.

كذلك يفسر قبول جسم الإنسان للأعضاء المنقولة إليه بأنه صورة من صور التأقلم المناعي الذي يزيد بزيادة درجة القرابة بين المعطي والمتلقي.

وانطلاقًا من هذه الملاحظات قام الأستاذ الدكتور قيس عبد الدايم الأنصاري (الأستاذ بكلية الطب - جامعة القاهرة) بتقديم الاقتراح بضرورة القيام بنقل نسيج عضوي من حيوان تجريبي إلى آخر من نفس الفصيلة، بحيث يكون المتلقي هو رضيع من أم المعطي قام بأخذ أقل من خمس رضعات مشبعات في مجموعة، وأكثر من خمس رضعات مشبعات في مجموعة أخرى، ويلاحظ مدى تقبل الجسم للعضو المزروع من عدمه والمدة التي يطرده بعدها، مع عمل التحاليل السابقة بعملية زرع النسيج العضوي تمامًا كما تعمل في حالة زرع عضو لإنسان وذلك لإثبات أن لبن الأم المرضع يعمل على محو بعض التجمعات المناعية من جسم الطفل الرضيع، ويغير من تكوينه المناعي ليقاربه من التكوين المناعي لأخت له من الرضاعة من نفس الأم المرضع، تمامًا كما يحدث في عملية نقل الدم للمريض المتلقي لعضو يزرع في جسده من المتبرع له بهذا العضو، على الرغم من وجود بعض الاختلاف في التجانس النسيجي بينهما، فبتكرار عملية نقل الدم من المعطي للمتلقي لثلاث مرات - على الأقل - يتم تثبيط عمل الخلايا الطاردة للجسم الغريب بواسطة جسم المتلقي للعضو الغريب وذلك لقيام قدر من التأقلم المناعي بينهما، حيث يقوم عدد من الخلايا الليمفاوية الخاصة من نوع (T) بتثبيط عمل الخلايا الليمفاوية من نفس المجموعة (T) التي تقوم بعملية الطرد وتعرف الخلايا الأولىباسم خلايا (T) المثبطة (T-Suppressor Cell) ويشبه ذلك بالتأقلم المناعي الذي يقوم بين جسم الأم الحامل وجنينها، وهنا يتضح التقارب بين عملية الإرضاع من أم واحدة لطفلين في الحولين الأولين من عمرهما، وحمل أم واحدة لجنينين في بطن واحد، ومن هنا كانت هذه الومضة النورانية الباهرة في كتاب الله - سبحانه وتعالى - وفي سنة رسوله ﷺ، تلك الومضة التي حرمت من الرضاعة ما يحرم من النسب، والتي يقول فيها ربنا - تبارك وتعالى - في محكم كتابه من مقامات التحريم: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ...﴾ [النساء: 23].

ويقول فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ: «يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة» (أو من النسب) ويضيف: «.. لا رضاعة إلا ما كان في الحولين».

ويندهش الإنسان لهذه الدقة العلمية الفائقة في كتاب الله، وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم)، وقد بعث من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي مجتمع لم يكن له من أسباب العلم أو التدوين شيء، ولا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لهذا العلم إلا الله الخالق.

ومثل هذه الومضات النورانية من الحق في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ هي حجة على أهل عصرنا جميعًا، وعلى جميع الناس حتى قيام الساعة، ودعوة لهم جميعًا إلى قبول الله ربًا، والإسلام دينًا، وسيدنا محمد ﷺ نبيًا هاديًا، ورسولاً خاتمًا، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



شكل (122)
يوضح بعض أشكال الرضاعة الطبيعية والصناعية

الحديث الثالث والخمسون

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»



شكل (123)
ما أجمل الزي الشرعي للمرأة المسلمة وخشوعها في الصلاة

53 «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»

هذا الحديث الشريف رواه كل من البخاري في صحيحه (حديث رقم: 5665، باب رحمة الناس والبهائم) ومسلم في صحيحه (حديث رقم: 2586، باب تراحم المؤمنين)، وأحمد ابن حنبل في مسنده (ج4)، (رحمهم الله أجمعين) عن النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) عن رسول الله ﷺ، والنص السابق لفظ مسلم، أما لفظ البخاري فهو:

- «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوٌ تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى».

ورواية أحمد جاءت بالنص التالي:

- «مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه شيء تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

شرح الحديث

في بحث علمي دقيق لطبيب مسلم (هو الدكتور ماهر محمد سالم) أوضح جانبًا من جوانب الإعجاز العلمي في هذا الحديث الشريف لم تدركه العلوم المكتسبة إلا منذ سنوات قليلة، ومن ذلك أن شكوى العضو المصاب هي شكوى حقيقية، وليست على سبيل المجاز، إذ تنطلق في الحال نبضات عصبية حسية من مكان الإصابة أو المرض على هيئة استغاثة إلى مراكز الحس والتحكم غير الإرادي في الدماغ وتنبعث في الحال أعداد من المواد الكيميائية والهرمونات من العضو المريض بمجرد حدوث ما يتهدد أنسجته وخلاياه، ومع أول قطرة دم تنزف منه، أو نسيج يتهتك فيه، أو ميكروب يرسل سمومه إلى أنسجته وخلاياه، تذهب هذه المواد إلى مناطق مركزية في المخ، فيرسل المخ إلى الأعضاء المتحكمة في عمليات الجسم الحيويةَ المختلفة أمرًا بإسعاف العضو المصاب وإعانته بما يتلاءم وإصابته، أو مرضه.

وفي الحال تتداعى تلك الأعضاء المتحكمة في عمليات الجسد الحيوية المختلفة أي يدعو بعضها بعضًا، فمراكز الإحساس تدعو مراكز اليقظة والتحكم في تحت المهاد (في المخ)، وهذه تدعو بدورها الغدة النخامية لإفراز الهرمونات التي تدعو باقي الغدد الصماء لإفراز هرموناتها التي تدعو وتحفز جميع أعضاء الجسم لنجدة العضو المشتكي، فهي شكوى حقيقية، وتداع حقيقي، وليس على سبيل المجاز، ومعنى التداعي هنا أن يتوجه كل جزء في الجسد بأعلى قدر من طاقته لنجدة المشتكي وإسعافه، فالقلب - على سبيل المثال - يسرع بالنبض لسرعة تدوير الدم وإيصاله للجزء المصاب، في الوقت الذي تتسع فيه الأوعية الدموية المحيطة بهذا العضو المصاب وتنقبض في بقية الجسم؛ لتوصل إلى منطقة الإصابة ما تحتاجه من طاقة، وأكسجين، وأجسام مضادة وهرمونات، وأحماض أمينية بناءة؛ لمقاومة الإصابة، والعمل على سرعة التئامها، وهذه هي خلاصة عمل أعضاء الجسم المختلفة من القلب إلى الكبد، والغدد الصماء، والعضلات وغيرها، وهي صورة من صور التعاون الجماعي لا يمكن أن توصف بكلمة أبلغ ولا أشمل ولا أوفى من التداعي.

وهذا التداعي يبلغ درجة من البذل والعطاء عالية؛ إذ يستدعي من الأعضاء والأجهزة والأنسجة والغدد المتداعية أن تهدم جزءًا من مخزونها من الدهون والبروتينات من أجل إغاثة العضو المشتكي، ويظل هذا السيل من العطاء مستمرًا حتى تتم عملية الإغاثة، وتتم السيطرة على الإصابة أو المرض، والتئام الأنسجة والخلايا الجريحة أو المريضة، حتى يبرأ الجسد كله أو يموت كله.

وهذه الحقائق لم يصل العلم البشري المكتسب إلى إدراك شيء منها إلا منذ سنوات قليلة، والسبق النبوي بالإشارة إليها في هذا الحديث الجامع هو من الشهادات على أنه ﷺ قد أوتي جوامع الكَلِم، وأنه ﷺ كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض؛ لأنه لا يمكن لعاقل أن يتصور صدورًا لهذا العلم النبوي من غير وحي السماء، هذا العلم الذي نطق به النبي الأمِّيُّ ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، وفي زمن لم يكن فيه لأي إنسان إلمام بأقل قدر من هذه المعارف العلمية. وإبراز مثل هذه الجوانب العلمية في أحاديث رسول الله ﷺ، وفي آي القرآن الذي أوحي إليه

هو أنسب أسلوب للدعوة إلى دين الله الخاتم في زمن النهضة العلمية والتقنية التي يعيشها إنسان اليوم، زمن المواجهات الحضارية والمقارنات الدينية، والصراعات السياسية، والعرقية والدينية وتقارب المسافات، وسرعة الاتصالات، ونحن مطالبون بالتبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ الذي أوصانا بقوله الشريف: «بلغوا عني ولو آية فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى من سامع»[1].

فصلاة الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله، يا من آتاك الله القرآن ومثله معه، وآتاك جوامع الكلم فجاءت أحاديثك الشريفة بهذا السبق العلمي المبهر، وبهذه الصياغة اللغوية الدقيقة حتى في مقام التشبيه، وأنت تدعو أمتك – خير أمة أخرجت للناس – إلى التواد والتراحم والتعاطف – وما أحوجنا إليها اليوم – فتأتي صياغة دعوتك بتشبيه طبي علمي بالغ الدقة والإحكام، وبالغ الروعة في البيان، فصلى الله وسلم وبارك عليك وعلى آلك وصحبك أجمعين، وجزاك عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء والحمد لله رب العالمين.



شكل (124)

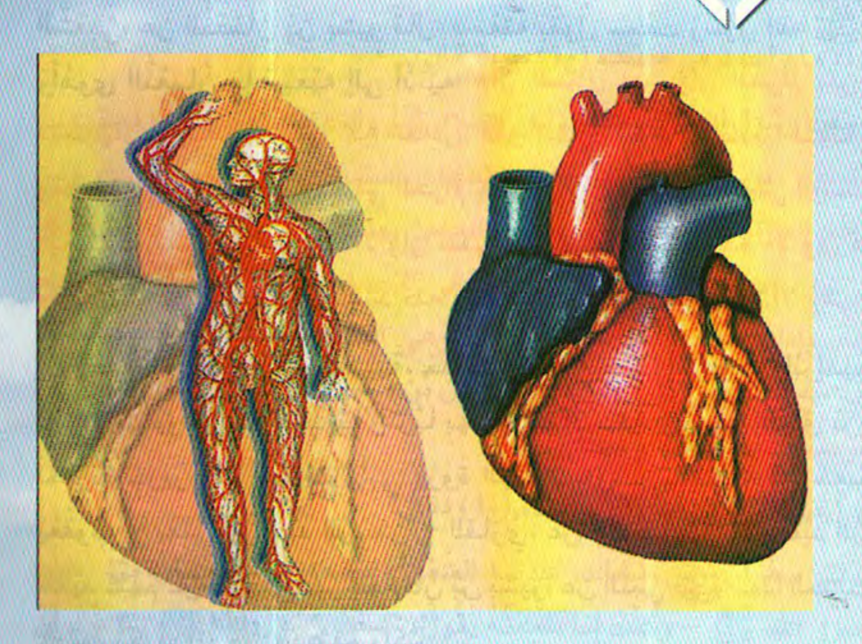
صورة للمشاركات الاجتماعية التي تؤكد التواد والتراحم بين المسلمين

---

(1) البخاري رقم: 1654، والترمذي رقم 2657. بلفظ: «نضر الله امرأ سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع». صححه الألباني.

الحديث الرابع والخمسون

«ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كلـه ألا وهي القلب»



شكل (125)

54 «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (حديث رقم: 52، باب فضل من استبرأ لدينه، كتاب الإيمان) حيث قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيم، حَدَّثَنَا زَكَرِيًّا، عن عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الحلالُ بَيِّنٌ والحرَامُ بَيِّنٌ وبَيْنَهُمَا مُشَبَّهاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى الله في أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ في الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ».

والحديث أخرجه أيضًا الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 1599، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، كتاب المساقاة) حيث قال:

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله بْنِ نُمَيْرٍ الْهَمْدَانِيُّ، حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، عن الشَّعْبِيِّ، عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ – وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: «إِنَّ الحلالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبُهَاتِ وقَعَ في الحرامِ كالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرتَعَ فيهِ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وإِنَّ حِمَى الله في أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ في الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ».

وحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا وَكِيعٌ. وحَدَّثَنَا إِسْحَق بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ قَالا: حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا بِهَذَا الإِسْنَادِ مِثْلَهُ. وحَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا جَرِيرٌ، عن مُطَرِّفٍ وَأَبِي فَرْوَةَ الهَمدَانِيِّ. وحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ – يَعْنِي ابْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ – الْقَارِيُّ، عن ابْنِ عَجْلانَ، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعِيدٍ كُلُّهُمْ عن الشَّعْبِيِّ، عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ بِهَذَا الحدِيثِ، غَيْرَ أَنَّ حَدِيثَ زَكَرِيَّا أَتَمُّ مِنْ حَدِيثِهِمْ وَأَكْثَرُ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ الملكِ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ اللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عن جَدِّي، حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ، حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي هِلالٍ، عن عَوْنِ بْنِ عَبْدِ الله، عن عَامِرٍ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ نُعْمَانَ بْنَ بَشِيرِ بْنِ سَعْدٍ صَاحِبَ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ بِحِمْصَ وَهُوَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الحلالُ بَيِّنٌ وَالْحرَامُ بَيِّنٌ». فَذَكَرَ بِمِثْلِ حَدِيثِ زَكَرِيَّا عن الشَّعْبِيِّ إِلَى قَوْلِهِ: «يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ».

والحديث رواه كذلك الإمام ابن ماجه في سننه (حديث رقم: 3984، كتاب الفتن) حيث قال:

■ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ المبَارَكِ، عن زَكَرِيَّا ابْنِ أَبِي زَائِدَةَ، عن الشَّعْبِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ عَلَى المنْبَرِ وَأَهْوَى بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الحلالُ بَيِّنٌ وَالحرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحرَامِ كَالرَّاعِي حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ». سنن ابن ماجه، (حديث رقم: 3984، باب الوقوف عند الشبهات).

ورواه الإمام أحمد في مسنده (ج4) حيث قال:

■ وَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الحلالَ بَيِّنٌ وَالحرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ فِيهِ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَاقَعَهَا وَاقَعَ الحرَامَ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى وَإِنَّ حِمَى الله مَا حَرَّمَ، أَلا وَإِنَّ فِي الإِنْسَانِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ». حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيْمٍ حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا قَالَ: سَمِعْتُ عَامِرًا يَقُولُ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَثَلُ المؤْمِنِينَ ...». فَذَكَرَ الحدِيثَ.

وذكره أيضًا الإمام أحمد في مسنده (ج4) فقال:

■ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن مُجَالِدٍ، حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ، سَمِعَهُ مِنَ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ – وَكُنْتُ إِذَا سَمِعْتُهُ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ. ظَنَنْتُ أَنْ

لا أَسْمَعَ أَحَدًا عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ – يَقُولُ: «إِنَّ فِي الإِنْسَانِ مُضْغَةً إِذَا سَلِمَتْ وَصَحَّتْ سَلِمَ سَائِرُ الْجَسَدِ وَصَحَّ وَإِذَا سَقِمَتْ سَقِمَ سَائِرُ الْجَسَدِ وَفَسَدَ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ».

والحديث رواه أيضًا الإمام الدارمي في سننه (حديث رقم: 2531، كتاب: البيوع) فقال:

■ أَخْبَرَنَا أَبُو نُعَيْم، حَدَّثَنَا زَكَرِيَّا، عن الشَّعْبِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «الحلالُ بَيِّنٌ وَالحرامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُتَشَابِهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحرَامِ كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى فَيُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى الله مَحَارِمُهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ». متفق عليه (في صحيح مسلم حديث رقم: 1599، باب أخذ الحلال وترك الشبهات)، وفي صحيح البخاري (حديث رقم: 52، باب فضل من استبرأ لدينه).

شرح الحديث

في هذا الحديث الشريف لمحة من لمحات الإعجاز العلمي إذ إن أي مرض يصيب القلب فيفسده، يؤثر على سائر الجسد فيفسد؛ وذلك لأن القلب يقوم بضخ الدم غير النقي (غير المؤكسد) من البطين الأيمن إلى الرئتين حيث ينقى بأكسدته، ويعود الدم المؤكسد النقي من الرئتين إلى البطين الأيسر الذي يضخه إلى كل أجزاء الجسم، فيمد تريليونات الخلايا المكونة لجسم الإنسان بغاز الأوكسيجين والغذاء، وإذا اضطربت هذه الوظيفة أو اختلت وفسدت وصل هذا الفساد إلى سائر خلايا الجسد.

ويعجب القارئ لحديث رسول الله ﷺ الذي يصف هذه الحقيقة بدقة فائقة فيقول ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب». وهي حقيقة طبية لم يدركها علم الإنسان المكتسب حتى قام ابن النفيس باكتشاف الدورة الدموية الصغرى في القرن الهجري السابع (الثالث عشر الميلادي)، وظلت فكرته مطمورة منسية لأكثر من ثلاثة قرون حين حاول بعض الغربيين نسبتها لأنفسهم فأحيوها، وطوروها، وأضافوا إليها، وأصبح من الثابت علميًا أن القلب إذا صلح استقامت الدورة الدموية وصلح الجسد

كله، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله. كما يفيد بذلك هذا الحديث الشريف، وهنا نتساءل: من علَّم هذا النبي الأمي ذلك غير الله الخالق؟! ومَنْ كان يستطيع في الجزيرة العربية أن يلم بالدورة الدموية في جسم الإنسان، ودور القلب فيها قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، لو لم يكن مصدر ذلك وحي السماء؟ ومَن الذي كان يضطر سيدنا محمدًا ﷺ إلى الخوض في مثل هذه الأمور الغيبية في زمانه، لو لم يكن واثقًا من صحة المعلومة الموحى بها إليه، وواثقًا من مصدرها؟

هذا بالنسبة للقلب العضوي، تلك العضلة الكمثرية الشكل الموجودة في القفص الصدري، التي لا يزيد حجمها على حجم قبضة اليد، ولا يزيد وزنها في الفرد البالغ على ثلث كيلوجرام، وتقوم بحوالي سبعين نبضة في الدقيقة، أي حوالي مائة ألف نبضة في اليوم الواحد، وتقوم بحوالي سبعين نبضة في الدقيقة، 7200 لتر في اليوم الواحد، عبر شبكة معقدة من الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية يبلغ طولها آلاف الكيلومترات؛ لتوصل الدم المؤكسد إلى كل خلية حية في الجسم، وتنزع منها الدم غير المؤكسد.

ومعروف لنا اليوم أنه مادام القلب صالحًا استقامت الدورة الدموية، ونالت كل خلية حية في الجسد حظها من الدم الذي يحمل لها الغذاء والأوكسيجين، وبه يتم احتراق المواد الغذائية وانطلاق الطاقة، وإذا فسد القلب اختلت الدورة الدموية، واختل وصول الغذاء والأوكسيجين إلى خلايا الجسم فيفسد.

ولكن للقلب في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ، وفي مفاهيم كثير من الناس مدلولات غير تلك الكتلة من اللحم الرابضة في القفص الصدري تضخ الدم إلى جميع خلايا الجسم، وهو مدلول يتعلق بالعواطف، والمفاهيم، والأفكار، والعقائد، والفهم وركائز الأخلاق وضوابط السلوك، التي يراها المفكرون من أمثال الإمام الغزالي في كيان معنوي، أو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب العضوي تعلق لا تدرك كنهه، ويرى الغزالي أن هذا القلب المعنوي هو حقيقة الإنسان، وهو الكيان المدرك، العالم، العارف من الإنسان، وهو المخاطب، والمعاقب، والمعاتب، والمطالب...، والقلب المعنوي أو اللطيفة الربانية مرتبطة بمعنى الروح وحقيقته وهو سر مغلق!!!

القلب في القرآن الكريم:

جاءت الإشارة إلى القلب في القرآن الكريم بالإفراد والجمع، ومع عدد من الضمائر المختلفة (132) مرة، وجميع الناس إلى اليوم يعتقدون بأن القلب هو مجرد مضخة تضخ الدم الفاسد إلى الرئتين لتنقيته، وتتلقى الدم المؤكسد منهما لتضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وأولها المخ – الذي لو تأخر ضخ الدم إليه لثوانٍ معدودة لهلك صاحبه – وفي ظل سيادة هذا الاعتقاد نجد أن القرآن الكريم قد تنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة بالتأكيد على أن للقلب وظائف أخرى منها أنه هو الذي يكسب الأعمال خيرها وشرها، وهو مكان الاطمئنان والأمن أو الانزعاج والخوف والرعب، وهو محل الشهادة أو إنكارها، ومحل الخير أو الإثم، ومحل الهداية أو الزيغ، وهو محل الفهم والفقه، أو سوء الفهم واللبس، وهو محل الرقة واللين أو القسوة والغلظة، وهو محل اليقين أو الريبة، والإيمان أو الكفر، واليقظة أو الغفلة، وهو محل التعقل ووزن الأمور أو تضييعها، ومحل البصيرة أو العمى، ومحل السلامة أو الحقد، ومحل القصد والعمد أو العشوائية والارتجال، وهو سبب الانفتاح على أي من الخير أو الشر أو الانغلاق على أي منهما، وهو محل الخشية والإنابة أو التبجح في المعصية والغي، ومحل التذكر والفطنة أو النسيان والغفلة، ومحل المحبة والرحمة والرأفة، أو الكراهية والغل والقسوة، ومحل الهداية أو الضلال، ومحل غير ذلك من الصفات التي تشكل شخصية الإنسان؛ لأن أعمال العبد إما أن تطهر قلبه وتزكيه أو تتجمع عليه كالران الأسود فتطمسه وتجخِّيه.

ومن الآيات القرآنية الكريمة ما يشرح ذلك ويؤكده ومنها قول ربنا – تبارك وتعالى –:

1- ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. [البقرة: 225].

2- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ... ﴾ [البقرة: 260].

3- ﴿... وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 283].

4- ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8].

5- ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: 151].

6- ﴿... وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: 154].

7- ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

8- ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: 45].

9- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

10- ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

[النحل: 106]

11- ﴿... وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: 28].

12- ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

13- ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 88، 89].

14- ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: 192 - 195].

15- ﴿... وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: 5].

16- ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: 24].

17- ﴿... وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

18- ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: 32، 33].

19- ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

20- ﴿... وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: 27].

21- ﴿... وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

22- ﴿... وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: 11].

23- ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14].

كذلك جاءت لفظة (صدر) في القرآن الكريم بالإفراد والجمع، وبالإسناد إلى عدد من الضمائر بمعنى القلب (44) مرة. وهذه الإشارات كلها تؤكد أن للقلب وظائف عديدة غير مجرد ضخ الدم الفاسد إلى الرئتين ثم استقباله منهما مؤكسدًا لضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وأولها المخ، وهو ما يشير إليه مجموع الآيات القرآنية الكريمة التي استشهدنا بها آنفًا.

وتدل الآيات القرآنية الكريمة على أن القلب هو مناط كل من العقل والبصيرة ولذلك قال – تعالى –: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

وقد أثبتت دراسات القلب مؤخرًا أنه عضو حيوي بشكل هائل وفعال في جسم الإنسان، وأنه يعمل على تواصل دائم مع مخه عبر (40.000) خلية عصبية تم اكتشافها فيه وفي الغشاء المحيط به والمعروف باسم (Pericardium)

أو «الصفاق». كذلك ثبت أن القلب يفرز كمًّا من الهرمونات إلى تيار الدم الذي يضخه إلى مختلف أجزاء الجسم وأولها المخ. كما ثبت أن المخطط الكهربائي للقلب هو أكبر بمائة ضعف من المخطط الكهربائي للمخ، وفي كل نبضة ينبضها القلب يولِّد طاقة مغناطيسية تفوق الطاقة المغناطيسية للمخ بخمسة آلاف ضعف، وبها يتواصل مع المخ ومع باقي أجزاء الجسم. فالقلب يتحدث مع المخ، وينسق معه جميع أنشطته، فكما ينشط المخ بمراكز ذاكرته وحسه بواسطة التغذية الراجعة عبر كلٍّ من الشبكات العصبية والدموية، فكذلك القلب الذي يعمل كجهاز تخزين للمعلومات عن طريق التغذية الراجعة عبر كلٍّ من الأعصاب والدم كما أثبت الدكتور بول برسال في مؤلفه المعنون «شِيفْرة القلب» (Paul Pearsall: The Heart Code). وقد ثبت بالتجربة أن أحد الأعراض الناتجة عن العمليات الجراحية بالقلب هو فقد شيء من الذاكرة؛ ولذلك استنتج العلماء أن **القلب هو مستودع الذكريات**.

والخلايا العصبية التي اكتشفت مؤخرًا في القلب تشابه تمامًا نظائرها في المخ، وبذلك أثار أطباء القلب السؤال التالي: **هل للقلب القدرة على التفكير والشعور والعاطفة والانفعال وتخزين المعلومات القريبة والبعيدة في ذاكرة تشبه ذاكرة المخ؟** وجاءت إجابة أطباء القلب بكل من جامعة ييل الأمريكية ومعهد رياضيات القلب بولاية كاليفورنيا (Yale University and Hartmath Institute, California) **بأن القلب جهاز فائق التعقيد، وأن من صور هذا التعقيد وجود جهاز عصبي بالقلب يشبه المخ تمامًا، له ذاكرة قصيرة وطويلة الأمد، وقد اتضح ذلك بجلاء عند نقل قلب من إنسان إلى إنسان آخر فيأخذ القلب المنقول معه من الذكريات والمواهب، والعواطف والمشاعر، والهوايات، والسجايا والتفصيلات الخاصة بالشخص الذي أُخذ منه القلب، والتي تبدو غريبة كل الغرابة عن صفات الشخص الذي تم نقل القلب إليه** [(Jack Copeland and others; Gary Schwartz; Yale University)]; [Rolyn Mc Carthy, Andrew Armour (Hartmath Inst.., California].

وبذلك ثبت بالملاحظات الدقيقة أن القلب هو أكثر أجزاء الجسم تعقيدًا، وأكثرها دقة وغموضًا، وأنه يتحكم في المخ أكثر من تحكم المخ فيه، ويرسل إليه من المعلومات أضعاف ما يتلقى منه، في علاقة عجيبة بدأت الدراسات الطبية

المتقدمة في الكشف عنها مؤخرًا، ويشبهها أطباء القلب بجهاز إرسال بين القلب والمخ يعمل بواسطة عدد من الحقول المغناطيسية التي يصدر أقواها من القلب إلى المخ فيسبق القلب المخ في ردات فعله.

كل ذلك يثبت سبق القرآن الكريم بالتأكيد على هذه المعارف التي لم تكتشف إلا في العقدين الحالي والماضي من أواخر القرن العشرين، وأوائل القرن الحادي والعشرين.

وبهذا المعنى نرى اللمحة الإعجازية في حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده، فإذا صلح قلب الإنسان، وهو مركز العواطف، والمفاهيم، والأفكار، والعقائد، وركائز الأخلاق، وضوابط السلوك، صلحت حقيقته، وصلح أمره كله، وإذا فسد فسدت حقيقته، وفسد أمره كله!!!

ولمحة الإعجاز في هذا الحديث النبوي الشريف تؤخذ على وجهيها: المادي العضوي الملموس، والمعنوي الغيبي، فالقلب بمدلوله المادي هو قوام حياة الجسد، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، والقلب بمدلوله المعنوي هو مخزن المشاعر، والعواطف، والعقائد، والمفاهيم والأفكار، وركائز الأخلاق، وضوابط السلوك، فإذا صلح صلحت كل هذه الزوايا وبصلاحها ينصلح الإنسان كله: جسدًا ونفسًا!!

وهنا أيضًا يتكرر السؤال: من الذي علَّم هذا النبي الأمي كل هذه الحقائق من قبل أربعة عشر قرنًا أو يزيد غير الله الخالق؟

ومَن الذي كان يضطره إلى الخوض في مثل هذه القضايا الغيبية لو لم يكن واثقًا من مصادره، مؤيدًا من قِبل خالقه الذي يعلم بعلمه الشمولي المطلق أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى إدراك شيء من تلك الحقائق فتكون هذه الإشارات العلمية إلى عدد من حقائق الأنفس والآفاق شهادة صدق على نبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم ﷺ؛ حتى لا يبقى للناس على الله حجة من بعده، فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، وعلى من تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والله أكبر ولا حول ولا قوة لنا إلا بالله العلي العظيم.



شكل (126)
يوضح تكوين قلب الإنسان

الحديث الخامس والخمسون

«الطهور شطر الإيمان..»



شكل (127)

55 «الطهور شطر الإيمان..»

■ أخرَج الإمامُ مسلمٌ في صحيحِه (كتاب الطهارة، حديث رقم 328) عن رسول الله ﷺ أنه قالَ: «الطهورُ شطرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ، وسبحانَ الله والحمدُ لله تملأانِ - أو تملأُ - ما بين السمواتِ والأرضِ، والصلاةُ نورٌ، والصدقةُ برهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقرآنُ حُجةٌ لكَ أو عليكَ، كلُّ الناسِ يَغْدو، فبائعٌ نفسَه فمُعْتِقُها أو مُوبِقُها».

■ والحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه (كتاب الدعوات، حديث رقم: 3439) بلفظ: «الوضوءُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ..».

■ وجاء الحديث في سنن النسائي (كتاب الزكاة، حديث رقم 2394) عن أبي مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ قال: «إسباغُ الوضوءِ شطرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تملأُ الميزانَ...».

■ وكذلك جاء الحديث في سنن ابن ماجه (كتاب الطهارة وسننها، حديث رقم: 276) بلفظه، وأيضًا في سنن الدارمي (كتاب الطهارة، حديث رقم: 651) بلفظه.

شرح الحديث

هذا الحديث الشريف يحتاج في شرحه، وفي عرض جوانب الإعجاز فيه إلى صفحات عديدة، ولكني سوف أقصر التعليق هنا على الجملة الأولى منه فقط، والتى يقرر فيها المصطفى ﷺ أن الطهور هو نصف الإيمان.

ولفظة «الطهور» هنا تشمل طهارة كل من البدن، والملبس، والنعل، والمسكن، والفناء، والطرقات، والمجاري المائية الخاصة والعامة، والإناء، والشراب، والطعام، وكل ما يستخدمه الإنسان من أدوات، كما يشمل طهارة كل من القلب والنفس، وطهارة كل أمر يخص المسلم: رجلاً كان أو امرأة، طفلاً أو غلامًا، أو شابًّا يافعًا، وطهارة كل أمر يخص أسرته، ومجتمعه، ويخص الناس والأرض جميعًا.

و«الطَّهور» بالفتح مصدر بمعنى التطهر، كما أنه اسم لما يُتَطَهَّرُ به وصفة له كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: 48].

ويقال «طَهُرَ» الشيء «بفتح الهاء وضمها» يَطْهُرُ طَهَارَةً أي تنزه عن النجاسات والأدناس، والاسم الطُّهْرُ، ويقال: طَهَّرَهُ تطهيرًا وتطَهَّرَ بالماء، وهم قوم يتطهرون أي يتنزهون من الأدناس.

ورجل طاهر الثياب أي منزه عن النقائص، والطُّهْرُ «بالضم» ضد الحيض، ويقال: المرأة طاهر من الحيض، وطاهرة من النجاسات ومن العيوب، ويقال: طَهُرَت المرأة (بفتح الهاء وضمها) طهرًا وطهارة.

والطهارة ضربان: طهارة جسم وطهارة نفسٍ، وحُمل على هذين المعنيين عامة الآيات القرآنية الكريمة التي أشارت إلى الطهارة.

ويقال: طَهَّرْتُهُ فَطَهُرَ وتَطَهَّرَ واطَّهر فهو طاهر ومتطهر.

وعلى ذلك فإن للطهارة من المدلولات ما يفوق مجرد النظافة المادية؛ لأنها تحوي من الضوابط والقيم والحدود ما لا يحويه مجرد النظافة المادية، ومن ذلك اجتناب كل ما حرمه الله سواء فهم الإنسان الحكمة من تحريمه أو لم يفهمها، انطلاقًا من الإيمان بكمال علم الله وإحاطته وشموله، وقصور علم الإنسان، ومحدوديته، وعجزه.

ومفهوم الطهارة في الإسلام كما يشمل النظافة المادية من كل وسخ ودنس ورجس، ومن كل حرام حرمه الله، يشمل طهارة كل من القلب والنفس من الكراهية، والحقد، والغل، والحسد، والرياء، والكذب، والخيانة، والنفاق، وسوء الأخلاق، ويمتد إلى طهارة المجتمع من الآفات الاجتماعية المختلفة كضياع الأمانة، وخراب الذمم، وتفشي الرشوة، والمحسوبية، والغش، واستغلال النفوذ، وانتشار الربا، والزنى، والفواحش، والفتن ما ظهر منها وما بطن، وسيادة الأفكار المنحرفة، والسلوكيات غير المنضبطة، والقيم الهابطة الساقطة.

وطهارة البدن والملبس ركن من أركان الكثير من العبادات في الإسلام، مثل الصلاة والطواف حول الكعبة المشرفة وتلاوة القرآن الكريم من المصحف الشريف؛ وذلك لأن طهارة البدن والثياب مُقَدِّمة لطهارة كل من القلب والنفس؛ ولذلك أنزل ربنا – تبارك وتعالى – من قبل ألف وأربعمائة سنة قوله الحق:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة: 6].

وهذا الأمر الإلهي بضرورة الطهارة الكاملة قبل الوقوف بين يدي الله في الصلاة أو الطواف أو تلاوة القرآن هو من لوازم الضراعة والخشوع والتهيئة الروحية لمناجاة الله، ومن هنا كانت فريضة الوضوء والغسل من الجنابة، والتيمم في حال عدم وجود الماء أو في حال المرض الذي يؤذي الماءُ صاحبَه.

وجانب التطهر الروحي في هذا الأمر الإلهي أقوى من الطهارة المادية للبدن والملبس - على ضرورة ذلك وأهميته - لأنه عند تعذر وجود الماء يستعاض عنه بالتيمم الذي لا يحقق إلا الطهارة النفسية والروحية والقلبية، وفي ذلك تأكيد على أهمية الصلاة التي يجب أداؤها في كل الأحوال وتحت كل الظروف.

- هذا وقد سبق الحديث عن كل من الوضوء والغسل والتيمم في هذه الآية الكريمة آياتٌ في سورة المائدة تتحدث عن الطيبات من الطعام والطيبات من النساء استكمالاً للطهر في حياة المؤمن؛ لأن الله - تعالى - طيب ولا يقبل إلا ما كان طاهرًا طيبًا، ثم تُختتم الآية الكريمة التي نحن بصددها بقول الحق - تبارك وتعالى -:

﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

والقرآن الكريم إذ يعظم الطهارة بأبعادها المختلفة أورد ذكرها في واحد وثلاثين موضعًا، منها قوله - تعالى -:

﴿ ...إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة: 222].



وقوله «عز من قائل»:

﴿... فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة: 108].

والطهور هنا جاء بمعناه الشامل الذي يشمل الجانب المادي كما يشمل الجانب النفسي والقلبي والروحي بمعنى التطهر من كل أنواع النجاسات المادية، كما يشمل التوبة من الذنوب، والتنزه عن الوقوع في المعاصي والمفاسد، والآثام وغير ذلك من أدران الدنيا ونجاساتها المعنوية، وسوء أخلاق الناس فيها.

والوضوء بهيئته الإسلامية المحددة وسيلة محكمة لتحقيق طهارة البدن والثوب، وهي طهارة واجبة على كل مسلم ومسلمة، وهي شرط لصحة الصلاة المفروضة خمس مرات في اليوم والليلة، غير النوافل، وبذلك يقوم المسلم بتطهير بدنه بالوضوء خمس مرات في اليوم والليلة، وبالغسل الكامل في حالات خاصة، ويحرص على طهارة ثوبه ونعله طهارة كاملة من أي دنس.

وبدن الإنسان كرمه الله تعالى حيًّا وميتًا، وهو في حياته يفرز من البول والبراز والعرق والمخاط وغير ذلك من نواتج العمليات الحياتية ما يستوجب التطهر من آثارها أولاً بأول، ومن هنا كانت فرائض الوضوء والغسل. وكانت وصية رسول الله ﷺ بقوله الشريف: «خمس من الفطرة: قص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، والاستحداد، والختان». (النسائي، كتاب الزينة، حديث رقم 5130).

ومن هنا أيضًا عظَّم القرآن الكريم، كما عظَّمت السنة النبوية الشريفة الطهارة بأبعادها المختلفة تعظيمًا كبيرًا قبل أن يكتشف الإنسان جراثيم الأمراض، وقبل أن يدرك أن تدني مستوى النظافة المادية (للبدن، والثياب، والنعل، والمأكل، والمشرب، والإناء، والمسكن، والفناء، والطرقات، والمجاري المائية الخاصة والعامة) هو من الأسباب الرئيسية للعديد من الأمراض، وذلك بأكثر من اثني عشر قرنًا، وفي ذلك يُؤثَر عن رسول الله ﷺ أنه كان أنظف الناس وأطهرهم، وكان في ذاته، وأفعاله، وأقواله قمة في ذلك، ونموذجًا يحتذى به، فمن أقواله المأثورة:

«طهروا هذه الأجساد طهركم الله» (في المعجم الكبير للطبراني جـ446/12 حديث رقم 13620، والمنذري في الترغيب والترهيب 409/1).

ويوصي رسول الله ﷺ بالمداومة على الطهارة حتى في خارج الصلاة، وفي غير أوقات الطواف بالبيت أو تلاوة القرآن الكريم من المصحف الشريف فيقول (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) مخاطبًا أنس بن مالك رضي الله عنه:

«يا بني، إن استطعت ألا تزال على طهارة فافعل، فإنه من أتاه الموت وهو على وضوء أعطي الشهادة». (الترمذي في كنز العمال 9/293، حديث رقم: 26066).

وقد ثبت بالتجربة أن للوضوء تأثيرًا فعالاً على طهارة الجسد البشري من ناحية تطهير كل من الفم والأنف وهما مدخلان أساسيان للملوثات، والجراثيم، والفطريات، والبكتيريا إلى داخل الجسم، ويتم تطهيرهما أثناء عملية الوضوء خمس عشرة مرة على الأقل في كل يوم وليلة، وتقوم كل من مضمضة الفم، والاستنشاق والاستنثار للأنف بتطهيرهما مما يمكن أن يلتصق بهما من عوالق من مثل بقايا الطعام والبكتيريا في الفم، والأتربة، والفطريات، والجراثيم والقشور والإفرازات المخاطية من كل من الأنف والجيوب الأنفية، وغير ذلك من الملوثات التي تنتشر في الغلاف الغازي للأرض وسرعان ما يتنفسها الإنسان عن طريق كل من الأنف والفم.

وبالإضافة إلى الوضوء يوصي رسول الله ﷺ باستخدام السواك لنظافة وتطهير كل من الفم والأسنان وذلك في عدد غير قليل من أحاديثه «صلوات الله وسلامه عليه» التي منها قوله: «لولا أن أشق على أمتي - أو لولا أن أشق على الناس - لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة». (البخاري، كتاب الجمعة، حديث رقم: 838، مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم: 370).

وقوله ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب». (النسائي: 1/5).

والمسلم مطالب أيضًا بطهارة ملبسه من كل أنواع النجاسات، فإذا أصاب ثوبه أو بدنه أي نوع من النجاسات وجب عليه غسلهما بالماء فورًا حتى تزول عنهما النجاسة إن كانت ظاهرة، فإن لم تكن ظاهرة مرئية فإنه يكتفي بغسله بالماء.

والمسلم مطالب أيضًا بطهارة كل من مأكله ومشربه من جميع الملوثات، والنجاسات، والأقذار، وكل أنواع المحرمات من أمثال المسكرات، والمخدرات،

والمفترات، وما قال فيه ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ...﴾ [المائدة: 3].

وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ:

«إذا شرب الكلب من إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب». (فتح الباري: 2989/132/6).

كذلك نهى رسول الله «عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم» أن يبال في الماء الجاري، وبالتالي فإن النهي عن التبول في الماء الراكد أشد؛ حتى لا ينجس ويكون مرتعًا للجراثيم والفيروسات وغيرها من مسببات الأمراض. وبالإضافة إلى كل ذلك اعتبر المصطفى ﷺ أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، وأمر بنظافة المساكن والأفنية.

ومفهوم الطهارة في الإسلام يتسع فوق ذلك ليشمل طهارة النفس بتخليصها من وساوس الشيطان وجنوده وأعوانه والتي تغوي الإنسان للخروج عن أوامر الله وتجاوز حدوده، وللغوص في أوحال المعاصي وشراك الضلال التي تغرقه في بحور من الحيرة والضياع في الدنيا، وتقوده إلى الذل والهوان والهلاك في الآخرة.

كذلك يشمل مفهوم الطهارة في الإسلام طهارة القلب من كل ما يريب، بالمبادرة المستمرة إلى محو آثار المعاصي والذنوب بالاستغفار والتوبة إلى الله، وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة». (مسلم: كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، حديث رقم: 4871).

انطلاقًا من كل ذلك جاء حديث المصطفى ﷺ الذي استهله بقوله الشريف: «الطهور شطر الإيمان..» سبقًا علميًا وطبيًا مبهرًا، وضع الضوابط الكاملة لعدد من العلوم المستحدثة والتي تعرف باسم الصحة العامة (Public Health) وعلم التصحح أو حفظ الصحة والعافية (Hygiene) في زمن لم يكن لأحد من الخلق إدراك لقيمة النظافة والطهارة العامة في الوقاية الصحية. وأتبع المصطفى ﷺ

ذلك بتأكيد فضل ذكر الله «تعالى» بالحمد والتسبيح، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصبر على المكاره، والإيمان بحجية القرآن الكريم على العباد، وبأن الدنيا مزرعة للآخرة، وبأنها رحلة عابرة إلى دار خلود بلا فناء إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا، وأهل الجنة قد أعتق الله رقابهم من النار وجحيمها، وأهل النار قد أوبقتهم أعمالهم فيها.

وهذا البيان المعجز من نبي أُمِّيٍّ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين، ومن قبل ألف وأربعمائة سنة؛ يشهد لصاحبه بالنبوة وبالرسالة، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الحديث السادس والخمسون

«خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب...»



شكل (128)

56 «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب...»

أخرَج الإمامُ البخاريُّ في صحيحِه عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «الفطرةُ خمسٌ – أو خمسٌ من الفطرةِ – : الخِتانُ، والاستحدادُ، ونَتْفُ الإبْطِ، وتقليمُ الأظفارِ، وقصُّ الشاربِ». (صحيح البخاري، حديث رقم: 5439، 5441، 5832).

والحديث أخرجه كذلك الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة بلفظه في (كتاب الطهارة، حديث رقم: 377).

وجاء أيضًا في سنن الترمذي (كتاب الأدب، حديث رقم: 2680) بدأها بالاستحداد: «خمسٌ مِن الفطرةِ: الاستحدادُ، والختانُ..»

وفي سنن النسائي (كتاب الطهارة، حديث رقم: 10) بدأها بقص الشارب فقال: «خمسٌ مِن الفطرةِ: قصُّ الشاربِ، ونَتفُ الإبْطِ، وتقليمُ الأظفارِ، والاستحدادُ، والختانُ».

وفي لفظ آخر قال: «خمسٌ مِنَ الفطرةِ: الختانُ، وحلقُ العانةِ، ونتفُ الإبْطِ، وتقليمُ الأظفارِ، وأخذُ الشاربِ». (النسائي، كتاب الطهارة، حديث رقم: 11).

والحديث أخرجه أيضًا الإمام أبو داود في مسنده (كتاب الطهارة حديث رقم: 49) عن عمار بن ياسر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من الفطرةِ المضمضمةَ والاستنشاقَ» فذكر نحوه ولم يذكر إعفاء اللحية، وزاد: «والختان»

وأخرج الحديث أيضًا الإمام ابن ماجه في السنن عن أبي هريرة بلفظه في (كتاب الطهارة وسننها حديث رقم: 288).

والحديث بلفظه ذكره الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 6842).

شرح الحديث

هذه الخصال الخمس يمكن استعراضها في النقاط التالية:

أولاً: الختان:

والختان مصدر من الفعل (ختن) بمعنى قطع، و(الختان) و(الخَتْنُ) يعني قطع جزء مخصوص من عضو مخصوص، ويقصد به قطع الزائد من أعضاء التزاوج

مثل الجلدة التي تغطي الحشفة في الذكر، والبروز الزائد من البظر في الأنثى، حتى يتمكن كل منهما من الاستبراء من البول.

وقد أوصى رسول الله ﷺ بالختان في هذا الحديث الشريف، وفي غيره من مثل قوله (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم): «الختان سُنَّة للرجال مكرمة للنساء» (المعجم الكبير للطبراني: 7112، 7113، فتح الباري: 10/1353).

والختان بذلك من سنن المسلمين التي يرى وجوبها جمهور العلماء، ويرى الشافعية استحبابها في اليوم السابع من عمر الوليد، خاصة وقد عق رسول الله ﷺ عن الحسن والحسين وختنهما لسبعة أيام كما رواه البيهقي.

وقد ثبتت جدوى الختان الطبية بعد دراسات مستفيضة أوضحت أن عدم الاختتان في الذكور قد يؤدي إلى العديد من الأمراض التناسلية كالزهري والسيلان وإلى (سرطان الحشفة) وهو من أشد أنواع السرطانات إيلامًا.

وينتج أغلب هذه الأمراض عن تجمع القاذورات والبكتيريا والجراثيم والفطريات بين الحشفة والجلدة التي تغطيها (والتي تعرف باسم القلفة) والتي أمرنا المصطفى ﷺ بإزالتها بعملية الاختتان في مراحل الطفولة الأولى؛ وذلك لأن بقاء القلفة محيطة بالحشفة يكون مستنقعًا للقاذورات والنجاسات من العرق ومن إفرازات الغدد الدهنية وبقايا البول التي يصعب التطهر منها والتي تشكل مرتعًا خصبًا لمسببات الأمراض على اختلاف أنواعها وأشكالها، فضلاً عن الروائح الكريهة التي يمكن أن تنبعث منها.

وتنتقل مسببات الأمراض تلك من كل من القلفة والحشفة إلى الإحليل ومنه إلى المثانة ثم إلى الكليتين، أو تتابع طريقها من الموثة (المعروفة باسم البروستات) إلى كل من الخصيتين والبربخ فتدمرهما تدميرًا كاملاً مما قد يؤدي إلى العقم، فضلاً عما تسببه من أمراض وآلام مبرحة. وإذا تزوج هذا المصاب فإن من المحتمل أن تنتقل أمراضه بسهولة شديدة إلى زوجته مما يسبب لها التهابات في كل من المهبل وعنق الرحم، وغدة برتولين بمرض يعرف باسم التهاب غدة

برتولين (Bartolinitis)، وقد يصل ذلك إلى الرحم مما قد يصيبه بالسرطان، وقد يؤدي بالمرأة إلى العقم الكامل فضلاً عن آلام هذه الالتهابات المزمنة والحادة وتقيحاتها في أكثر أجزاء الجسد حساسية.

وعلى ذلك فإن ختان الزوج له دور كبير في وقايته من العديد من الأمراض وفي وقاية الزوجة من العديد من الالتهابات في جهازها التناسلي. وقد تنتهي هذه الالتهابات إلى عدد من الأمراض الخطيرة مثل سرطان الرحم الذي لوحظ انتشاره في وسط البغايا بشكل مفزع.

وهناك حالات يضطر فيها المريض إلى الختان رغم أنفه طلبًا للشفاء، لا أداء للسنة مثل بعض الأمراض الخلقية كضيق القلفة، أو التصاقها بالحشفة مما قد يسبب العديد من أمراض حصر البول. وقد لاحظ الأطباء تفاقم أمراض الجهاز التناسلي عند غير المختونين من الذكور بصفة عامة.

أما ختان الأنثى ويسمى في الشرع «الخفض» فهو انصياع لأمر المصطفى ﷺ الذي وصفه بأنه مكرمة للأنثى؛ لأن هذا الجزء من جسمها هو أكثر الأجزاء حساسية وإذا كان بارزًا بروزًا واضحًا فقد يؤدي إلى إثارتها جنسيًا بشكل مرهق خاصة قبل الزواج، كما قد يكون مدعاة لنفور واشمئزاز الزوج بعد الزواج لصعوبة إتمام عملية التزاوج.

أما إذا لم يكن هذا الجزء بارزًا بروزًا واضحًا فقد لا يكون هناك مبرر للختان والله تعالى أعلم، ولذلك كان الختان سنة للرجال، ومكرمة للنساء كما جاء في حديث رسول الله ﷺ، وقد أوصى ﷺ بذلك إحدى السيدات المسلمات وكان اسمها «أم عطية»، وكانت خَتَّانة للإناث بالمدينة المنورة حيث قال لها عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: «إذا خفضت فأشمي ولا تنهكي فإنه أسرى للوجه وأحظى عند الزوج». (أورده الهيثمي في مجمع الزوائد قائلاً: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن: 5/172).

ثانيًا: الاستحداد:

وهو حلق شعر العانة، وقد أمر به رسول الله ﷺ واعتبره من أمور الفطرة، وتحدد الأحاديث النبوية الشريفة حدًا أقصى لا يجوز للمؤمن أن يتعداه دون

استحداد وهو أربعون يومًا؛ وذلك لأن هذا الموضع من جسم الإنسان (ذكرًا كان أم أنثى) هو من أكثر أجزاء الجسم عرضة للتلوث بمختلف الأوساخ لقربها من السبيلين وكثيرًا ما يهملها الناس ويتناسونها لأنها من العورات التي تبقى مستورة مخبأة، وفوق ذلك هي منطقة كثيرة الإفرازات الدهنية، وغزيرة العرق مما يجعلها مرتعًا للعديد من مسببات الأمراض من الفطريات والفيروسات والجراثيم التي قد تؤدي إلى التهابها ونتنها وتصاعد الروائح الكريهة منها، وإلى إصابتها بالعديد من الالتهابات والأمراض الجلدية، وأمراض الجهازين البولي والتناسلي مما قد يتعدى الأفراد إلى أزواجهم وأسرهم ومجتمعاتهم عن طريق الاستخدامات المشتركة من مثل حمامات السباحة، والمناشف وغيرها.

وتراكم الأوساخ ومسببات الأمراض فوق العانة وحولها يستمر في الانتشار حتى يصل إلى الإحليل فيصيبه بالالتهاب الذي قد يواصل انتشاره حتى يصل إلى المثانة ثم الحالبين، ومنهما إلى الكليتين ويؤدي إلى تدميرهما وفشلهما في القيام بدورهما مما ينتج عنه التسمم البولي.

ومن رحمة الله - تعالى - بعباده أنه أنبت الشعر في تلك المنطقة من جسم الإنسان، وأمر بحلقه بصفة دورية، وعلى فترات متقاربة كما أوصانا رسول الله ﷺ حتى يتم تطهيرها باستمرار.

ثالثًا: نتف الإبط:

وهو من سنن الفطرة كذلك كما أوضح حديث المصطفى ﷺ الذي نحن بصدده؛ وذلك لأن منطقة الإبط - مثل منطقة العانة - يكثر فيها العرق كما تكثر الإفرازات الدهنية، فأنبت الله - تعالى - فيها الشعر كما أنبته فوق العانة ليضطر كل إنسان قريب للفطرة من حلقه على فترات متقاربة، وبصورة دورية حتى لا يصبح مبعثًا للروائح الكريهة، ومرتعًا للفطريات والفيروسات والجراثيم، وهي من المسببات الرئيسية للأمراض، وصاحب الشأن لاه عنه لأنه من المناطق الخفية في جسمه ويجزئ في شعر الإبط النتف، والحلق، والقص.

رابعًا: تقليـــم الأظافـــر:

وهو من القَلْم أي القطع، وكل ما قطعت منه شيئًا بعد شيء فقد قلمته، واسم ما قُطع منه «قُلامة» والتقليم هو إزالة ما يزيد عن الشيء حتى يصبح صالحًا لأداء مهمته، ومناسبًا للاستعمال، وذلك كما يقلم القلم أو الشجر، وكذلك الظفر يقلم أي يُقص منه ما يزيد على ما يلامس رأس الإصبع ليظل نظيفًا محافظًا على سلامته وحيويته مؤديًا لمهمته.

وتقليم الأظافر سنة من سنن الفطرة التي أوصى بها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في الحديث الذي نحن بصدده، وفي عدد من الأحاديث الأخرى التي منها قوله (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم): «**يسأل أحدكم عن خبر السماء، وهو يدع أظفاره كأظافير الطير يجتمع فيها الجنابة والخبث!**». (رواه أحمد، حديث رقم: 22440).

ومن أقواله ﷺ إلى سوادة بن الربيع رضي الله عنه: «**إذا رجعت إلى بيتك فمرهم فليحسنوا غذاء رباعتهم، ومرهم فليقلموا أظفارهم، ولا يعبطوا بها ضروع مواشيهم إذا حلبوا**». (رواه أحمد، حديث رقم: 15395).



شكل (129) يوضح سوء منظر الأظافر عندما تطول

ومعنى ذلك أن الأظافر الطويلة قد تجمع تحتها من الأوساخ والجراثيم والفطريات ما يمكن أن يصل إلى ضروع الحيوانات فيؤذيها، ويؤذي الشاربين من حليبها دون داع أو مبرر، وذلك لأنه من الصعوبة بمكان تنظيف تلك الأظافر الطويلة بشكل مقبول.

وتقليم الأظفار يقصد به إزالة كل ما يزيد على ما يلامس رأس الإصبع من الظفر إلى حد لا يصل منه الضرر إلى الإصبع، ويعينه على أن يظل محافظًا على سلامته وحيويته ووظيفته، وذلك باستبعاد وجود جيوب بين الأنامل والأظفار قد تختبئ فيها الأوساخ، ومسببات

الأمراض، التي قد تنتقل منها إلى صاحبها وإلى غيره؛ وذلك لأن الأظافر إذا طالت فقد يصعب تنظيفها فتكون مصدرًا لانتقال الأمراض ولانتشار الروائح الكريهة، هذا فضلاً عن كونها من أسباب إعاقة الحركة الفطرية الحرة لأصابع اليد وأطراف الأنامل.

والأمراض التي تنقلها الأظافر الطويلة قد تنتقل إلى صاحبها عن طريق الفم وإلى غيره عن طريق الملامسة، بالمصافحة أو تقديم الطعام والشراب، كما قد تكون مصدرًا للتسمم عند ملامسة المواد السامة، أو النجاسات، أو الإصابة بالجروح والتسلخات أو إحداثها بالغير، أو التسبب في الحوادث الخطيرة التي قد تنجم عن إضعاف القدرة على الإمساك بالأشياء نظرًا لإضعاف الأداء الوظيفي للأنامل.

هذا بالإضافة إلى إمكانية تقصف الأظافر عند إطالتها، أو إصابتها بالرضوض نتيجة اصطدامها مما قد يؤدي إلى خلخلتها الجزئية أو الكاملة، أو إلى تورمها مما يؤدي إلى إنتانها ونزيفها وتضخمها، أو لانتشار الفطريات فيها. ويظهر ذلك في الإناث اللائي انبهرن بتقليد الغربيات فتسابقن في إطالة أظافر اليدين والرجلين، وفي صبغهما بالعديد من المركبات الكيميائية المدمرة للأظافر مثل الطلاء، واستخدام المصلدات، أو زرع الأظافر الصناعية وتثبيتها بمختلف المواد الكيميائية مما قد يؤدي في النهاية إلى هشاشة الأظافر وتقصفها أو تشققها أو التهابها ونزيفها وتخلخلها خاصة مع تكرار الطلاء وإزالته بالمذيبات العضوية، فضلاً عما تسببه تلك الطلاءات من إفساد للوضوء والغسل والطهارة، واستنشاق للعديد من المواد الكيميائية الضارة بالصحة العامة خاصة بالجهاز التنفسي والعينين.

ومن هنا كانت وصية رسول الله ﷺ أن تقليم الأظافر من الفطرة التي فطر الله - تعالى - الناس عليها، وأمر أنبياءه ورسله بها، ووصاهم بتوجيه الناس إليها.

وانطلاقًا من ذلك حرصت تعليمات رسول الله ﷺ على أن يكون تقليم الأظافر عملاً دوريًّا مستمرًّا على فترات متقاربة مرة كل أسبوع استكمالاً للطهارة والنظافة، واسترواحًا للنفس، وقد رخص في ذلك بمدة أقصاها أربعون يومًا، ولا عذر لتركه

بعد ذلك لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال فيه: «**رخص لنا النبي في قص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وحلق العانة، ألا يترك أكثر من أربعين ليلة**». (أخرجه كل من الإمامين مسلم حديث رقم: 379، وابن ماجه حديث رقم: 291 وغيرهما من رجال الحديث).

خامسًا: قص الشارب:

أخرج كل من البخاري (كتاب اللباس، حديث رقم: 5443)، ومسلم (كتاب الطهارة، حديث رقم: 382)، وأبي داود (كتاب الترجل، حديث رقم: 3667)، والترمذي (كتاب الأدب، حديث رقم: 2687)، والنسائي (كتاب الطهارة، حديث رقم: 15)، ومالك (حديث رقم: 1488)، وأحمد (حديث رقم: 4425)، وغيرهم عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أحفوا الشوارب وأعفوا اللحي**».

وفي رواية أخرى: «**خالفوا المشركين، وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب**». (رواه البخاري، حديث رقم: 5443 كتاب اللباس، حديث رقم 5442).

وفي رواية ثالثة: «**أنهكوا الشوارب وأعفوا اللحى**». (صحيح البخاري: 5443) وفي رواية عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**جزوا الشوارب وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس**». (رواه مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم 383)، وواضح الأمر أن إعفاء اللحية واجب وكذلك قص الشارب لأن طول الشارب وهو في أسفل الأنف، وفوق الفم يعرضه لمفرزاتهما من اللعاب والنخام مما قد يلوثه بتلك الإفرازات وببقايا الطعام والشراب، ويصعب تنظيفه وتنظيفهما مما يجعله ويجعلهما مرتعًا للأوساخ والفطريات والجراثيم ومنبعًا للروائح الكريهة التي تؤذي صاحب الشارب نفسه وتسبب له الأمراض، كما تؤذي كل من يقترب منه لتعرضه للروائح الكريهة ولسيل من مسببات الأمراض كلما تثاءب صاحب الشارب الطويل أو عطس، أو حتى فتح فمه بكلام ما. ومن هنا كان من وصايا رسول الله ﷺ قص الشارب أو إحفاؤه مرة كل أسبوع استكمالاً للنظافة والطهارة، واسترواحًا للنفس، فإن قذارة الجسم تولد ضيقًا وكآبة، وقد أمر المصطفى ﷺ ألا يترك القيام بذلك لأكثر من أربعين ليلة لحديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي قال فيه: «**وقَّت لنا النبي ﷺ في قص**

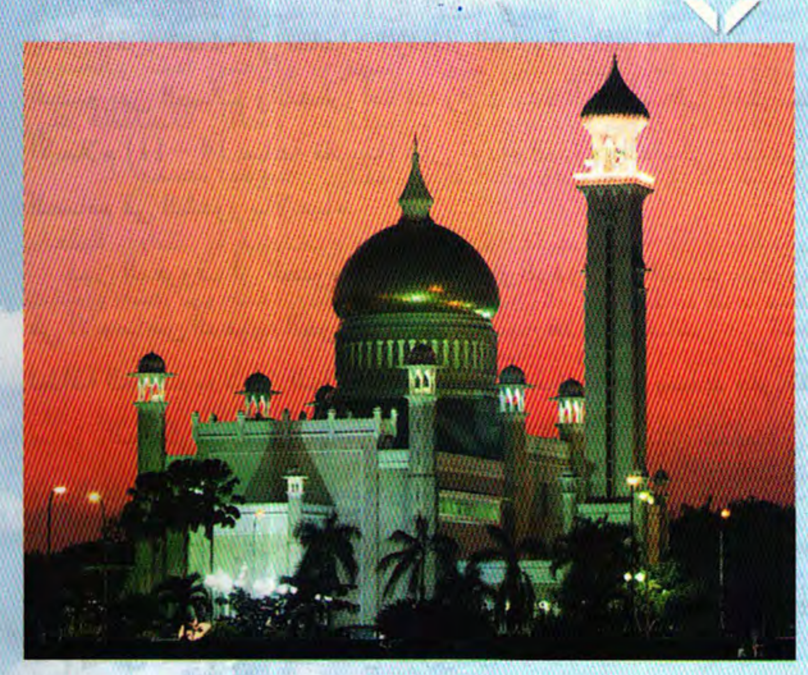
الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، ألا يترك أكثر من أربعين ليلة». (رواه مسلم، كتاب الطهارة، حديث رقم: 379).

وعن زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من لم يأخذ من شاربه فليس منا». رواه كل من أحمد (حديث رقم: 18462)، والنسائي (حديث رقم: 13، 4961)، والترمذي (حديث رقم: 2685).

من هذه السلوكيات الخمسة يتضح أن رسول الله ﷺ قد وضع أسس الطهارة البدنية الكاملة، فلم يترك مكانًا في الجسد إلا أمر بنظافته وتطهيره؛ خاصة تلك الأماكن التي يمكن أن تكون مجمعًا للأوساخ والقاذورات، أو للجراثيم والفطريات أو لغيرهما من مسببات الأمراض أو بواعث الروائح الكريهة، فإذا أضفنا إلى تلك السلوكيات الوضوء في اليوم والليلة خمس مرات، والغسل من الجنابات اتضح معنى الطهارة التي يرتضيها ربنا – تبارك وتعالى – من عباده الصالحين، واتضح سبق المصطفى ﷺ لكل المعارف الطبية والوقائية الحديثة في الإشارة إلى تلك الضوابط الصحية والوقائية الخمسة بآلاف السنين، فصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث السابع والخمسون

«صوموا تصحوا»



شكل (130)

57 «صومــوا تصحـــوا»

روى الطبراني (رحمه الله) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**صوموا تصحُوا**». (الكامل في ضعفاء الرجال، ج2).

شرح الحديث

وبالنظر إلى الأحاديث النبوية الكثيرة، والأحاديث القدسية الشريفة، والآيات القرآنية العديدة التي جاءت في فضل الصيام، تخيل كثير من الناس أن فوائد الصيام مقصورة على الجوانب التعبدية، وانعكاساتها الروحية والعاطفية، ولكن ثبت بالعديد من الدراسات المستفيضة أن للصيام فوائد صحية عديدة لخصها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ في لفظة واحدة: «**تصحُوا**».

وقد أظهرت نتائج تلك الدراسات أن الأداء البدني للصائم من طلوع الفجر الصادق إلى الغروب أفضل من أداء غير الصائم؛ لتحسن درجة تحمل البدن للمجهودات العضلية، وتحسن أداء كل من القلب وبقية الجهاز الدوري والجهاز الهضمي والجهاز التنفسي وغيرها أثناء الصيام، ومن هنا كانت قلة الشعور بالإجهاد، وتحمل ما لا يمكن للفرد تحمله في ساعات الإفطار العادية، وذلك لاختلاف مصدر الطاقة في الجسم بين الصائم والمفطر، أما إذا زادت مدة الصيام على المتوسط الذي شرعه الإسلام (11– 14 ساعة تقريبًا) فإن الأداء البدني والعضلي يبدأ في التأثر، ويبدأ الصائم في الشعور بالإعياء.

فمن المعروف أن الصوم يسبب انصهار الدهون في الجسم مما يؤدي إلى زيادة في الأحماض الدهنية الحرة في الدم، فتصبح هذه الأحماض هي المصدر الرئيسي لطاقة الصائم بدلاً من الجلوكوز في حالة المفطر، وهذا يساعد على تقليل استهلاك مادة «الجليكومين» في كل من العضلات والكبد أثناء بذل الجهد من قبل الصائم، ويساعد كذلك في ضبط مستوى سكر الجلوكوز في الدم، الذي يؤدي نقصه إلى الشعور الكامل بالإعياء.. ولمّا كان مستوى سكر الجلوكوز في دم المفطر هو المصدر الرئيسي لطاقته، كان جهده المبذول يشعره بإعياء أكبر مما يشعر به الصائم إذا قام بنفس المجهود، تحت نفس الظروف.

بالإضافة إلى ذلك فإن حالة الرضا النفسي للصائم، وارتفاع معنوياته، لشعوره بالقرب من خالقه (سبحانه وتعالى)، ولإحساسه بالقيام بعبادة من أشرف العبادات، في شهر يعتبر أفضل شهور السنة على الإطلاق، وأكثرها بركة، ورحمة، ومغفرة وعتقًا من النار؛ كل ذلك يؤدي إلى زيادة واضحة في داخل جسم الإنسان لعدد من الهرمونات النافعة من مثل مجموعة «الأندروفين» التي يعزى إليها تحسن الأداء البدني، وقلة الشعور بالإعياء أو الإجهاد، فما أحكم من شرع الصيام، وما أصدق مقولة الرسول الخاتم: «صوموا تصحوا»! كذلك فإنه لمن البديهيات أن توقف الإنسان عن متابعة نظامه اليومي في تناول وجبات الطعام لفترة محددة في شكل عام يؤدي إلى راحة أجهزة الجسم، الذي يبدأ خلال فترة الصيام في التخلص مما تراكم فيه على مدار السنة من دهون، وشحوم، وفضلات، وسموم، وفيروسات، وطفيليات، وغيرها، وهي من الأمور المهلكة لصحة الإنسان إذا تراكمت في داخل جسده بكميات كبيرة، ومن هنا كانت ضرورة التخلص منها بين فترة وأخرى، وأفضل وسيلة لذلك هي الصيام. من هنا شرع ربنا (تبارك وتعالى) لنا الصيام في شهر رمضان، وجعله أحد أركان الإسلام، كما شرع لنا نبينا ﷺ «**صوم التطوع**»، و«**صوم الكفارات**»، و«**صوم النذر**» على مدار السنة، وكان ﷺ من المواظبين على صيام التطوع، وأوصى أمته بالصوم، ووصفه بأنه عبادة من أعظم العبادات لله، ووسيلة من وسائل المحافظة على صحة الأبدان، وسلامة الأرواح، وطهارة النفوس، فقال: «صوموا تصحُوا».

وحذر رسول الله ﷺ من الإسراف في كل شيء وبخاصة في تناول الطعام والشراب، ووضع لذلك دستورًا من الآداب والسلوكيات التي نصح بها أمته، وأثبتت الدراسات العلمية دقتها، وصحتها، وشموليتها.

والسؤال الذي يفرض نفسه هو: كيف عرف رسول الله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة أن في الصيام صحة للأبدان؟

ومن الذي كان يضطره إلى إصدار حكم كهذا في هذا الزمن المتقدم؟ لولا أن الله (تعالى) قد علَّمه ذلك، وأنطقه إياه، ولولا أنه (سبحانه وتعالى) يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سيصل في يوم من الأيام إلى إدراك تلك الحقيقة العلمية، فتبقى هذه

الومضة المبهرة التي سبقت في حديث رسول الله ﷺ شاهد صدق على أن هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم الذي نطق بهذا الحق كان دومًا موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض الذي وصفه (تعالى) بقوله: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: 3-10].

من هنا كانت ضرورة الاهتمام بالإشارات العلمية في كتاب الله، وفي سنة رسوله ﷺ وفهمها في ضوء الحقائق العلمية المتاحة، وتقديمها لأهل العصر دليلًا ماديًا قاطعًا (لا يمكن لعاقل أن يرفضه) على صدق نبوة ورسالة هذا النبي الخاتم ﷺ، وفي ذلك نجاة لنا ولهم، وفلاح في الدنيا والآخرة، في زمن اختلطت فيه المفاهيم، وزاغت فيه القلوب والأبصار، وتراجع أهل الحق وعلا أهل الباطل، وبقي الناس حيارَى في عالم تقاربت فيه المسافات، وتصارعت الحضارات، وتعارضت المعتقدات، وآن لأهل الحق أن يظهروه، وأن يدعوا إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، بخطاب العصر ولغته: الخطاب العلمي، لعل الله (تعالى) أن يجعل في ذلك حقنًا للدماء التي تسفك في كل يوم، ونهاية للحروب التي تشتعل في كل مكان، ووقفًا للمظالم التي تجتاح الإنسان في أغلب بقاع الأرض، وما ذلك على الله بعزيز.. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

الحديث الثامن والخمسون

«لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»



شكل (131) يوضح السواك وشجرته شجرة الأراك

58 «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (حديث رقم: 847، باب السواك يوم الجمعة، كتاب: الجمعة) فقال:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يُوسُفَ قَالَ: أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عن أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي - أَوْ عَلَى النَّاسِ - لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاةٍ».

كذلك رواه الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 252، باب السواك، كتاب: الطهارة) قائلاً:

■ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَعَمْرو النَّاقِدُ وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ قَالوا: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عن أَبِي الزِّنَادِ، عَنِ الأَعْرَجِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى المؤْمِنِينَ - وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ: عَلَى أُمَّتِي - لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاةٍ».

شرح الحديث

من هدي المصطفى ﷺ الحث على استخدام السواك، مع كل صلاة (أي خمس مرات في اليوم والليلة على أقل تقدير)، والسواك (المسواك) هو عود من شجيرة تعرف باسم «الأراك»، وقد يتخذ من غيرها من الشجيرات من مثل الزيتون البري (العُتْم)، أو من شجيرة السَّمُر، ولكن أفضل السواك ما اتخذ من المدادات الأرضية لشجيرة «الأراك»، علمًا بأنه قد يتخذ من فروعها الخضراء وهي أقل جودة من المساويك المتخذة من المدادات الأرضية.

وجمع السواك (سُوُك) بضم الواو، وجمع المسواك (مساويك)، ويقال (سَوَّكَ) فاه (تسويكًا) أي نظفه باستخدام (المسواك)، ولكن إذا قيل (تسوَّك) أو (استاك) لا يذكر الفم.

وشجيرة الأراك تنمو في الجزيرة العربية، وفي غيرها من المناطق الجافة في كل من غربي آسيا وشمالي إفريقيا، وهي شجيرة كثيرة الفروع، مخضرة الأوراق، باصفرار قليل، دقيقة الأزهار والثمار، وتعرف ثمارها باسم (الكباث)، وهي

على هيئة الكرات الصغيرة التي تبدأ حمراء اللون ثم تسود، وتحتوي على مواد حريفة فاتحة للشهية، وقد جاءت وصية المصطفى ﷺ بالمواظبة على استخدام السواك في عدد من أحاديثه الشريفة التي منها ما ذكرناه آنفًا ومنها ما رواه كل من الإمامين النسائي في سننه (كتاب الطهارة)، وابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس (رضي الله عنهما) حيث قالا:

■ أَخْبَرَنَا حُمَيْدُ بْنُ مَسْعَدَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَى عن يَزِيدَ وَهُوَ ابْنُ زُرَيْعٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي عَتِيقٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ عَائِشَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ». صحيح البخاري، (حديث رقم: 1831، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيًا).

والحديث رواه أيضًا الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 62، كتاب «العشرة المبشرون بالجنة») حيث قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ قَالَ: حَدَّثَنَا حَمَّادٌ يَعْنِي ابْنَ سَلَمَةَ عن ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ عن أَبِيهِ عن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ».

وقد أثبتت الدراسات المختبرية على عود الأراك (السواك) أنه يحتوي على العديد من المركبات الكيميائية التي تحفظ الأسنان من التسوس والتلوث، وتحفظ اللثة من الالتهابات، وذلك من مثل حمض التانيك (العَفْص)، ومركبات كيميائية أخرى من زيت الخردل وسكر العنب لها رائحة حادة، وطعم لاذع، وهذه المركبات لها قدرة فائقة في القضاء على جراثيم الفم، بالإضافة إلى العديد من المواد العطرية، والسكرية والصمغية، والمعدنية، والشعيرات الطبيعية من الألياف النباتية الحاوية على كربونات الصوديوم، وهي مادة تستخدم في تحضير معاجين الأسنان، وهذه معلومات لم تكن متوافرة في زمن الوحي، ولا لقرون من بعده، والتوجيه من رسول الله ﷺ باستخدام السواك عند كل صلاة، هو سبق علمي وسلوكي بكل أبعاده، وحرص على طهارة الفم والأسنان، ونظافتهما؛ لأن الفم هو مدخل الطعام إلى الجهاز الهضمي في جسم الإنسان، وحينما يمضغ الطعام تبقى منه بقايا عالقة بين الأسنان وباللثة، وهذه إذا لم تنظف تتعفن، وتملأ الفم بالفطريات والجراثيم التي قد تكون سببًا في كثير من الأمراض، بالإضافة إلى ما تنتجه من روائح كريهة ومنفرة من صاحبها.

من هنا كانت وصية المصطفى ﷺ باستخدام السواك عند كل صلاة لتطهير الفم والأسنان من فضلات الطعام، وتزكية رائحتهما، وحمايتهما، وحماية بقية الجسد الذي يحملهما من الإصابة بالعديد من الأمراض.

وهنا يبرز التساؤل المنطقي: مَنِ الذي أعلَمَ هذا النبي الخاتم بفائدة السواك فيوصي باستخدامه عند كل صلاة، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة، أي في زمن لم يكن فيه إدراك لمخاطر تلوث الفم والأسنان ببقايا الطعام؟ ولماذا التوصية «بالأراك» على وجه التخصيص، ولم يكن أحد يعلم شيئًا عن تركيبه الكيميائي حتى عشرات قليلة من السنين التي مضت في ختام القرن العشرين؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات أقول: إن سبق أحاديث رسول الله ﷺ لكل المعارف المكتسبة بألف وأربعمائة سنة على الأقل بالإشارة إلى فوائد السواك في تطهير الفم والأسنان – لا يمكن لعاقل أن يتصور له مصدرًا غير الله الخالق، وأن التوصية باختيار «الأراك» على وجه الخصوص لا يمكن أن يكون لها مصدر غير الخالق (سبحانه وتعالى).

وورود هذه الحقيقة العلمية على لسان نبي أمي ﷺ في أمة كانت غالبيتها الساحقة من الأميين لما يشهد له بالنبوة وبالرسالة.

وإبراز هذه الجوانب العلمية في أحاديث المصطفى ﷺ وفي الوحي الذي أنزله إليه (القرآن الكريم) هو من أنجح أساليب الدعوة إلى الله في زمن العلم والتقنية الذي نعيشه، وهو زمن فُتن الناس فيه بالعلوم ومعطياتها فتنة كبيرة، ولم تعد قضايا الدين تحرك في قلوبهم أو عقولهم ساكنًا، وأصبحوا في أمس الحاجة إلى أدلة مادية ملموسة تدعوهم إلى الإيمان ببعثة هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ الذي ختمت ببعثته النبوات، وتكاملت في رسالته كل الرسالات، ووصفه ربه (تبارك وتعالى) بأنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3، 4]. فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث التاسع والخمسون

«إن رسول الله (ﷺ) كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها»



شكل (132)
يوضح غروب الشمس

59 «إن رسـول الله (ﷺ) كان يكره النـــوم قبــل العشـــاء والحديـــث بعدهـــا»

يُروى عن أبي بَرْزَةَ الأسلميِّ قولُه: «إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يكره النومَ قبلَ العِشاءِ والحديث بعدَها».

■ أخرج البخاري في صحيحه (كتاب مواقيت الصلاة حديث رقم: 514، 535، 564) هذا الحديث بسنده فقال:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلام قَالَ: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا خَالِدٌ الحذَّاء عَنْ أَبِي الْمِنْهَالِ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ «إنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَالحدِيثَ بَعْدَهَا».

■ والحديث رواه مسلم في صحيحه (كتاب المساجد حديث رقم: 1026) بلفظه فقال:

حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ حَدَّثَنَا سُوَيْدُ بْنُ عَمْرو الْكَلْبِيُّ عَنْ حَمَّاد بْن سَلَمَةَ عَنْ سَيَّارِ بْنِ سَلامَةَ أَبِي الْمِنْهَالِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا بَرْزَةَ الأَسْلَمِيَّ يَقُولُ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُؤَخِّرُ العشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ وَيكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَهَا والحدِيثَ بَعْدهَا، وَكَانَ يَقْرَأُ فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ مِن المائَةِ إلَى السِّتِّينَ، وَكَانَ يَنْصَرِفُ حِينَ يَعْرِفُ بَعْضُنَا وَجْهَ بَعْضٍ».

■ والحديث ذكره الترمذي في سننه (كتاب الصلاة حديث رقم: 153) قال:

حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيع حَدَّثَنَا هُشَيْمٌ أَخْبَرَنَا عَوْفٌ، قَالَ أَحْمَدُ: وَحَدَّثَنَا عَبَّادُ بْنُ عَبَّاد (هُوَ المهَلَّبِيُّ) وَإِسْمَاعِيلُ ابْنُ عُلَيَّةَ جَميعًا عَنْ عَوْفٍ عَنْ سَيَّارِ بْنِ سلامَةَ (هُوَ أَبُو الْمِنْهَالِ الرِّيَاحِيُّ) عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَالحدِيثَ بَعْدَهَا».

وأضاف قائلاً: فِي الْبَاب عَنْ عَائِشَةَ وَعَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ وَأَنَسٍ قَالَ أَبُو عِيسَى: حَدِيثُ أَبِي بَرْزَةَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَدْ كَرِهَ أَكْثَرُ أَهْلِ الْعِلْمِ النَّوْمَ قَبْل صلاةِ الْعِشَاءِ والحَدِيثَ بَعْدَهَا وَرَخَّصَ فِي ذَلِكَ بَعْضُهُمْ وقَالَ عَبْدُ الله بْنُ المبَارَكِ: أَكْثَرُ الأَحَادِيثِ عَلَى الْكَرَاهِيَةِ وَرخَّصَ بَعْضُهُمْ فِي النَّوْمِ قَبْلَ صَلاةِ الْعِشَاءِ فِي رَمَضَانَ وَسَيَّارُ بْنُ سلامَةَ هُوَ أَبُو الْمِنْهَالِ الرِّيَاحِيُّ.

■ والحديث أورده أيضًا النسائي في سننه (كتاب المواقيت حديث رقم: 522) قال:

أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ قَالَ: حَدَّثَنِي سَيَّارُ ابْنُ سَلامَةَ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي بَرْزَةَ فَسَأَلَهُ أَبِي: كَيْفَ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُصَلِّي المَكْتُوبَةَ؟ قَالَ: «كَانَ يُصَلِّي الْهَجِيرَ الَّتِي تَدْعُونَهَا الأُولَى حِينَ تَدْحَضُ الشَّمْسُ، وَكَانَ يُصَلِّي الْعَصْرَ حِينَ يَرْجِعُ أَحَدُنَا إِلَى رَحْلِهِ فِي أَقْصَى المدِينَةِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ، وَنَسِيتُ مَا قَالَ فِي المَغْرِبِ، وَكَانَ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُؤَخِّرَ الْعِشَاءَ الْعَتَمَةَ وَكَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَهَا وَالحدِيثَ بَعْدَهَا وَكَانَ يَنفَتِلُ مِنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ حِينَ يَعْرِفُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ وَكَانَ يَقْرَأُ بِالسِّتِّينَ إِلَى الْمِائَةِ».

■ وجاء في سنن أبي داود (كتاب الأدب حديث رقم: 4209) ما نصه:

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ حَدَّثَنَا يَحْيَى عَنْ عَوْفٍ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو المِنْهَالِ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله يَنْهَى عَنِ النَّوْمِ قَبْلَهَا وَالْحدِيثِ بَعْدَهَا».

■ وذكر ابن ماجه في سننه (كتاب الصلاة حديث رقم: 693) ما نصه:

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ ومُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ وعَبْدُ الوَهَّابِ قَالُوا: حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ أَبِي المِنْهَالِ سَيَّارِ بْنِ سَلَامَةَ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ أَنْ يُؤَخِّرَ العِشَاءَ، وكَانَ يَكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَها، والحَدِيثَ بَعْدَهَا».

■ وكذلك أورد الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 18945) ما نصه:

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَبْدِ المجيدِ حَدَّثَنَا خَالِدٌ عَنْ أَبِي الْمِنْهَال عَنْ أَبِي بَرْزَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ «كَانَ يكْرَهُ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَلا يُحِبُّ الحدِيثَ بَعْدَهَا».

■ وجاء في سنن الدارمي (كتاب الصلاة حديث رقم: 1393) ما نصه:

أَخْبَرنا حَفْصُ بْنُ عُمَرَ الحوْضِيُّ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سَيَّارٍ أَبِي الْمِنْهَالِ الرِّيَاحِيِّ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَكْرَهُ النَّومَ قَبْلَ الْعِشَاءِ وَالحدِيثَ بَعْدَهَا».

شرح الحديث

جاء الحديث كذلك في كل من صحيح ابن حبان، وصحيح ابن خزيمة، وفي مسند كل من أبي يعلى، والطيالسي.

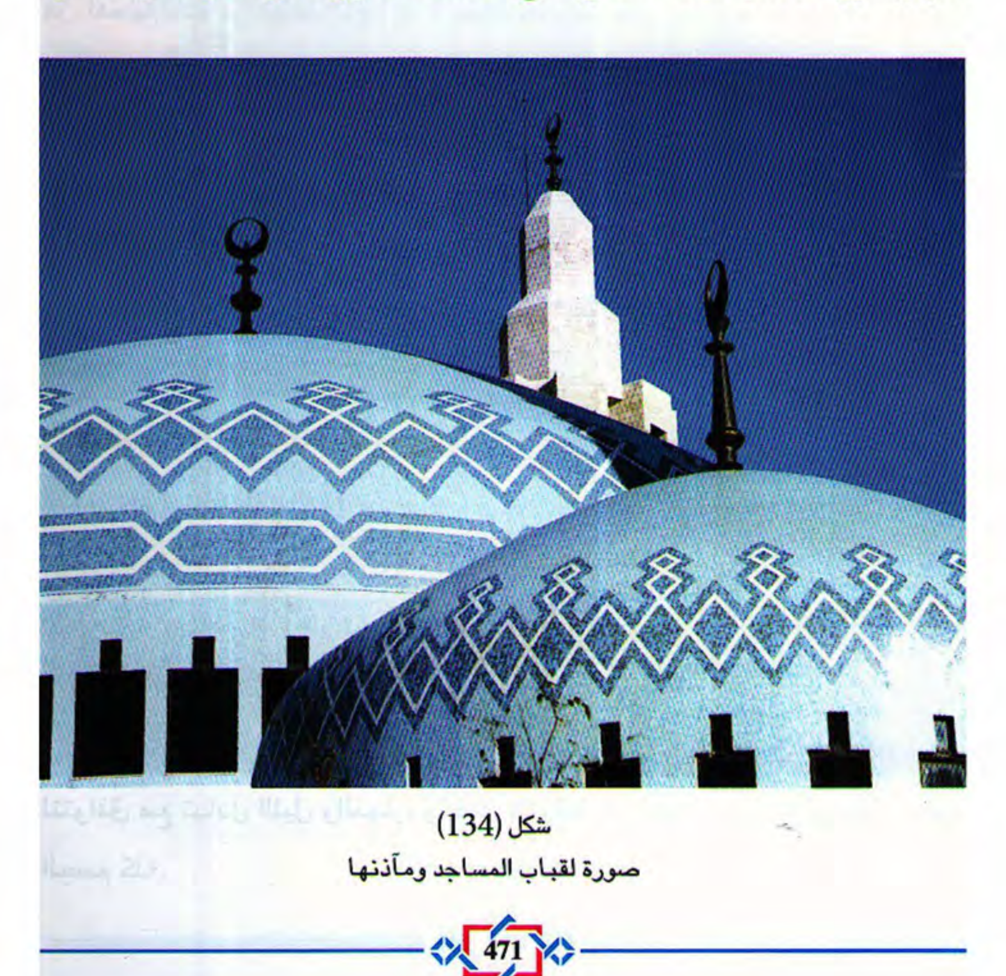
شكل (133)

صورة للقمر في مرحلة البدر وسط ظلمة الليل

ومفهوم الحديث أن أبرك ساعات النوم هي ساعات الليل الأولى عقب صلاة العشاء مباشرة، ولذلك كان ﷺ يكره السهر بعد العشاء إلا لضرورة، وينصح بأن داود عليه السلام كان ينام نصف الليل، ثم يقوم ثلثه، ثم ينام سدسه.

وقد أثبتت الدراسات التجريبية صدق ما قاله رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، وذلك للأسباب التالية:

1- أن النُّطُقَ المختلفة التي خلقها الله (تعالى) لحماية الحياة على الأرض ووضعها في غلافها الغازي «ما بين السماوات والأرض» تنكمش كلها بالتدريج من بدء غياب الشمس حتى تصل إلى أقصى درجات انكماشها عند منتصف الليل، ثم تبدأ في التمدد بالتدريج كذلك حتى تصل إلى أقصى سمك لها عند منتصف النهار حين تتعامد أشعة الشمس على المنطقة المدروسة، وتشمل نُطُق الحماية



شكل (134)
صورة لقباب المساجد ومآذنها

تلك كلاً من نطاق الأوزون، والنطاق المتأين، وأحزمة الإشعاع، والنطاق الممغنط، والنطاق الخارجي للأرض، وعند انكماش تلك النطق تصبح الأرض أكثر عرضة للمخاطر الكونية المتعددة وما أكثرها!

2- أثبتت الدراسات في مجال أبحاث النوم حاجة الإنسان الماسة إلى حد أدنى من ساعات النوم في أول الليل، حتى يعينه ذلك على التوافق مع الساعة الحياتية التي وضعها الله (تعالى) في داخل جسد كل فرد منا، وهذا القدر من النوم المبكر ينظم حياة الفرد العملية، والدراسية، والتعبدية، وينظم درجة حرارة الجسم، ويعيد تنشيط الذاكرة، ويستكمل أي نقص يمكن أن يمس جهاز المناعة.

ويتحكم في درجة الوعي والاستيقاظ في جسم الإنسان عدد من الغدد الصغيرة من أهمها غدة في وسط الدماغ، لا يزيد حجمها على حجم حبة الذرة البيضاء، وتعرف باسم الغدة الصنوبرية (Pineal Gland) وهي تفرز هرمونًا يسمى «الميلاتونين» وهو من مضادات الأكسدة؛ ولذلك فإنه يحافظ على الخلايا العصبية ويساعد جهاز المناعة في الجسم في حربه ضد الفيروسات، والجراثيم المختلفة، ويُحسِّن القدرة على النوم بمقاومته للأرق، ويقلل من الإصابة بأمراض القلب وأمراض إعتام عدسة العين والأورام الخبيثة «عافانا الله وعافاكم منها»، ويؤخر مظاهر الشيخوخة المبكرة بصفة عامة.

كذلك هناك غدة صغيرة أخرى تعرف باسم غدة «الوطاء» أو «ما تحت السرير البصري» (Hypothalamus) توجد في جدار البطن الثالث لقناة السائل المخي الشوكي، وتتحكم كذلك في درجة الوعي والاستيقاظ بتأثيرها على كل من الغدة الصنوبرية وإفرازها لهرمون «الميلاتونين»، والغدة النخامية وإفرازها لهرمون «الأدرينالين».

وتعمل غدة الوطاء عمل الساعة المنظمة للأنشطة الحيوية في جسم الإنسان لتتوافق مع تبادل الليل والنهار، وتحقق التوافق في وظائف الأعضاء بين أجهزة الجسم كله.

شكل (135)
صورة لنخلة في وقت الغروب

وبالإضافة إلى ذلك فإن خلايا «التصالب البصري» الواقعة في مقابلة تقاطع الألياف العصبية بجوار الغدة النخامية لها خاصية استشعار الضوء الذي يسقط على قاع شبكية العين أثناء النهار، فحينما تقع أشعة الشمس على قاع شبكية العين فإن التصالب البصري يرسل رسالة إلى الساعة الحياتية بالجسم فتتوقف عن إرسال الأوامر إلى الغدة الصنوبرية لإفراز هرمون «الميلاتونين»، وبالعكس فإنه عند قدوم الليل فإنها تبعث برسالة خاصة للغدة الصنوبرية لتعاود إفراز هرمون «الميلاتونين».

ولما كانت درجة إظلام الليل تزداد تدريجيًا من لحظة الغروب حتى تصل أقصى درجاتها عند منتصف الليل، ثم تبدأ في التناقص تدريجيًا إلى طلوع الفجر الصادق اتضحت الحكمة البالغة من كراهة رسول الله ﷺ النوم قبل أداء صلاة العشاء حرصًا على عدم ضياعها، وكراهة التحدث بعدها حرصًا على الاستفادة بأفضل ساعات النوم في أول الليل، ويعجب الإنسان! مَن الذي علم رسول الله ﷺ ذلك من قبل ألف وأربعمائة عام لو لم يكن موصولاً بالوحي ومُعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض؟ فصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.



شكل (136) يوضح القمر في مرحلة البدر في ظلمة ليل الأرض ونصفها المقابل في وضح النهار

الحديث الستون

«العيافة، والطيرة والطَّرق من الجبت»



شكل (137)
صورة لعرافة تخدع إحدى زبوناتها المغرر بهن

60 «العيافـة، والطـيرة، والطَّـرق مـن الجبـت»

روى الإمـام أحمد بن حنبل في مسنده (حديث رقم: 69693).

عن قبيصة بن المخارق رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «العِيَافة، والطيَرَةُ، والطَّرْقُ، من الجبت».

وروى الإمام أبو داود في سننه (حديث رقم: 3907، باب في الخط وزجر الطير، كتاب الكهانة والتطير) – والحديث حسن الإسناد – عن رسول الله ﷺ أنه قال: «العِيَافة، والطيَرَةُ، والطَّرْقُ، من الجبت».

و «**العيافة**» هي الخط؛ و «**الطيرة**» هي التشاؤم؛ و«**الطَّرْقُ**» هو الضرب، وهو الزجر، أي زجر الطير بقصد التيمن أو التشاؤم باتجاه طيرانه، فإن طار إلى جهة اليمين تيمن الزاجر واستبشر، وإن طار إلى جهة اليسار تشاءم وانقبض.

و«**الجبت**» كلمة تطلق على كل ما عُبد من دون الله، أو كل مطاع في معصية الله، وأصل «الجبت» هو «الجبس» وهو من المتبخرات الهشة التي لا سير فيها، فأبدلت التاء من السين، ولذلك تطلق لفظة «الجبت» على الشيطان، كما تطلق على الصنم، والكاهن والساحر وعلى السحر ذاته، وعلى كل باطل يصرف العبد عن التوحيد الخالص لله، ويدخله في دائرة الشرك أو الكفر بالله، والكلمة واضحة الدلالة في هذا الحديث الشريف على الشرك بالله (أعاذنا الله تعالى منه).

وفي رواية أخرى للإمام أبي داود في سننه، (حديث رقم: 3907، باب في الخط وزجر الطير)، قال:

■ حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، حَدَّثَنَا عَوفٌ، حَدَّثَنَا حَيَّانُ – قَالَ غَيْر مُسَدَّدٍ: حَيانُ بْنُ الْعَلاءِ – قال: حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عن أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «العِيَافَةُ وَالطِّيَرَةُ والطَّرْقُ مِنَ الجِبْتِ». الطَّرْقُ: الزَّجْرُ، والْعِيَافَةُ: الخطُّ.

وكل من «العيافة» و«الطيرة» و«الطرق» انصراف عن التوكل الكامل على الله، ولجوء إلى استشراف الغيب .. خوفًا منه، وحذرًا من مفاجآته، وهو من الأمور المنهي عنها شرعًا، ولذلك يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء، فصَدَّقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا». رواه مسلم في صحيحه

(حديث رقم: 2230، بلفظ مختلف). وفي رواية أخرى: «من أتى عرافًا فصَدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». (رواه أبو داود في سننه بإسناد صحيح حديث رقم 3905، باب في النجوم).

شرح الحديث

والمقصود بعلم النجوم هنا هو التنجيم، والتنجيم خرافة لا أساس لها من العلم، أما علوم الفلك، ودراسة النجوم وغيرها من أجرام السماء بالملاحظة والاستنتاج، أو بالتجربة والملاحظة والاستنتاج فهي أمر مرغوب فيه، ومندوب إليه، ومؤكد عليه، وهي من فروض الكفاية التي لا يجوز للأمة أن تتخلف عنها بجملتها.

ولتأكيد هذا المعنى نذكر هذا الحديث، عن معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله (تعالى) بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهان؟

قال ﷺ: «فلا تأتهم». قال: ومنا رجال يتطيرون؟ قال: «ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنهم». قال: قلت: ومنا رجال يخطون؟ قال: «كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه، فذاك».

(صحيح مسلم، حديث رقم: 537، كتاب الإيمان).

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى الْعَنَزِيُّ، حَدَّثَنَا يَحْيَى يَعْنِي ابْنَ سَعِيدٍ، عن عُبَيْدِ الله، عن نَافِعٍ، عن صَفِيَّةَ، عن بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فسَأَلَهُ عن شَيءٍ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً».

(صحيح مسلم، حديث رقم: 3230 كتاب السلام).

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عن عَوْفٍ قَالَ: حَدَّثَنَا خِلاسٌ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ وَالحسَنِ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ عَرَّافًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». مسند الإمام أحمد (حديث رقم: 9532).

- وفي سنن أبي داود (حديث رقم : 3905، باب في النجوم، كتاب الكهانة والتطير).

■ حدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُسَدَّدٌ المعْنَى قَالاَ حَدَّثَنَا يَحْيَى، عن عُبَيْدِ الله ابْنِ الأَخْنَسِ، عن الوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الله، عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَكَ عن ابْنِ عَبَّاسٍ، قال: قال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ اقْتبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زادَ مَا زَادَ».

- وفي صحيح مسلم (حديث رقم: 537، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان، كتاب السلام):

■ حَدَّثَنِي أَبُو الطَّاهِرِ وَحَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى قَالا: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يُونُسُ، عن ابْنِ شِهَابٍ، عن أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، عن مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ: قلت: يا رَسُولَ الله أُمُورًا كُنَّا نَصْنَعُهَا في الْجَاهِلِيَّةِ، كُنَّا نَأْتِي الكُهَّانَ، قَالَ: «فَلا تَأْتُوا الْكُهَّانَ». قَالَ: قُلْتُ: كُنَّا نَتَطَيَّرُ. قَالَ: «ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُهُ أَحَدُكُمْ فِي نَفْسِهِ فَلا يَصُدَّنَّكُمْ»



شكل (138)

صورة لأحد المنجمين يقرأ طوالع النجوم

وحَدَّثَنِي مُحَمَّد بْنُ رَافِع حَدَّثَنِي حُجَيْنٌ - يَعْنِي ابْنَ المثنى، حَدَّثَنَا اللَّيْثُ، عن عُقَيْلٍ. وحَدَّثَنَا إِسْحق بْنُ إِبْرَاهِيمَ وَعَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ قَالا: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ. وحَدَّثنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا شَبَابَةُ بْنُ سَوَّارٍ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ وحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، أَخْبَرَنَا إِسْحَقُ بْنُ عِيسَى، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ - كُلُّهُمْ عن الزُّهْرِيِّ بِهَذَا الإِسْنَادِ مِثْلَ مَعْنَى حَدِيثِ يُونُسَ، غَيْرَ أَنَّ مَالِكًا فِي حَدِيثِهِ ذَكَرَ الطِّيَرَةَ وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ الْكُهَّانِ.

وحَدَّثنا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ قَالا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ عُلَيَّةَ، عن حَجَّاجٍ الصَّوَّافِ. وحَدَّثَنَا إِسْحَقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، أَخْبَرَنَا عِيسَى بْنُ يُونُسَ، حَدَّثَنَا الأَوْزَاعِيُّ كِلاهُمَا عن يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عن هِلالِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، عن عَطَاءِ ابْنِ يَسَارٍ، عن مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ، عن النَّبِيِّ ﷺ بِمَعْنَى حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ عن أَبِي سَلَمَةَ عن مُعَاوِيَةَ، وَزَادَ فِي حَدِيثِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ قَالَ: قُلْتُ: وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ. قَالَ: «كَانَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ». سنن أبي داود (حديث رقم: 3909، باب في الخط وزجر الطير).

- وروى مسلم أيضًا عن عائشة رضي الله عنها في صحيحه، (حديث رقم: 2228، كتاب السلام).

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ، أَخْبَرَنَا عَبدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عن الزُّهْرِيِّ، عن يَحْيَى بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عن أَبِيهِ، عن عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ الْكُهَّانَ كَانُوا يُحَدِّثُونَنَا بِالشَّيْءِ فَنَجِدُهُ حَقًّا. قَالَ: «تِلْكَ الْكَلِمَةُ الحقُّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيَقْذِفُهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ وَيَزِيدُ فِيهَا مِائَةَ كذبةٍ».

■ وعن أم المؤمنين عائشة (رضي الله تبارك وتعالى عنها) قالت:

سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ أُنَاسٌ عن الكهان، فقال: «ليس بشيء». فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحيانًا بشيء فيكون حقًّا؟ فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الْجِنِّيُّ، فَيقرُّها في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة» صحيح البخاري (حديث رقم: 5429، كتاب الطب).

وفي صحيح البخاري (حديث رقم: 3038، كتاب الأنبياء):

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنَا اللَّيْثُ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ، عن مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّها سَمِعَتْ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الْمَلائِكَةَ تَنْزِلُ في الْعَنَانِ - وَهُوَ السَّحَابُ - فَتَذْكُرُ الأمْرَ قُضِيَ في السَّمَاءِ، فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إلى الكُهَّان فَيكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ».

■ حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عن الْمُغِيرَةِ، عن إِبْرَاهِيمَ، عن عَلْقَمَةَ، قَالَ: قَدِمْتُ الشَّأْمَ فَقُلْتُ: من هَا هُنَا؟ قَالُوا: أَبُو الدَّرْدَاءِ. قَالَ: أَفِيكُمْ الَّذِي أَجَارَهُ الله مِنْ الشَّيْطَانِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ؟ حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عن مُغِيرَةَ - وَقَالَ الَّذِي أَجَارَهُ الله عَلى لِسَانِ نَبِيِّه ﷺ يَعْنِي عَمَّارًا - قَالَ: وَقَالَ اللَّيْثُ حَدَّثَنِي خَالِدُ بْنُ يَزِيد، عن سَعِيدِ بْنِ أَبِي هِلالٍ أَنَّ أَبَا السَّوْدِ أَخْبَرَهُ عن عُرْوَةَ، عن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنهَا عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الملائكةُ تَتحدَّثُ في الْعَنانِ (وَالْعَنَانُ: الْغَمَامُ) بالأَمْرِ يَكُونُ في الأَرْضِ فَتَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ الْكَلِمَةَ فتقرُّهَا في أُذُن الْكَاهِن كَمَا تُقَرُّ الْقَارُورَةُ فَيَزِيدُون مَعَهَا مِائَةَ كَذِبَةٍ». صحيح البخاري (حديث رقم: 3114).

■ وفي رواية للبخاري عن السيدة عائشة (رضي الله عنها) أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضِيَ في السماءِ فتسترقُ الشياطينُ السمعَ فتسمعه، فتوحيه إلى الكهان فيكذبون مَعها مِائَةَ كَذِبَةٍ من عند أنفسهم». صحيح البخاري (حديث رقم 2971، كتاب بدء الخلق).

وهذا كله يأتي انطلاقًا من قول الحق (تبارك وتعالى):

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: 6 - 9].

وتأتي المعارف الحديثة كلها متطابقة مع كلام الله (سبحانه وتعالى) ومع أحاديث رسول الله ﷺ فتثبت أن كلاً من العيافة، و الطيرة، والطرق والكهانة والتنجيم وقراءة الطالع خرافات لا أساس لها من الصحة، وأن الخط إذا كان بعيدًا عن كلام الله تعالى، وعن هدي رسوله ﷺ هو أيضًا من الخرافات التي لا يلجأ إليها إلا أصحاب النفوس المريضة، والأفهام السقيمة، وللتدليل على ذلك نعرض لعملية التنجيم، وهي الادعاء الباطل بأن للأبراج السماوية التي يولد في ظلها الإنسان تأثيرًا على شخصيته وسلوكه، وهو ادعاء لا أساس له من الصحة، أولاً للمسافات الشاسعة الفاصلة بيننا وبين النجوم المكونة لبرج من تلك الأبراج، وثانيًا لأن تلك النجوم تبدو لنا من فوق سطح الأرض كتكوين واحد يوحي بهيئة محددة وهي في الحقيقة قد يكون كل نجم منها منطويًا في تجمع مختلف من المجرات أو التجمعات المجرية المتباعدة، وثالثًا لأن هذه المسافات الشاسعة التي تفصل بيننا وبين تلك النجوم تضعف من تأثيرها على الأرض ككل، فضلاً عن طفل منزو في لفافته، في غرفة من غرف أحد البيوت المتناثرة في ركن من أركان الأرض!!!

ولطالما استخدمت هذه المجالات الغيبية عبر تاريخ البشرية في ابتزاز البسطاء السذج والجهلة من البشر وإدخالهم في دهاليز من الظلمة والحيرة والضلال... ومن هنا كان تحذير المصطفى ﷺ من كل ذلك، خاصة أن شياطين الإنس والجن لم يتوقفوا لحظة عن تطوير محاولاتهم لإرهاق البسطاء من الناس بأنماط متجددة من تلك الضلالات التي تنشر في كافة وسائل الإعلام المعاصر من قراءة للطالع، للتنبؤ بالمستقبل وقراءة لكلّ من الكف والفنجان، وفتح ورق اللعب، وتنويم مغناطيسي، وادعاء بمعرفة الهندسة الداخلية للنفس الإنسانية، وبالقدرة على إعادة برمجتها، إلى غير ذلك من الأمور الغيبية التي نهانا رسولنا ﷺ عن الخوض فيها من قبل ألف وأربعمائة من السنين مما يؤكد على وصف القرآن الكريم له بالخلق العظيم، وبأنه لا ينطق عن الهوى.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: 3، 4].

الحديث الحادي والستون

«لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»



شكل (139)
صورة لأحد المصابين بمرض الإيدز

61 «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»

هذا الحديث الشريف رواه ابن ماجه في سننه (حديث رقم: 4019، كتاب: الفتن) على النحو التالي:

■ حَدَّثَنَا مَحْمُودُ بْنُ خَالِدٍ الدِّمَشْقِيُّ، حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَبُو أَيُّوبَ، عن ابْنِ أَبِي مَالِكٍ، عن أَبِيه، عن عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عن عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِالله أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ في أَسْلافِهِم الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ والمِيزَانَ إلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ المئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَان عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ الله وَعَهْدَ رَسُولِهِ إلا سَلَّطَ الله عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا في أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ الله وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ الله إلا جَعَلَ الله بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»

شرح الحديث

الفاحشة: هي الكبيرة من المنكرات القبيحة، المتناهية في القبح من مثل الزنا واللواط وغير ذلك من السلوكيات الشاذة المنافية للفطرة السليمة، والمتعلقة بسوء استخدام الجسد الإنساني وهو أمانة من الله (تعالى) لكل فرد منا، حتى يسترد الله أمانته.

والجسد الإنساني له كرامة مستمدة من كرامة الإنسان الذي قال فيه ربنا (تبارك وتعالى):

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

ومن هنا كان تكريم جسد الإنسان حيًّا وميتًا، وكان التشديد في الأمر بالمحافظة عليه والنهي عن الإساءة إليه بسوء استخدامه أو إهانته وإهدار كرامته؛ لأن في إهدار كرامة الجسد قضاء على كرامة صاحبه – وهو موقف يتنافى تمامًا مع مقام التكريم الذي رفع الله (تعالى) إليه الإنسان.

من هنا كان تحذير القرآن الكريم من مجرد الاقتراب من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وكانت أحاديث رسولنا ﷺ ومنها الحديث الذي نحن بصدده، وقد جاء يدق أجراس الخطر من إشاعة الفاحشة في المجتمعات إلى حد الإعلان بها، وما يستوجبه ذلك من عقاب الله العاجل بالأمراض والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم .. ولقد صدَّقت الأحداث نبوءة المصطفى ﷺ.

فبعد أن استباحت الحركة الصهيونية العالمية نشر الفواحش في المجتمعات الإنسانية من أجل تدميرها، والهيمنة عليها ابتداءً بالزنا، واللواط، ونكاح المحرمات، مرورًا بالخمر والميسر والمخدرات، وانتهاءً بالتشريع للشذوذ الجنسي بمختلف صوره الشنيعة؛ فيصر كل مجلس من المجالس التشريعية (مثل مجلس العموم البريطاني والكونجرس الأمريكي والعديد من المجالس الأوربية) وقادة الكنيسة الغربية على الإقرار بحق الشواذ في ممارسة أفعالهم الفاحشة والمنافية للفطرة بحماية القانون، دون أن ينتقص ذلك من حقوقهم شيئًا إلى حد أن يرث بعضهم بعضًا بحق الفاحشة الممارسة بينهم، وأن ينالوا كل ما تناله الأسرة العادية من حقوق، ورعاية، وحماية من الدولة وتشريعاتها وقوانينها، بل يجدون من علماء النفس والطب النفسي والوراثة ما يبرر لهم فواحشهم! فأصبحوا اليوم يعلنون عن أنفسهم، ويخرجون بأعداد كبيرة في مسيرات ومظاهرات مهينة لكرامة الإنسان، وجارحة لأنظار المشاهدين، في غير حياء ولا خجل، بل بتباهٍ بالفحش الفاضح!

وقد شجعت المجاهرة بالفحش مزيدًا من الأفراد على الانضمام إلى ركبهم الشيطاني، وفيهم الوزراء، والمديرون، والأطباء، والمهندسون وأساتذة الجامعات،

والمدرسون ورؤساء المعابد اليهودية والكنائس المسيحية[1] وغيرهم من القيادات السياسية والاجتماعية والدينية والتعليمية والعلمية، وأصبحت لهم الأجهزة الإعلامية التي تدافع عن انحرافاتهم، وتشرع لشذوذهم، وتطالب لهم بمزيد من الحقوق، وتحارب كل من ينتقد أعمالهم المشينة، أو يحاول إصلاحهم، وإخراجهم من الوحل الذي يعيشون فيه، وأصبحت لهم جمعياتهم، وروابطهم، ونواديهم، ومحافلهم التي يعلنون عنها بلا خجل!! والتي تجمع هؤلاء الملوثين، الدنسين القذرين من شياطين الإنس، الذين خالفوا الفطرة التي فطرهم الله (تعالى) عليها فانحطوا بأنفسهم إلى ما هو أدنى من مستوى الحيوانية التي تعفّ عن انحطاطاتهم، فعاقبهم الله (تعالى) بأمراض نقص المناعة المكتسبة من مثل مرض الإيدز – وهو لم يكن معروفًا من قبل بين أفراد البشر – كما أهلك قوم لوط من قبل بعقاب لم يعرفه سابقوهم.

ومن أمراض نقص المناعة المكتسبة مرض الإيدز، والإيبولا وغيرهما، ومرض الإيدز الذي يعرف باسم «سرطان الشواذ» أو باسم «طاعون القرن العشرين» – [AIDS of Acquired Immuno-Deficiency Syndrome] هو مرض جديد على الإنسان، بمعنى أنه لم يصب به إنسان من قبل حيث إنه يتسبب عن واحد من الفيروسات غير المعروفة، ولكنه يشبه في هيئته عددًا من الفيروسات المعروفة بإصابتها للحيوانات فقط وليس الإنسان، وإن كانت غير متطابقة معها وراثيًّا، وعلى ذلك فإن إصابة الإنسان بهذا المرض اللعين في زمن الفوضى الجنسية التي يعيشها الناس اليوم تؤكد أن انتشار هذا الفيروس الجديد هو عقاب من الله (تعالى)، فقد بدأ هذا الفيروس في اجتياح عالم الرذيلة في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1978م، وفي خلال ثلاث سنوات؛ أي إلى مطلع عام 1981م كان عدد المصابين المعروفين بهذا المرض في حدود العشرات، وقد تعدى عددهم الآن عشرات الملايين في المجتمعات الإباحية بجميع دول العالم، وفي مقدمتها

---

(1) هناك كنائس عديدة في الولايات المتحدة الأمريكية للشواذ تحمل عناوين مقززة من مثل:
- Christ Church for Homosexuals.
- Christ Church for Lesbians.

دول الغرب التي تدعي أنها دول متقدمة ومتحضرة، ودول وسط وجنوب إفريقيا المتخلفة، وسبب ذلك الانحلال في الحالتين هو البعد عن الدين الصحيح.

فقد وصل عدد المصابين بأمراض نقص المناعة في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها إلى أكثر من عشرة ملايين، وفي أستراليا إلى أكثر من المليون.

وفيروس الإيدز هو أحد أفراد مجموعة فيروسات الحمى الراشحة، وهو فيروس يختزن في جسم المصاب به مدى الحياة، ويتتبع كريات الدم البيضاء المدافعة عن جسم الإنسان فيدمرها الواحدة تلو الأخرى حتى يفقد هذ الجسم أهم وسائل الدفاع الطبيعية، ويبقيه عاجزًا كل العجز عن الدفاع عن نفسه، وعرضةً للإصابة بأنواع عديدة من الأمراض الخبيثة حتى يقضى عليه بالموت بعد معاناة وآلام مبرحة لفترات قد تطول أو تقصر، وذلك لانهيار جهاز المناعة في الجسم بالكامل، وهو جهاز الدفاع الرئيسي في الجسم السليم.

هذا بالإضافة إلى الأمراض الجنسية الملازمة لممارسة الفاحشة وهي أيضًا أمراض مصاحبة بآلام مبرحة للغاية، ولم تتمكن شركات الأدوية بعد من اكتشاف عقاقير يمكنها القضاء على فيروس الإيدز، وكل ما أمكنها إنتاجه هو عدد من المسكنات لبعض أعراض المرض المؤلمة جدًّا، وهذه المسكنات مقززة في شكلها ومظهرها ومذاقها.

وصدق رسول الله ﷺ حين قال قولته الشريفة: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا».

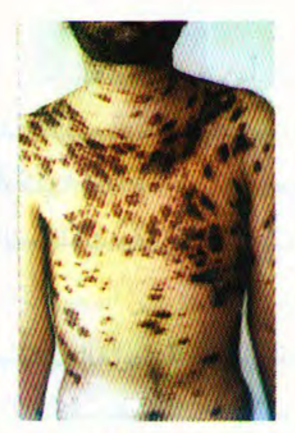
ويأتي العلم التجريبي، وتأتي الأحداث، لتؤكد صدق هذا الحديث النبوي الشريف الذي نطق به المصطفى (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) من قبل ألف وأربعمائة سنة، والبشرية لم تدرك حقيقة ذلك إلا في العقدين الأخيرين من القرن العشرين – وهذا من الأدلة القاطعة على صدق نبوة هذا النبي الخاتم والرسول الخاتم، الذي كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض. فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى من تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32].

وإذ يقول:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: 80 – 84].



شكل (140)



شكل (141)

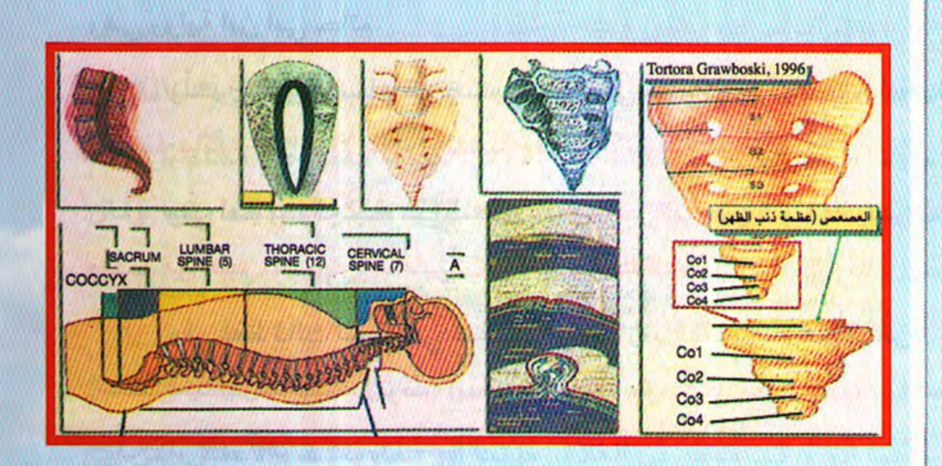
صورتان لبعض التشوهات الجسدية التي يتعرض لها المصابون بالأمراض الجنسية نتيجة الزنا أو الشذوذ

الفصل الثامن

من أحاديث
الموت والبعث

الحديث الثاني والستون

«كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عَجْب الذَّنَب، منه خلق، وفيـــه يركـــب»



شكل (142)

رسوم وصور مختلفة لعجب الذنب

62 «كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عَجْب الذَّنَب، منه خُلق، وفيه يُركب»

في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة جاء ذكر «عَجْب الذَّنَب» على أنه الأصل الذي يخلق منه جسم الإنسان عند تكوين الجنين، والذي يبقى بعد وفاته، وفناء جسده ليبعث منه من جديد. وقد أكد المصطفى ﷺ أن جسد الإنسان يبلى كله فيما عدا «عجب الذنب»، فإذا أراد الله (تعالى) بعث الناس أنزل ماءً خاصًا من السماء فينبت كل فرد من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها.

■ ومن هذه الأحاديث العديدة: روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قوله:

(1) «كل ابن آدم تأكل الأرض إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب». (أبو داود في سننه (حديث رقم 4743)، أحمد في مسنده (ج2)، مالك في الموطأ (ج1/239).

(2) وفي رواية لأبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «يأكل التراب كل شيء من الإنسان إلا عَجْب ذنبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه تنشئون». المستدرك على الصحيحين (حديث رقم: 8801) وهي رواية ابن أبي حاتم.

(3) وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة نصًا مثله، جاء فيه: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب، منه خلق، وفيه يركب».

(4) وفي لفظ آخر له جاء هذا النص: «وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظمًا واحدًا هو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

(5) وفي لفظ ثالث لمسلم في صحيحه (حديث رقم: 2955) جاء هذا النص: «إن في الإنسان عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا، فيه يركب يوم القيامة»، قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: «عجب الذنب».

(6) وفي لفظ رابع لمسلم في صحيحه (حديث رقم: 2955) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين النفختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة أربعون

يومًـا؟ قـال: أبيتُ. قـالوا: أربعون شهرًا؟ قـال: أبيـتُ، قـالوا: أربعون سنة؟ قـال: أبيتُ. قــال: «ثم ينــزل الله من السماء ماء فينبتون، كما ينبت البقل». قـال: «وليس من الإنســاء شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة».

ومعنى «أبيت» في كلام أبى هريرة هو: أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا، أو شهرًا، أو سنة، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت أربعون سنة مفصلة في قول للنووي (رحمه الله).

فقد روى الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2955، كتاب الفتن وأشراط الساعة) قال:

■ وحَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا المغيرَةُ يَعْنِي الْحِزَامِيَّ، عن أَبِي الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أبي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يأْكُلُهُ التُّرَابُ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

وروى الإمام النسائي في سننه (حديث رقم: 2077، كتاب الجنائز) قال:

■ أَخْبَرَنَا قُتَيْبَةُ عن مَالِكٍ، وَمُغِيرةُ عن أَبِي الزِّنَادِ عن الأَعْرَجِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ – وَفِي حَدِيثِ مُغِيرَةَ: كُلُّ ابْنِ آدَمَ – يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إلا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

وأضاف الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2955، كتاب الفتن وأشراط الساعة):

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَن هَمَّام بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَذَا ما حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَن رَسُولِ الله ﷺ. فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ: قال رَسُولُ الله ﷺ: «إنَّ في الإنْسَانِ عَظْمًا لا تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أَبَدًا فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالُوا: أَيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «عَجْبُ الذَّنَبِ».

وأضاف في صحيحه (حديث رقم 2955، باب ما بين النفختين، كتاب الفتن وأشراط الساعة):

■ حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ، حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، عن الأَعْمَشِ، عن أَبِي صَالِحٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبعُون» – قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَال: أَبَيْتُ. قَالُوا: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ. قَالُوا:

أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ - «ثُمَّ يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، قَالَ: وَلَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلا يَبْلَى إِلا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

كذلك روى الإمام أبو داود في سننه (حديث رقم: 4743، كتاب السنة) فقال:

■ حَدَّثَنَا الْقَعْنَبِيُّ، عن مَالِكٍ، عن أَبِي الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُ الأَرْضُ إِلا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

وذكر كذلك:

■ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ حَفْصٍ، أَخْبَرَنَا وَرْقَاءُ، عن أَبِي الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ إِلا عَجْبَ الذَّنَبِ فَإِنَّهُ مِنْهُ خُلِقَ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ».

وقال أيضًا:

■ حَدَّثَنَا يَحْيَى عن ابْنِ عَجْلانَ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو الزِّنَادِ عن الأَعْرَجِ عن أَبِي هُرَيْرَةَ عن النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى وَيَأْكُلُهُ التُّرَابُ إِلا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ». مسند أحمد (حديث رقم: 9524).

وقال أيضًا:

■ حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ مُجَمِّعٍ أَبُو الْمُنْذِرِ الْكِنْدِيُّ، حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ الْهَجَرِيُّ، عن أَبِي عِيَاضٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَبْلَى كُلُّ عَظْمٍ مِنَ ابْنِ آدَمَ إِلا عَجْبَ الذَّنَبِ وَفِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». مسند أحمد (حديث رقم: 10482).

وروى الإمام مالك في الموطأ (ج1/ 567، كتاب الجنائز) قال:

■ وَحَدَّثَنِي عن مَالِك، عن أَبِي الزِّنَادِ، عن الأَعْرَجِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ إِلا عَجْبَ الذَّنَبِ مِنْهُ خُلِقَ وَفِيهِ يُرَكَّبُ».

وروى الإمام البخاري في صحيحه (كتاب تفسير القرآن) قال:

■ حَدَّثَنِي مُحمَّدٌ، أَخْبَرَنَا أَبُو مُعَاوِيةَ، عن الأَعْمَشِ، عن أَبِي صَالِحٍ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَال رَسُولُ الله ﷺ: «مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» - قَال: أَرْبَعُون يَوْمًا؟ قَال: أَبَيْتُ. قَال: أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَال: أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَال أَبَيْتُ. قَال: «ثُمَّ يُنْزِلُ الله مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ لَيْسَ مِنَ الإِنْسَانِ شَيْءٌ إلا يَبْلَى، إلا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنَبِ وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». صحيح البخاري (حديث رقم: 4651، باب يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجًا زمرًا).

شرح الحديث

وهذه الأحاديث النبوية الشريفة تحتوي على حقيقة علمية لم تتوصل العلوم المكتسبة إلى معرفتها إلا منذ سنوات قليلة، حين أثبت المتخصصون في علم الأجنة - كما أشار الأخ الدكتور/ محمد علي البار (في بحث مستفيض) - أن جسد الإنسان ينشأ من شريط دقيق للغاية يسمى باسم «الشريط الأولى أو الابتدائي» الذي يتخلق بقدرة الخالق (سبحانه وتعالى) في اليوم الخامس عشر من تلقيح البويضة وانغراسها في جدار الرحم، وإثر ظهوره يتشكل الجنين بطبقاته الثلاث التي يتخلق من كل منها كل أعضاء الجسم وأولها الجهاز العصبي وبدايات تكون العمود الفقري؛ لأن هذا الشريط الدقيق قد أعطاه الله (تعالى) القدرة على تحفيز الخلايا للانقسام، والتخصص، والتمايز، والتجمع في أنسجة متخصصة، وأعضاء متكاملة تتعاون على القيام بجميع وظائف الجسد.

وثبت أن هذا الشريط الأولي يتراجع حتى يندفن في أصل العُصْعُصْ في نهاية العمود الفقري، وهو المقصود بعَجْبِ الذنب في أحاديث رسول الله ﷺ (وجمعه: أعجاب).

وإذا مات الإنسان يبلى جسده كله إلا «عجب الذنب» الذي تذكر أحاديث رسول الله ﷺ أن الإنسان يعاد خلقه منه، بنزول مطر خاص من السماء، ينزله ربنا (تبارك وتعالى) وقت أن يشاء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه، كما تنبت النبتة من بذرتها.

وواضح أن بلى الأجساد حكم عام يستثنى منه أجساد كل من الأنبياء والشهداء وكل مؤذن محتسب كما ذكر ابن حجر انطلاقًا من أحاديث رسول الله ﷺ.

«منــه خلـــق»:

لقد أوضح علم الأجنة في العقود المتأخرة من القرن العشرين أن خلق الجنين يبدأ بالنطفة الأمشاج «أي المختلطة من مني الزوج وبويضة الزوجة» وتسمى النطفة المختلطة (الأمشاج) باسم اللقيحة Zygote التي تبدأ في الانقسامات المتضاعفة حتى تصبح مثل التوتة الصغيرة وتعرف بالفعل باسم التويتة Morula، ثم بعد ذلك تأخذ شكل الكرة، ويصير لها جوف محتوٍ على سائل خاص، ولذا تعرف باسم الكرة الجرثومية Blastula التي تبدأ بالانغراس في جدار الرحم في اليوم السادس أو السابع من بدء عملية التلقيح لتتعلق به «العلقة»وتتغذى على ما يتوافر لها في جدار الرحم من دماء وإفرازات، وتتمايز إلى طبقتين من الخلايا؛ خارجية تقوم بقضم جدار الرحم وتثبيت الكرة الجرثومية فيه؛ وداخلية يتكون منها الجنين بمشيئة الله، وهذه الطبقة الداخلية تنقسم بدورها إلى طبقتين: خارجية وداخلية، وتظهر الطبقة الأخيرة في اليوم الثامن من التلقيح.

وفي اليوم الخامس عشر من عمر الجنين يظهر في أحد أطراف الطبقة العلوية خيط دقيق يحدد مؤخرة الجنين من مقدمته، وهذا الخيط يعرف باسم الخيط البدائي أو الأولي The Primary or Primitive Streak وهذا الخيط له بداية صغيرة جدًا ومنتفخة قليلاً في وسط قرص الجنين تعرف باسم العقدة البدائية أو الأولية The Primitive or Primary Node ومنذ لحظة ظهوره يبدأ الشريط الأولي في الانقسام والتكاثر بسرعة فائقة، وتهاجر خلاياه الجديدة؛ لتكوين طبقة متوسطة بين الطبقتين الخارجية و الداخلية.

ومن الشريط الأولي يتكون الجهاز العصبي للجنين على هيئة بدايات الحبل الظهري وسالفة العمود الفقري، ثم يبدأ الجنين في تكوين جميع أعضاء جسمه بالتدريج من طبقاته الثلاث: الخارجية والوسطى والداخلية، ومن كل واحدة منها عدد من أعضاء الجسم بخلاياه وأنسجته المتخصصة في عملية تعرف باسم عملية تكون المُعَيْدَات «تصغير معدة» أو Gastrulation، وأول هذه الأجهزة تكونًا هو «محور الرأس - العصعص» الذي يتكون فيه بدايات الجهاز العصبي المركزي بما في ذلك بدايات المخ، والجمجمة والحبل العصبي الظهري والعمود الفقري،

وبذلك تتكون جميع أجهزة جسم الجنين من الخيط والعقدة البدائيين. وتصدق نبوءة المصطفى ﷺ في قوله الشريف عن عجب الذنب: «منه خلق»، وبعد تمام تكون جميع أجهزة الجنين يتراجع الخيط والعقدة البدائيان «الأوليان» بالتدريج إلى مؤخرة جسم الجنين الكامل حتى يستقرا في نهاية العمود الفقري في منطقة العصعص حيث يبقيان على هيئة جنين كامن «مثل جنين بذرة النبات» يعاد تركيب جسم الإنسان منه في يوم البعث بإنزال مطر خاص من السماء كما أخبر بذلك خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ.

ومن الثابت أنه إذا لم يتكون الشريط الابتدائي في الطبقة الخارجية من جسم الجنين البالغ أسبوعين من العمر فإن أعضاء جسمه لا تتكون وهذا مما يُصدِّق قول رسول الله ﷺ: «منه خلق»، وذلك يتم في الخطوات التالية:

1- يمتد الحبل الظهري من العقدة البدائية إلى جهة الرأس.

2- تخلق بدايات الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية للجنين في نهاية الأسبوع الثالث من عمر الجنين على هيئة الصفيحة العصبية Neural Plate التي تمتد من جهة الرأس إلى الشريط الأولي، وتستطيل هذه الصفيحة وتنثني مكونة ما يعرف بالثنيات العصبية Neural Folds التي تكوِّن المنخفضات منها ما يعرف باسم الميزاب العصبي Neural Groove الذي سرعان ما يلتف ليقفل مكونًا ما يعرف باسم الأنبوبة العصبية Neural Tube، تقفل الفتحة الأمامية لها في اليوم الخامس والعشرين، وتقفل الفتحة الخلفية بعد ذلك بيومين «أي في اليوم السابع والعشرين من عمر الجنين»، وبقفل الأنبوب العصبي يتشكل مخ الجنين من الجزء الأمامي من هذا الأنبوب، بينما يشكل الجزء الخلفي منه النخاع الشوكي.

وعلى ذلك يتكون المخ من الثلثين العلويين للأنبوب العصبي، بينما يتكون النخاع الشوكي من ثلثه الأخير، وتكون الكتل البدنية الأربع الأولى جزءًا من قاع الجمجمة.

3- تتكثف الطبقة الوسطى من جسم الجنين حول محور الرأس – العصعص للجنين مكونة الكتل البدنية Somites، التي يتشكل منها كل من العمود الفقري وبقية الهيكل العظمي والعضلات، كما يخرج منها بدايات الأطراف العليا والسفلى.

ومن ذلك يتضح بجلاء أن مرحلة تكوُّن الأعضاء لا تبدأ إلا بعد تكوُّن الشريط الأولي (في نهاية الأسبوع الثاني من عمر الجنين)، ويتبعه تكون الميزاب العصبي والكتل البدنية، وذلك يستغرق إلى بداية الأسبوع الرابع، ويبدأ التعضي من الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع الثامن حيث يكون الجنين قد استكمل جميع أجهزته الأساسية، ولم يبق له إلا بعض التفصيلات الدقيقة والنمو، وبنهاية الأسبوع الرابع يبدأ الشريط الأولي في التراجع إلى نهاية العمود الفقري «العصعص» في انتظار لحظة البعث.

«وفيه يُرَكَّبُ»:

في تجارب مكررة أثبت العالم الألماني هانز سبيمان Hans Spemann ومشاركوه (1931 – 1935م) أن كلاً من الخيط والعقدة البدائيين «الشريط الأولي» هما المسئولان عن تخليق جميع أجهزة الجنين؛ ولذلك سموهما باسم المنظم الأولي أو الأساسي The Primary Organizer وتأكدوا من ذلك بقطع هذا المنظم الأولي «عجب الذنب» من عدد من البرمائيات، وبزرعه في أجنة أخرى نما على هيئة جنين ثانوي في داخل الجنين المضيف.

كذلك قام هذا الفريق من العلماء بسحق المنظم الأولي ويغليه في درجات حرارة مرتفعة ولفترات طويلة، ثم زرع كل من عجب الذنب المسحوق والمغلي في أجنة أخرى فنما وكوَّن محورًا جنينيًا ثانويًا رغم سحقه وغليه مما أكد لهم أن خلايا هذا المنظم الأولي «عجب الذنب» لا تفنى أبدًا بالسحق ولا بالغلي. وقد منح سبيمان جائزة نوبل سنة 1935م على اكتشافاته العلمية المثيرة وهو لا يعلم بحديث رسول الله ﷺ.

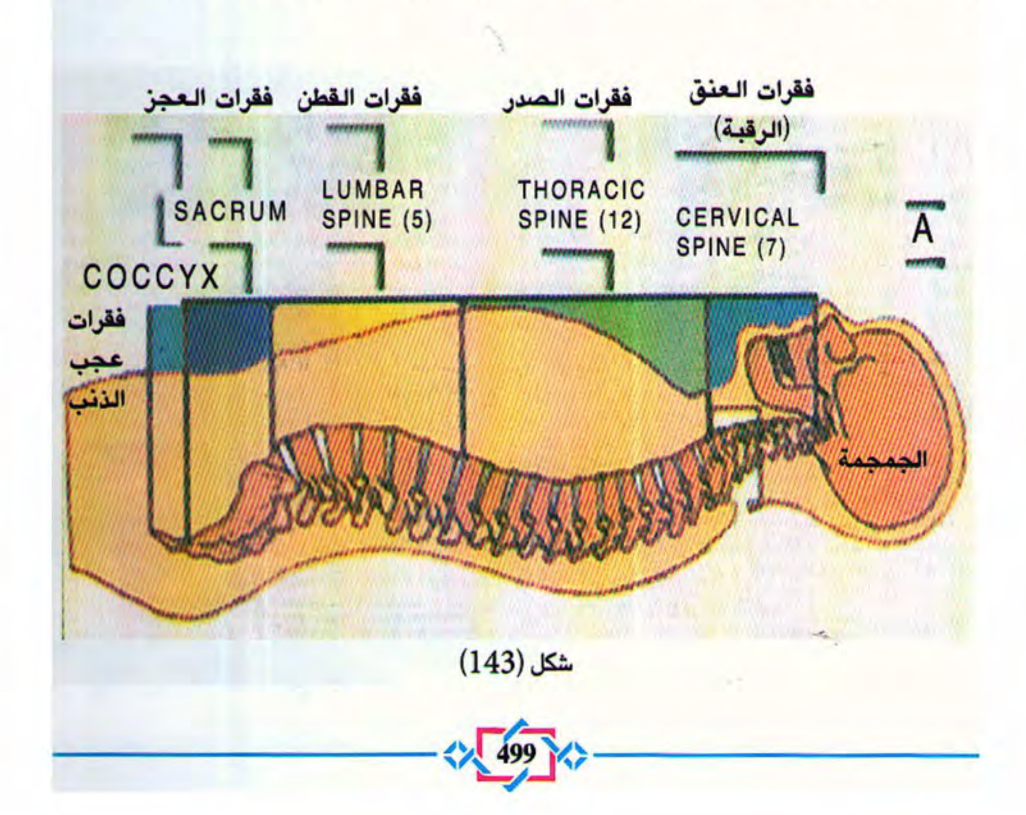
وفي رمضان 1424هـ (2003م) قام الدكتور عثمان جيلان ومعاونوه بتجربة مماثلة في اليمن أحرقوا فيها خمسة من عصاعص الأغنام باستخدام مسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى تفحمت واحمرت من شدة الحرارة، ثم بدراستها تبين أن خلاياها لم تتأثر بالإحراق، وبقيت حية تصديقًا لنبوءة المصطفى ﷺ أن عجب الذنب هو الأصل الذي ينشأ منه جسم جنين الإنسان، ثم ينحسر على هيئة حبة الخردل في نهاية العمود الفقري للإنسان «نهاية العصعص» التي تبقى بعد أن

يموت ويتحلل جسده، فيبعث منها يوم القيامة بعد إنزال مطر خاص من السماء فينبت منها كما تنبت البقلة من بذرتها، وكذلك كل مخلوق ينبت يوم البعث من عجب ذنبه؛ لأن هذا الجزء الدقيق من كل جسد حي لا يبلى أبدًا، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب».

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مهم مؤداه: لماذا تعرض المصطفى ﷺ لقضية علمية غيبية كهذه في زمن لم يكن لمخلوق علم بها؟

ومن أين جاء هذا النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ بهذا العلم لو لم يكن موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قِبل خالق السماوات والأرض؟

وللإجابة عن ذلك نقول بأن الله (تعالى) يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل في يوم من الأيام إلى معرفة مراحل الجنين، وسوف يستبين دور «الشريط الأولي» الذي من بقاياه «عجب الذنب» في تخليق جسد الجنين، فألهم خاتم أنبيائه ورسله النطق بهذه الحقيقة ليبقى فيها من الشهادات على صدق نبوته، وصدق رسالته، وصدق تلقيه عن الخالق (سبحانه وتعالى) ما يبقى دائمًا لكل زمان ولكل



شكل (143)

عصر، ولما كان زماننا قد تميز بقدر من الكشوف العلمية، والتطورات التقنية التي لم تتوافر – فيما نعلم – لزمن من الأزمنة السابقة، فإن مثل هذه الإشارات العلمية في كل من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ تبقى لغة العصر وخطابه، وأسلوب الدعوة إلى دين الله الخاتم الذي لا يرتضي من عباده دينًا سواه، فلا يمكن لعاقل أن يتصور مصدرًا لهذه الحقيقة العلمية من قبل ألف وأربعمائة سنة غير وحي صادق من الله الخالق!! فسبحان الذي خلق فأبدع، وعلم فعلَّم، وأوحى إلى خاتم أنبيائه ورسله بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الحديث الثالث والستون

البعث من عجب الذنب



شكل (144)

63 البعث من عجب الذنب

■ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما بين النفختين أربعُون.. ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل.. ليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة». (أخرجه البخاري، ح4935).

شرح الحديث

هذا الحديث النبوي الشريف جاء مذكرة تفسيرية لقول ربنا – تبارك وتعالى –:
﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: 17، 18].

وفي هاتين الآيتين الكريمتين:

يشبِّه القرآن الكريم عملية خلق الإنسان بإنبات الأرض، ويشبِّه عملية بعثه منها بإعادة الإنبات دفعة واحدة لأن الخلق جميعًا سوف يبعثون في لحظة واحدة بمجرد النفخة الثانية في الصور.

ويصف ربنا (تبارك وتعالى) خلق الإنسان في المراحل التالية:

1- أنه سبحانه وتعالى خلقه من تراب (آل عمران : 30، الكهف: 37، الحج: 5، الروم: 20، فاطر: 11، غافر: 67).

2- وأن خلقه كان من طين – وهو التراب المعجون بالماء – (الأنعام: 2، الأعراف: 12، السجدة: 7، ص: 71 – 76، الإسراء: 61).

3- ومن سلالة من طين – أي الخلاصة المنتزعة من الطين برفق – (المؤمنون: 12).

4- ومن طين لازب – أي لاصق بعضه ببعض – (الصافات: 11).

5- ومن صلصال من حمأٍ مسنون – أي أسود منتن – (الحجر: 26، 28، 33).

6- ومن صلصال كالفخار (الرحمن: 14).

7- ومن الأرض (هود: 61، طه: 55، النجم: 32، نوح: 17، 18).

8- ومن الماء (الفرقان: 54).

9- ومن ماء مهين (المرسلات: 20).

10- ومن ماء دافق (الطارق: 6).

11- ومن سلالة من ماء مهين (السجدة: 8).

وهذه كلها مراحل متتالية في الخلق، المراحل السبع الأولى منها (من تراب، من طين، من سلالة من طين، من طين لازب، من صلصال من حمأ مسنون، ومن صلصال كالفخار، ومن الأرض) تنطبق على خلق أبينا آدم عليه السلام، ومنه خلق الله تعالى أمنا حواء عليها السلام بمعجزة لا تقل عن معجزة خلق آدم من تراب الأرض.

ومنذ خلق هذا الزوج الأول من البشر تسلسل نسلهما إلى يومنا الراهن وسوف يستمر إلى قيام الساعة – إن شاء الله تعالى – بعملية التزاوج التي تحاول المعارف المكتسبة تفسيرها – على ما فيها من غيوب كثيرة – وهذه المراحل تنطبق على جميع بني آدم لأنهم كانوا في صلب أبيهم لحظة خلقه.

ولخص القرآن الكريم هذه المراحل كلها بقول ربنا – تبارك وتعالى –: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: 17، 18]، ولخص رسولنا ﷺ هاتين الآيتين الكريمتين في أحاديث عجب الذنب الكثيرة، وكلها من معجزات القرآن الكريم ومعجزات الأحاديث النبوية الشريفة لأن أحدًا من البشر لم تكن له دراية بتلك الحقائق في زمن الوحي ولا لقرون متطاولة من بعده كما نُفسرها في النقاط التالية:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾:

الخطاب في هذه الآية الكريمة موجه إلى البشر جميعًا الذين تنمو أجسادهم من عناصر الأرض بطريقة غير مباشرة، وذلك بالاغتذاء على المنتجات النباتية، والنباتات أعطاها الله تعالى القدرة على تصنيع غذائها بنفسها عبر امتصاص عدد من عناصر الأرض المذابة في الماء على هيئة العصارة الغذائية، وامتصاص ثاني أكسيد الكربون من الجو، وتحليل تلك المكونات إلى لبناتها الأولية، مع إطلاق غاز الأكسجين إلى الجو، وإعادة تركيب ذرات الكربون والهيدروجين في سلاسل من الكربوهيدرات والزيوت والدهون التي يتغذى عليها كل من الإنسان والحيوان وذلك باستخدام طاقة الشمس.

ويتغذى الإنسان أيضًا على المباحات من الحيوانات ومنتجاتها والتي تزوده أساسًا بالمواد البروتينية والدهنية اللازمة لبناء خلايا جسده وإحلال ما يفنى

منها أو إصلاح ما يتلف. والحيوان يحصل على تلك المواد من عناصر الأرض عبر تغذيته على المنتجات النباتية.

بناء سلاسل الطعام من عناصر الأرض:

أعطى الله – تعالى – النبات القدرة على امتصاص كل من الماء وما يناسبه من عناصر الأرض الذائبة في الماء (العصارة الغذائية) والتي يمتصها النبات من تربة الأرض بواسطة مجموعه الجذري، وتنتقل العصارة الغذائية بما تحمله من ماء وعناصر الأرض المذابة إلى داخل النبتة الخضراء عبر خلايا الأوعية الخشبية التي تمتد متصلة من الجذور إلى كل ورقة من أوراق النبات.

وتحتوي أوراق النباتات على عدد من الأصباغ أهمها الصبغ الأخضر المعروف باسم اليخضور أو (الكلورفيل) الذي أعطاه الله تعالى القدرة على امتصاص أطياف ضوء الشمس فيما عدا الطيف الأخضر الذي يعكسه، واستخدام تلك الأطياف في إتمام عملية التمثيل (التخليق) الضوئي.

ومن النباتات ما يستخدم أصباغًا أخرى بالإضافة إلى اليخضور ولذلك تبدو أوراقها بالألوان الحمراء الأرجوانية، أو النحاسية أو البنية.

وينتشر على أسطح أوراق النباتات (خاصة على السطح السفلى منها) أعداد من المسام الدقيقة (الثغيرات) التي يتم عبرها دخول وخروج الغازات المختلفة من مثل ثاني أكسيد الكربون، والأكسجين، وبخار الماء.

وتقوم الأصباغ النباتية من اليخضور وغيره باحتباس جزء من طاقة الشمس لاستخدامه في إتمام سلسلة من التفاعلات الكيميائية التي يتم من خلالها تفكيك جزيئات الماء إلى مكوناتها الأساسية من الأكسجين الذي يطلقه النبات إلى الجو عبر ثغور أوراقه، والهيدروجين الذي يحتفظ به النبات ليوحده مع جزيئات ثاني أكسيد الكربون التي يمتصها النبات من الجو عبر ثغوره أيضًا، وذلك لتكوين جزيء سكر الجلوكوز، ويطلق الأكسجين.

ويستهلك النبات قسمًا من سكر الجلوكوز الناتج في القيام بأنشطة خلاياه المختلفة، ويحول الباقي إلى أنواع أخرى من السكريات وغيرها من الكربوهيدرات

من مثل النشا، والسيلولوز التي يبني بها خلاياه المختلفة أو يخزنها في ثماره أو حبوبه أو أوراقه أو سوقه أو جذوره كي يأكلها كل من الإنسان والحيوان.

وقد أعطى الله – سبحانه وتعالى – كل نبتة من النبات القدرة على اختيار ما يناسبها من عناصر الأرض المختلفة، وعلى إفراز ما يذيب تلك العناصر إن لم تكن قابلة للذوبان في الماء بطريقة مباشرة، وعلى امتصاص هذه العصارة الغذائية الخاصة بواسطة مجموعها الجذري وضخها إلى مختلف أوراق النبات بواسطة كل من الضغط الجذري، وعمليات النتح والضغوط التناضحية (الأسموزية) الناتجة عن التباين في تركيز المحاليل المختلفة في داخل مختلف أوعية النبات.

والماء الذي يتحرك مع العصارة الغذائية من جذور النبتة إلى سوقها وأغصانها وأوراقها وزهورها وثمارها إلى أعلى قمة فيها يتبخر جزء منه إلى الهواء بواسطة عملية النتح، وتفقد كل واحدة من الأشجار الكبيرة قرابة ألف لتر من الماء يوميًا عبر ثغرات أوراقها بواسطة عملية النتح التي تعمل كقوة سحب للعصارة الغذائية حتى أعلى قمة في الشجرة.

ويعد إنضاج العصارة الغذائية إلى مختلف أنواع الكربوهيدرات والزيوت والدهون في أوراق النبات يعاد ضخ هذه المنتجات الناضجة إلى مختلف أجزاء النبات من القمة إلى الجذور خاصة إلى البراعم والثمار، عبر نظام من الأوعية الأنبوبية المختلفة التي تؤلفها خلايا اللحاء الداخلي، في اتجاه معاكس لاتجاه صعود العصارة الغذائية.

وفي بعض النباتات اللاطئة بالأرض لقصر سيقانها تفوق معدلات ضخ الماء والعصارة الغذائية من أسفل إلى أعلى معدلات فقد الماء بالبخر عبر ثغور أوراق النبات بواسطة عملية النتح فتتكون قطرات من الماء حول أطراف الورقة في ظاهرة تعرف باسم ظاهرة الإدماع (أو النضح) النباتي يفقد بواسطتها النبات قدرًا من الماء الزائد على حاجته.

والهدف من هذه العمليات كلها هو تحويل جزء من عناصر الأرض إلى غذاء مناسب للنبات ينمو به، وينمي مختلف خلاياه، ويختزن الباقي في ثماره وحبوبه

على هيئة مخزون من الكربوهيدرات والزيوت والدهون تتغذى عليها أجنته حتى تظهر أوراقها بعد إنباتها، أو يتغذى عليها كل من الإنسان والحيوان.

وكل كائن حي يحتاج إلى المغذيات وهي من المواد الأولية المستمدة أصلاً من عناصر الأرض، ووسيلته في ذلك التغذية، وكل من الإنسان والحيوان يعتمد في تغذيته أصلاً على النبات الذي أعطاه الله – تعالى – القدرة على تحويل عناصر الأرض إلى غذاء مقبول لكل من الإنسان و الحيوان، ولولا ذلك ما استقامت الحياة على سطح هذا الكوكب. والإنسان الذي يحيا على الأطعمة العضوية التي ركبها له النبات من عناصر الأرض، وعلى منتجات الحيوان المباح له أكله، وهو يعيش على نبات الأرض، يتوافر له بذلك كل ما يحتاج إليه جسمه من الكربوهيدرات، والبروتينات، والزيوت، والدهون، والفيتامينات المختلفة وغيرها من المركبات العضوية، وكلها مستمدة أصلاً من عناصر الأرض، ومن هنا كان في قول ربنا – تبارك وتعالى –:

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [نوح: 17].

سبقٌ علمي حقيقي؛ لأن هذه المعلومات لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴾:

(الموت) من أوضح حقائق الوجود، وقد ذكره القرآن الكريم (165) مرة، منها ما يقول فيه ربنا – تبارك وتعالى –:

1- ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ﴾ [آل عمران: 185].

2- ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: 57].

3- ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: 42].

ولذلك جاء التوكيد القرآني على تلكم الحقيقة التي لا يمكن لعاقل إنكارها، ألا وهي حتمية العودة إلى الأرض التي منها نبت، وفي ذلك يقول ربنا – عز من قائل – : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾.

أما قصة البعث التي عبر عنها القرآن الكريم بقول الله – تعالى –: ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾، فقد شك فيها كثير من الكفار والملاحدة والمتشككين الذين يذكر القرآن الكريم تشكيكهم فيقول على لسانهم: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات: 16].

وفي الرد على ذلك أخرج الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الفتن وأشراط الساعة) عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يُرَكَّب».

والحديث أخرج مثله كل من الأئمة أحمد والبخاري ومالك، والنسائي، وأبي داود، وابن ماجه، وابن حبان، وغيرهم.

وفي رواية أخرى أخرج الإمام أحمد (10099) عن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال:

«يبلى كل عظم من ابن آدم إلا عجب الذنب، وفيه يركب الخلق يوم القيامة».

كذلك أخرج الإمام مسلم عن أبي هريرة كذلك أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين النفختين أربعون.. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل، وليس من الإنسان شيء إلا يبلى، إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة». قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يومًا؟ قال: أبيت ..، ومعنى (أبيت) في كلام أبي هريرة هو: أبيت أن أجزم أن المراد بالفترة بين النفختين هو أربعون يومًا أو شهرًا أو سنة، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت أربعون سنة مفصلة في قول للإمام النووي رحمه الله.

وواضح الأمر من هذه الأحاديث النبوية الشريفة ومن غيرها أن بلى الأجساد هو حكم إلهي عام لا يستثنى منه إلا أجساد كل من الأنبياء والشهداء، والمؤذنين المحتسبين كما ذكر ابن حجر العسقلاني انطلاقًا من أقول رسول الله ﷺ.

وأحاديث (عجب الذنب) تحتوي على حقيقة علمية لم يتوصل إليها علم الإنسان إلا بعد الثلث الأول من القرن العشرين في سلسلة من الأبحاث قام بها العالم الألماني هانز سبيمان وعدد من زملائه (Hans Spemann and his co-workers) والتي نال عليها سبيمان جائزة نوبل في العلوم (سنة 1935م) لأبحاثه على عجب الذنب في البرمائيات. ومن أهم نتائج تلك الأبحاث ما يلي:

1- أن كلاً من الخيط الابتدائي (The Primitive Streak) والعقدة الابتدائية (The primitive Node) التي يحملها الخيط الابتدائي في نهايته، ويظهران على سطح البيضة الملقحة بعد فترة من انقسامها (15 يومًا في الإنسان) هما اللذان ينظمان عملية تخلق جميع أجهزة الجنين، ولذلك أطلق سبيمان عليهما اسم المنظم الأولي أو الأساسي (The Primary Organizer).

2- أن هذا المنظم الأولي ينسحب إلى نهاية العصعص (الفقرة الأخيرة في العمود الفقري) بعد إتمام تخلق جميع أجهزة الجسم (ويتم ذلك في نهاية الأسبوع الرابع من عمر الجنين في حالة الإنسان).

3- أن هذه العظمة النهائية في العمود الفقري لا تبلى أبدًا، فقد قام سبيمان وزملاؤه بقطع هذا الجزء (الخيط والعقدة الابتدائيين) من عدد من البرمائيات ثم زرعه في عدد من أجنتها فنما هذا الجزء على هيئة جنين آخر مختلف عن الجنين المضيف، علمًا بأن كلاً من الخيط والعقدة الأوليين في الحيوانات الفقارية ذات الأثداء (الثديية) يقابلها في البرمائيات ما يسمى باسم فتحة المعى الخلفية (Blastopore).

كذلك قام هانز سبيمان وزملاؤه بسحق هذا الجزء الذي سماه باسم «المنظم الأول» ثم زرعه في عدد من الأجنة فنما في كل واحد منها على هيئة جنين ثانوي مما يؤكد على أن خلاياه لم تتأثر بعملية السحق. ثم قاموا بغلي هذا الجزء من البرمائيات لعدة ساعات ثم زرعه في عدد من الأجنة فنما على هيئة أعداد من المحاور الجنينية الجديدة، مما يؤكد أن خلاياه لم تتأثر بالغلي. وبعد ذلك بتسع وستين سنة قام الأخ الدكتور عثمان جيلان (من اليمن) في شهر رمضان سنة

1424هـ بحرق الفقرتين الأخيرتين من خمسة عصاعص للأغنام بمسدس غاز لمدة عشر دقائق حتى تفحمت تمامًا، وبفحصها بواسطة عدد من المتخصصين، اتضح أن خلاياها ما زالت حية، وكأنها لم تتعرض لشيء من الحرق، وإن احترق كل ما كان حولها من عضلات، وأنسجة دهنية، وخلايا النخاع.

وبتطبيق نتائج «سپيمان» ومدرسته على الإنسان أثبت عدد من المتخصصين في علم الأجنة أن الشريط الابتدائي يظهر في اليوم الخامس عشر من عمر البييضة المخصبة وتكون (النطفة الأمشاج) التي تبدأ في الانقسام إلى خلايا أصغر فأصغر (خليتين ثم أربع ثم ثماني خلايا وهكذا)، وتعرف هذه باسم القسيمات الأرومية (Blastomeres) ، وبعد أربعة أيام من الإخصاب تتحول هذه القسيمات الأرومية إلى كتلة كروية من الخلايا تعرف باسم التويتة (تصغير التوتة) أو (Morula). وفي اليوم الخامس تنشطر التويتة إلى نصفين مكونة الكيسة الأرومية (Blastocyst). وفي اليوم السادس من عمر النطفة الأمشاج تنغرس الكيسة الأرومية في جدار الرحم بواسطة خلايا رابطة تنشأ منها، وتتعلق بها في جدار الرحم لتتحول بعد ذلك إلى المشيمة، وتتحول الكيسة الأرومية إلى شكل العلقة، وهو طور مهم في مراحل تكوين الجنين يتبعه من الأطوار المضغة، ثم تخلق العظام، ثم كسوتها باللحم ثم بالجلد، وتستمر هذه الأطوار من الأسبوع الثاني حتى نهاية الأسبوع الثامن من تاريخ الإخصاب، وأهم ما يميز هذه المراحل في تخلق الجنين هو التكاثر السريع للخلايا، والنشاط المتنامي في تكوين أجهزة الجسم المختلفة بواسطة كل من الشريط والعقدة الابتدائيين (The Primitive Streak and its node) اللذين يظهران في اليوم الخامس عشر من عمر النطفة الأمشاج وتتخلق منهما كل أجهزة الجسم التي يستكمل خلقها في الأسبوع الرابع من عمر الجنين.

وفي الأسبوع السابع يصل الجنين إلى صورته المتميزة نتيجة لاستكمال بناء هيكله العظمي، والذي يبدأ كساؤه باللحم (العضلات) مع بداية الأسبوع الثامن إلى آخر فترة الحمل، حيث تبدأ جميع أجهزة الجسم وأعضائه، في الانتظام بالعمل في توافق عجيب.

وتبدأ مرحلة النشأة في الأسبوع التاسع حين تتباطأ معدلات النمو حتى نهاية الأسبوع الثاني عشر، ثم تتسارع حتى نهاية فترة الحمل (في حدود الأسبوع السادس والثلاثين أو الثامن والثلاثين) ويعتبر اكتمال كساء العظام باللحم هو الحد الفاصل بين مرحلتي الحميل (Embryo) والجنين (Fetus of Foetus) وقد أثبت علم الأجنة الحديث أن جميع أجهزة الجنين تنشأ من الشريط الابتدائي، وأول ما ينشأ منه هو الجهاز العصبي، وبعد استكمال أجهزة وأعضاء الجنين ينحسر هذا الشريط المنظم على هيئة عظمة في حجم حبة الخردل في نهاية العصعص (Coccyx) سماها رسول الله ﷺ باسم (عجب الذنب)

ومن نتائج نشاط الشريط الابتدائي ما يلي:

1- تكون بدايات الجهاز العصبي من الطبقة الخارجية للمضغة بدءًا بالحبل الظهري (Notochord) والذي يمتد من العقدة الابتدائية (Primitive Node) في اتجاه النهاية الأمامية للمضغة وذلك في نهاية الأسبوع الثالث من تاريخ الإخصاب.

ويبدأ تكون الجهاز العصبي بالصفيحة العصبية (Neural Plate) التي تمتد من جهة العقدة الابتدائية إلى الطرف الأمامي للمضغة وتتثنى هذه الصفيحة العصبية لتكوين الطيات العصبية (The Neural Folds)، وتكون الجهة المنخفضة ما يعرف باسم الميزاب العصبي (The Neural Groove) الذي يلتف على ذاته مكونًا الأنبوب العصبي (The Neural Tube) الذي يقفل طرفه الأمامي في اليوم الخامس والعشرين من عمر الجنين، ويقفل الطرف الخلفي (الذيلي) في اليوم السابع والعشرين، ويكون ثلث هذا الأنبوب العصبي الدماغ، بينما يشكل الثلث الباقي منه الحبل الشوكي بتفرعاته المختلفة.

2- تتكثف الأجزاء الداخلية من الطبقة المتوسطة الملاصقة لمحور المضغة مكونة الكتل البدنية (Somites) والتي تشكل كلاً من العمود الفقاري وبقية الهيكل العظمي، ثم العضلات، كما تخرج منها بدايات الأطراف العليا والسفلى.

3- تتكثف الأجزاء الوسطى من الطبقة المتوسطة لتكون الجهاز التناسلي/ البولي.

4- أما الأجزاء الطرفية فتتكثف من الطبقة المتوسطة مكونة كلاً من أغشية البطن الداخلية، وأغشية الرئتين، كما يتكون منها كل من القلب وأغشيته، والأوعية الدموية، وعضلات الجهاز الهضمي.

5- ينتهي الشريط الأولي من مهمة تخليق مختلف أجهزة وأعضاء الجسم في الأسبوع الرابع من عمر الجنين، ويبدأ في الانسحاب إلى نهاية العمود الفقري (العصعص) على هيئة أثر لا يكاد يرى بالعين المجردة.

ويروى عن المصطفى ﷺ أنه قال في عدد من الأحاديث الشريفة: إن جسد الإنسان يبلى كله فيما عدا (عجب الذنب)، فإذا أراد الله تعالى بعث خلقه أنزل مطرًا خاصًا من السماء فينبت كل مخلوق من عجب ذنبه كما تنبت البقلة من بذرتها، لذلك قال ربنا – تبارك وتعالى – : ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾.

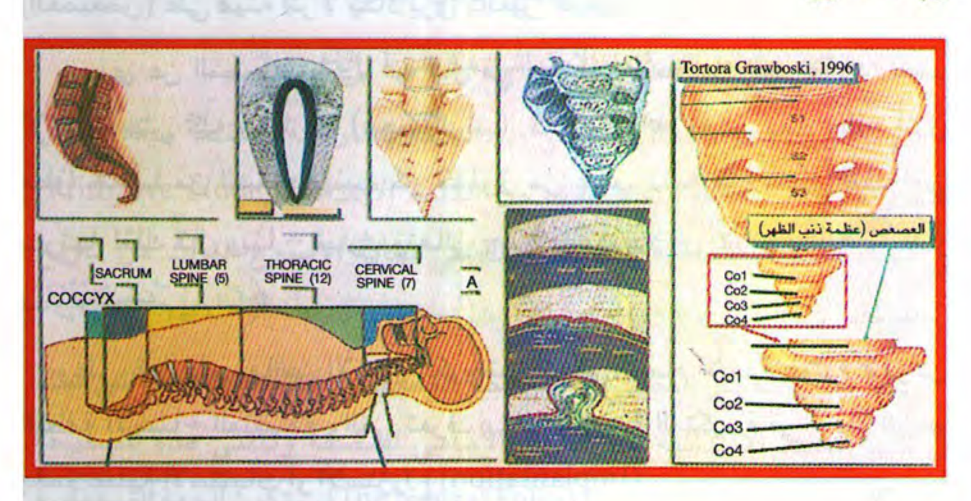
وعلى غير علم بهاتين الآيتين الكريمتين يسمي علماء الأجنة عملية انغراس النطفة الأمشاج المنقسمة والتي تعرف باسم الأرومة المتكيسة في جدار الرحم باسم عملية الاستنبات أو الاستزراع (Implantation).

وهذه الحقائق التي لم تكتشف إلا بعد الثلث الأول من القرن العشرين، تشهد بأن القرآن الكريم الذي أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده الذي قطعه على ذاته العلية – ولم يقطعه لرسالة أخرى أبدًا – وحفظه في نفس لغة وحيه (اللغة العربية) وحفظه بحفظه: كلمة كلمة، وحرفًا حرفًا، على مدى أكثر من أربعة عشر قرنًا، وتعهد – سبحانه وتعالى – بذلك إلى أن يرث الأرض ومن عليها حتى يكون القرآن الكريم شاهدًا على الخلق أجمعين إلى يوم الدين، كما تشهد هذه الحقائق العلمية للرسول الخاتم والنبي الخاتم الذي تلقى القرآن من ربه الكريم، فبلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الناس، وجاهد في

سبيل الله حتى أتاه اليقين، تشهد له هذه الحقائق بالنبوة وبالرسالة وبما وصفه به رب العالمين فقال فيه:

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: 3 - 5].

فصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله على نعمة الإسلام العظيم، والحمد لله على نعمة القرآن الكريم، والحمد لله على بعثه خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ حمدًا طيبًا طاهرًا كثيرًا حتى نلقاه - تعالى - وهو راضٍ عنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (145)

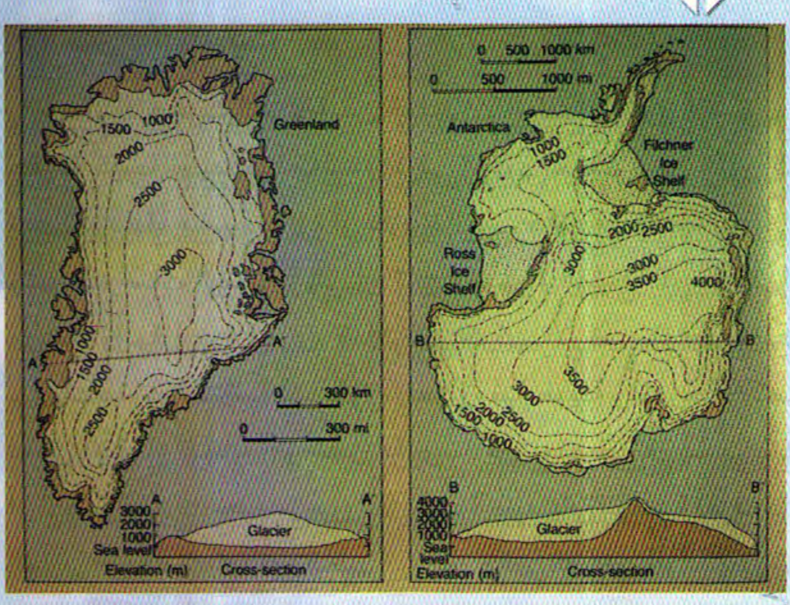
صور ورسوم مختلفة لعجب الذنب ووضعه في نهاية العمود الفقري للإنسان

الفصل التاسع

من أحاديث إرهاصات الساعة

الحديث الرابع والستون

«لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»



شكل (146) خريطتان لتجمع الجليد بسمك يتجاوز عدة كيلومترات فوق أرض كل من القارة القطبية الجنوبية وجرينلاند وعندما يزحف هذا الجليد في اتجاه خط الاستواء تتحول الصحارى العربية إلى مروج وأنهار

64 «لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»

■ أخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا».

وروى الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 9384) قال:

■ حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ، حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ وَهُوَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْقَارِيُّ، عن سُهَيْلٍ، عن أَبِيهِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكْثُرَ المالُ وَيَفِيضَ حَتَّى يَخْرُجَ الرَّجُلُ بِزَكَاةِ مَالِهِ فَلا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهَا مِنْهُ وَحَتَّى تَعُودَ أَرْضُ العَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا».

وروى كذلك في مسنده، (حديث رقم: 8819) قال:

■ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ - يَعْنِي ابْنَ زَكَرِيَّا، عن سُهَيْلٍ، عن أَبِيهِ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّى تَعُودَ أَرْضُ الْعَرَبِ مُرُوجًا وَأَنْهَارًا وَحَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ بَيْنَ الْعِرَاقِ وَمَكَّةَ لا يَخَافُ إِلا ضَلالَ الطَّرِيقِ وَحَتَّى يَكْثُرَ الْهَرْجُ». قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الْقَتْلُ».

شرح الحديث

وهذه الأحاديث الشريفة من المعجزات العلمية لرسول الله ﷺ لأنها تصف حقيقة كونية لم يدركها العلماء إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين حيث ثبت لهم بأدلة مادية عديدة أن جزيرة العرب كانت في القديم مروجًا وأنهارًا، كما تشير الدراسات المناخية إلى أن تلك الصحراء القاحلة في طريقها الآن للعودة مروجًا وأنهارًا مرة أخرى، وذلك لأن كوكب الأرض يمر - تاريخه الطويل - بدورات مناخية متقلبة تتم على مراحل زمنية طويلة ومتدرجة - كما قد تكون في بعض الأحيان فجائية، ومتسارعة. ومنذ قرن ونصف تقريبًا أدرك علماء الأرض أن أرضنا قد مرت بعدد من دورات زحف الجليد على اليابسة تعرف باسم «الدورات الجليدية» يتحرك خلالها الجليد من أحد قطبي الأرض (أو منهما معًا) في اتجاه خط الاستواء، وينحسر في عدد من المرات في الدورة الجليدية الواحدة. وقد وضعت

نظريات عديدة لتفسير كيفية دخول الأرض في هذه الدورات الجليدية تتلخص في نقص كمية الطاقة الشمسية الواصلة إلىكوكبنا نتيجة للتغيرات الدورية في شكل مداره حول الشمس، وميل محوره على هذا المدار، واختلاف معدل ترنحه حول محوره، يضاف إلى ذلك زحف القارات عبر المناطق المناخية المختلفة كنتيجة حتمية لتحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض.

وفي أثناء الزحف الجليدي على اليابسة تتحول البلاد في مناطق خطوط العرض العليا إلى صحارى جليدية قاحلة تموت فيها النباتات، وتهرب الحيوانات، بينما تتحول الأحزمة الصحراوية من مثل الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا إلى منطقة مطر غزير، وفي أثناء هذه الدورات المطيرة شقت كل الأودية الجافة التي تنتشر في صحارى تلك المنطقة اليوم، وكانت أنهارًا متدفقة في القديم، ثم جفت مع تناقص كمية الأمطار، فهذه الأودية الجافة لا يمكن أن يكون سبب شقها عاملاً غير المياه الجارية.

وبدراسات متأنية ثبت لنا أن جزيرة العرب قد مرت في خلال الخمسة والثلاثين ألف سنة الماضية بسبع فترات مطيرة تخللت ثماني فترات جافة، تمر حاليًّا بالفترة الثامنة منها.

وتشير الدراسات المناخية إلى أننا في المناطق الصحراوية القاحلة والجافة اليوم مقدمون على فترة مطيرة جديدة شواهدها بدايات زحف للجليد في نصف الكرة الشمالي باتجاه الجنوب، وانخفاض ملحوظ في درجات حرارة فصل الشتاء على مستوى الأرض، ولولا التزايد المطرد في معدلات التلوث البيئي التي تزيد من «ظاهرة الاحتباس الحراري» لشاهدنا زحف الجليد على كل من أمريكا الشمالية وأوربا وشمال آسيا في زماننا الراهن، وسوف يحدث ذلك قريبًا إن شاء الله (تعالى).

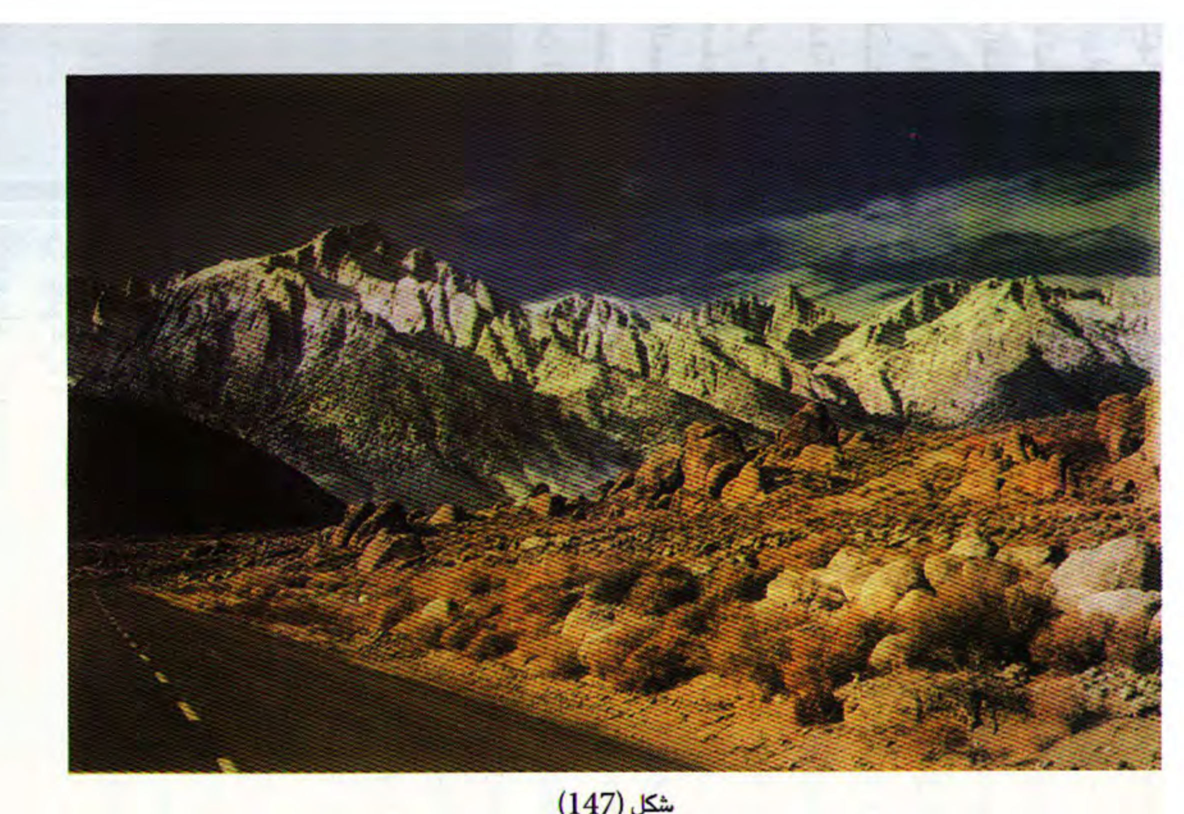
وفي فترات المطر القديمة كسيت الجزيرة العربية بالمروج الخضراء، وتدفقت الأنهار بالمياه الجارية، وتحول المنخفضات إلى بحيرات زاخرة بالحياة، وعمرت اليابسة بمختلف صور الحياة الأرضية وتحولت إلى مروج وأنهار كما وصفها حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده. وحتى صحراء الربع الخالي – التي

تعتبر اليوم واحدة من أكثر أجزاء الأرض قحولة وجفافًا – ثبت بدراسات حقلية عديدة أنها كانت بها أعداد من البحيرات، والمجاري المائية القديمة التي ازدهرت بالحياة ثم جفت ودفنت تحت كم هائل من الرمال السافية، وأن تلك البحيرات والمجاري المائية كانت زاخرة بالحياة، ومتدفقة بالمياه إلى زمن قوم عاد الذين أقاموا في جنوب الجزيرة العربية حتى أواخر القرن الميلادي الثاني حضارة مادية لم يكن يدانيها في ازدهارها المادي حضارة أخرى في زمانها. وكانت تلك الحضارة تصدر إلى أوربا في ذلك الوقت الفواكه المجففة، والبذور، والبخور، والعطور، والأخشاب، والذهب والفضة، فلما جاء إلى قوم عاد نبيهم ورسولهم سيدنا هود عليه السلام بالهداية الربانية، بدعوة التوحيد الخالص لله (تعالى)، وعبادته بما أمر، والقيام بواجبات الاستخلاف في الأرض وعمرانها، وإقامة عدل الله فيها، كفروا بربهم، وجحدوا بآياته، وعصوا رسول الله إليهم وكذبوه واستكبروا في الأرض بغير الحق، فأرسل الله (تعالى) عليهم الريح العقيم فطمرتهم وطمرت حضارتهم برمالها، وقطعت دابرهم، وجعلتهم كالرميم، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى):

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: 15، 16].

وقد وصف الحضارة المادية لقوم عاد أثناء ازدهارها اثنان من المؤرخين القدامى كان أحدهما بطليموس الإسكندري (حوالي 100م – 170م)، الذي كان أمينًا لمكتبة الإسكندرية وقام برسم الأنهار المتدفقة في منطقة الربع الخالي الحالية بتفرعاتها، كما رسم البحيرات التي كانت تفيض إليها، وكان الآخر هو پليني الكبير (23 – 79م) أحد مؤرخي الحضارة الرومانية الذي وصف حضارة عاد بأنها لم يكن يدانيها في زمانها حضارة أخرى.

وتمثل فترة الأمطار الغزيرة الأخيرة في شبه الجزيرة العربية، في خلال الخمسة والثلاثين ألف سنة الماضية، نهايات العصر الجليدي الأخير الذي عم نصف الأرض



شكل (147)

الجليد فوق الجبال العالية وبزحفه في اتجاه خط الاستواء
تتحول الصحارى العربية إلى مروج وأنهار

الشمالي خلال المليوني سنة الأخيرة في دورات متتالية من زحف الجليد وانحساره تركت بصماتها واضحة على أشكال سطح الأرض الحالية في نصفها الشمالي، وقد أحصى العلماء من تلك الدورات الجليدية عشرين دورة استغرقت كل واحدة منها حوالي مائة ألف سنة، كان منها عشر دورات زحف جليدي تخللتها عشر من دورات انحسار الزحف الجليدي، ونعيش اليوم في نهاية آخر دورة من دورات هذا الانحسار الجليدي، ويبشر العلماء ببداية دورة جليدية جديدة بدأت شواهدها تظهر بالفعل في أيامنا ولولا التلوث البيئي لشاهدنا هذا الزحف الجليدي في حياتنا.

وليس دخول الأرض في دورة من دورات زحف الجليد على اليابسة بالأمر المستغرب فقد حدث ذلك في تاريخ الأرض الطويل عدة مرات، ولا تزال آثاره مدونة بدقة فائقة في صخور الأرض منها اثنتان في أحقاب ما قبل الكمبري إحداهما في حدود بليوني سنة مضت، والأخرى منذ ستمائة مليون سنة مضت، واثنتان في صخور حقب الحياة القديمة أولاهما في حدود 400 إلى 440 مليون سنة مضت (العصر الأوردوفيشي – السيليوري) والأخرى في حدود 250 – 300 مليون سنة مضت (العصران الكربوني والبرمي) وقد تركت الأولى آثارها على الثلث الشمالي من الجزيرة العربية، وكان زحف الجليد فيها قادمًا من شمال إفريقيا، ووصل إلى خط عرض منطقة القصيم، وتركت الدورة الجليدية الثانية آثارها على الثلث الجنوبي من الجزيرة العربية، وكان الزحف الجليدي فيها قادمًا من شبه القارة الهندية التي كانت في ذلك الوقت ملاصقة لجنوب الجزيرة العربية وملتحمة معها ومع كل من القارات الإفريقية، والأسترالية، والأمريكية الجنوبية مكونة قارة عظمى واحدة أطلق عليها العلماء اسم «جُنْدُوَانا» (Gondwana).

هذه الحقائق لم يتوصل الإنسان إلى معرفتها إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وإشارة المصطفى ﷺ إليها في حديثه الكريم: «تعود جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا» مما يشهد له بالنبوة وبالرسالة، وبأنه (عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) كان موصولاً بالوحي، ومعلَّمًا من قبل خالق السماوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه، ومن تبع هداه، ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث الخامس والستون

«طلوع الشمس من مغربها»



شكل (148)

(65) «طلـوع الشمـس مـن مغربهـا»

أخرج الإمام البخاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صحيحه (حديث رقم : 4359 ، كتاب تفسير القرآن) قال:

■ حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا عَبْدُالْوَاحِدِ، حَدَّثَنَا عُمَارَةُ، حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ (حِينَ لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ)».

روى الإمام مسلم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صحيحه (حديث رقم:2941) عن رسول الله ﷺ أنه قال في العلامات الكبرى للساعة : «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها أو الدابة على الناس ضحى، فأيتها كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها».

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله، وحتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتل، وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يُهِمَّ رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه لا أرب لي به، وحتى يتطاول الناس في البنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، وحتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين ﴿... لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ...﴾، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه، ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها». (صحيح البخاري).

شرح الحديث

وكان أعداء الإسلام من الماديين الدهريين، عربًا، وعجمًا، ومستشرقين ومتغربين يستبعدون طلوع الشمس من مغربها قائلين إن الشمس منذ أن أدركها

الإنسان وهي تطلعُ عليه من المشرق وتغيب في المغرب، وكانوا لا يتخيلون قوة على وجه الأرض يمكنها إحداث مثل ذلك التغيير الهائل في شروق الشمس وغروبها.

ولكن منذ سنوات قليلة بدأ علماء الأرض في استقراء مناخات الأرض القديمة في الأزمنة الغابرة كما هي مدونة في جذوع النباتات، وفي هياكل الحيوانات، وفي رسوبيات كتل الجليد التى زحفت على اليابسة من قطبي الأرض، ومن قمم الجبال، وفي مختلف أنواع الرسوبيات البحرية والقارية، وفي بقية صخور الأرض وما تحتويه من بقايا الحياة خاصة حبوب اللقاح الخاصة بالنباتات المزهرة، والتي تحفظ بأعداد هائلة في جميع الرسوبيات والصخور الرسوبية، وتكثر بشكل واضح في رسوبيات البحيرات ودالات الأنهار وشواطئ البحار، وكثيرًا ما يقطع تلك الرسوبيات أسطح جفاف انحسرت عنها المياه لتراجع البحار أو بسبب ندرة الأمطار وتحتفظ تلك الأسطح بأعداد من المعادن التي تعكس صورة كاملة عن تركيب كل من الغلافين الغازي والمائي المحيطين بالأرض، ودرجة حرارة كل منهما ، ودرجة حموضته، وكل من الحلقات السنوية في سيقان النباتات، وخطوط النمو في هياكل الحيوانات يمثل سجلاً رائعًا للتغيرات المناخية التي تدون فورًا وبدقة بالغة في كل منهما.

وفي دراسة حديثة للتغيرات المناخية القديمة كما هي مدونة على الحلقات السنوية في جذوع النباتات وعلى خطوط النمو في هياكل الحيوانات اتضح أن كل حلقة من تلك الحلقات السنوية مكونة من أعداد كثيرة من الحلقات تمثل الفصول المناخية الأربعة (الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء)، وشهور السنة الاثني عشر ، وهي شهور قمرية، وعدد الأسابيع والأيام في كل شهر قمري، والليل والنهار في كل يوم، وكذلك الحال في كل خط من خطوط النمو المسجلة في الهياكل الصلبة للحيوانات.

وفي غمار هذا البحث لاحظ الدارسون زيادة عدد أيام السنة مع زيادة تقادمها، وأدركوا أن التفسير الوحيد لتلك الزيادة في عدد أيام السنة مع تقادم الزمن هو

شكل (149)
صورة لطلوع الشمس من تحت الأفق

تزايد سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس عن معدلاتها الحالية زيادة ملحوظة، ومع هذه السرعة العالية يزيد عدد الأيام في السنة ، ويقصر طول اليوم (بليله ونهاره)، مع بقاء عدد الفصول والشهور في السنة ثابتًا.

وبرسم أعداد كبيرة في المنحنيات الدالة على عدد أيام السنة في العصور المتتالية من عمر الأرض، وبمد ذلك إلى التاريخ المقدر لعمر أقدم الصخور الظاهرة على سطح الأرض اتضح أن عدد أيام السنة عند بدء تشكل الأرض كان أكثر من ألفين ومائتي يوم، وأن طول الليل والنهار معًا كان أقل من أربع ساعات، مما يعني أن سرعة دوران الأرض حول محورها كانت ستة أضعاف سرعتها الحالية على أقل تقدير. ويعجب الإنسان من وجود إشارة قرآنية مبهرة إلى تلك الحقيقة الكونيَّة من قبل ألف وأربعمائة من السنين، والإنسان لم يصل إلى إدراك شيء من ذلك إلا في العقود المتأخرة من القرن العشرين، وفي ذلك يقول الحق (تبارك وتعالى) :

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: 54].

وقد ثبت هذا التناقص المستمر في سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من دراسة خطوط النمو في هياكل العديد من الحيوانات مثل الشعاب المرجانية، وبقاياها في صخور العصور الجيولوجية القديمة، وقد فسر هذا التناقص المستمر في سرعة دوران الأرض حول محورها بالاحتكاك الناتج عن كل من حركتي المد والجزر، وهبوب الرياح في الاتجاه المعاكس لاتجاه دوران الأرض، وكلاهما يعمل عمل الكابح (الفرامل) الذي يبطئ من سرعة دوران الأرض حول محورها أمام الشمس جزءًا من الثانية في كل قرن من الزمن.

وبرسم منحنيات مستقبلية لعملية تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها اتضح أنه لا بد لتلك العملية من أن تجبر الأرض على تغيير اتجاه دورانها الحالي حيث تدور من الغرب إلى الشرق (فتبدو الشمس طالعة على أهل الأرض من الشرق،

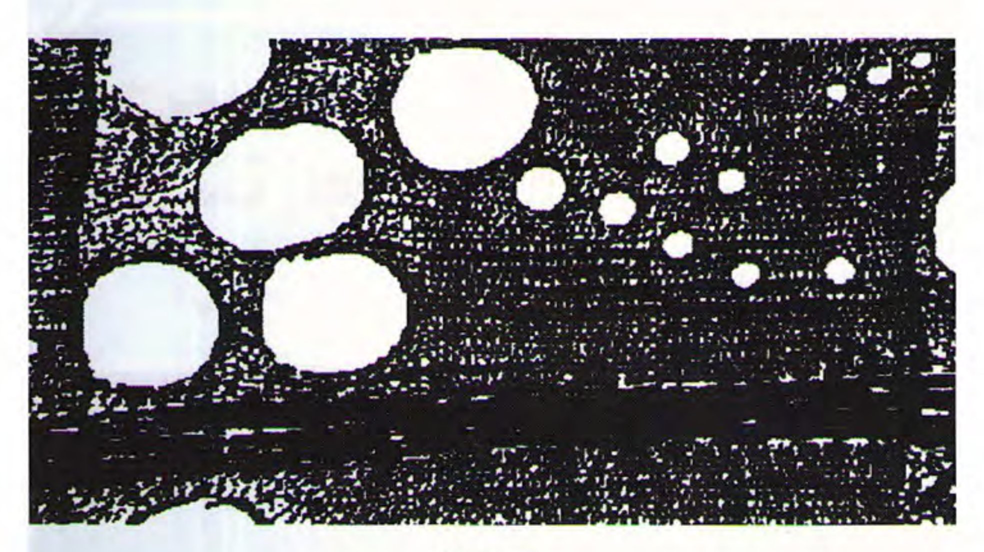
وغائبة عنهم في الغرب) فيصبح دورانها من الشرق إلى الغرب وبذلك تطلع الشمس من مغربها وهذا من العلامات الكبرى للساعة ومن نبوءات المصطفى ﷺ التي كان كثيرٌ من أعداء الإسلام يستبعدون حدوثها، فإذا بالعلوم الكونية تثبت إمكانية بل حتمية وقوعها!!!!.

وهنا يلزم التنبيه إلى استحالة حساب موعد طلوع الشمس من مغربها أولاً: للبطء الشديد في تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها، وثانيًا: لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا تمامًا، وكل من من رحمة الله بنا أن يبقى لنا في سنن الدنيا وشواهدها المادية ما يؤكد على إمكانية حدوث الآخرة بكل مقدماتها وعلاماتها والظواهر المصاحبة لها، وكل من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يؤكدان على فجائية حدوث الآخرة بأمر من الله – تعالى – وأمره إذا أراد شيئًا ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾. وعلى ذلك فلا يجوز لعاقل أن يتصور إمكانية حساب وقت طلوع الشمس من مغربها بواسطة معرفة معدلات تباطؤ سرعة دوران الأرض حول محورها؛ لأن وقوع الآخرة أمر إلهي لا يحتاج إلى سنن أو ظواهر أو تباطؤ في معدلات حركة الأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول محدثًا خاتم أنبيائه ورسله ﷺ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:187].

وتبقى الإشارة إلى طلوع الشمس من مغربها كإحدى العلامات الكبرى للساعة في حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده واحدة من المعجزات العلمية العديدة في أقواله الشريفة، وحجة دامغة على كل منكر لنبوته الشريفة ، أو متطاول على رسالته الخاتمة ، وما أكثرهم في هذه الأيام.

فصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين الذي أخبرنا عن حتمية طلوع الشمس من مغربها كإحدى العلامات الكبرى للساعة، وذلك من قبل ألف وأربعمائة سنة ، ثم تأتي العلوم الكونية اليوم باستقراء ذلك، حقيقة مدونة في

أحافير الحيوانات والنباتات ، وفي هياكل الأحياء منها ، ولا يمكن لعاقل أن يتخيل مصدرًا لتلك المعلومة الكونية المستقبلية من قبل أربعة عشر قرنًا غير وحي الله الخالق الذي أنعم الله تعالى به على خاتم أنبيائه ورسله، سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



شكل (150)

يوضح قطاعًا مستعرضًا في ساق نبات يظهر تباين حجم الخلايا بتباين الظروف المناخية وهي مدونة في أخشاب النباتات وهياكل الحيوانات مؤكدة تناقص سرعة دوران الأرض حول محورها مع الزمن مما يؤكد حتمية تغييرها اتجاه دورانها مما يجعل الشمس تطلع من مغربها بإذن الله.

الحديث السادس والستون

«لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصْرَى»



شكل (151)

66 «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببُصرى»

أخرج الإمام البخاري في صحيحه (حديث رقم : 6701، كتاب الفتن وأشراط الساعة) قال:

■ حَدَّثَنَا أَبُو الْيَمَانِ، أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ المسَيَّبِ أَخْبَرَنِي أَبُوهُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى».

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2902، باب: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز) قال:

■ حدثني عبدالملك بن شعيب بن الليث، حدثنا أبي، عن جدي، حدثني عقيل بن خالد، عن ابن شهاب أنه قال: قال ابن المسيب: أخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى».

شرح الحديث

في هذا الحديث الشريف إشارة علمية دقيقة إلى حقيقة من حقائق أرض الحجاز لم تدرك إلا في منتصف القرن العشرين حين بدئ في رسم الخريطة الجيولوجية لأرض شبه الجزيرة العربية، وكان من نتائج ذلك إثبات انتشار الطفوح البركانية على طول الساحل الغربي لجزيرة العرب من عدن جنوبًا إلى المرتفعات السورية شمالاً، عبر كل من الحجاز والأردن، وفلسطين، مغطية مساحة من تلك الطفوح تقدر بحوالي مائة وثمانين ألفًا (180،000 كم^2) من الكيلومترات المربعة، ومكونة واحدًا من أهم أقاليم النشاط البركاني الحديث في العالم، ويقع نصف هذه المساحة تقريبًا في أرض الحجاز (حوالي تسعين ألفًا من الكيلومترات المربعة) موزعة في ثلاثة عشر حقلاً بركانيًّا تعرف باسم الحرات، وأغلب هذه الحرات تمتد بطول الساحل الشرقي للبحر الأحمر ممتدة في داخل أرض الحجاز بعمق يتراوح بين 150 كيلومترًا، و200 كيلومتر، ويعتقد بأن هذه الطفوح البركانية قد تدفقت عبر



شكل (152) صورة لبركان ثائر

عدد من الصدوع الموازية لاتجاه البحر الأحمر، ومن فوهات مئات من البراكين المنتشرة في غربي الحجاز، كما يعتقد بأن تلك الصدوع والبراكين لا تزال نشطة منذ نشأتها وإلى يومنا الحاضر، وأنها قد تسببت في العديد من الهزات الأرضية، كما تم مشاهدة تصاعد أعمدة من الغازات والأبخرة الحارة من عدد من تلك الفوهات البركانية التي لا تزال نشطة حتى اليوم.

والحرات الثلاث عشرة المنتشرة في أرض الحجاز من الجنوب إلى الشمال: حرة السراة، البرك، البقوم، النواصف، ، هادان ، الكشب، رهط، حلة أبو نار، خيبر، إشارة، العويرض، الشامة والحماد، بالإضافة إلى عدد آخر من الحرات الصغيرة في مساحتها.

وتقع المدينة المنورة (على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى التسليم) بين حرة رهط في الجنوب، وحرة خيبر في الشمال، وتمتد حرة رهط من جنوب المدينة المنورة إلى وادي فاطمة بالقرب من مكة المكرمة جنوبًا عبر مسافة تقدر بحوالي 310 كيلومترات في الطول، وستين كيلومترًا في متوسط العرض لتغطي مساحة تقدر بحوالي 19830 كيلومترًا مربعًا، وبسمك متوسط يقدر بحوالي مائة متر وإن كان يصل إلى أربعمائة متر في بعض الأماكن.

ويوجد في حرة رهط وحدها أكثر من سبعمائة فوهة بركانية، ويقع الجزء الشمالي من هذه الحرة إلى الجنوب من المدينة المنورة مباشرة ويعتبر من أكثر أجزاء تلك الحرة نشاطًا، لأنه قد شهد أكثر من ثلاث عشرة ثورة بركانية وتدفقًا للحمم خلال الخمسة آلاف سنة الماضية (بمتوسط ثورة بركانية واحدة كل أربعمائة سنة تقريبًا) منها ثورة سنة 21 هجرية (644 ميلادية) وثورة 654هـ (1256 ميلادية) واللتان سُبِقَتا بعدد من الهزات الأرضية العنيفة وأصوات الانفجارات الشديدة.

وقد كونت الثورة البركانية الأخيرة (654 هـ/1256م) ستة مخاريط بركانية جديدة، ودفعت بطفوحها لمسافة زادت على ثلاثة وعشرين كيلومترًا من الشمال إلى الجنوب، وامتدت حتى الطرف الجنوبي لموقع مطار المدينة المنورة الحالي، ثم تحولت إلى الشمال لطفًا بأهل المدينة، وكرامة لساكنها بعد أن أصاب الناس كثير من الذعر والهلع بسببها.

ويوجد في حرة خيبر أكثر من أربعمائة فوهة بركانية تضم عددًا من أحدث تلك الفوهات عمرًا وأكثرها نشاطًا، فقد تم تسجيل أكثر من ثلاثمائة هزة أرضية خفيفة، حول إحدى تلك الفوهات البركانية في سنة 1420هـ/2000م ، مما يوحي بتحرك الصهارة الصخرية تحت ذلك المخروط البركاني ويهدد بإمكانية انفجاره بثورة بركانية عارمة في أية لحظة من الآن.

وتشير الدراسات العلمية التي أجريت على منطقة الحجاز إلى أن الثورات البركانية التي كونت حرة رهط قد بدأت منذ عشرة ملايين من السنين على الأقل،

وأنهـا تميـزت بتتابع عدد من الثـورات البركانية التي تخللتها فـترات من الهدوء النسبي، ونحن نحيا اليوم في ظل إحدى هذه الفترات الهادئة نسبيًا.

ومعنى هذا الكلام أن المنطقة مقبلة حتمًا على فترة من الثورات البركانية تندفع فيها الحمم من تلك الفوهات والصدوع كما اندفعت من قبل بملايين الأطنان فتملأ المنطقة نارًا ونورًا تصديقًا لنبوءة المصطفى ﷺ التي قال فيها:



شكل (153)

«لا تَقُـومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْـرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ تُضِـيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى».

وبصرى مدينة في جنوب بلاد الشام (سوريا).

كذلك فإن حرة خيبر الواقعة شمال المدينة المنورة تعتبر أكبر هضبة بركانية في أرض الحجاز، حيث تغطي قرابة عشرين ألف كيلو متر مربع، بسمك يتراوح بين خمسمائة وألف متر، وتمثل هذه الحرة عدة طفوح بركانية متتالية، يتركز أحدثها في وسط الحرة حيث تنتشر غالبية الفوهات البركانية الحديثة في حزام يمتد بطول ثمانين كيلومترًا موازيًا لاتجاه البحر الأحمر، وبعرض 15 كيلومترًا في المتوسط.

وقد تم تسجيل زلزالين كبيرين وقعا في حرة خيبر، أحدهما في سنة 460هـ (1057م)، والآخر في سنة 654 هـ(1256م)، وقد سبقت الزلزال الأخير أصوات انفجارات عالية، تلتها ثورة بركانية كبيرة، وصاحبتها هزات أرضية استمرت بمعدل عشر هزات يوميًّا لمدة خمسة إلى ستة أيام قدرت شدة أكبرها بحوالي خمس درجات ونصف الدرجة على مقياس ريختر، وقد كونت هذه الثورة البركانية الأخيرة عددًا من المخاريط البركانية، ودفعت بملايين الأطنان من الحمم في اتجاه الجنوب، ولا تزال تلك المخاريط تتعرض لأعداد كبيرة من الرجفات الاهتزازية الخفيفة التي توحي بأن الصهارات الصخرية تحت هذه المخاريط البركانية لا تزال نشطة، مما يؤكد حتمية وقوع ثورات بركانية عارمة تخرج من أرض الحجاز في المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، وذلك تصديقًا لنبوءة النبي الخاتم، والرسول الخاتم ﷺ وشهادة له بالنبوة وبالرسالة وبأنه(عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم) كان موصولاً بالوحي ، ومعلّمًا من قبل خالق السماوات والأرض.

الحديث السابع والستون

«يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا»



شكل (154)

67 «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا»

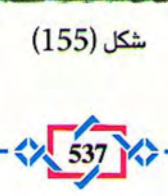
هذا الحديث النبوي الشريف رواه الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 706، كتاب الفضائل) قائلاً:

■ حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الدَّارِمِيُّ، حَدَّثَنَا أَبُو عَلِيٍّ الحَنَفِيُّ، حَدَّثَنَا مَالِكٌ وَهُوَ ابْنُ أَنَسٍ، عن أَبِي الزُّبَيْرِ المَكِّيِّ أَنَّ أَبَا الطُّفَيْلِ عَامِرَ بْنَ وَاثِلَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ أَخْبَرَهُ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَامَ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَكَانَ يَجْمَعُ الصَّلاةَ، فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ جَمِيعًا، وَالمَغْرِبَ وَالعِشَاءَ جَمِيعًا، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمًا أَخَّرَ الصَّلاةَ ثمَّ خَرَجَ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالعَصْرَ جَمِيعًا، ثم دخل، ثم خرج بعد ذلك فصلى المغرب والعشاء جميعًا، ثم قال: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحي النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا، حتى آتي». فجئناها، وقد سبقنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك، تبضّ بشيء من ماء، قال فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مسستما من مائها شيئًا؟». قالا: نعم فقال لهما النبي ﷺ ما شاء الله أن يقول. قال: ثم غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً، حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله ﷺ فيه يديه ووجهه، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء منهمر (أي كثير الصب والدفع) – أو قال: غزير – حتى استقى الناس، ثم قال ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا».

شرح الحديث

وتصدق نبوءة المصطفى ﷺ بعد ألف وأربعمائة سنة، فتتحول المنطقة حول تبوك إلى مزارع عامرة بأفضل المزروعات، وأشهى الثمار والخضراوات وأجمل الورود والزهور، وذلك لأن منطقة تبوك وما حولها تحوي أهم خزانات المياه تحت سطح الأرض في الجزيرة العربية (متكون جبل الساق، ومتكونات مجموعة تبوك الرملية) والتي تتميز بتركيبها من الحجر الرملي عالي المسامية والنفاذية،

شكل (155)



ويمنكشف تزيد مساحته على عدة عشرات الآلاف من الكيلومترات المربعة إلى الغرب من تبوك تعمل كمصيدة هائلة لمياه الأمطار التي تتحرك من سطح الأرض إلى ما تحت سطحها بميل الطبقات إلى الشرق، فتخزن تحت أرض تبوك كمخزون مائي هائل يمثل أكبر مخزون مائي في أرض شبه الجزيرة العربية.

وهذا المخزون المائي الكبير قد تجمع خلال الفترات المطيرة من تاريخ شبه الجزيرة العربية، وقد ثبت أنه خلال الخمسة والثلاثين ألف سنة الماضية مرت المنطقة بثماني دورات من دورات الجفاف التى تخللتها سبع دورات من المطر الغزير، ونحن نحيا في آخر دورة من دورات الجفاف تلك، ويبلغ متوسط هطول المطر فيها اليوم. حوالي تسعة سنتيمترات في السنة، يصل نصفها إلى خزانات المياه تحت السطح، ويتبخر الباقي أو يفيض إلى البحر الأحمر.

ويوجد في تتابعات « مجموعة تبوك» سمك هائل من صخور الصلصال والطفل التى تتبادل مع الطبقات الرملية وتعمل عمل الطبقات الحافظة لمخزون الماء في الطبقات الرملية المتبادلة معها في التتابع الصخري لتلك المجموعة. وينتج عن تعرية هذه الطبقات المختلطة من الصخور الرملية والصلصالية والطفلية تربة صالحة للزراعة، وبذلك تهيأت منطقة تبوك بكل مبررات تحولها إلى جنان كما تنبأ المصطفى ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة.

ليس هذا فقط، بل إن الأرض تتحرك الآن نحو الدخول في دورة جليدية جديدة، وحينما يزحف الجليد من أحد قطبي الأرض في اتجاه خط الاستواء تتصحر الأرض في كل من أمريكا الشمالية، وأغلب القارتين الأوربية والآسيوية التى تكسى بالجليد تصحرًا جليديًا فتهلك النباتات، وتهاجر الحيوانات، ويرحل السكان، وفي نفس الوقت يتحول الحزام الصحراوي الممتد من موريتانيا غربًا إلى أواسط آسيا شرقًا إلى منطقة مطر غزير كما حدث مرات من قبل، وحينئذ تفيض الأودية الجافة أنهارًا، وتكسى الصحارى القاحلة بالخضرة فتتحول مروجًا بهيجة تصديقًا لنبوءة المصطفى ﷺ التى قالها في حديث صحيح يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه حيث قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

شكل (156)



«لن تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا». وتأتي المعارف المكتسبة في كل من مجالي علوم الأرض وعلوم المناخ لتؤكد أن أرض العرب كانت مروجًا وأنهارًا، وأنها سوف تعود مروجًا وأنهارًا كما كانت، ويأتي حديث رسول الله ﷺ الذى نحن بصدده يتحدث عن منطقة تبوك بصفة خاصة، وعن أرض العرب بصفة عامة على أنها سوف تمتلئ جنانًا في عصر يلي عصر النبوة الخاتمة فيقول ﷺ مخاطبًا راوي الحديث سيدنا معاذ بن جبل (رضي الله تبارك وتعالى عنه): «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد ملئ جنانًا».

وهنا يبرز السؤال المهم: مَنْ غير الله الخالق يمكن أن يكون قد أخبر هذا النبي الخاتم من قبل ألف وأربعمائة سنة بتلك الحقائق العلمية التى لم يتوصل الإنسان إلى إدراك شيء منها إلا منذ عشرات قليلة من السنين؟

ومن الذي كان يضطره إلى الخوض في مثل هذه الأمور التى كانت غائبة عن الناس - كل الناس - في زمانه ﷺ وللعديد من القرون المتطاولة من بعده، لولا أن الله (تعالى) الذي ألهمه النطق بها يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل في يوم من الأيام إلى اكتشاف تلك الحقائق، فتبقى هذه الومضات النورانية في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ شهادة حق على أن القرآن الكريم هو كلام الله الخالق وعلى أن هذا النبي الخاتم كان موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وصدق الله العظيم إذ يقول في وصف هذا النبي الخاتم ﷺ:



شكل (157)

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴾ [النجم: 3 - 5].

الحديث الثامن والستون

«من علامات الساعة: أن تلد الأَمَة رَبَّتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان»



شكل (158) يوضح المبالغات في الارتفاع الرأسي بالبنيان في صحراء مثل صحراء دولة الإمارات العربية المتحدة يؤكد العقل أفضلية الانتشار الأفقي فيها نشرًا للعمران، وتلطيفا للمناخ واقتصادًا في تكلفة البناء والصيانة

68 «من علامات الساعة: أن تلد الأَمة رَبَّتَهـا، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاءَ الشاء يتطاولون في البنيان»

هذا الحديث النبوي الشريف أخرجه الإمام ابن ماجه في سننه (كتاب المقدمة: حديث رقم: 62) عن ابن عمر (رضي الله عنهما)، ورواه أيضًا بلفظ آخر (ابن ماجه حديث رقم 4034) عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يومًا بارزًا للناسِ فأتاه رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، متى الساعةُ؟ فقال: «ما المسئولُ عنها بأعلم من السائلِ، ولكن سَأُخْبِرُكَ عن أشراطها: إذا وَلَدَت الأَمَةُ رَبَّتَهَا فذاك من أشراطها، وإذا كانت الحفاةُ العراةُ رؤوس الناسِ فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاء الغنم في البنيان فذاك من أشراطها، في خمس لا يعلمهن إلا الله». فتلا رسولُ الله ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ الآية .. وهذا اللفظ أورده الإمام البخاري في صحيحه (كتاب تفسير القرآن، حديث رقم: 4404) عن أبي هريرة أيضًا.

وجاء أيضًا في صحيح مسلم (كتاب الإيمان، حديث رقم: 9) عن أبي هريرة بلفظه.

وذكره الإمام أحمد في مسنده (حديث رقم: 186، 346) عن عمر بن الخطاب بلفظه.

وأخرجه الإمام الترمذي في سننه (كتاب الإيمان، حديث رقم: 2535) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح.

وجاء أيضًا في سنن النسائي (كتاب الإيمان وشرائعه، حديث رقم 4904) عن عمر بن الخطاب، ورواه أيضًا عن أبي هريرة وأبي ذر (حديث رقم: 4905).

وورد الحديث كذلك في سنن أبي داود (كتاب السنة حديث رقم 4075) عن عبد الله بن عمر عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما).

شرح الحديث

ذكر الأئمة الكرام أبو داود، وابن ماجه، وأحمد، والبخاري، والبغوي، والبيهقي، والترمذي، ومسلم، والنسائي، وغيرهم حديثًا مطولاً رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن زيارة سيدنا جبريل عليه السلام لسيدنا رسول الله ﷺ وجمع من الصحابة الكرام عنده فيهم الصحابي الجليل الفاروق عمر بن الخطاب الذي خلف

خليفة رسول الله من بعد، قال: « بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً ». قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال فأخبرني عن الإيمان: قال: « أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره ». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ». قال: فأخبرني عن الساعة. قال: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ». قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: « أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان ». ثم انطلق فلبثت مليًا، ثم قال: « يا عمر أتدري من السائل؟ ». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم ». (رواه مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: 9).

ومن معاني« يتطاولون في البنيان» أن كل قادر يحاول أن يزيد في ارتفاع بنيانه الذي يبنيه حتى يكون أعلى من غيره، في منافسة زائفة لا نهاية لها، ولا هدف من ورائها غير التفاخر والتطاول، وقد تحقق ذلك بالفعل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. والتطاول فيه معنى المنافسة، والمباهاة، والتفاخر، وهو أكثر من التطويل.

وفي هذا الحديث الشريف ذكر المصطفى ﷺ نبوءتين من أشراط الساعة تحققتا بالكامل في العقود المتأخرة من القرن العشرين وما كان أحد يمكن له أن يتخيل – مجرد تخيل – إمكانية وقوعهما. والنبوءة الأولى منهما: «أن تلد الأمة ربتها».

ومن معاني هذه النبوءة النبوية الشريفة أن يسود العالم حثالات البشر من أبناء وبنات الإماء والعبيد، وأبناء الزنا ومجهولي الأنساب الذين وصل العديد منهم إلى رئاسات عدد من الدول الحاكمة في العالم اليوم بمعنى أن تكون الأم وضيعة الأصل، حقيرة المنشأ، ومعدومة التربية، ثم يصل أبناؤها أو بناتها إلى

حكم المجتمعات وحكم الدول أو حكم العالم، ويدعون أمهاتهم فيما هن فيه من هوان وذل وانحطاط.

وقد يكون المقصود بهذا النص النبوي الشريف أن ينتشر عقوق الوالدين، خاصة عقوق الأمهات، وذلك لأن لفظة «الأمة» كما تعني غير الحرة «أي العبدة» وجمعها «إماء» تعني أيضًا أيًا من النساء، وبذلك يعني النص أن الناس سوف يصلون إلى زمن يفقدون فيه الاحترام الواجب للوالدين بصفة عامة، وللأم بصفة خاصة فيعاملونها معاملة السيد للخادمة ويهدرون كل مالها من حقوق، وقد وصل الناس إلى هذا المستوى من نكران الجميل، وغمط الحقوق، ولم يكن ممكنًا لأحد أن يتصوره أبدًا أبدًا من قبل عقود قليلة .. !!

والنبوءة الثانية في هذا الحديث النبوي الشريف هي:

«وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان» وقد تطاولوا..!!

ولا يمكن لعاقل أن يتصور مدى التطاول في البنيان الحاصل على سطح الأرض اليوم بصفة عامة، وفي الجزيرة العربية بصفة خاصة، وإن جاز ذلك – وهو لا يجوز – في دول تحتاج إلى شبر من الأرض مثل كل من اليابان وبريطانيا، فلا يجوز أبدًا في الصحارى العربية والإسلامية الممتدة لملايين الكيلومترات المربعة الخالية من السكان، وتكلفة بناء عمارة واحدة من هذه العمارات التى تطاولت في الارتفاع تبني آلاف الدور، وتنشر العمران على الأرض، تلطف الجو، وتتيح الفرصة لمزيد من الزرع، ولمزيد من المكان لكل من الإنسان، والحيوان، وتخفف الضغط على البيئة، وهي في نفس الوقت أقل كلفة في الإنشاء وفي الخدمة والصيانة والتأمين ضد الحرائق وغيرها من المخاطر، والأمن في حالات الحروب والزلازل حيثُ إن مثل هذه العمائر الشاهقة الارتفاع تعتبر نقاط ضعف في حالات الحروب والزلازل لسهولة تدميرها والقضاء على من فيها . هذا غير تأثيرها السيئ على كل من البيئة والإنسان من النواحي البيئية والصحية والنفسية والاجتماعية؛ فهي تعزل الناس بعضهم عن بعض، وتقطع أو تحدُّ من علاقاتهم، وتشجع على العزلة الاجتماعية والفردية، كما تشجع على الجريمة، وتعزل الناس عن الطبيعة وتفصلهم عن الجيران.

وفي نفس الوقت تلغي الخصوصية وتحرم الأطفال من أماكن لهوهم، وتؤدي إلى ازدحام الشوارع وإلى كثرة السيارات بها، وإلى تلوث البيئة، وإلى ضعف الإبصار وإلى العديد من الأمراض الأخرى.

شكل (159)



إن كل عربي ومسلم يفرح لانتشار العمران والتقدم المادي في بلاد العرب المسلمين، ولكنه في نفس الوقت يكره النظام السائد في الإنفاق من أجل التطاول في البنيان في صحارى تحتاج إلى انتشار العمران انتشارًا أفقيًا وليس امتدادًا رأسيًا.. وإلا فهل يمكن لعاقل أن يصدق وجود بنيان يزيد ارتفاعه على ستين طابقًا في دولة صحراوية، وهل كان من الممكن أن يصدق ذلك أحد لو أخبر به قبل خمسين سنة فقط؟

وهل يمكن لعاقل أن يبرر هذا التسابق الجنوني على التطاول في البنيان؟ أو يملك النظر إلى هذه الكتل الخرسانية المرتفعة لمستويات مبالغ فيها جدًا دون حاجة إلى ذلك إلا أن يفسره بالرغبة في التطاول في البنيان؟ وهل يمكن للناظر إلى القصور الباذخة، والسيارات الفارهة، والإسراف المخل في كل اتجاه إلا أن يدرك حجم المؤامرة على بلادنا العربية والمسلمة لصرف إنفاقها عن الاتجاه الصحيح الذي يهدف إلى بناء الإنسان نفسيًا وروحيًا، دينيًا وفكريًا، علميًا وتقنيًا، بدنيًا وعسكريًا حتى يتمكن من الدفاع عن أرضه، وعرضه، وماله، ونفسه وولده، ودينه، ومقدساته، فلا يكون وما يملك نهبًا لقطاع الطريق الدوليين الجدد الذين أغرقوا بلاد العرب والمسلمين في ترف كاذب، وألهوهم عن بناء شعوبهم البناء الصحيح، في الوقت الذي طوروا هم أنفسهم علميًا وتقنيًا، وتفوقوا في ذلك تفوقًا كبيرًا ليفرضوا إرادتهم على العرب والمسلمين وعلى بقية دول العالم بحد الغلبة العسكرية الجائرة!!

ولا يملك الذي يتحرك في أغلب دول الجزيرة العربية اليوم، بل في أغلب الدول العربية والإسلامية – بل في أغلب دول العالم – إلا أن يقول: صدقت يا سيدي يا رسول الله، فقد ولدت الأمة ربتها، وقد تطاول الحفاة، العراة، العالة، رعاء الشاء في البنيان تصديقًا لنبوءتك ولنبوتك، وإيذانًا بقرب الساعة. فصلى الله وسلم وبارك عليك وعلى آلك وصحبك، ومن تبع هداك ودعا بدعوتك إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث التاسع والستون

«التحذير من مرض جنون البقر»



شكل (160)
صورة لإحدى البقرات ووليدها وكلاهما مصاب بمرض جنون البقر

69 «التحذيـر مـن مـرض جنـون البقـر»

■ أخرج البخاري (3176)، وابن ماجه (4042)، والطبراني (المعجم الكبير 18/54) أن رسول الله ﷺ قال عن أشراط الساعة: «اعْدُدْ ستًا بين يَدَي الساعة: مَوْتِي، ثم فتح بيت المقدس، ثم مُوتَان يكون في الناس كقُعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يُعطَى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا تبقي بيتًا من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر (الروم) فيغدرون فيأتونكم تحت ثمانين رايةً، تحت كل رايةٍ اثنا عشر ألفًا».

شرح الحديث

في هذا الحديث النبوي الشريف يحذر رسول الله ﷺ أن من الأحداث بين يدي الساعة ما يلي:

1- موته ﷺ.

2- ثم فتح بيت المقدس وهي بشرى للمسلمين من وسط ركام الانهزامية التي تعيشها الأمة في هذه الأيام.

3- ثم مُوتان يكون في الناس كقُعاص الغنم.

4- ثم استفاضة المال حتى يُعْطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا.

5- ثم فتنة لا تبقي بيتًا من العرب إلا دخلته.

6- ثم هدنة تكون بين المسلمين وبني الأصفر (وعلى رأسهم كل من الولايات المتحدة وبريطانيا)، فيغدرون بخرق الهدنة ويأتون تحت ثمانين راية، تحت كل راية اثنا عشر ألفًا).

وسوف أعلق على النقطة الثالثة فقط من القائمة السابقة والتي فيها من السّبق العلمي ما يشهد لهذا النبي الخاتم ﷺ بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان دومًا موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قبل خالق السماوات والأرض، وذلك في قوله ﷺ: «ثم مُوتان يكون في الناس كقُعاص الغنم». والمُوتان – عن معجم لسان العرب: مرض مُميت يصيب الماشية وقُعاص الغنم داء يأخذ الغنم لا يُلبثها أن تموت.



شكل (161)
صورة لقعاص
الغنم أي إصابته
بالجنون

1- **قُعاص الغنم:** هو أحد أمراض مجموعة تعرف باسم «مرض الدماغ الإسفنجي المعدي «Transmissible Spongiform Encephalopathy = T.S.E» وهي أمراض مُميتة لقضائها على الجهاز العصبي المركزي، خاصة في الدماغ، وينتشر في جميع أنواع الأنعام؛ ولذلك يعرف باسم مرض جنون البقر «Bovine Spongiform Encephalopathy = B.S.E» (Mad Cow Disease) وهو مرض مميت يصيب الجهاز العصبي المركزي للأغنام وهي من الأنعام (الإبل، البقر، الغنم، الماعز) ويتسبب بموت الخلايا الدماغية، يعرفه الأطباء البيطريون

باسم مرض سكاربي (SCARPIE) أو مرض الرجفة أو الدماغ الإسفنجي، لتمييزه عن نفس المرض الذي يصيب البقر، ويمكن أن ينتقل من كليهما إلى الإنسان.

2- مرض جنون البقر (Mad Cow Disease) «Bovine Spongiform Encephalopathy or B.S.E»: وهو مرض قاتل يشبه في أعراضه مرض الدماغ الإسفنجي الذي يصيب الغنم (القُعاص)، وقد ينتقل إلى الإنسان الذي يستهلك لحوم البقر المصاب، وقد أثار انتقال حالات جنون البقر إلى الإنسان منذ بضع سنين ضجة إعلامية وصحية اضطرت على أثرها البلاد التي ظهر فيها المرض إلى قتل عشرات الألوف من الأبقار خشية أن تكون مصابة بهذا الوباء، ومنع منذ ذلك الوقت إطعام الماشية بقايا (بودرة) البروتين الحيواني المستمدة من بقايا الماشية، وخيرًا فعلوا، فالماشية فطرها الخالق – جلَّت قدرته – على أكل العشب وليس على تناول المواد البروتينية المستخلصة من بقايا الماشية كالعظام وغيرها.



شكل (162)

3- مرض الدماغ الإسفنجي في الإنسان أو مرض كرتزفلد جاكوب (Creutzfeldt Jakob): وهو مرض نادر وقاتل (بضع حالات في المليون الواحد) سُمي باسم الطبيبين اللذين وصفا أعراضه في بداية القرن العشرين، يشبه كلًّا من مرضي قُعاص الغنم وجنون البقر، يسببه نوع من البروتينات المسببات للأمراض، وهي متناهية الضآلة في الحجم؛ إذ تصل أبعاده إلى واحد من مائة من أبعاد الفيروس وتهاجم الجهاز العصبي وتدمره وتعرف باسم برايون (PRION) تتجمع هذه البروتينات بصورة غير طبيعية في الخلايا الدماغية وتتلفها وتظهر بعدة أشكال؛ فهي إما وراثية أو انتقالية من الإنسان (بزرع أعضاء مريضة) أو بأكل لحم الأبقار المصابة.

يتساءل العاقل بعد تفهمه لقوله عليه الصلاة والسلام في أشراط الساعة «وموتان يكون في الناس كقُعاص الغنم»: مَنْ علم الرسول ﷺ إلاّ وحي السماء بأنه سيكون في القرن العشرين مرض يصيب الإنسان يشبه مرض الماشية، علمًا



شكل (163)
صورة لبقرتين مصابتين بمرض الجنون

بأن مرض جنون البقر هو مرض نادر جدًّا نسبته من أربع إلى خمس حالات في المليون، ولا يعلمه إلا المتخصصون في أمراض الجهاز العصبي.

وفي نفس هذا المعنى روى الإمام الترمذي في سننه (كتاب الأطعمة حديث رقم: 1824) بسنده قال: «حَدَّثَنَا هَنَّادٌ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَن ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَن ابْنِ عمرَ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عنْ أَكْلِ الْجَلاَلَةِ وَأَلْبَانِهَا».

والحديث رواه أبو داود في سننه أيضًا (كتاب الأطعمة، حديث رقم 3785 إلى 3787) بسنده قال:

حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا عَبْدَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ، عَن ابْنِ أَبِي نجيحٍ، عَن مُجَاهِدٍ، عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: «نَهَى رسول الله ﷺ عَنْ أَكْل الجلاَلَة وأَلْبَانِهَا».

والجلاَّلة هي الحيوانات التي دأبت على أكل النجاسات والمستقذرات من الأمور من مثل مخلفات إخراج الحيوانات الأخرى.

وتكملة الحديث: الوصية بضرورة حبس الحيوان الجلاَّل، وعلفه بالغذاء الطاهر لفترة تتناسب مع حجمه حتى يزول ما به من نجاسات، ويعود إلى حالة من النظافة والطهر تطيب نفس الإنسان السوي معها بأكل لحمه وغير اللحم من منتجاته وشرب لبنه إن كان له لبن بلا ضرر أو ضرار.

واختلف الفقهاء في حمل هذا النهي على التحريم أو التنزيه. وواضح الأمر أنه أقرب إلى التحريم إلا في حالات الضرورة القصوى، بل إن بعض الفقهاء قد زاد القول بحرمة ركوب الجلاَّلة؛ خشية أن يتعرض الراكب للتلوث بنجاسة عرقها، وغالب الرأي هو كراهة الركوب تنزهًا من نتن عرقها.

وفي زماننا أجبر الإنسان الحيوان على أكل النجاسات والمستقذرات، فأصابه من الأمراض المستعصية ما انتقل إلى الإنسان عن طريق الطعام، وحمل إلى السلالات بالميراث، بل وانتقل إلى أعداد من الحيوانات الأليفة والبرية إما عن طريق الطعام أو المخالطة، وكان السبب في ذلك هو الشره الشديد للمكسب السريع، وعدم المبالاة بأخطار مخالفة الفطرة التي فطر الله – سبحانه وتعالى – المخلوقات عليها.

ففي العقود المتأخرة من القرن العشرين تفتقت أذهان بعض الشياطين عن فكرة تغذية كل من الأغنام والماشية والدواجن بفضلات ذبح الحيوانات من الدماء، والشحوم، والأحشاء ومساحيق العظام بالإضافة إلى أعداد من الهرمونات؛ طمعًا في زيادة إنتاجها من اللحوم والألبان والبيض.



شكل (164)

صورة لأحد الأغنام المصابة بجنون الغنم (قعاص الغنم)

وفي نوفمبر 1986م فوجئت بريطانيا – ومن بعدها العديد من الدول الأوربية – بانتشار عدد من الأمراض المستعصية في تلك الحيوانات التي غذيت بالبروتينات الحيوانية، وقد فطرها الله – تعالى – على أكل الأعشاب والحبوب النباتية.

وكان من أخطر هذه الأمراض ما عرف باسم «مرض جنون البقر» (Mad Cow Disease = Bovine Spongiform Encephalopathy or B.S.E) وهذا المرض يهاجم مخ الحيوان فيدمره تدميرًا بتحويله إلى حالة إسفنجية منخرية ومتآكلة، فيفقده السيطرة على ذاته وحركاته ويهيج هياجًا شديدًا حتى الموت.

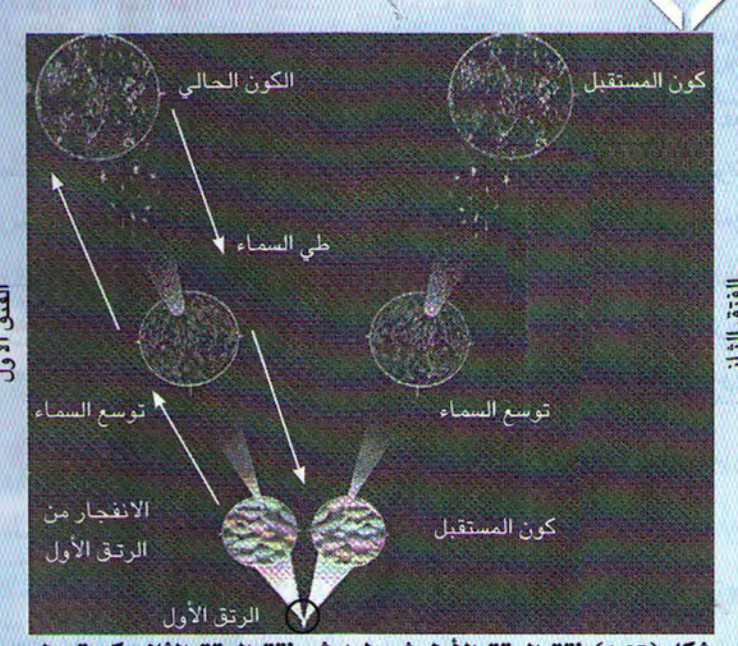
وقد ثبت انتقال هذا المرض إلى آكلي لحوم وألبان تلك الحيوانات المصابة وإلى السلالات التي أنتجتها، مما اضطر السلطات في أوربا إلى إصدار القرار بحظر استخدام البروتينات الحيوانية في تغذية كل من الماشية والأغنام والدواجن، وذلك في سنة 1988م، وبإعدام جميع الحيوانات المصابة مما أدى إلى خسائر مادية فادحة، ففي الفترة من نوفمبر 1986م – حين تم تشخيص مرض «جنون البقر» لأول مرة – إلى إبريل 1991م تم إعدام أكثر من ستة وعشرين ألف رأس من البقر المصاب في بريطانيا وحدها.

ولم يتم التعرف على مسببات هذا المرض الخطير إلى يومنا هذا، وإن كان يظن أنه «فيروس» غير عادي ذو حجم ضئيل جدًّا يقاوم كل المضادات الحيوية ودرجات الحرارة العالية، ولم يتمكن العلماء من رؤية ذلك الفيروس بعد ولا حتى تحت المجهر الإلكتروني، ولم يمكن تتبعه عن طريق الجسيمات المضادة حيث إنه لا يثير أية جسيمات مضادة في الأجسام التي يصيبها.

وكل من حديثي «قعاص الغنم» و«الجلاّلة» اللذين نطق بهما رسول الله ﷺ من قبل 1400 سنة، في بيئة لم يكن لها حظ من المعرفة العلمية، قد ثبتت صحتهما في زماننا، مما يشهد له ﷺ بالنبوة وبالرسالة، وبأنه كان موصولاً بالوحي ومعلَّمًا من قِبَل خالق السماوات والأرض، فصلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

الحديث السبعون

«يطوي الله - عز وجل - السماوات يوم القيامة»



شكل (165) فتق الرتق الأول ثم طيه ثم فتق الرتق الثاني كي تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ثم يبعث الخلق ويحشرون للحساب ثم الخلود في الحياة القادمة إما في الجنة أبدًا أو في النار أبدًا

70 «يطوي الله - عز وجل - السماوات يوم القيامة»

هذا الحديث النبوي الشريف رواه الإمام مسلم في صحيحه (حديث رقم: 2788، كتاب صفة القيامة والجنة والنار) حيث قال:

■ وَحَدَّثَنَا أَبُو بكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ حَمْزَةَ، عن سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، أَخْبَرَنِي عَبْدُالله بنُ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَطْوِي الله عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ.. أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ.. أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

– ورواه أيضًا أبو داود في سننه (حديث رقم: 4732، باب في الرد على الجهمية، كتاب: السنة) قائلاً:

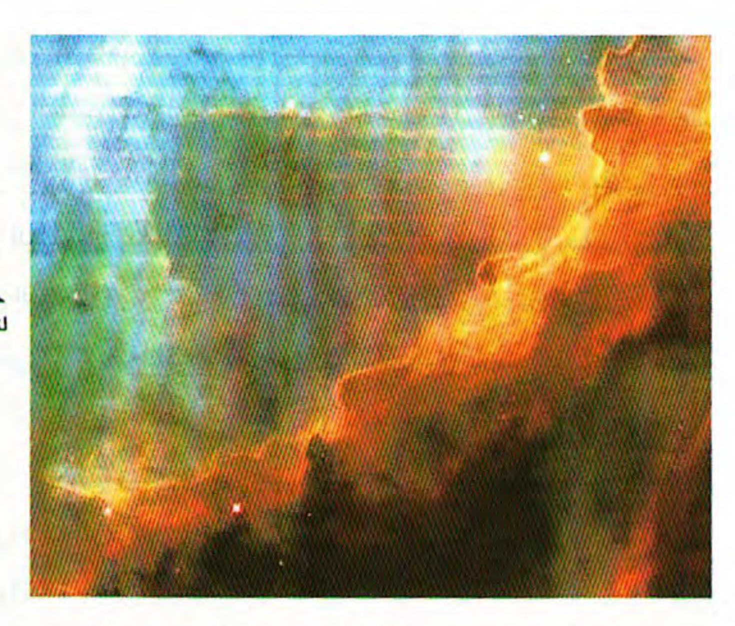
■ حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَمُحَمَّدُ بْنُ العَلاءِ أَنَّ أَبَا أُسَامَةَ أَخْبَرَهُمْ عَن عُمَرَ ابْنِ حَمْزَةَ قَالَ: قَالَ سَالِمٌ : أَخْبَرَنِي عَبْدُالله بْنُ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «يَطْوِي الله السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ.. أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ – قَالَ ابْنُ العلاءِ بِيَدِهِ الأُخْرَى – ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ.. أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟».

– ورواه ابن ماجه في سننه (حديث رقم : 198، كتاب المقدمة) قائلاً:

■ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ عَمَّارٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ الصَّبَّاحِ قَائِلاً: حَدَّثنَا عَبْدُ العَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ، حَدَّثَنِي أَبِي، عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ مِقْسَمٍ، عَنْ عَبْدِالله بْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ يَقُولُ: «يَأْخُذُ الجَبَّارِ سَمَاوَاتِهِ وَأَرْضَهُ بِيَدِهِ – وَقَبَضَ بِيَدِهِ فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا – ثَمَّ يَقُولُ أَنَا الجَبَّارُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟». قَالَ: وَيَتَمَيَّلُ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ حَتَى نَظَرْتُ إِلَى المِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَيْءٍ مِنْهُ حَتَى إِنِّي أَقُولُ: أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ الله ﷺ.

شرح الحديث

وهذا الحديث الشريف ينطلق من معنى الآية الكريمة: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:67].



شكل (166)
صورة للدخان الكوني التقطها تليسكوب هابل حيث يتكثف الدخان الكوني لتكون نجم في سديم العقاب (The Eagle Nebula) على بعد سبعة آلاف سنة ضوئية منا.

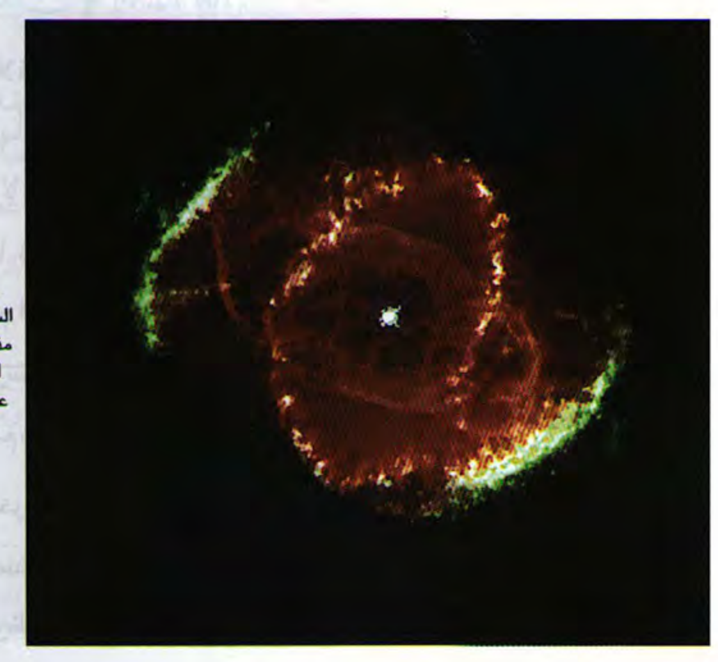
والحديث الشريف ينطلق أيضًا من معنى آية كريمة أخرى يقول فيها ربنا (تبارك وتعالى): ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 104].

ومع تسليمنا بطلاقة القدرة الإلهية التى لا تحدها حدود، ولا يقف دون إرادتها حائل، ومع إيماننا بأن قضايا الخلق والإفناء وإعادة الخلق (البعث)، من قضايا الغيب المطلق التى لا يمكن للإنسان أن يصل فيها إلى تصور صحيح أبدًا بغير هداية ربانية، فإننا نقرر إمكانية الارتقاء بإحدى النظريات المطروحة لتفسير خلق الكون إلى مقام الحقيقة لمجرد وجود إشارة لها في كتاب الله، أو في حديث صحيح مروي عن رسول الله ﷺ، ونكون بذلك قد انتصرنا بالقرآن أو بالسنة النبوية الشريفة للعلم، وليس العكس.

أما في حالة الآخرة فإننا نؤمن بأن لها من القوانين والسنن ما يغاير سنن الدنيا تمامًا؛ لأن سنن الدنيا تمشي ببطء حتى يتمكن الإنسان من إدراكها، والتعرف عليها، وتوظيفها في عمارة الأرض، أما الآخرة فلا تأتي إلا بغتة كما جاء في القرآن الكريم، ولكن من رحمة الله بنا أن يبقي لنا في صخور الأرض

وفي صفحة السماء من الشواهد الحسية ما يعيننا على فهم إمكانية وقوع أحداث الآخرة، ومن ذلك طي السماوات الذي أشار إليه حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده، والذي أشار إليه القرآن الكريم.

ففي مطلع القرن العشرين بدأ الفلكيون في ملاحظة توسع الكون بمعنى تباعد المجرات بعضها عن البعض الآخر تباعدًا بسرعات تكاد تقترب أحيانًا من سرعة الضوء المقدرة بحوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية. وأثارت الملاحظة جدلاً كبيرًا بين علماء الفلك والفيزياء الفلكية حتى تم التسليم « بحقيقة توسع أو تمدد الكون » في منتصف القرن العشرين، ووصل العلماء من تصور الرجوع بعملية اتساع الكون إلى الوراء مع الزمن إلى حتمية التقاء كل المادة، والطاقة، وكل المكان والزمان في نقطة واحدة متناهية الضآلة في الحجم، ومتناهية الضخامة في الكتلة وكم الطاقة، وقالوا بحتمية انفجار تلك النقطة في ظاهرة يسمونها «عملية الانفجار العظيم» نؤمن بها لورود إشارة لها في قول الحق – تبارك وتعالى –:



شكل (167)
صورة لانفجار أحد نجوم السماء على هيئة وردة حمراء مذهبة (وهكذا سيكون انفجار السماء في الآخرة) ليتخلق عنها قزم أبيض في النهاية.

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: 30].

كذلك ثار جدل طويل حول « عملية توسع الكون» هل هي عملية مستمرة إلى مالا نهاية، أو أن لها نهاية تتوقف عندها فتتغلب الجاذبية على مادة وطاقة الكون فتطوى السماء، وتَجْمَعُ كلاً من المادة والطاقة والمكان والزمان في نقطة واحدة شبيهة بالنقطة الأولى التى بدأ بها الكون؟ ويسمي علماء الفلك هذه العملية باسم «عملية الانسحاق الشديد» وهنا أيضًا يتدخل القرآن الكريم ليحسم القضية إلى صالح نظرية الانسحاق الشديد للكون وذلك بقول الحق – تبارك وتعالى –:

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: 104].

وهنا أيضًا يأتي حديث رسول الله ﷺ الذي نحن بصدده ناطقًا بطي السماوات يوم القيامة، وهي حقيقة لا يستطيع العلم التجريبي أن يتجاوز فيها مرحلة التنظير فوضع نظرية الانسحاق الشديد، وهي نظرية نرتقي بها نحن معشر المسلمين إلى مقام الحقيقة لوجود إشارة لها في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ.

و«نظرية الانسحاق الشديد» لم يتمكن الإنسان من بلورة تصور مبدئي لها إلا في أواخر القرن العشرين، وهنا يبرز التساؤل: كيف يمكن لكتاب أنزل قبل ألف وأربعمائة سنة أن يتحدث عن طي السماء بهذه الدقة البالغة لو لم يكن المتحدث فيه هو الخالق (سبحانه وتعالى)؟ وكيف أمكن لنبي أمي في قلب الجزيرة العربية من قبل ألف وأربعمائة من السنين (وقد كانت مجتمعًا بدائيًا، جاهليًا، لا صلة له بعلم ولا بقراءة أو كتابة) أن يتحدث عن طي السماوات لو لم يكن موصولاً بالوحي، ومعلمًا من قبل خالق السماوات والأرض؟

وهنا تتضح أهمية الإشارات الكونية في كل من كتاب الله وسنة رسوله (عليه الصلاة والسلام) في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، وهو زمن لم يعد يحرك مشاعر الناس فيه شيء كما تحركه الحقيقة العلمية. وهذه الإشارات

الكونية المنزلة من قبل ألف وأربعمائة سنة، والتى لم يستطع الإنسان الوصول إلى تصور لها إلا منذ عشرات قليلة من السنين هي أيسر وسيلة في الدعوة إلى دين الله الخاتم في وقت تحول فيه العالم إلى قرية كبيرة تتلاقى فيها مختلف الحضارات، والمعارف والمعتقدات، وأصبح لزامًا علينا أن نحسن التبليغ عن الله وعن رسوله ﷺ بلغة العصر وأسلوبه، لعل الله (تعالى) أن يفتح لنا الدنيا من أطرافها كما فتحها على أسلافنا من قبل، وما ذلك على الله بعزيز، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

خاتمــة

بعد مقدمة عن مكانة السنة في التشريع الإسلامي قمنا باستعراض ضوابط التعامل مع قضية الإعجاز العلمي في السنة النبوية المطهرة، ثم على ضوء ذلك قمنا بمناقشة سبعين حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ، المتعلقة بالكون ومكوناته وظواهره، وتم تبويبها في تسعة فصول كما يلي:

الفصل الأول: «الله الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية»، وبهذا الفصل حديث واحد فقط.

الفصل الثاني: «من أحاديث الكونيات»، وجاء به ستة عشر حديثًا.

الفصل الثالث: «من أحاديث خلق الإنسان»، ويضم ثمانية عشر حديثًا.

الفصل الرابع: «من أحاديث المفضل من الطعام»، ويضم ثمانية أحاديث.

الفصل الخامس: «من أحاديث المحرمات من الطعام»، ويضم حديثين اثنين.

الفصل السادس: «من أحاديث الوقاية والأشفية»، ويضم ستة أحاديث نبوية شريفة.

الفصل السابع: «من أحاديث السلوكيات»، ويضم عشرة أحاديث.

الفصل الثامن: «من أحاديث الموت والبعث»، ويضم حديثين فقط.

الفصل التاسع: «من أحاديث إرهاصات الساعة»، ويضم سبعة أحاديث.

وهذه الأحاديث السبعون تظهر بجلاء الدقة العلمية البالغة في أحاديث رسول الله ﷺ، والتي تشهد له بالنبوة وبالرسالة، وبأنه - صلوات الله وسلامه عليه - كان موصولاً بالوحي ومعلمًا من الله - سبحانه وتعالى - وذلك لأن هذه المعلومات لم تكن معروفة لأحد من الخلق في زمن الوحي، ولا لقرون طويلة بعد زمن الوحي لعدم توافر أدوات الكشف عنها، ومن هنا فلا يمكن أن يكون لها من مصدر إلا الله الخالق - سبحانه وتعالى -، مما يضيف إلى الدلائل العديدة على نبوة المصطفى ﷺ ويؤكد صدق رسالته.

مــن هنــا كانــت الدقة العلمية الــواردة في الحديــث النبوي الشريــف هي إحدى القرائــن الهامة لتصنيفه، وإحدى وسائل رفع السند إذا كان في سلسلته أحد الرواة المجروحــين، فذلــك لا يطعــن في صحة الحديــث إذا ثبتت صحــة مضمونه العلمي بمنهجيــة علميــة سليمــة. وكذلــك الحــال مع بعض الأحاديــث الصحيحــة السند، والتــي وضعــت في مجموعة «غريب الحديــث» أو «غريب غريب الحديــث» أو «فائق غريــب الحديــث» لغرابة في ألفاظهــا، أو لسبق في محتواها العلمــي للزمن الذي تم تحقيقها فيه.

والله – تعالى – أسأل أن يعينني على استكمال بقية الإشارات الكونية في أحاديث رسول الله ﷺ وأن يعلمنا ما لم نعلم، وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا من لدنه علمًا، والله هو الموفق والمستعان وهو الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تخريج الأحاديث والآثار
الواردة في فضل (مكة المكرمة)

خرجها الأستاذ الدكتور: ماجد أحمد نيازي الدرويش
أستاذ الحديث بجامعة الجنان - طرابلس - لبنان

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد:

فهذا تخريج مختصر للأحاديث والآثار الواردة في الدراسة التي دبجها العلامة الكبير الأستاذ الرباني الدكتور زغلول النجار حفظه الله تعالى، كتبتها بناءً على طلبه حفظه الله تعالى، وهو شرف لمثلي أن أكون محط تقدير هذا الفرد العلم فجزاه الله تعالى عن الإسلام والعلم وأهله كل الجزاء.

تخريج الأحاديث والآثار بحسب ورودها في ترتيب البحث:

1- **حديث: «أول مسجد وضع في الأرض»:**

متفق عليه من حديث إبراهيم التيمي[1]، عن أبيه، قال: سمعت أبا ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله! أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم كان بينهما؟ قال: «أربعون سنة ثم أينما أدركتك الصلاة بعد فصلّه فإن الفضل فيه».

أخرجه مسلم في كتاب المساجد وموضع الصلاة من صحيحه حديث رقم:520. والبخاري برقم 3186. وهو عند ابن خزيمة في صحيحه، كتاب جماع أبواب المواضع التي تجوز الصلاة عليها، باب: ذكر أخبار رُويت عن رسول الله ﷺ في إباحة الصلاة على الأرض كلها بلفظ عام مراده خاص حديث رقم (787)

(1) هو الصحابي الجليل إبراهيم بن الحارث القرشي التيمي، هاجر مع أبيه إلى المدينة. تنظر ترجمته في «الإصابة في تمييز الصحابة» للحافظ ابن حجر: 1/19.

(ج2/ ص5). وعند ابن حبان في صحيحه، باب: ذِكر الخبر المُدحض قولَ من زعم أن بين إسماعيل وداود ألف سنة، حديث رقم (6228)، (ج14/ ص120).

2 - حديث **«الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة»:**

هذا النص الكريم هو جزء من حديث أخرجه ابن حبان في صحيحه (9/24)، باب: ذكر البيان بأن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. والترمذي في سننه: باب ما جاء في الركن والمقام، كلاهما بلفظ أن عبد الله بن عمرو يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وهو مسند ظهره إلى الكعبة: **«الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة، ولولا أن الله طمس على نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب»**. قال الترمذي: (هذا يروى عن عبد الله ابن عمرو موقوفًا من قوله، وفيه عن أنس أيضًا وهو حديث غريب). ولا يضر كونه موقوفًا من حديث ابن عمرو؛ لأن له حكم الرفع فهو مما لا يعرف بالرأي، وإنما بالتوقيف.

وأما التفرد في رواية أنس رضي الله عنه وهي التي عبر عنها بالغرابة، فأيضًا لا تضر؛ لأنها تشهد لها رواية عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين.

والحديث رواه أيضًا البيهقي في السنن الكبرى (7/203) من نفس الطريق وبنفس اللفظ: باب ما ورد في الحجر الأسود والمقام، حديث رقم: (9010) وجاءت عنده فيه أحاديث أخر منها ما ذكره سعادة أستاذنا الدكتور زغلول النجار حفظه الله تعالى منها:

– عن الزهري[1] قال: حدثني مسافع الحجبي[2]، سمع عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: **«إن الركن والمقام من ياقوت الجنة، ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وما مسهما من ذي عاهة ولا سقيم إلا شُفي»**.

(1) هو التابعي الكبير محمد بن مسلم بن شهاب الزهري رحمه الله تعالى.

(2) ترجمه ابن أبي حاتم في (الجرح والتعديل: 8/432) فقال: (مسافع بن عبد الله الحجبي، أبو سليمان المكي روى عن المغيرة بن خالد عن عبد الله بن عمرو أن الحجر الأسود من ياقوت الجنة، روى عنه مصعب بن شيبة سمعت أبي يقول ذلك. ثم ذكر أن شعبة بن الحجاج روى عنه، ومعلوم أن شعبة لا يروي إلا عن ثقات.



– وفي رواية: «لولا ما مسه من أنجاس الجاهلية، ما مسه ذو عاهة إلا شفي، وما على الأرض شيء من الجنة غيره».

– وعن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود من حجارة الجنة». فكل هذه الروايات تشهد لصحة الحديث.

3- حديث: «الحجر الأسود نزل من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن...»:

أخرجه الترمذي في سننه، باب: ما جاء في فضل الحجر الأسود والركن والمقام، بسنده إلى ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسوَّدته خطايا بني آدم». قال: وفي الباب عن عبد الله بن عمرو، وأبي هريرة قال أبو عيسى الترمذي: حديث ابن عباس حديث حسن صحيح.

4- حديث: «لولا ما طُبِع على الركن من أنجاس الجاهلية وأرجاسها وأيدي الظلمة والأثمة...» الحديث.

جزء من حديث طويل أخرجه الإمام الطبراني في معجمه الكبير: 11/55 رقم 11028 من حديث وهب بن مُنَبِّه، عن طاوس بن كيسان، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ، قال: «لولا ما طبعَ الركنَ من أنجاس الجاهلية وأرجاسها وأيدي الظلمة والأثمة، لاستُشفِيَ به من كل عاهة، ولألفي اليوم كهيئته يوم خلقه الله، وإنما غيَّره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا إلى زينة الجنة، وليصيرُنَّ إليها، وإنه لياقوتة من ياقوت الجنة، وضعه الله حين أنزل آدم في موضع الكعبة قبل أن تكون الكعبة، والأرضُ يومئذ طاهرةٌ ولم يعمل فيها شيء من المعاصي، وليس لها أهل ينجسونها، فوُضع له صفٌّ من الملائكة على أطراف الحرم يحرسونه من سكان الأرض، وسكانها يومئذ الجن[1]، لا ينبغي لهم أن ينظروا إليه لأنه شيء من الجنة، فالملائكة يذودونهم عنه، وهم وقوف على أطراف الحرم يُحْدِقون به من كل جانب ولذلك سمي الحرم؛ لأنهم يحولون فيما بينهم وبينه». قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد 3/ 343: وفيه من لم أعرفه ولا له ذكر.

(1) فيه دليل على أن سكان الأرض قبل بني آدم هم الجن، وهذا يرد على من زعم أن آدم ليس أبا البشر.

إلا أن الحديث له شواهد كثيرة ذكر غالبها الهيثمي في الموضع السابق من الزوائد، باب فضل الحجر الأسود، منها:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الركن يوم القيامة أعظم من أبي قَبيس[1] له لسان، وشفتان». رواه أحمد والطبراني في الأوسط وزاد: «يشهد لمن استلمه بالحق، وهو يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه». وفيه عبد الله بن المؤمل[2]، وثَّقه ابن حبان، وقال: يخطئ وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح.

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال رسول الله ﷺ: «أَشهِدوا هذا الحجر خيرًا، فإنه يوم القيامة شافع مشفَّع، له لسان وشفتان، يشهد لمن استلمه». رواه الطبراني في الأوسط وفيه الوليد بن عباد وهو مجهول وبقية رجاله ثقات.

وعن أنس، عن رسول ﷺ قال: «الحجر الأسود من حجارة الجنة». رواه البزار والطبراني في الأوسط، وفيه عمر بن إبراهيم العبدي، وثَّقه ابن معين وغيره، وفيه ضعف.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث الله الحجر الأسود والركن اليماني يوم القيامة ولهما عينان ولسان وشفتان يشهدان لمن استلمهما بالوفاء». رواه الطبراني في الكبير من طريق بكر بن محمد القرشي عن الحارث بن غسان، وكلاهما لم أعرفه.

وعن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «الحجر الأسود من حجارة الجنة، وما في الأرض من الجنة غيره، وكان أبيض كالمها – جمع مهاة وهي البِلَّورة – ولولا ما مسه من رجس الجاهلية، ما مسه ذو عاهة إلا برأ». رواه الطبراني في الأوسط والكبير، وفيه محمد بن أبي ليلى وفيه كلام.

---

(1) جبل في مكة.

(2) هو عبد الله بن المؤمل الراوي عن ابن الزبير المكي (ينظر تاريخ بغداد: 3/179)، وليس عبد الله ابن المؤمل بن وهب المخزومي، الذي يروي عن عطاء بن أبي رباح، وعنه الإمام الشافعي والإمام سفيان بن سعيد الثوري وناهيك بهما، الذي ذكره ابن حبان في الثقات (7/28) في باب العين، والذي تكلم فيه الإمام أحمد، وابن معين، ينظر الجرح والتعديل (5/175). وبالتالي فالتضعيف ليس له.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا ما طبعَ الركنَ من أنجاس الجاهلية وأرجاسها وأيدي الظلمة والأثمة لاستشفى به من كان به داءٌ». رواه الطبراني في الأوسط وفيه جماعة لم أجد من ترجمهم.

وعن عبد الله بن عمرو قال: «نزل الركن الأسود من السماء، فوُضع على أبي قبيس كأنه مهاة بيضاء، فمكث أربعين سنة، ثم وضع على قواعد إبراهيم». وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات. انتهى من مجمع الزوائد. ومن قبله قال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني في الكبير موقوفًا بإسناد صحيح. انتهى.

فهذه الروايات التي أوردها الحافظ الهيثمي تشهد أن للحديث أصلاً ويقوي بعضها بعضًا.

وفي الباب أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عند البيهقي في السنن الكبرى: 5/ 75، رقم 9011و 9012. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه رقم 9013: أما حديث ابن عمرو فقد رواه من طريقين: الأولى من رواية الزهري، قال: حدثني مسافع الحجبي، سمع عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الركن والمقام من ياقوت الجنة، ولولا ما مسهما من خطايا بني آدم لأضاءا ما بين المشرق والمغرب، وما مسهما من ذي عاهة ولا سقيم إلا شفي». وقد سبق الكلام عنه.

والثانية: من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن عبد الله بن عمرو يرفعه قال: «لولا ما مسه من أنجاس الجاهلية، ما مسه ذو عاهة إلا شفي، وما على الأرض شيء من الجنة غيره». ورواه البيهقي أيضًا في شعب الإيمان: 3/ 449 رقم 4033.

وأما حديث أنس فقد رواه من طريق عمر بن إبراهيم، عن قتادة عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «الحجر الأسود من حجارة الجنة».

وقد أورد الحافظ عبد العظيم المنذري أكثر هذه الروايات في كتابه: الترغيب والترهيب: 2/ 124-126، وهي على حسب مصطلح المنذري في كتابه مقبولة.

5- حديث: «ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم»:

أخرجه بهذا اللفظ عن أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا كل من البزار في مسنده: 9/ 361 حديث رقم: 3929. وأبو داود الطيالسي في مسنده: 1/ 61 رقم 457.

وأخرجه عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه موقوفًا على: كعب الأحبار (5/ 115 رقم 9117)، ووهب بن منبه: (5/ 117 رقم 9121)، وطاوس بن كيسان (5/ 118 رقم 9122).

وجاءت هذه العبارة ضمن قصة إسلام أبي ذر الطويلة وهي عند أحمد في مسنده (5/ 174 رقم (21565) ومسلم في صحيحه (4/ 1919 رقم 2473) إلا أنه اقتصر على عبارة «طعام طعمة» فقط، وعند البزار في مسنده (9/ 365 و369 رقم 295). وابن حبان في صحيحه (16/ 81 رقم 7133).

والحديث صححه كل من الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (3/ 286) والحافظ ابن حجر في الفتح (3/ 493). ويؤيده عمل الصحابة، فعن أبي الطفيل أنه سمع ابن عباس يقول: كنا نسميها شبّاعة - يعني زمزم - وكنا نجدها نعم العون على العيال. قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

6- حديث: «زمزم لما شرب له».

أخرجه بهذا اللفظ من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - كل من:

الإمام أحمد في المسند (3/ 357 رقم 14892)، وابن أبي شيبة في مصنفه (3/ 273 رقم 14137)، وابن ماجه في سننه (2/ 1018 رقم 3062)، والطبراني في الأوسط (4/ 1240 رقم 3815)، والحاكم في المستدرك (1/ 646 رقم 1739)، والبيهقي في السنن الكبرى (5/ 148 رقم 9442).

كذلك أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3/ 481 رقم 4127) من حديث عبد الله ابن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وأخرجه الدارقطني في سننه (2/ 289 رقم 238) بلفظ أطول عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ماء زمزم لما شرب له إن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه الله. وهي هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل**». كما أخرجه الحاكم في المستدرك: (1/ 646 رقم1739). بلفظ:

«ماء زمزم لما شرب له. فإن شربته تستشفي به شفاك الله، وإن شربته مستعيذًا عاذك الله، وإن شربته ليقطع ظمأك قطعه». قال: وكان ابن عباس إذا شرب ماء زمزم قال: اللهم أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء.

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي[1] ولم يخرجاه.

قال الحافظ المنذري: قال الحافظ ابن القطان: سلم منه فإنه صدوق، قاله الخطيب البغدادي وغيره، لكن الراوي عنه محمد بن هشام المروزي لا أعرفه[2].

وروى الدارقطني دعاء ابن عباس مفردًا من رواية حفص بن عمر العدني.

والهَزْمَةُ، بفتح الهاء وسكون الزاي، هي أن تغمز موضعًا بيدك أو رجلك فتصير فيه حفرة.

وعن سويد بن سعيد[3]، قال: رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى ماء زمزم واستسقى منه شربة ثم استقبل الكعبة فقال: اللهم إن ابن أبي الموال حدثنا عن محمد بن المنكدر، عن جابر أن رسول الله ﷺ: قال: «ماء زمزم لما شرب له» وهذا أشربه لعطش يوم القيامة، ثم شرب. رواه كل من أحمد بإسناد صحيح،

---

(1) محمد بن حبيب الجارودي يروي عن أبي حازم، وعن سفيان بن عيينة. (الثقات: 9/110)..

(2) والراوي عنه: محمد بن هشام بن علي المروزي، قال ابن القطان: لا يعرف فتعقبه الحافظ العراقي في الذيل على ميزان الاعتدال (ص188) والحافظ ابن حجر في لسان الميزان (5/ 115) بأن كلام الحاكم يقتضي أنه عرّفه بالثقة، فإنه قال عقب هذا الحديث: هذا حديث صحيح الإسناد إن سلم من الجارودي؛ فدل أن بقية رواته ثقات عنده. ونقل الحافظ في اللسان أيضًا عن الخطيب في تاريخه عن محمد بن حبيب الجارودي أنه كان صدوقًا فيحتمل أن يكون هو هذا. وجزم أبو الحسن القطان بأنه هو، وتبعه على ذلك ابن دقيق العيد، والدمياطي. وقد أخرج الدارقطني والحاكم جميعًا من طريق محمد بن هشام بن على المروزي، حدثنا محمد بن حبيب الجارودي، حدثنا سفيان بن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما، رفعه: «ماء زمزم لما شرب له...» الحديث. فهذا خطأ الجارودي؛ وصله، وإنما رواه ابن عيينة موقوفًا على مجاهد، كذلك حدث به عنه حفاظ أصحابه كالحميدي، وابن أبي عمر، وسعيد بن منصور، وغيرهم. وهذا يعني أنه إن لم يصح مرفوعًا فقد صح موقوفًا وهذا من علل الأسانيد التي لا تضر، ويبقى له حكم الرفع؛ لأنه مما لا يعرف بالرأي والاجتهاد.

(3) هو سعيد بن سويد الحدثاني، من رجال مسلم، ذكره العجلي في الثقات (1/442)..

والبيهقيُّ وقال غريب من حديث ابن أبي الموال عن ابن المنكدر، تفرد به سويد عن ابن المبارك من هذا الوجه عنه. انتهى.

وروى أحمد وابن ماجه المرفوع منه عن عبد الله بن المؤمل أنه سمع أبا الزبير يقول: سمعت جابر بن عبد الله يقول: فذكره، وهذا إسناد حسن. انتهى من الترغيب والترهيب: (2/136).

وقال المناوي في فيض القدير: قال الحاكم: صحيح إن سلم من الجارودي. قال ابن القطان: سلم منه. وأطال في البيان وقال: في الفتح: رجاله موثقون، لكن اختلف في إرساله ووصله، وإرساله أصح. فقال في التخريج: الجارودي صدوق، إلا أن روايته شاذة. وقال: وعمر هذا قال في الميزان، أي الحافظ الذهبي، ضعفه الدارقطني، ويروى عنه أنه كذاب وصاحب بلايا، منها هذا الخبر. قال - أعني الذهبي - آفته عمر، فلقد أثم الدارقطني بسكوته عليه، فإنه بهذا الإسناد باطل ما رواه ابن عيينة. وردَّه في اللسان - أي الحافظ ابن حجر - بأنه هو الذي أثم بتأثيم الدارقطني وأطال في بيانه.

وقال الحافظ في التلخيص الحبير: والجارودي صدوق إلا أن روايته شاذة، فقد رواه الحفاظ أصحاب ابن عيينة: الحميدي وابن أبي عمر، وغيرهما، عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد من قوله.

ومما يقوي رواية ابن عيينة ما أخرجه الدينوري في المجالسة، من طريق الحميدي، قال: كنا عند ابن عيينة، فجاء رجل، فقال: يا أبا محمد! الحديث الذي حدثتنا عن ماء زمزم صحيح؟ قال: نعم، قال: فإني شربته الآن لتحدثني مائة حديث. فقال: اجلس، فحدَّثه مائة حديث.

وروى أبو داود الطيالسي في مسنده من حديث أبي ذر رفعه قال: «زمزم مباركة إنها طعام طعم وشفاء سقم»، وأصله في صحيح مسلم دون قوله وشفاء سقم. انتهى من تلخيص الحبير: (2/ 269).

وجاء في تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي رحمه **الله** (3/1312) تحت عنوان: «فصل في أسماء المواضع»، ما يلي:

زمزم: زادها **الله** تعالى شرفًا، بزاءين وفتحهما وإسكان الميم بينهما، وهي بئر في المسجد الحرام زاده **الله** تعالى شرفًا، بينها وبين الكعبة – زادها **الله** تعالى شرفًا – ثمان وثلاثون ذراعًا، قيل سميت زمزم لكثرة مائها، يقال: ماء زمزم وزمزم بانتساخ إذا كان كثيرًا، وقيل لضم هاجر عليها السلام لمائها حين انفجرت وزمها إياها، وقيل لزمزمة جبريل وكلامه، وقيل مشتق. ولها أسماء أخر ذكرها الأزرقي وغيره، (منها):

هزمة جبريل: (والهزمة الغمزة بالعقب في الأرض)، **وبَرَّة**، **وشَبَّاعة**، **والمضنونة**، **وتُكْتَم**، ويقال لها **طعام طعم وشفاء سقم**، **وشراب الأبرار**. وجاء في الحديث: **«ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم»**.

وجاء: **«ماء زمزم لما شرب له»**. معناه من شربه لحاجة نالها. وقد جربه العلماء والصالحون لحاجات أخروية ودنيوية فنالوها بحمد **الله** تعالى وفضله.

وفي الصحيح عن أبي ذر الغفاري رضي **الله** تعالى عنه أنه أقام شهرًا بمكة لا قوت له إلا ماء زمزم. وفضائلها أكثر من أن تحصر **والله** تعالى أعلم. انتهى.

وجاء في شرح سنن ابن ماجه للدهلوي: 1/ 220:

«زمزم لما شرب له»، أي لكل مهم من مهمات الدنيا والآخرة. أخرج هذا الحديث الحاكم وصححه، والبيهقي في الشعب، وابن حبان، ومن المتقدمين ابن عيينة، ومن المتأخرين الحافظ ابن حجر، واشتهر عن الشافعي أنه شربه للرمي فكان يصيب من كل عشرة تسعة، ولا يحصى كم شرب من الأئمة لأمورٍ نالوها به، وبعضهم للعطش يوم القيامة، وأولى ما يشرب لتحقيق الإيمان والثبات عليه. وهو أفضل المياه الموجودة، حتى الكوثر كما صح عن السراج البلقيني؛ لأنه غسل به الصدر الشريف. والنظر إليها والطهور منها يحط الخطايا، وما امتلأ جوف أحد من زمزم إلا ملئ علمًا وبرًا. انتهى.

7- حديث: (ماء زمزم خير ماء على وجه الأرض...):

أخرج الإمام الطبراني في المعجم الكبير: (11/98 رقم 11167) والأوسط: (4/179 رقم 3912) عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم: فيه طعام من الطعم وشفاء من السقم. والله ما على وجه الأرض ماء شر من ماء بئر بوادي برهوت، كرجل الجراد من الهوام، يصبح يتدفق ويمسي لا بَلال بها**». قال المنذري: رواه الطبراني في الكبير ورواته ثقات، كما رواه ابن حبان في صحيحه. وأخرجه في الأوسط (8129) بلفظ: «**خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام من الطعم، وشفاء من السقم، وشر ماء على الأرض ماء بوادي برهوت**»

8- حديث: «إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من ماء زمزم»:

أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (5/ 147 رقم 9438) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما في قصةٍ مرفوعًا.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في تلخيص الحبير (2/ 269) أن الحديث عند الدارقطني والحاكم ولم يعقّب عليه مما يعني قبوله عنده.

وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (2/ 28/ رقم 1079) مقتصرًا على المتن دون القصة.

9- حديث: «كان النبي من الأنبياء إذا هلكت أمته لحق مكة فتعبد بها هو ومن آمن معه حتى يموتوا، فمات بها نوح وهود وصالح وقبورهم بين زمزم والحجر»:

أخرجه الأزرقي في أخبار مكة (1/44) من حديث محمد بن سابط مرسلاً.

ومحمد بن سابط تابعي روى عن النبي ﷺ مرسلاً، قال فيه أبو حاتم الرازي: لا أعرفه. [الجرح والتعديل: (7/283 رقم -1526)]، وذكره البخاري في التاريخ الكبير (1/104) ساكتًا عنه، مما يعني توثيقه عنده. ومعلوم أن مراسيل التابعين قبل المائتين ما تردد في قبولها أحد (ينظر كتاب: المراسيل لابن أبي حاتم).

وقال الإمام القرطبي في تفسيره (2/130): وذكر ابن وهب أن شعيبًا مات بمكة هو ومن معه من المؤمنين، فقبورهم في غربي مكة بين دار الندوة وبين بني سهم.

وقال ابن عباس: في المسجد الحرام قبران ليس فيه غيرهما: قبر إسماعيل وقبر شعيب عليه السلام؛ فقبر إسماعيل في الحجر، وقبر شعيب مقابل الحجر الأسود.

وقال عبد الله بن ضمرة السلولي: ما بين الركن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًّا، جاءوا حجاجًا، فقبروا هنالك، صلوات الله عليهم أجمعين. انتهى. فالله أعلم.

10- حديث: «إذا كنت بين الأخشبين من منى...»:

أخرجه مالك في الموطأ، عن محمد بن عمرو بن حلحلة، عن محمد بن عمران الأنصاري، عن أبيه أنه قال: عدل إلي عبد الله بن عمر، وأنا نازل تحت سَرْحَةٍ بطريق مكة، فقال: ما أنزلك تحت هذه السرحة؟ فقلت: أردت ظلها، فقال: ذلك؟ فقلت: لا، ما أنزلني إلا ذلك، فقال ابن عمر: قال رسول الله ﷺ: «إذا كنت بين الأخشبين من مني- ونفخ بيده نحو المشرق، فإن هناك واديًا يقال له السُّرَر، به شجرةُ سَرٍّ تحتها سبعون نبيًّا».

وأخرجه أحمد في المسند: (2/138 رقم 6233)، والنسائي في سننه (5/248 رقم 2995) وفي الكبرى (2/417 رقم 3986). وأخرجه ابن حبان في صحيحه (14/137 رقم 6244).

قال أبو عمر ابن البر (التمهيد 13/64): «لا أعرف محمد بن عمران هذا إلا بهذا الحديث، وإن لم يكن أبوه عمران بن حبان الأنصاري، أو عمران بن سوادة، فلا أدري من هو.

وحديثه هذا مدني وحسبك بذكر مالك له في كتابه.

أما قوله: وأنا نازل تحت سرحة، فالسرحة الشجرة. قال الخليل[1]: السرح الشجر الطوال الذي له شعب وظل واحدتها سرحة.. قال الأصمعي[2]: السرر على أربعة أميال من مكة عن يمين الجبل، كان عبد الصمد بن علي[3]: قد بنى عليه مسجدًا.

---

(1) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، اللغوي الإمام المعروف.

(2) الإمام اللغوي المعروف.

(3) هو عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أمير عباسي هاشمي، وهو عم المنصور، كان عامله على مكة والطائف سنة 147هـ، ثم ولي المدينة، ثم عزل، ثم ولي الشام وغيرها، ثم ساءت أموره وعمي في آخر حياته. توفي سنة 185هـ.

وأما قوله: «نفخ بيده». فالنفخ هاهنا الإشارة بيده، كأنه يقول: رمى بيده نحو المشرق: أي مدها وأشار بها. والسرر اسم الوادي.

والأخشبان الجبلان. قال ابن وهب في قوله: «إذا كنت بين الأخشبين من منى» قال: يعني الجبلين اللذين تحت العقبة بمنى فوق المسجد.

11- حديث: «الحُجّاج والعُمّار وفد الله: إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم»:

أخرجه بهذا اللفظ الإمام ابن ماجه في سننه (2/966 رقم 2892) عن أبي هريرة رضي الله عنه والبزار في مسنده بلفظ قريب عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعًا بسند رجاله ثقات (ينظر مجمع الزوائد 3/211)

كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان 3/ 475 رقم 4104) من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ: أن رسول ﷺ قال: «الحُجّاج والعُمّار وفد الله إن سألوا أعطوا، وإن دعوا أجيبوا، وإن أنفقوا أخلف لهم. والذي نفس أبي القاسم بيده ما كبَّر مُكَبِّرٌ على نشز، ولا أهلَّ مُهِلٌّ على شرف من الأشراف إلا أهل ما بين يديه وكبر، حتى ينقطع به منقطع التراب»، وذكر له متابعات.

كما أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (2/461) بلفظ قريب.

وله شاهد عند الطبراني في الأوسط (6/247) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

12- حديث: «يَنْزِل الله على أهل المسجد - مسجد مكة - كل يوم عشرين ومائة رحمة، ستين منها للطائفين وأربعين للمصلين وعشرين منها للناظرين»:

أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في المعجم الأوسط (6/248 رقم 6314) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا. وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة: (رقم 327) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

13- حديث: «لا تزال هذه الأمة بخير ما عظموا الحرمة حق تعظيمها، فإذا ضيعوا ذلك هلكوا»:

أخرجه بهذا اللفظ الإمام أحمد في المسند (4/ 347)، وابن أبي شيبة في مصنفه (3/ 268 رقم 14090)، وابن ماجه في سننه (2/ 1038)، وعمر بن شبَّة في أخبار

مكة (2/253 رقم 1458) كلهم من حديث عياش بن أبي ربيعة المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. قال الحافظ ابن حجر في الفتح (3/ 449): وسنده حسن.

14- حديث: «إن مكة حرَّمها الله ولم يحرمها الناس..» جزء من حديث طويل متفق عليه:

أخرجه مسلم (2/987 رقم 1354) واللفظ له، والبخاري (1/51 رقم 104). عن أبي شريح العدوي[1]: رضي الله عنه أنه قال لعمرو بن سعيد[2]، وهو يبعث البعوث إلى مكة: (ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا، ولا يعضد بها شجرةً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فيها فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب». فقيل لأبي شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: (أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح، إنَّ الحرم لا يعيذ عاصيًا ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخربة).

وهذا كان زمن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فقد أرسله يزيد على أهل مكة بعد وقعة الحرَّة في المدينة المنورة.

---

(1) خويلد بن عمرو، أبو شريح العدوي الخزاعي. اختلف في اسمه فقيل: كعب بن عمرو، وقيل: عمرو ابن خويلد وقيل: هانئ والأكثر خويلد. نزل المدينة وأسلم قبل الفتح وتوفي بالمدينة سنة ثمان وستين. (أسد الغابة 1/334).

(2) عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس: من التابعين الكبار، ويقال: إنه رأى النبي ﷺ وروي عنه أنه قال: «ما نحل والد ولدًا أحسن من أدب حسن»، وحديث آخر في العتق وروى عن عمرو بن عثمان، وعلي، وعائشة، رضي الله عنهم، وحدَّث عنه بنوه: أمية، وسعيد، وموسى، وغيرهم، وكان معاوية استنابه على المدينة، وكذلك ابنه يزيد بن معاوية بعد أبيه، وكان يبعث البعوث إلى مكة بعد وقعة الحرة أيام يزيد لقتال ابن الزبير، وكان حريٌّ له أمور كثيرة، فآخر الأمر قتله عبد الملك بن مروان في سنة تسع وستين من الهجرة، وكان أفقم، فلذلك سمي الأشدق.. (رجال معاني الآثار للإمام بدر الدين العيني: 3/ 451).

15- **حديث: «إِن هذَا البلَدَ حَرَّمه اللّه لا يُعضَدُ شَوْكُهُ، ولا يُنَفَّرُ صَيْدُهُ ولا يَلْتَقِطُ لُقَطَتَهُ إلا مَنْ عَرَّفَهَا»:**

أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، باب فضل الحرم، حديث رقم 1484 من طريق ابْن عَبَّاسٍ رَضىَ الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ يَوْمَ فتح مَكَّةَ، فساقه بلفظه.

16- **حديث: «إن اللّه حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام اللّه إلى يوم القيامة»:**

أخرجه كل من البخاري في صحيحه (رقم 4313) وعبد الرزاق الصنعاني في مصنفه (5/ 140 رقم 9189) مرسلاً عن مجاهد قال: «إن النبي ﷺ قام يوم الفتح فقال: «إن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة، فلم تحل لأحد قبلي، ولا لأحد بعدي، ولم تحل لأحد قط إلا ساعة من الدهر، فهي حرام بحرام الله إلى يوم القيامة؛ لا ينفر صيدها، ولا يعضد شوكها، ولا يختلى خلاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد». فقال العباس بن عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله، إنه لابد منه إنه لِلْقَيْنِ وللبيوت. فسكت النبي ﷺ ثم قال: «إلا الإذخر فهو حلال».

وقد ذكر له البخاري طرقًا من حديث ابن عباس وأبي هريرة رضى الله عنهم.

17- **حديث: (لا يحل لأحد أن يحمل السلاح في مكة):**

أخرجه بهذا اللفظ ابن حبان في صحيحه (9/ 27، رقم 3714) وهو عند مسلم في صحيحه (2416) بلفظ (**لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح**)، من حديث جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما.

■ **فائـدة:**

جاء في الموسوعة الفقهية تحت عنوان: «حَمْل السِّلاحِ بِمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ» ما يلي:

لاَ يَجُوز حَمْل السِّلاَحِ بِمَكَّةَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ؛ لمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ جَابِرٍ مَرفُوعًا: «لاَ يَحِل لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِل بمَكَّةَ السِّلاَحَ». **وَقَال الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: لاَ يَحِل لأَحَدٍ أَنْ يَحْمِل السِّلاَحَ بمَكَّةَ؛ لأَنَّ الْقِتَال فيهَا مَنْهِيٌّ عَنْهُ فَلاَ يحِل مَا يُسَبِّبُهُ.**

قَال الْقَاضِي عِيَاضٌ: وهُو مَحْمُولٌ عِنْدَ أَهْل الْعِلْم عَلَى حَمْل السِّلاَحِ لغَيْرِ ضَرُورة أَوْ حَاجَةٍ، فَإِنْ كَانَتْ حَاجَةٌ جَازَ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ دخل عامَ عُمرةِ القضاءِ بما اشترطه من السِّلاح في القرابِ، ولدخوله ﷺ عَامَ الفَتْحِ مُتَأَهِّبًا للْقِتَال.

18- حديث: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة»:

متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (1747) بلفظ أتم عن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إلا سيَطَؤُهُ الدَّجَال إلا مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ لَيْسَ لَهُ مِنْ نِقَابِهَا نَقْبٌ إلا عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ يَحْرُسُونَهَا ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثلاثَ رَجَفَاتٍ فَيُخْرِجُ اللهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ» . كذلك أخرجه مسلم (5236) بلفظ: «لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إلاَّ سَيَطَؤُه الدَّجَّالُ إلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إلا عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا فَيَنْزِلُ بِالسَّبخَةِ فَتَرْجُفُ الْمَدِينَةُ ثَلاثَ رَجَفَاتٍ يَخْرُجُ إلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كافرٍ وَمُنَافِقٍ».

19- حديث: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، فإن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة في غيره، وصلاة في المسجد الأقصى بخمسمائة صلاة».

لم أجده بهذا اللفظ إلا في مقدمات كتب فضائل مكة. ولكن أخرج الإمام مسلم في صحيحه (3440) الجزء الأول منه فقط إلى قوله: «إلا المسجد الحرام» وهو المحفوظ.

ولكن ابن ماجه في سننه (حديث رقم 1478) أخرج عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «صَلاَةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ بِصَلاَةٍ، وَصَلاَتُهُ فِي مَسْجِدِ الْقَبَائِلِ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ صَلاةً، وَصَلاَتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الذِي يُجمَّعُ فيهِ بِخَمْسِمائة صلاة، وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصىَ بِخَمْسين أَلْفَ صَلاةٍ، وَصَلاةٌ فِي مَسْجِدِي بِخَمْسِينَ أَلْفَ صَلاَةٍ وَصَلاَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلاَةٍ» . إلا أن الحافظ ابن حجر قال في تلخيص الحبير (4/ 438): إسناده ضعيف.

وقد اختلفت الروايات في أجر الصلاة في المسجد الأقصى وأشهرها عند أهل العلم (خمسمائة) إلا أنه لا يصح في شأنها حديث مرفوع، إلا أن شهرة ذلك عند أهل العلم تدل على أن للحديث أصلاً، والله أعلم.

20- حديث: «في مسجد الخيف قَبر سبعين نبيًا»:

وفي رواية: «قُبِرَ سبعون نبيًا» ببناء قُبر للمفعول. أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (12/414 رقم 13525) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال المناوي في (فيض القدير: 4/603): «ورواه عنه أيضًا البزار، وقال الهيثمي: ورجاله ثقات». وأخرجه الفاكهي في أخبار مكة (7/102 رقم 2525).

21- حديث: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا». متفق عليه.

أخرجه البخاري (1115): منْ حديث أَبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى».

ومسلم (2475) بلفظ: «لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إلاَّ إِلَى ثَلاثة مَسَاجِدَ: مَسْجِدِي هَذَا وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى».

22- حديث: «كانت الكعبة خُشْعة على الماء فدُحِيَت منها الأرضُ»:

الحديث لم أجده مسندًا إلا أنه يبدو أنه مما هو مشهور عند الأئمة فقد استشهدوا به في كتبهم على معنى (الخُشعة). وهي: أكَمَةٌ لاطِئةٌ بالأرض، والجمْع خُشع. وقيل هو ما غَلَبت عليه السُّهولة: أي ليس بحجَر ولا طين ويروى خشفة بالخاء والفاء. على ما قاله ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر (2/91). وممن استشهد به:

- الإمام القرطبي في تفسيره (1/374).
- والإمام ابن حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط (1/338).
- والإمام الزمخشري في كتابه (الفائق في غريب الحديث والأثر): (1/ 286).
- وابن سيده في المخصص (4/ 63)، وفي المحكم، والمحيط الأعظم له (1/ 130).

- والخليل بن أحمد الفراهيدي في كتاب العين (1/112).

-والأزهري في تهذيب اللغة (1/34).

- وابن منظور في لسان العرب (8/ 71).

فهذا كله يدلل على أن للحديث أصلاً. والله أعلم.

23- حديث: «دُحِيَت الأرض من مكة، فمدَّها الله تعالى من تحتها فسميت أم القرى»:

جاء بهذا اللفظ من حديث الحسن البصري مرسلاً عن النبي ﷺ، في أول الجزء المروي عنه بعنوان: (فضائل مكة والسكنى فيها) (ص: 19).

وأخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما من حديث عطاء بن السائب، عن عبد الرحمن بن سابط أن رسولَ الله ﷺ قال: «دُحيت الأرض من مكة، وأول من طاف بالبيت الملائكة.. فقال الله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يعني مكة».

قال الحافظ ابن كثير: (1/217):

وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مُدْرَج، وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم، فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك.

وفي اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الدمشقي (1/203): روى ابن سابط عن النبي ﷺ قال: «دُحِيَتِ الأرضُ من مَكَّةَ»، ولذلك سميت «أم القرى».

فهذا كله يدل على أن للحديث أصلاً.

24- حديث: «البيتُ المعمور مَنَا مَكّة»: أي بحذَائِها في السماء. يقال: داري مَنَا دارِ فُلانٍ: أي مُقَابلُها.

لم أجده مسندًا، إلا أن العلماء استشهدوا به على التسليم، كما في «النهاية في غريب الحديث والأثر» وكما في «غريب الحديث لابن الجوزي» والصحاح للجوهري، وتاج العروس من جواهر القاموس، وغيرها من كتب الغريب واللغة. ويشهد له ما يأتي بعدُ.

25- حديث: «البيت المعمور بيت في السماء بحيال الكعبة»:

أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3/ 438 رقم 3994) بلفظ أتم موقوفًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: (**البيت المعمور بيت في السماء بحيال الكعبة لو سقط سقط عليها، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك. والحرم حرم بحياله إلى العرش. وما من السماء موضع إهاب إلا وعليه ملك ساجد أو قائم**). ولا يخفى أن له حكم الرفع.

كما وردت في معناه أحاديث كثيرة بلغت مبلغ الشهرة المستفيضة رويت عن جماعة من الصحابة، منها المرفوع ومنها الموقوف في حكم المرفوع؛ فممن روي عنه هذا المعنى مرفوعًا: أنس بن مالك. وممن روي عنه موقوفًا: علي، وابن عباس.

كما روي موقوفًا على بعض كبار التابعين، منهم: مجاهد بن جبر، وعكرمة، وقتادة بن دعامة السدوسي. ينظر في ذلك تفسير الطبري (27/ 16 و17) وغيره من التفاسير عند قول الله تعالى (والبيت المعمور) من سورة الطور.

26- حديث: «يا معشر أهل مكة إنكم بحذاء وسط السماء»:

أخرجه الفاكهي في (أخبار مكة: 4/ 269 رقم 1549) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ أتم وتتمته: «**وأقل الأرض ثيابًا، فلا تتخذوا المواشي**». وفي سنده طلحة بن عمرو المكي متفق على تضعيفه. تنظر ترجمته في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي (4/ 478 رقم 2097).

27- حديث: «إن هذا الحرم حرم مناهٌ من السماوات السبع والأرضينَ السبع»:

قال الإمام السيوطي في (الدر المنثور: 1/ 298) عند تفسير الآية (126) من سورة البقرة: (أخرج الأزرقي عن مجاهد قال: إن هذا الحرم حرم مناهٌ – هكذا بالهاء لا بالهمز – من السماوات السبع والأرضين السبع، وإن هذا البيت رابع أربعة عشر بيتًا في كل سماء بيت وفي كل أرض بيت، ولو وقعن وقعن بعضهن على بعض).

فالحديث إذن موقوف على مجاهد فهو مقطوع، ولكن له حكم الرفع، وشواهده كثيرة مرّ معنا سابقًا شيء منها.

وهذه الأحاديث: (24، 25، 26، 27) تدلُّ بمجموعها على أن للحديث أصلاً. والله أعلم.

28- حديث: «ما بين الرُّكن والمقام إلى زمزم قبور تسعة وتسعين نبيًّا جاءوا حجاجًا فَقُبِروا هنالك»:

أورد العلماء في تفاسيرهم: القرطبي 2/130، واللباب في علوم الكتاب 2/110 عند الآية 128 من سورة البقرة من قول عبد الله بن ضمرة السلولي، وهو تابعي ثقة، يروي عن أبي هريرة وعن كعب الأحبار رضي الله عنهما. وقد مرَّ معنا الكلام عن مقام الأنبياء في مكة فلا حاجة لتكراره هنا.

ثبت المصادر والمراجع

1 - اختصار علوم الحديث: للإمام أبي الفداء عماد الدين محمد بن إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت:774هـ) وبحاشيته الباعث الحثيث بشرح اختصار علوم الحديث لأحمد محمد شاكر. دار الكتب العلمية - بيروت.

2 - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني. المكتب الإسلامي الطبعة الأولى 1399هـ.

3 - تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي: للإمام الحافظ أبي العلا محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري (ت:1353هـ). المكتبة الفاروقية ملتان - باكستان.

4 - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: للسيوطي (ت:911هـ) حققه عبدالوهاب عبداللطيف. دار الكتب العلمية - بيروت.

5 - التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير: للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني (ت:852هـ) عني بتصحيحه عبدالله هاشم اليماني. دار المعرفة - بيروت.

6 - تهذيب التهذيب: للحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت:582). دار الفكر - بيروت.

7 - تيسير المنفعة بكتابي مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: للأستاذ محمد فؤاد عبدالباقي. دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

8 - جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ لأبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري: (ت: 606هـ) تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط. دار الفكر - بيروت.

9 - سنن ابن ماجه: بتحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا. دار المعرفة - بيروت.

10- سنن ابن ماجه: للإمام محمد بن يزيد الربعي أبي عبدالله بن ماجه القزويني (ت:273هـ)، مع الحاشية للشيخ عبد الغني الدهلوي المسماة بإنجاح الحاجة، وبحاشيته المسماة بمصباح الزجاجة للحافظ جلال الدين السيوطي. قديمي كتب خانة - كراتشي (باكستان).

11 - سنن ابن ماجه: مطبوعة دار سحنون - تونس.

12 - سنن أبي داود مع المراسيل: للإمام أبي داود بتعليق الشيخ فخر الحسن كنكوهي. شركة السعيد - كراتشي (باكستان).

13 - سنن أبي داود: للشيخ الحافظ الحجة الرحالة سليمان بن الأشعث بن شداد أبي داود السجستاني (ت:275هـ) دار سحنون - تونس.

14 - سنن الترمذي: للإمام المحدث أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (ت:279هـ) بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر والدكتور إبراهيم عطوة. دار سحنون - تونس.

15 - سنن النسائي، المجتبي: للإمام الحافظ أبي عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي (ت: 303هـ) مع التعليقات السلفية للأستاذ محمد عطاء الله حنيف الفوجياني الأمرتسري. المكتبة السلفية لاهور - باكستان.

16 - سنن النسائي: بشرح الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي. قديمي كتب خانة - كراتشي - باكستان.

17 - سنن النسائي: بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي بتحقيق مكتب تحقيق التراث الإسلامي. دار المعرفة - بيروت.

18 - شرح السنة: تأليف الإمام المحدث محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت:516هـ) حققه شعيب الأرناؤوط ورفيقه. المكتب الإسلامي - بيروت.

19 - صحيح البخاري: الطبعة السلطانية مأخوذة من النسخة اليونانية.

20 - صحيح البخاري: النسخة المطبوعة دار سحنون - تونس.

21 - صحيح البخاري: بإعداد وترقيم الدكتور مصطفى ديب البغا. دار ابن كثير - دمشق وبيروت.

22 - صحيح البخاري: للإمام الجليل أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (ت: 256هـ) بحواشي الشيخ أحمد علي السهارنفوري النسخة الهندية. مطبوعة دلهي 1357هـ والطبعة الثانية كراتشي في 1381هـ.

23 - صحيح مسلم: النسخة الإستنبولية بحاشية الشيخ الذهني أفندي. مطبوعة دار الفكر - بيروت.

24 - صحيح مسلم: للإمام المحدث أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري (ت:261هـ) مع شرحه الكامل للإمام محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النواوي (ت: 676هـ) النسخة الهندية. الطبعة الأولى بدلهي سنة 1349هـ والطبعة الثانية بكراتشي سنة 1375 هـ.

25 - الطبقات الكبرى: لأبي عبدالله محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري كاتب الواقدي (ت: 230هـ) تصوير - بيروت سنة 1956هـ.

26 - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي: للإمام الحافظ ابن العربي المالكي (ت: 543هـ) إعداد هشام سمير البخاري. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

27 - عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي: لابن العربي المالكي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

28 - عون المعبود بشرح سنن أبي داود: للمحدث أبي الطيب شمس الحق العظيم آبادي (ت: 1329هـ). نشر السنة ملتان - باكستان سنة 1399 هـ.

29- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للإمام الحافظ المتقن شهاب الدين أحمد ابن علي بن حجر العسقلاني (ت: 852هـ)، طبعة بولاق سنة 1301هـ، والطبعة الثانية بدار المعرفة - بيروت.

30 - فتح المنان بمقدمة لسان الميزان: للإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن علي ابن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ) إعداد محمد عبدالرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي - بيروت.

31 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي (ت:807هـ) بتحقيق عبدالله محمد الدرويش. دار الفكر - بيروت.

32 - المستدرك على الصحيحين: لأبي عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم، وبذيله تلخيص المستدرك للذهبي (ت: 748هـ) بتحقيق مصطفى عبدالقادر عطا. دار الكتب العلمية - بيروت.

33 - المسند: للإمام أحمد بن حنبل ترتيب أحمد محمد شاكر. الطبعة الثالثة سنة 1368هـ - دار المعارف.

34 - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف: طبع بمطبعة بريل في مدينة ليدن.

35 - موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف: إعداد أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول. دار الكتب العلمية - بيروت.

36 - النهاية في غريب الحديث والأثر: للإمام مجد الدين المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير (ت: 606هـ) بتحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي. دار الفكر - بيروت.

الفهـــرس

أحـــدث إصـــدارات

الأستــاذ الدكتــور

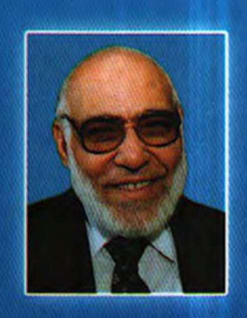
زغلــول النجــار

- صور من تسبيح الكائنات لله.
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية (ثلاثة أجزاء).
- الإعجاز العلمي في السنة النبوية (مجلد).
- المؤامرة «وقفات مع التآمر الصهيوني والدولي على شعب فلسطين».
- الإسلام والغرب في كتابات الغربيين.
- خواطر في معية خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ).
- قضية الإعجاز العلمي للقرآن وضوابط التعامل معها.
- الزلازل في القرآن الكريم.
- رسالتي إلى الأمـة.
- من إسهامات الحضارة الإسلامية.

أولا: في مجال العلوم البحتة والتطبيقية.

- فكرة التطور العضوي في المنظور الإسلامي.







هذا الكتاب يحتوي على سبعين حديثًا من أحاديث رسول الله ﷺ المشتملة على عدد من الإشارات العلمية، وهذه الأحاديث هي مما أوحاه الله الخالق إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، فلابد أن تكون حقًا مطلقًا، ولو أن المسلمين اهتموا بتحقيق تلك الإشارات تحقيقًا علميًا دقيقًا لسبقنا غيرنا في الوصول إلى العديد من حقائق الكون، ولكن الأمة شغلت عن ذلك بأسباب داخلية وخارجية عديدة، فسبقنا غيرنا في مجال العلوم والتقنية، وعلى الرغم من ذلك فإن تحقيق الإشارات العلمية في كل من كتاب الله وسنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وتقديمها إلى الناس بأسلوب علمي منهجي صحيح في زمن التقدم العلمي والتقني الذي نعيشه، يبقى واحدًا من أنجح أساليب الدعوة إلى دين الله باللغة الوحيدة التي يفهمها أهل عصرنا -وهي لغة العلم- كما يبقى وثيقة مادية على صدق نبوة الرسول الخاتم ﷺ، في زمن تكالبت فيه كل قوى الشر في العالم على إنكار سنته؛ تطاولًا على شخصه الكريم ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الناشر



www.nahdetmisr.com

